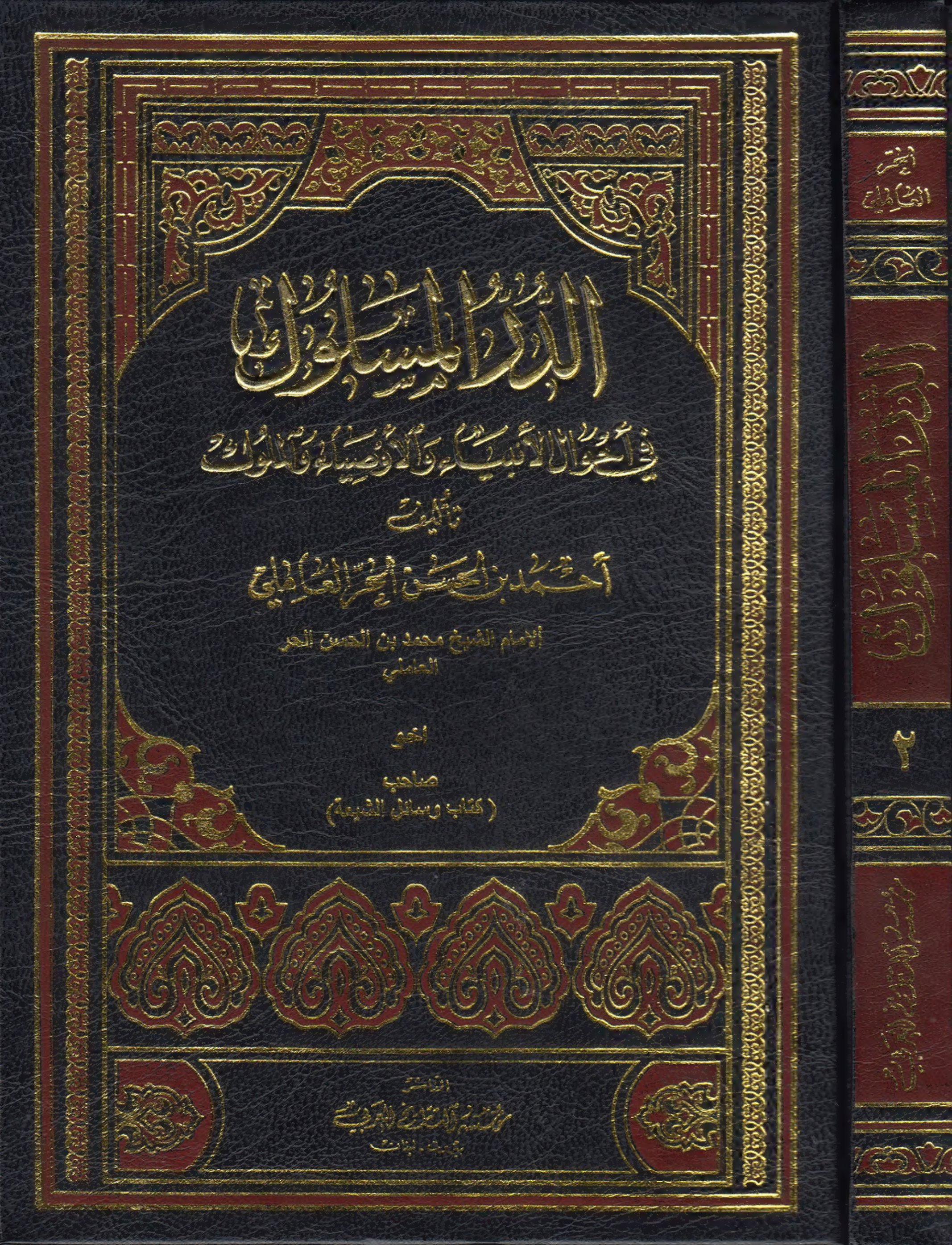
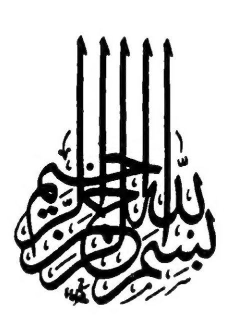

الدر المسلول
في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك
تأليف
أحمد بن الحسن الحر العاملي
الإمام الشيخ محمد بن الحسن الحر
العاملي
أخو
صاحب
(كتاب وسائل الشيعة)
الناشر
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان
الحر العاملي
الدر المسلول
٢
مؤسسة التاريخ العربي

الدُّرُّ المَسْلُوك

في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك



الدر المسلوك

في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك

تأليف

أحمد بن الحسن الحر العاملي

الامام الشيخ محمد بن الحسن الحر
العاملي



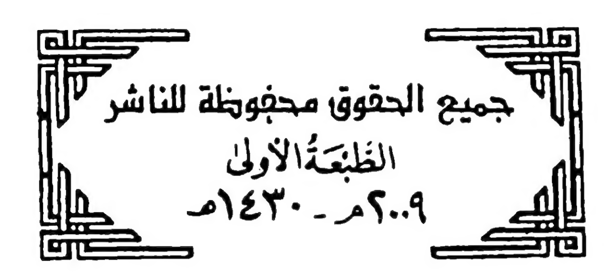
اخو

صاحب

(كتاب وسائل الشيعة)

الجزء الثاني

الناشر
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت - لبنان



دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٠١/٥٤٠٠٠٠ - ٠١/٤٥٥٥٥٩ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

الركن الرابع

في خلفاء المسلمين والحكّام والسّلاطين

[وهذا الركن يشتمل على فصول:

الأوّل

في ذكر أبي بكر بن أبي قحافة

واسمه عبدالله بن عثمان ولقبه عتيق.

قال صاحب الكتاب المشهور بكشكول العلّامة: إنّه ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين، وكان اسمه من حين ولد عبدالعزى، وكنيته أبو فصيل، فسمّاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عبدالله، وكنّاه أبو بكر، فهو عبدالله بن عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وفي مرة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمود النسب. واسم أُمّه سلمى بنت صخر بن عامر، وقال ابن شحنة: لمّا توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اضطرب الخلق وارتجّت مكة وكادوا أن يرتدّوا، فقام سهل بن عمرو على باب الكعبة، ونادى: يا أهل مكة كنتم آخر الناس إسلاماً، فلا تكونوا أوّل من أرتدّ، والله ليتمّن هذا الأمر، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. واختفى عتاب بن أسيد أمير مكة خوفاً على نفسه، وارتدّ أكثر العرب إلّا أهل مكة والمدينة والطائف.

وقال صاحب الكشكول: وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام عند موته: إنّ القرآن الذي أنزل عليّ بين جداري وفراشي، إذا أنا متّ فاجمعه عندك وألّفه كما أنزل، فأقبل علي عليه السلام إلى ما بين جدار النبيّ وفراشه، فجمع القرآن ثم شدّه رباطاً، وختم عليه في ناحية من البيت، ثم قعد عند رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأذن لبني هاشم ونسائهم وأولاهم فدخلوا البيت،

فكانوا يدخلون أفواجاً ويندبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويصلّون عليه ويدعون له ويخرجون ويدخل آخرون إلى أن جاءت الأنصار، فلمّا نظروا إلى بني هاشم ونسائهم وأولادهم ونساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قعدوا يبكون هم والمهاجرين، فلمّا أقبل أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب من جيش أُسامة، ومعهم المغيرة بن شعبة وعبدالرحمن بن عوف، انصرفت الأنصار فلم يبق بباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم أحداً، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وبعثوا إلى سعد بن عبادة وكان عليلاً. ثم قالت الأنصار: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مضى لسبيله ولابدّ للناس من إمارة برّة أو فاجرة، فأمّروا على أنفسكم من يجمع شملكم وينصف مظلومكم من ظالمكم ويقسم فيكم، فتقدموا إلى سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان سيد الأوس النعمان بن بشير، وبشير أبوه كان كارهاً لسعد بن عبادة، فلمّا نظر أبو بكر بن أبي قحافة إلى انصراف الأنصار عن باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال لعمر بن الخطاب: لأمر ما تفرّقوا؟ قال أجل ما تفرّقوا إلّا لعقد يعقدونه، فقال للمغيرة بن شعبة: الحق للأنصار فأتنا بخبرهم، فقام المغيرة بن شعبة نحوهم ثم انصرف، واعلم أبا بكر وعمر باجتماعهم في ظلّة بني ساعدة، وما قد اجتمعوا عليه من تأمير سعد بن عبادة ووقف على كراهية الأوس][1].

فقال عمر لأبي بكر: ما يقعدك؟ ثم أخذ بيده، وقال: قم بنا، فقام معه، وتبعهما المغيرة بن شعبة وأبو عبيدة بن الجرّاح، فقال عمر للمغيرة: إن أقبلت معنا علمت الأنصار أنّك أخبرتنا الخبر، ولكن كن بباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتجسّس عن أخبار علي بن أبي طالب وبني هاشم إلى أن نعود إليك، ثم أقبل عمر مع أبي بكر ومعهما أبو عبيدة حتى انتهوا إلى سقيفة بني ساعدة، والأنصار قد اجتمعوا في السقيفة كافة، وهم يشترطون على سعد بن عبادة، فلمّا صاروا إليهم سلّموا عليهم ثم قعدوا بينهم. فقال أبو بكر: ما هذه الجماعة معاشر الأنصار؟ قالوا: نحن أنصار الإسلام وبنا نصر هذا الدين، وقد مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسبيله ولابدّ من إمارة إما برّة أو فاجرة، فنحن لا ندعها تخرج عنّا إلى غيرنا. فقال أبو بكر: ألم تعلموا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبنا، فقال في خطبته: الأئمة من قريش أبرارها لأبرارها وفجّارها لفجّارها أفمن قريش أنتم، حتى لا تدعوها تخرج عنكم؟ اتقوا الله معاشر الأنصار ولا تدعوا ما ليس لكم، ولا تنازعوا الأمر أهله فتضلّوا فتهلكوا، بايعوا أيّ هذين شئتم، أبا عبيدة بن الجرّاح، أو عمر بن الخطاب، فكل واحد منهما معوّض لصاحبه، ثم أومأ وقال: أما أبو عبيدة فأمين وأما عمر فأعزّ الله به الدين. فقالوا: بل نبايعك أيّها الشيخ المقدم ـ وكان أو بكر أحب إلى المهاجرين والأنصار من عمر بن الخطاب للين جنابه ـ فضرب عمر يده إلى يد أبي بكر وفتحها وصفّق بيده عليها، وقال: السلام عليك يا خليفة المؤمنين. فلمّا نظر الناس، بايع أبو عبيدة

---

(١) بين المعقوفين من نسخة مشهد (قدس رضوي) لسقوطها من نسخة مكتبة السيّد المرعشي.

وأقبل بشير وابنه النعمان فبايعا، وأقبلت الأوس تبايع أبا بكر. واختلف الخزرج فمنهم من بايع أبا بكر ومنهم من توقف عنه، حتى بقي سعد بن عبادة في نفر قليل من أهل بيته. فقال عمر: أنا عذيقها[(١)] المرجب وجذيلها[(٢)] المحكك والله لأردّنها[(٣)]. وارتفعت الأصوات من كل ناحية. وقال قائل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: نحن الأمرآء وأنتم الوزراء، ونحن وأنتم في هذا الأمر سواء، فأقبلت الأيدي إلى أبي بكر تصفّق وتبايعه.

وتوطّؤوا سعداً، فقال بعض أهله: اتقوا الله معاشر الأنصار ولا تقتلوا سيّدكم سعداً. فقال عمر: اقتلوا سعداً، قتل الله سعداً، فلمّا سمعها قيس بن سعد اخترط سيفه. وقال لعمر: والله لو شاكته شوكة لوضعت في أكبرك. فلمّا سمع أبو بكر ذلك خاف الفتنة، فقال: رفقاً يا أبا حفص، إنّ الرفق لم يكن في شيء إلّا زانه، ولا خرج من شيء إلّا شانه. فقال سعد بن عبادة: إنّه أخرق رأس كل بلية، وإمام كل فتنة، فقال أبو بكر: مهلاً فإنّه صاحب رسول الله ﷺ، ومن المهاجرين إليكم، فأحسنوا القول ومجاورة إخوانكم، فإنّا نحسن إليكم ما ملكنا إحساناً إلى أنفسنا؛ ألم نكن نحن وأنتم بالأمس على أمر واحد، فما لنا اليوم لا نكون كما كنّا على أمر واحد؟ فقال قيس بن سعد: لو كنت موضعاً للخلافة ما أمّر عليك رسول الله ﷺ وعلى صاحبيك أبو عبيدة وعمر، أُسامة بن زيد، ولكنّا نخرجك من هذا الأمر كالشعرة من العجين، فرد هذا الذي لم يزل يبغي للإسلام الغوائل، ويعد له المخائل[(٤)]. فقال عمر: أتأذن لي يا خليفة المسلمين في قتله؟ فوالله لئن أذنت لأقتلنّه. فقال أبو بكر: سبحان الله! هؤلاء إخواننا في الأمر وشركاؤنا فيه، فمن أحب معاقدتنا عليه وإلّا لم نكرهه، وأخذ بيد عمر فأقامه، ثم افترقا فاتبعهما جميع المبايعين حتى دخلوا مسجد رسول الله ﷺ.

فصعد أبو بكر المنبر فوقف دون مرقاة رسول الله ﷺ، وخطب ثم نزل وانثال الناس عليه فبايعوه، خلا جماعة من بني هاشم، والزبير بن العوام، وعتبة بن أبي لهب، وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، والبراء بن

---

(١) وعذيق تصغير العذق؛ وهي النخلة. والمرجب ما جعل له رجبة وهي دعامة تبتنى من الحجارة حول النخلة الكريمة إذا طالت وتخوفوا عليها أن تنعقر في الرياح العواصف.

(٢) جذيلها، تصغير الجذل: أصل الشجرة. والمحكك عود ينصب في مبارك الإبل لتتمرس به الإبل الجربى.

(٣) القائل هو: الحباب بن المنذر انظر: صحيح البخاري ٤٥/١٠، مسند أحمد ٥٦/١، البيان والتبيين: ١٨١/٢، تاريخ ابن الاثير: ١٢٦/٢. تاريخ الطبري ٤٥٨/٢.

(٤) المخائل: جمع المخيلة: ما يوقع في الخيال يعني به الامارات. وخلت شيء خيلا ومخيلة: ظننته. (مجمع البحرين ٣٦٨/٥ ـ خيل ـ).

عازب، وأبي بن كعب، ومالوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وتخلّف عن البيعة سعد بن عبادة سيد الخزرج في نفر من أهله وقومه، وأبو سفيان بن حرب، وكان باليمن عاملاً على صدقاتها.

فلمّا ورد ناعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال أبو سفيان: خطب جليل فمن ملك الأمر بعده؟ قالوا: أبو بكر بن أبي قحافة. قال أبو فصيل! قال: نعم. قال: فما فعل بنوا هاشم. قال: الأرض منازلهم. قال: فما فعل أميرهم علي بن أبي طالب وسيفه. قال: لازم بيته متشاغلاً بكتاب الله. فقال: أما والله أنّي لأرى غيره لا يطيقها، والذي نفسي بيده لئن قدمت لأرفعن له أعضائه، ثم قال: يا عجباً من قوم أذلوا رقاب العرب وأشراف قريش، متى كان أبو قحافة في الجاهلية يساوي قريشاً في أنديتها!! فنمت كلمة أبي سفيان.

فقال أبو بكر لعمر: إنّ أبا سفيان هو الذي تعرفه، والله ما كان ينقاد لصاحبنا! فما ترى؟ قال: أقرّه على عمله، فإنّه من أهل الدنيا لا يرى غيرها.

فكتب إليه أبو بكر يقرّه على عمله فأبى وأتى المدينة، فأعرض عن أبي بكر ودخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه جماعة من قومه منتحباً، وفي المسجد بنوا هاشم ومواليهم فقاموا إليه منتحبين، فقال لعلي: ما لهذا الأمر صار إلى أقل قبيلة من قريش، إلى أبي فصيل! والله لئن شئت لأملئنّها عليه خيلاً ورجالاً، ولأفسدنّها عليه من أقطارها. فقال له علي عليه السلام: لا حاجة لنا في خيلك ورجالك.

فكلّم عمر أبا بكر، فقال: إنّ أبا سفيان قد قدم ولا آمن شرّه، فدع ما في يده من مال اليمن فتركه له فرضي.

ولمّا دعاه للبيعة توقف، فجعل أبو بكر يصيح عليه.

فقال أبو قحافة لقائده: على من يصح ابني؟ قال: على أبي سفيان بن حرب، قال: ادنني منه فأدناه، فقال له: يا أبا فصيل على مثل أبي سفيان تصيح! لقد جهلت قدرك وتعدّيت طورك. فقال: يا أبت إنّ الله أعزّ بالإسلام قوماً وأذلّ به آخرون.

قيل أنّ أبا قحافة كان بالطائف لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسل إليه ابنه أبو بكر كتاباً يخبره فيه: أنّ الناس قد اجتمعوا عليه وبايعوه. فقال للرسول: ما منعهم من عليّ؟ قال: هو حدث السن، وقد أكثر القتل في قريش، وأبو بكر اسنّ منه. فقال: إن كان الأمر في ذلك بالسن فأنا أحق من أبي بكر، لقد ظلموا علياً حقه.

ثم أنّ عمر جاء إلى بيت عليّ فلقيته فاطمة عليها السلام، فقال: ادخلوا فيما دخلت فيه الأمّة.

وقام أبو بكر خطيباً وذكر أنّه قلّد أمراً عظيماً ماله به طاقة إلّا أن يقوّمه الله تعالى، ولوددت أن

أقوى الناس عليها مكاني اليوم، فقبل المهاجرون ما قاله واعتذر به. وقيل أنّه قال: لست بخيركم وعليّ فيكم، فقال عمر: لا نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رسول الله فمن يأخّرك.

وروي عن عائشة أنّها قالت: لم يبايع عليّ أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها، فطلب علي أبا بكر إلى منزله فبايعه.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ أبا بكر أتى إلى منزل عليّ، وقال له: والله يا أبا الحسن ما كان هذا الأمر مواطاة منّي، ولا رغبة فيما وقعت فيه ولا حرصاً عليه، ولا ثقة بنفسي فيما تحتاج إليه الأمّة، ولا قوّة لي بمال ولا كثرة العشيرة، ولا ابتزاز له دون غيري، فما لك تضمر عليّ ما لم استحقه منك، وتظهر لي الكراهة فيما صرت إليه، وتنظر إليّ بعين السامة مني؟ فقال له علي عليه السلام: فما حملك عليه إذا لم ترغب فيه، ولا وثقت بنفسك في القيام به؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله لا يجمع أُمّتي على ضلال»، ولمّا رأيت اجتماعهم اتبعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأحلت أن يكون اجتماعهم على غير الهدى، وأعطيتهم قود الإجابة ولو علمت أنّ أحداً يتخلف لامتنعت، فقال علي عليه السلام: أما ما ذكرت من حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تجتمع أمّتي على ضلالة»، أفكنت من الأمّة أنا! أو لم أكن؟ قال: بلى من الأمّة، قال: وكذلك العصابة الممتنعة عليك مثل: سلمان وعمّار وأبي ذر والمقداد وسعد بن عبادة ومن معه من الأنصار؟ قال: كل من الأمّة، فقال علي عليه السلام: فكيف تحتجّ بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمثال هؤلاء قد تخلفوا عنك؟ وليس للأمّة فيهم طعن، ولا في صحبة الرسول، ونصيحته منهم تقصير، قال: ما علمت بتخلفهم إلّا بعد إبرام الأمر، وخفت أن دفعت عني الأمر أن يتقاوم إلي، وأن ترجع الناس مرتدين عن الدين، وكان ممارستكم إليّ أن أجبتم أهون مؤونة على الدين، وأبقى له من ضرب بعضهم بعضاً فيرجعوا كفّاراً، وعلمت أنّك لست بدوني في الإبقاء عليهم وعلى دينهم. قال: أجل، ولكن أخبرني عن الذي يستحق هذا الأمر بما يستحقه؟ قال أبو بكر: بالنصيحة، والوفاء، ورفع المداهنة والمحاباة، وحسن السيرة وإظهار العدل، والعلم بالكتاب والسنة وفصل الخطاب، مع الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها، وإنصاف المظلوم من الظالم القريب والبعيد. فقال علي عليه السلام: أنشدك بالله يا أبا بكر أفي نفسك تجد هذه الخصال أم فيّ؟ قال: بل فيك يا أبا الحسن. وطال الحديث بينهما وآخره أنّهما اتفقا على أمر فلم يتم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وفي ربيع الآخر سنة أحدى عشرة من الهجرة توجّه أسامة بن زيد بعسكره حيث أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن سأله أبو بكر أن يترك عمر عنده ففعل.

وفي أيام أبي بكر ادعت سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية النبوّة وأطاعها بنو تميم

وأخوالها من تغلب وقصدت مسيلمة الكذاب، وباتت عنده ثلاث ليالٍ يزني بها.

وفي أوّل خلافته ظهر مسيلماً الكذاب واستفحل أمره، وهذا مسيلمة كان قد قدم على النبي ﷺ وأسلم، ثم ارتد وادعى النبوّة باليمامة استقلالاً، ثم مشاركة مع النبي ﷺ.

وكتب إليه من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله، أما بعد: فإنّ الأرض نصفها لي، ونصفها لك، فأجاب عليه السلام من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد فـ: **﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**(١).

فجهّز إليه أبو بكر جيشاً وأمر عليهم خالد بن الوليد، وجرى بينهم قتال شديد، ثم قتل مسيلمة وحشي قاتل حمزة بالحربة التي قتل بها حمزة رضي الله عنه، وكان وحشي يفتخر ويقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشرّهم في الإسلام.

واستشهد من الصحابة مائة وخمسون رجلاً وقيل: ستمائة، وقيل: ألف ومائتان، وفتحت اليمامة صلحاً على يد خالد بن الوليد، وكان عبدالرحمن بن أبي بكر مع خالد وكان من أشجع رجال قريش فقتل سبعة من كبار اليمامة.

وأمّا سجاح فلم تزل في أخوالها بني تغلب حتى أتت معاوية عاماً بويع فيه فأسلمت وحسن إسلامها.

قيل وفي أيام أبي بكر جمع القرآن من الجلود والجريد، ووضع في كتاب عند حفصة، فلمّا ولّي عثمان كتب منه نسخاً وفرقها في الأمصار.

وفي أيام أبي بكر بنو يربوع منعوا الزكاة وكان كبيرهم مالك بن نويرة، وكان فارساً مطبقاً شاعراً قدم على رسول الله ﷺ فولاه صدقة قومه، فأرسل إليهم أبو بكر خالد بن الوليد. فقال مالك: إنّي آتي الصلاة دون الزكاة فقال خالد: أما علمت أنّ الصلاة والزكاة معاً؛ لا يقبل أحدهما بدون الأخرى. فقال مالك: لو كان صاحبكم يقول ذلك ثم أعاد هذه الكلمة مرة أخرى. فقال خالد: أو ما تراه لك صاحباً، والتفت إلى ضرار بن الأزور وأمره بضرب عنقه. فالتفت مالك إلى زوجته، وقال لخالد: هذه التي قتلتني ـ وكانت في غاية الجمال ـ فقال خالد: قتلك رجوعك عن الإسلام. فقال مالك: أنا مسلم، فقال خالد: يا ضرار اضرب عنقه فضرب عنقه.

وقنص خالد امرأته قبل استبرائها، وقيل اعتدّت بثلاث حيض وتزوّجها. وأبى ابن عمر وأبو قتادة أن يحضرا النكاح وقيل أراد مالك أن يدفع الزكاة إلى عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وفي ذلك يقول أبو نمير السعدي:

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٨.

ألا قل لحي أوطؤا بالسنابك تطاول هذا الليل من بعد مالك
قضى خالد بغياً عليه بعرسه وكان له فيها هوى قبل ذلك
ومضى هواه خالد غير عاطف عنان الهوى عنها ولا متمالك
واصبح ذا أهل وأصبح مالك إلى غير أهل هالك في الهوالك

وقال بعض قومه:

من كان مسروراً بقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهاري
يجد النساء حواسراً يندبنه قد قمن قبل تبلّج الأسحاري

ورثاه مالكاً أخوه متمم بقصائد عديدة منها قصيدته المشهورة العينية:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأني ومالك لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

فلمّا بلغ ذلك أبا بكر وعمر قال عمر لأبي بكر: إنّ خالداً قتل مسلماً فاقتله، قال: لا ؛ فإنّه تأوّل فأخطأ. قال: إنّه قد زنا فارجمه. قال: لا ؛ إنّه تأوّل فأخطأ. فقال: اعزله. قال: ما كنت أغمد سيفاً سلّه الله عليهم. وسباهم خالد وأخذ علي عليه السلام منهم خولة بنت جعفر بن الحنفية، فولد له منها ابنه محمّد بن الحنفية.

وفي أيام أبي بكر فتحت الحيرة بالأمان على الجزية.

وفي سنة ثلاثة عشر جهّز أبو بكر البعوث إلى الشام وأمر على الجيش جماعة أبا عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وبعث خالد بن الوليد إلى العراق فافتتح الأبلة، وأغار على السواد وحاصر عين التمر[١]، وأوطأ الفرس ذلاً وهواناً ثم خرق السرية إلى الشام. واجتمع المسلمون فكانت وقعة أجنادين بين الرملة وجبرين في جمادى الأوّل، واستشهد فيها جماعة من الصحابة، ثم كان النصر للإسلام وكانت ملحمة عظيمة.

وتوفي أبو بكر ليلة الأربعاء لثمان بقين من جمادى الآخر، وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، وعمره ثلاث وستون سنة، وغسّلته زوجته أسماء بنت عميس، وحمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصلّى عليه عمر في المسجد بين القبر والمنبر، ودفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسب وصيته.

وكان قد عهد لعمر بالخلافة، قيل كان موته بسم سمّته يهودية في أرز، وقيل فى حشو أكله هو

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، (معجم البلدان ٤/١٧٦).

وحارث بن كلدة فماتا بعد سنة.

وعن عائشة أنّه أغتسل بماء بارد في يوم بارد، فحم جسمه خمسة عشر يوماً فمات. وكان حسن القامة خفيف العارضين معروق الوجه غائر العينين والله أعلم.

فصل
عمر

وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رزاح بن قرط بن رياح بن عدي بن كعب، وفي كعب يجتمع مع رسول الله ﷺ في عمود النسب، واسم أُمّه جثيمه أو حنتمة أو بنت هاشم بن المغيرة، واستخلف أبو بكر في جمادى الآخر سنة ثلاثة عشر من الهجرة، وبويع بالخلافة يوم مات أبو بكر بنص أبي بكر، ولم يختلف عليه اثنان، فقال أوّل ما خطب: والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى أخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى أخذ الحق منه.

وذكر أنّه قال: لو ضاعت سخلة بشاطئ الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها.

كان أوّل ما أمر به عزل خالد بن الوليد عن الإمرة، وولّي أبا عبيدة على الجيش وعلى الشام، وهو أوّل من جنّد الأجناد، ودون الدواوين، وأوّل من سمّي أمير المؤمنين.

وفي سنة أربع عشرة فتحت دمشق، فإنّ أبا عبيدة لمّا أولاه عمر سار إليها ونازلها من باب الجابية، ونزل خالد بن الوليد من باب توما، ونزل عمرو بن العاص من ناحية أخرى، وحاصروها نحو سبعين ليلة وفتح خالد ما يليه بالسيف فخرج أهل دمشق وصالحوا أبا عبيدة من الجانب الآخر، فآمنهم ودخل فالتقى هو وخالد وسط البلد.

وأنزلت يوم فتح الشام كل بلاء بأهلها من جنود ضيقوا السبلا

وفيها كانت وقعة جسر أبي عبيد والد المختار وكان من سادة الصحابة فاستشهد فيها هو وجماعة منهم وإليه ينسب الجسر.

وفيها فتحت بعلبك وحمص وهرب هرقل من أنطاكية إلى الرها.

وفيها كانت وقعة مرج الصفر وقيل في العام الماضي.

وفي سنة خمس عشرة كانت وقعة اليرموك في رجب على ما ذكره ابن عساكر، قال: كان المسلمون ثلاثين ألفاً، وكان المشركون أزيد من مائة ألف، قد سلسلوا أنفسهم الخمسة والستة في سلسلة لئلا يفترقوا، فلمّا هزمهم الله كان الواحد يقع في وادي اليرموك فيقع من معه في السلسلة، حتى ردموا الوادي واستوت حافتاه مما قيل وداسهم الخيل، فلمّا فرغ خالد وأبو عبيدة من وقعة

الروم باليرموك قصدا دمشق على ما قيل أنّها كانت سنة ثلاثة عشر.

وفي سنة خمس عشرة كانت وقعة القادسية بالعراق، وقيل في التي قبلها، وقيل في التي بعدها، وكان أمير الناس سعد بن أبي وقاص، ورأس المجوس رستم الأرمنيّ، ومعه الجالينوس وذو الحاجب، وكان المسلمون أرجح من سبعة آلاف، والمجوس سبعين ألفاً أو أربعين ألفاً، وقيل أربعمائة ألف. وكان معهم سبعون فيلاً ودام القتال بينهم أياماً مسمّاه أوّلها يوم أغواث، ثم يوم العماس، ثم ليلة الهرير لتركهم الكلام فيها، ويهرون هريراً ويقتتلون إلى الضحوة الكبرى، وهبت ريح عاصفة، فمال الغبار على الكفار فانكسروا وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم، فهرب ولحقه هلال بن علقمة فأخذ في قتله فقتله، وصعد على السرير ونادى: قتلت رستم وربِّ الكعبة، وقيل بل قتله رجل من بني أسد، وفي ذلك يقول شاعرهم:

قتلنا رستماً وبنيه قسراً تثير الخيل فوقهم الهيالا

وكان رستم من أهل النجدة والقوّة، ذكر عنه أنّه لبس ذات يوم درعاً من حديد ومغفر، وأخذ سلاحه وأمر بفرسه فأسرج وقرب له فوثب عليه دون أن يمسه أو يضع رجله في ركابه.

وكان يزدجرد قد أمره على العسكر الذي وجّهه لحرب سعد بالقادسية، فلمّا قتل رستم تمت الهزيمة على العجم، وقتل الجالينوس وذو الحاجب، ثم حصرهم المسلمون في المدائن وقتلوا منهم مالا يحصى، وانهزم الباقون ورسوا بأنفسهم في نهر العتيق، وقتل منهم ثلاثون ألفاً وكان قد قتل منهم في المعركة نحو عشرة آلاف فارس، سوى من قتل منهم في سائر الأيام، واستشهد عمرو ابن أم مكتوم الأعمى المؤذن بالقادسية، وعليه درع ومعه راية سوداء، ورحل سعد نحو مدائن كسرى ونزل على بهر سيره[1] من دجلة، ودخل المسلمون المدائن وقتلوا كل من وجدوه، وهرب يزدجرد ونزل سعد بإيوان كسرى واحتاط على الأموال من الذهب والفضة والآنية والثياب ما يخرج عن الإحصاء، من جملتها بساط طوله ستون ذراعاً في عرض ستين على هيئة روضة، حكي فيها كل نوع من الزهر بمثله من الذهب والجواهر، فاستوهب سعد ما يخص أصحابه منه، وبعثه إلى عمر بن الخطاب، فقطعه عمر وقسمّه بين المسلمين فباع علي عليه السلام القطعة التي أصابته بعشرين ألفاً.

وفي يوم أغواث خرج القعقاع بن عمرو، وقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه ذو الحاجب وكانت عنده راية كسرى التي كانت من جلود النمور، وكان عرضها ثمانية أذرع في اثني عشر ذراعاً، فقتله

(١) بهر سيره: بالفتح ثم الضم، وفتح الراء، وكسر السين المهملة، وياء ساكنة، وراء: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، ويقال بهر سبر الرومقان. وقال حمزة: بهر سير إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن.

القعقاع، وكان القعقاع يقول فيه أبو بكر: لا يهزم جيش فيه مثل هذا، وحمل القعقاع ذلك اليوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملة رجلاً من أكابرهم، وقاتلوا حتى جنّ عليهم الليل.

وعاهد أبو محجن الثقفي أم ولد سعد أن أرسلته من وثاقه، ليبلين بلاء حسناً في الأعاجم ثم يعود إلى وثاقه ـ وكان قد حبسه سعد في القصر الذي هو فيه على شرب الخمر ـ فقالت له: ما أنا وذلك فانشد:

كفى حزناً أن تردي الخيل بالقنا ... واترك مشدوداً علي وثاقيا

إذا قمت اعناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني قصد المناديا

وقد كنت ذا مال كثير وأخوة ... وقد تركوني مفردا لان خاليا

فأطلقته فركب فرس سعد البلقاء، وخرج فقاتل قتالاً كبيراً أبان فيه عن فرط شجاعته حتى ظنّ الناس أنّه الخضر أو بعض الملائكة.

وقال سعد: لولا مكان أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، ثم رجع أبو محجن ووضع رجليه في قيوده. فلمّا علم سعد بذلك سرّحه من قيوده.

وفي يوم عماس تزاحف الناس بعضهم من بعض، وقد أُصيب من المسلمين ألفان ومن المشركين عشرة آلاف، وسقط عمرو بن معدي كرب الزبيدي عن فرسه، فرمى بيده على رجل فرس من خيل المشركين فما قدر الفرس أن يزول من مكانه، حتى أخذ عمرو صاحبه ورما به الأرض وركبه. فتجالد الناس يوم عماس حتى أتى الليل وتجالدوا طول الليل وهي ليلة الهرير.

وأقام سعد بالمدائن سنة ستة عشر. وأرسل جيشاً إلى جلولاء ـ وسمّيت جلولاء لما تجلّلها من الشر ـ وكان بها جمع عظيم من الفرس، فقتل المسلمون منهم مالا يحصى، وبلغت الغنائم ثمانية عشر ألف ألف، وقيل ثلاثين ألف ألف، وكبر المسلمون وقالوا: هذا ما وعد الله ورسوله.

وفيها مصّر سعد الكوفة، وأمر عمر بالبصرة فاختطت.

وفيها افتتحت الأردن كلها عنوة إلّا طبرية.

قيل: وفيها فتحت حمص صالحهم أبو عبيدة على صلح دمشق، ثم سار إلى حماة فخرجت إليه الروم الذين كانوا بها، فصالحوه ووضع الجزية على رؤوسهم والخراج على أراضيهم، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً وهو الذي بالسوق الأعلى اليوم.

قال ابن واصل كانت حماة مدينة عظيمة في زمن داود وسليمان عليهما السلام وفي زمن اليونان إلّا أنّها

في زمن الفتوح كانت هي وسرمين[١] من عمل حمص.

ثم سار أبو عبيدة إلى سرمين والمعمرة فصالحوه على حكم حماة، وكان يقال لها معرة حمص إلى أن أضيفت مع حمص في خلافة معاوية إلى النعمان بن بشير، فقيل لها معرة النعمان، وقيل إنّما أضيفت إلى النعمان بن المنذر لمّا حكمها. ثم سار أبو عبيدة إلى اللاذقية ففتحها عنوة، وفتح جبلة وطرسوس ثم نزل حلب هو وخالد بن الوليد. وكانت سرمين كرسي المملكة الحلبية وكانت حلب قصبتها، وكان بها جمع عظيم من الروم، وجرى بينهم قتال شديد فنصرت المسلمون على الروم، وصالحوا أهلها بشرط تخريبها فخربت إلى اليوم.

ثم فتح أبو عبيدة حلب وأنطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتيزين وحران، واستولى على الشام من تلك الناحية، وسار خالد إلى مرعش فأجلى أهلها وخربها وفتح الحدث[٢].

وتمّ ذلك كلّه في سنة خمس عشرة فآيس هرقل من الشام وسار من إثرها إلى القسطنطينية، ثم فتحت قيسارية وصبصطية ـ وبها قبر يحيى بن زكرياعليهما السلام ـ، ونابلس، والأردن، وملك أبو عبيدة البلاد جميعها، وعصى بيت المقدس فطال حصاره وطلب أهله الصلح على يد عمر بن الخطاب، فأرسل إليه أبو عبيدة فاستخلف عليّاًعليه السلام على المدينة الشريفة، وحضر عمر وفتح القدس بعون الله تعالى، واستدل على موضع هيكل بيت المقدس فنظّفه من الزبائل وعمّره وبنى به مسجداً.

ورجع إلى المدينة ووضع الدواوين وفرض العطاء للمسلمين، فبدأ بالعباس رضي الله عنه ففرض له خمسة وعشرين ألفاً، ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف، ولمن بعدهم إلى الحديبية، وبيعة الرضوان أربعة أربعة، ولمن بعدهم ثلاثة ثلاثة، ولأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، ولمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً.

وفي سنة ستة عشر اعتمر عمر ووسّع المسجد الحرام، وهدم منازل قوم أبو أن يبيعوها وجعل ثمنها في بيت المال، وتزوج أم كلثوم بنت علي وفاطمةعليهما السلام.

وفيها اختطّت الكوفة وتحول سعد إليها.

وفيها فتح المسلمون الأهواز وتستر، وكان المتولي عليهما الهرمزان عظيم الفرس، ونزل من قلعته على حكم عمر فأرسل به إليه مع أنس بن مالك والأحنف بن قيس وجماعة، فلمّا وصلوا به إلى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب وتاجه المكلل باليواقيت ودخلوا، فوجدوا عمر

---

(١) قرية غرب حلب على مسافة خمسين كيلو متراً منها.

(٢) في النسخة الخطية الحدب، والصحيح ما اثبتناه، انظر: الكامل في التاريخ: ١/٤٢٥.

والحدث هي بحيرة قرب مرعش من اطراف بلاد الروم (معجم البلدان للحموي ١/٤٥١).

نائماً في المسجد في زي فقير غريب، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فجلس عمر وقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه، ونزع ما عليه وألبسه قميصاً ضيقاً، وجرى الكلام بينهما وطلب الهرمزان ماء فأتى به، فقال: إني أخاف أن تقتلني وأنا أشرب؟ فقال: لا بأس عليك حتى تشرب، فرمى بالإناء فانكسر، فقصد عمر قتله. فقالت الصحابة: إنّك أمّنته بقولك لا بأس عليك حتى تشرب، ولم يشرب ذلك الماء. فأسلم الهرمزان وفرض له عمر ألفين، وبقي إلى أن قتله عبدالله ابن عمر لظنّه أنّه أعان على قتل عمر.

وفي سنة ثمان عشرة افتتحت حران، ونصيبين، وسمساط، والموصل والسوس وجند يسابور[1] وأكثر ذلك على يد عياض بن غنم الفهري.

وفي سنة تسع عشرة كانت وقعة أرمينية وأُصيب فيها صفوان بن المعطل الذكواني.

وفي سنة عشرين سار عمرو بن العاص من الشام فافتتح بعض ديار مصر وحاصر غزة، فبعث إليه علجها[2] أن تبعث إلي رجلاً من أصحابك أكلّمه، ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري، فخرج عمرو حتى دخل على العلج، فكلّمه كلاماً لم يسمع مثله. فقال له العلج: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل من استخفافهم بي بعثوني إليك وعرضوني لما عرضوني، ولم يدرون ما تصنع بي، فأمر له بجوائز كثيرة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ماله، فخرج من عنده ومرّ برجل من نصارة غسان معرفة له. فقال له: يا عمرو احسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع عمرو. فقال له العلج: ما ردّك إلينا؟ فقال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمّي، فأردت أن أتيك بعشرة منهم، تعطيهم مثل هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة منا، خير من أن يكون عند واحد، فطمع فيهم العلج، فقال: صدقت عجّل بهم، ثم بعث إلى البواب إذا وصل إليك فخلي سبيله، فخرج عمرو وهو يتلفت حتى آمن. فقال: لا عدت لمثلها أبداً. فلمّا صالحه عمرو ودخل عليه العلج، قال: أنت هو؟ قال: نعم، على ما كان من غدرك.

واختط عمرو مصراً وبنى الجامع المعروف به الآن موضع فسطاطه.

وفي سنة إحدى وعشرين كانت وقعة نهاوند واستشهد فيها النعمان بن مقرن وطلحة بن خويلد الأسدي، وكان يعد بألف فارس.

---

(١) جند يَسَابُورُ: بضم أوله وتسكين ثانيه وفتح الدال وياء ساكنة وسين مهملة وألف وباء موحدة مضمومة وواو ساكنة وراء. مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنُسبت إليه وأسكنها سَبْيَ الروم وطائفة من جنده معجم البلدان: ٢/٢٠.

(٢) العلج: الرجل الضخم من كفار العجم. مجمع البحرين ٢/٢٣٠ (علج).

وفيها شكى أهل الكوفة سعداً فعزله عمر، وولي عمار بن ياسر الصلاة وعبدالله بن مسعود بيت المال.

وفي سنة اثنين وعشرين فتحت آذربيجان والري وجرجان وقزوين وزنجان وطبرستان، وسار عمرو بن العاص إلى برقة[١] وصالح أهلها على الجزية، وسار إلى طرابلس الغرب وفتحها عنوة، وسار الأحنف بن قيس إلى خراسان وافتتح هراة عنوة، ثم سار إلى مرو، وهرب يزدجرد إلى بلخ ولحقه المسلمون فعبر نهر جيحون واختلفت عليه عساكره وانضم غالبهم للمسلمين.

وفي سنة ثلاث وعشرين قتل عمر بن الخطاب طعنه ـ عبد المغيرة بن شعبة ـ فيروز ويكنّى أبو لؤلؤة بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح، وضرب في المسجد ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فأقبل رجل من بني تميم يقال له خطاب، فألقى عليه كساء ثم احتضنه، فلمّا علم أنّه مأخوذ نحر نفسه، وكان قد شكا إلى عمر مولاه المغيرة، وأنّه يحمله مائة درهم في الشهر، فقال: ليس هذا بكثير لما معك من الصنائع، ثم قال له: ألم أخبر عنك أنّك تقول لو شئت لعملت رحى تطحن بالريح؟ قال: نعم. قال: فاعملها لي. فقال: لأعملن لك رحاً يسمع بها أهل المشرق والمغرب ـ وهو يعني قتله ـ وانصرف. فقال عمر: لقد أوعدني العلج آنفا فلمّا كان بعد أيام، كمن له في المسجد وقت صلاة الصبح، وضربه في وسطه ست ضربات بخنجر كان له رأسان، إحداهن على سرته وهي التي قتلته. وكان كعب بن مالك الذي يقال له كعب الأحبار قد أنذر عمر بما يحدث عليه من طعن أبي لؤلؤة قبل ثلاثة أيام، وزعم أنّه يجد في التوراة قتله. فقال: أنّى لي بالشهادة. فلمّا طعن عمر دخل عليه كعب فلمّا رآه عمر أنشأ يقول:

فأوعدني كعب ثلاث أعدها ... ولا شك أن القول ما قاله كعب
ومابي حذار الموت إني لميت ... ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

فقيل له استخلف فقال: أتحملها حياً وميتاً أن استخلف فقد استخلف من هو خير منّي يعني أبا بكر، وأن أترك فقد ترك من هو خير منّي يعني رسول الله ﷺ على زعمه، ثم جعلها في ستة من قريش في عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف ومضى لسبيله، وكان طعنه لست بقين من ذي الحجة، وقيل لأربع منه، وقيل لثلاث، وتوفي يوم السبت سلخ ذي الحجة، ودفن يوم الأحد مستهل المحرم سنة أربع وعشرين. قال بعضهم: وناحت عليه الجن قبل موته بثلاث.

وقال الكفعمي في مصباحه: طعن عمر في سابع وعشرين ذي الحجة ومن زعم أنّه قتل يوم

(١) بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية. معجم البلدان ٣٨٨/١.

التاسع من ربيع الأوّل فقد أخطأ.

وقال محمّد بن إدريس في سرائره: من زعم أنّ عمر قتل فيه فقد أخطأ بإجماع أهل التواريخ والسير.

وكذلك قال المفيد في كتاب التواريخ: وإنّما قتل عمر يوم الاثنين الاربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، نص على ذلك صاحب الغرة، وصاحب المعجم، وصاحب الطبقات، وصاحب كتاب مسار الشيعة، وابن طاووس، بل الإجماع حاصل من الشيعة والسنة على ذلك.

وكانت مدة خلافته عشر سنين وستّة أشهر وثمانية أيام، ودفن عند النبيﷺ، وكان عمره ثلاث وستين سنة، وقيل خمساً وخمسين، وقيل ستين. وكان أبيض أطلع، أشيب طويل القامة. هو أوّل من نهى عن بيع أُمهات الأولاد، وجمع الناس على أربع تكبيرات في صلاة الجنازة، بعد أن كانوا يكبرون أربعاً وخمساً وستاً، وأوّل من جمع الناس على إمام فصلى بهم التراويح، وأوّل من عس بالليل، وأوّل من حمل الدرة[1].

فصل
عثمان

وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يجتمع مع رسول الله ﷺ في عمود النسب، واسم أُمه أروى بنت بحر.

بويع بالخلافة بعد ثلاث من المحرم سنة أربع وعشرين، بايعه عبدالرحمن بن عوف، ثم الناس بعدما اجتمعوا الستة الذين عيّنهم عمر في بيت فترك الزبير ما خصه به عمر من الخلافة لعليّ، وترك طلحة لعثمان، وترك سعد لعبدالرحمن، فقال عبدالرحمن: مد يدك يا عليّ أبايعك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر. فقال: بل بسيرة رسول الله ﷺ فتغامزوا وقالوا: قد عرفنا فضله وعلمنا أنّه أحقّ الناس بها؛ ولكنّه رجل لا يفضّل أحداً على أحد، فإن وليتموها أياه جعلكم وجميع الناس فيها شرع، فولوها عثمان. فقال عبدالرحمن: مد يدك يا عثمان أبايعك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فمدها فبايعه وبايعوه وبايع له سعد بن أبي وقاص، فرقا عثمان المنبر وحمد الله وتشهد ثم أرتج، فقال أوّل كلام صعب وأن أعش فستاتيكم الخطب على وجهها، ثم نزل وأقر

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٧٨.

ولاة عمر سنة لأنه كان قد أوصى بذلك، ثم عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبي قاص، ثم عزله وولاها الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أخاه لأُمه أروى.

وفي سنة خمس وعشرين انتقض أهل الري فغزاهم أبو موسى الأشعري، وانتقض أهل الاسكندرية فغزاهم عمرو بن العاص.

وفيها فتحت سابور على يد عثمان بن أبي العاص وصالحهم على ثلاثة آلاف ألف درهم وثلاثمائة ألف درهم.

وفي سنة ست وعشرين زاد عثمان في المسجد.

وفي سنة سبع وعشرين أركب معاوية بالجيش في البحر، وغزا قبرص وحاصرها وفتحها صلحاً على سبعة آلاف دينار في كل سنة وقتل وسبى كثيراً. وصالح أبو موسى أهل أرجان على ألفي ألف درهم.

وفي سنة ثمان وعشرين أو في التي قبلها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر، وولاها عبدالله بن أبي سرح أخاه من الرضاعة ففتح عبدالله إفريقية.

وفيها انتقض أهل آذربيجان فغزاهم الوليد بن عقبة ثم صالحوه.

وفي سنة تسع وعشرين عزل عثمان أبو موسى الأشعري عن البصرة وولاها خاله عبدالله بن عامر بن كوز، فافتتح اصطخر وغيرها، ثم عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة بسبب أنّه شرب الخمر وصلى بالمسلمين الصبح أربعاً، ثم التفت فقال: هل أزيدكم؟ فقال ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم.

وفي سنة ثلاثين نسخ عثمان المصاحف لما بلغه ما وقع من الاختلاف في القرآن، وقيل أنّه أحرق مصحف عبدالله بن مسعود وضرب عمار بن ياسر، وسأل طلحة من علياًعليه السلام عن القرآن الذي عنده بخط يده، فقال: يا طلحة فاخبرني عمّا كتب عمر وعثمان القرآن كلّه، أم فيه ما ليس بقرآن؟ قال: بل قرآن كلّه. قال: إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ودخلتم الجنة، فإنّ فيه حجتنا وبيان حقنا وفرض طاعتنا. فقال طلحة: أما إذا كان قرآناً كلّه فحسبي.

وعن زيد بن ثابت قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نؤلّف القرآن من الرقاع، أنّه قال: «طوبى للشام قيل ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: إنّ ملائكة الرحمان باسطة أجنحتها عليها». فإن صح الخبر فقد ألف القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفيها سقط من عثمان خاتم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بئر أريس.

وفيها فتحت خراسان وفارس وسجستان وكثرت الفتوحات، واتخذ عثمان الخزائن وقسم

الأموال بين المسلمين، فكان يأمر للرجل بمائة ألف درهم.

وفي سنة إحدى وثلاثين هلك يزدجرد آخر ملوك الفرس، وصارت مملكة الفرس من أكبر ممالك الإسلام، كما قال صلى الله عليه وآله: «لو كان العلم في الثريا لنالته رجال من فارس»[١].

وفيها كانت غزوة الأساودة.

وفي سنة اثنين وثلاثين فتحت نيسابور، وسار معاوية وتوغّل في الروم حتى انتهى إلى الكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم. فقال له ابن عباس: ليس لك ذلك، قد منع الله تعالى من هو خير منك. فقال: **﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾**[٢]، فلم يسمع فبعث أناساً فلمّا [دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم][٣].

[وفيها توفي العباس عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي سنة ثلاث وثلاثين تكلّم جماعة من الكوفة في حق عثمان وأنكروا عليه جماعة من أقاربه لا يصلحون.

وقال الناس في عثمان كما روي في كشف الغمة: أنّ عائشة وحفصة ـ هما اللتان شهدتا على فاطمة عليها السلام بقوله: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ـ ومالك بن أوس النضري، ولمّا ولي عثمان قالت له عائشة: أعطني ما كان يعطني أبي وعمر؟ فقال: لا أجد له موضعاً في الكتاب ولا في السنة، ولكن كان أبوك وعمر يعطيانك عن طيبة أنفسهما، وأنا لا أفعل. قالت: فاعطني ميراثي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: أليس جئت وشهدت أنتِ وصاحبتك ومالك بن أوس النضري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، فأبطلت حق فاطمة وجئت تطلبينه! لا أفعل. فكان إذا خرج إلى الصلاة نادت وترفع القميص أنّه قد خالف صاحب هذا القميص. فلمّا آذته صعد المنبر، وقال: إنّ هذه الزعراء عدوّة الله ضرب الله مثلها ومثل صاحبتها حفصة في الكتاب **﴿امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ـ إلى قوله ـ وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾**[٤]، فقالت له: يا نعثل يا عدو الله إنّما سمّاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعثل اليهودي الذي باليمن، فلاعنته ولاعنها وحلف أن لا تساكنه بمصر أبداً، وخرجت إلى مكة وقالت: اقتلوا

---

(١) الكشاف ١٠٢/٤، مجمع البيان ٩ ـ ٢٨٤/١٠.

(٢) سورة الكهف: ١٨.

(٣) تغليق التعليق لابن حجر ٢٤٤/٤، مجمع البيان للطبرسي: ٣٢٢/٦. وما بين المعقوفين اضفناه من المصدر لسقوطه من النسخة الخطية المعتمدة.

(٤) سورة التحريم: ١٠.

نعثلاً، قتل الله نعثلاً، فلقد أبلى سنة رسول الله ﷺ، وهذه ثيابه لم تبل وخرجت إلى مكة.

وروي أنّه لمّا قتل جاءت إلى المدينة فلقيها فلان فسألته عن الأحوال فخبرها، وقال: إنّ الناس قد اجتمعوا على عليّ. فقالت: والله لأطالبن بدم عثمان، فقال لها: فأنت حرصت على قتله! قالت: إنّهم لم يقتلوه حيث قلت، ولكن تركوه حتى تاب ونقي من ذنوبه وصار كالسبيكة وقتلوه.

قال ابن شحنة: وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا المسلمون قبرص ثانياً.

وفي سنة أربع وثلاثين قال المؤيد: أقطع عثمان مروان بن الحكم فدك صدقة رسول الله ﷺ، ولم تزل في يد مروان وبنيه إلى أن ردّها عمر بن عبدالعزيز.

وفيها توفي المقداد بن الأسود، والأسود كان قد تبنّاه، فلمّا ذهبت الناس لآبائهم كما أمر الله تعالى سمّي المقداد بن عمرو، وكان عمره نحو سبعين سنة.

وفيها كانت غزوة ذي الصواري في البحر من ناحية اسكندرية، وأميرها ابن أبي سرح.

وفي سنة خمس وثلاثين كانت غزوة ذي خشب وعلى الناس معاوية.

وفيها توفي عامر بن ربيعة حليف بني عدي. وفي أواخرها قدم المدينة من مصر جمع دون الألف، وكذلك من الكوفة، وكذلك من البصرة، فلمّا جاءت الجمعة قام عثمان على المنبر فثاروا عليه وحصبوا الناس وعثمان، حتّى خرّ على المنبر مغشياً عليه وحمل إلى داره. وقاتل عن عثمان ذلك اليوم سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة، حتى أرسل عثمان يعزم عليهم بالانصراف فانصرفوا. وصلى عثمان بعد ذلك ثلاثين يوماً بالناس ثم منعوه، وصلى بالناس العاص ولزم أهل المدينة بيوتهم، وعثمان محصور في داره، وقام ذلك أربعين يوماً أو خمسين يوماً، ثم وقع الاتفاق على ما طلبه الناس منه من عزل مروان عن كتابته، وعبدالله بن أبي سرح عن مصر، فأجاب وولي محمّد بن أبي بكر مصر، وعزل عبدالله بن أبي سرح وتفرق الناس عنه، ثم اجتمع مروان بعثمان فردّه عن عزله من كتابته.

وتوجّه محمّد بن أبي بكر بعد ذلك إلى مصر في عدة من المهاجرين والأنصار، فبينما هم في أثناء الطريق، وإذا هم بعبد على هجين يجهده، فقالوا له: إلى أين تريد؟ فقال: إلى عامل مصر. فقالوا: هذا عامل مصر ـ يعنون محمّد بن أبي بكر ـ فقال العبد: بل العامل الآخر، فأمسكوه فوجدوا معه كتاباً عليه ختم عثمان، يقول فيه: إذا جاءك محمّد بن أبي بكر ومن معه بأنّك معزول، فلا تقبل واحتل لقتلهم وقرّ في عملك.

فرجع محمّد ومن معه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة، وجمعوا الصحابة وأوقفوهم على الكتاب، فاعترف عثمان بالختم وحلف بالله أنّه لم يأمر بذلك، فطلبوا منه مروان ليسلّمه إليهم

فامتنع، فخنقوا وجدوا في قتاله وأقام علي ابنه الحسن يذب عنه، وأقام الزبير ابنه عبدالله يذب عنه، وأقام طلحة ابنه محمّداً يذب عنه، فسورت الجموع على عثمان، ونزل عليه جماعة منهم فقتلوه، وكان حين قتل صائماً يتلو القرآن في المصحف، وكان مقتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين][1].

وقال حسان بن ثابت:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يـقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمان

وقال أيمن بن خريم:

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم يخشوا على مطمح الكفر الذي طمحوا

تفاقد الذابحو عثمان صاحبه فأي ذبح حرام ويحهم ذبحوا

وأي سنة جور سن أولهم وباب كفر على سلطانهم فتحوا

ماذا أرادوا اضل الله سعيهم بسفك ذاك الدم الزاكي الذي سفحوا

وكانت مدة خلافته اثني عشرة سنة إلّا اثني عشر يوماً. وكان عمره خمساً وسبعين سنة، وقيل اثنين وثمانين، وقيل تسعين، وقيل مولده قبل مولد النبي صلى الله عليه وآله بسبع سنين، ومكث ثلاثة أيام لم يدفن ثم أمر علي عليه السلام بدفنه.

وكان معتدل القامة، حسن الوجه، رقيق البشرة به أثر جدري، عظيم اللحية، أسمر اللون، أصلع، يصفر لحيته، كثير شعر الرأس، أقنى، ليس بالطويل ولا بالقصير، هكذا ذكره ابن قتيبة في المعارف.

وذكر ابن عبد ربه: أنّه كان أبيض مشرباً بصفرة، كأنّه فضة وذهب، حسن القامة، حسن الساعدين، بسط الشعر، أصلع الرأس، أجمل الرجال إذا اعتمّ، مُشرف الأنف، عظيم الأرنبة، كثير شعر الساقين والساعدين، ولمّا أسنّ شدّ أسنانه بذهب[2].

وكان كاتبه مروان بن الحكم، وقاضيه زيد بن ثابت. وكان يكنّى بأبي عمرو وأبي عبدالله وأبي ليلى، وسمّي بذي النورين؛ لأنه كان تحته بنتان لرسول الله صلى الله عليه وآله وهما رقية وأم كلثوم، وهو أوّل من هاجر إلى أرض الحبشة ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم هاجر إلى المدينة.

وبويع بالخلافة أمير المؤمنين عليه السلام وبقي فيها خمس سنين إلّا ثلاثة أشهر، ومضى إلى جوار الله،

---

(١) بين المعقوفين من نسخة مكتبة «قدس رضوي»، لسقوطه من النسخة المعتمدة.

(٢) العقد الفريد: ٢/٨٧.

وبويع بعده ابنه الحسن عليه السلام وبقي في الخلافة ستة أشهر، ثم انتزعها معاوية وقد قدّمنا فصليهما بعد الأنبياء عليهم السلام.

فصل
معاوية

وهو معاوية ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف، وفي عبدمناف يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب، وأُمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وذكر أنّها أنذرت به قبل مولده بمدة، وقيل لها إنّك تلدين ملكاً يقال له معاوية، وكان من خبّرها أنّها كانت عند الفاكه بن المغيرة المخزومي قبل أبي سفيان، وكان له بيت للضيفان تغشاه الناس فيه بغير إذنه، فقعد أحد الأيام في ذلك البيت ومعه هند، ثم خرج عنها وتركها فيه نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت فدخل فلمّا رآها نائمة ولّى خارجاً، فاستقبله الفاكه فدخل عليها فنبّهها، وقال لها: من هذا الذي خرج من عندك؟ فقالت له: ما انتبهت حتى نبهتني. فقال لها: الحقي بأهلك، فخاض الناس في أمرهم، حتى قال لها أبوها عتبة: انبئيني شأنك، فإن كان صادقاً مشيت إليه من يقتله، وإن كان كاذباً حاكمته عند بعض كهان اليمن. قالت: والله يا أبت إنّه لكاذب، فخرج عتبة إلى الفاكه، فقال له: إنّك رميت ابنتي بأمر كبير، فأمّا بيّنة، وأمّا حاكمتك إلى بعض كهان اليمن. فقال له الفاكه: لك ذلك، فخرجا إلى الكاهن، ومع كل واحد منهما جماعة من قومه رجال ونساء.

فلمّا شارفوا بلاد الكاهن تغيّر وجه هند. فقال لها أبوها: ألاكان هذا قبل خروجنا وقبل أن يشتهر أمرنا في الناس؟ قالت: والله ما ذلك بمكروه قبلي ولكنا نأتي بشراً يخطئ ويصيب، ولعله يسمني بميسم يبقى على ألسنة الناس، قال لها: صدقتي ولكنّي سأختبره، فصفر لفرسه فأدلى فعمد إلى حبة بر فأدخلها في إحليل الفرس ثم اوكأ عليها، فلمّا نزلوا على الكاهن. قال له عتبة إنّا أتيناك في أمر عظيم، وقد خبأت لك شيئاً اختبرك به فما هو؟ قال: حبة من الثمر في كمره، قال ابن ابن[1]، قال: حبة بر في إحليل مهر. قال: صدقت فانظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يمسح على رأس كل امرأة منهن، ويقول: قومي لشأنك حتى بلغ هند، فمسح على رأسها، وقال لها: قومي غير رشحا ولا زانية، وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فلمّا خرجت أخذ الفاكة بيدها فأزالت يدها من يده، وقالت: والله لأحرصنّ أن يكون الولد من غيرك، فطلّقها الفاكة. فقالت لأبيها: إنّك زوجتني ولم تؤامرني في

---

(١) هكذا في المخطوط، وفي المعجم الكبير للطبراني وتاريخ دمشق: (أريد ابين من هذا).

نفسي، فعرض ما ترى؛ فلا تزوجني زوجاً حتى تعرض علي خصاله، فخطبها بعد ذلك سهل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتاك سهل وابن حرب وفيهما رضاً لك يا هند الهنود ومقنع
فما فيهما إلّا كريم مرزأ وما منهما إلّا أغر سميدع
فدونك فاختاري فأنت بصيرة ولا تخدعي إن المخادع يخدع

قالت: فسر لي خصالهما؟ فبدأ بذكر سهل بن عمرو، فقال: أما أحدهما فإنّه وسيطاً في العشيرة إن تابعتيه تابعك، وإن ملت عنه خطأ عليك، تحكمين عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب الحسيب، والرأي الأريب، مطاع عند قومه وعشيرته، شديد الغيرة كثير الطيرة لا ينام عن ضيعة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

قالت: أمّا الأوّل فسيّد مظيع للحرّة؛ فما عسيت أن يبلغني فأطو عنّي ذكره. وأمّا الآخر فبعل الفتاة الظريفة الحرة العفيفة؛ وإنّي التي لا تريب له عشيرة فتغيره ولاتصبه بذعر فتطيره، فزوجنيه فزوجها من أبي سفيان واسمه صخر.

قالوا: وكان أعز فتاً بمكة. يقال: أنّه أهديت للكعبة جزائر من أحد ملوك الهند، وقال: لا ينحرها إلّا أعز من بمكة؟ فقالت له هند: ـ وهو في سابعه معها ـ أخرج لئلا يسبقك أحد إلى هذه المكرمة؟ فقال لها: دعيني وشأني والله لا ينحرها أحد إلّا نحرته، فربطت الجزائر بفناء الكعبة حتى خرج من سابعه فنحرها. فولدت له معاوية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله بسنتين.

وكان علي عليه السلام أكبر منه بثمان سنين، وامتنع من طاعته وقت خلافته وحاربه بصفين، وبويع معاوية بالخلافة سنة أربعين من الهجرة بعد وفاة علي عليه السلام بستة أشهر.

وكان داهية يحسن سياسة الملك ويغلب حلمه على ظلمه.

دخلت عليه أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب، فقال لها: مرحباً بك يا خالة، كيف حالك؟ فقالت: بخير يا ابن أخي، لقد كفرت النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وسمّيت بغير اسمك، وأخذت غير حقّك، وكنّا أهل بيت أعظم الناس في هذا الدين بلاء، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله مشكوراً سعيه، مرفوعاً منزلته، فوثبت علينا بعده بنو تيم وعدي وأُميّة، فابتزونا حقنا ووليتم علينا، فكنّا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى.

فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك. فقالت: وأنت يا ابن النابغة تتكلم وكانت أُمك أشهر بغي بمكة وأرخصهن أجرة، فادعاك خمسة من

قريش كل يقول: هو ابني فسألت أُمك عن ذلك، فقالت: كلّهم أتوني فانظروا أيهم أقرب شبهاً به، فكان أقربهم بك شبهاً العاص بن وائل فألحقوك به.

فقال لها معاوية: عفى الله عمّا سلف هاتي حاجتك؟ فقالت: أريد ألفي دينار أشتري بها عينا فوارة وأرضاً حوارة، تكون لفقراء بني عبدالمطلب، وألفي دينار أخرى أزوج بها فقراء بني الحارث، وألفي دينار أخرى استعين بها على شدة الزمان، فأعطاها ستة ألاف دينار وانصرفت.

ولقى رجلاً من شيعة علي عليه السلام اسمه نحيل[1] خارج دمشق متوجهاً من الكوفة إلى بيت المقدس، فسأله عن علي فمدحه وأثنى عليه. فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم؛ ولكن زدني معرفة. فقال: أنا الشعشعة المضية، والدرة السنية، أنا سيد بني أُمية. قال: لعلك الدعي، وابن عدو النبي، وابن آكلت كبد الزكي. قال: ومن تعني بقولك هذا؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، فانقلبت عينا معاوية في أُم رأسه. وقال: يا شيخ قل خيراً فإنّك مقتول. قال: قتل من هو شرّ منك من هو خير مني، فعفا عنه وأحسن إليه[2].

وقال المسعودي: دخل ابن عباس على معاوية، فقال له: يا ابن عباس ما تقول في أبي بكر؟ قال: رحم الله أبا بكر، كان والله للفقراء رحيماً وللقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً، وعن المنهيات زاجراً، وبالمعروف امراً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً، وسادهم زهداً وعفافاً. قال: فما تقول في عمر؟ قال: رحم الله أبا حفص، كان والله حليف الإسلام مأوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف الضعفاء، ومعقل الحنفاء، قام بحق الله صابراً محتسباً، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وآمن العباد. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: رحم الله عثمان، كان والله أكرم الحفدة، وأفضل البررة، هجاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، ناهضاً إلى كل مكرمة، سباقاً إلى كل منجية، صاحب جيش العسرة، وحمو رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال فماذا تقول في علي؟ قال: رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحل الحجى، وبحر الندى، وطود النهى للورى، داعياً إلى المحجة العظمى، مستمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارتدى، وأبر من تنفل وسعى، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكبر من شهد النجوى سوى الأنبياء والنبي المصطفى، صاحب القبلتين فهل يوازنه أحد؟ وهو أبو السبطين فهل يقاربه بشر؟ وزوج خيرة النسوان فهل يفوقه فاضل؟ وهو للأسود قاتل، وفي الحرب خاتل، لم ترعيني مثله، فعلى من يبغضه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة.

---

(١) في المصدر (جبل)، وما اثبتناه من المصدر.

(٢) الفضائل لابن شاذان: ٧٧ بتفاوت يسير.

فقال معاوية: يا ابن عباس! لقد أكثرت في ابن عمك، أنا أعلم أنك كلماني أهل بيتك. قال: ولم لا أكون كذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، ثم قال: يا معاوية، إنّ الله تعالى خص محمداً ﷺ بصحابة آثروه على الأنفس والأموال، وبذلوا النفوس دونه في كل حال، ووصفهم الله في كتابه فقال: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾[١]، قاموا بمعالم الدين وناصحوا الاجتهاد للمسلمين، حتى تهذبت طرقه وقويت أسبابه، وظهرت آلاء الله، واستقر دينه ووضحت أعلامه، وأذل الله بهم الشرك وأزال رؤوسه ومحا دعائمه، وصارت كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية والأرواح الطاهرة العالية، فقد كانوا في الحياة لله أولياء، وصاروا بعد الموت أحياء، وكانوا لعباد الله نصحاء، دخلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها، وخرجوا من الدنيا وهم بعد فيها. فقطع عليه معاوية الكلام، وقال: يا ابن عباس! خذ بنا غير هذا[٢].

وفي سنة ثلاث وأربعين فتحت الرحج من أرض سجستان.

وفيها مات عمرو بن العاص.

وفي سنة أربع وأربعين فتحت كابل، وغزا المهلب أرض الهند. واستلحق معاوية زياد وأثبت نسبه من أبي سفيان بن حرب، بشهادة أبي مريم الخمار أنّه زنا بسمية البغية وحملت منه وجاءت بزياد، وأعظم الناس ذلك وشق ذلك على بني أمية، وكان زياد ثابت النسب من عبيدالرومي. ثم ولاه معاوية البصرة والكوفة وسجستان[٣] وخراسان والهند والبحرين وعمان، فلمّا وصل زياد إلى العراق وجد أهلها على فسوق وفساد يفسقون ويسرقون، فقصد المسجد فرقا المنر وخطب، وقال: في آخر خطبته والله لإن خرج أحد بعد العشاء الآخرة لأضربن عنقه، فليعلم الشاهد الغائب. ثم أمر منادياً ينادي ثلاثة أيام، ثم خرج في الليلة الرابعة وذلك بأصحابه وقد بقى من الليل ثلث، فجعل يطوف بحال البلاد فرأى رجلاً غريباً من العرب، وقد تقدم بغنم له وهو قائم في بعض الطرق. فقال له زياد: ما تصنع هنا؟ قال: دخلت مساءً ولم أجد موضعاً أنزل به، فوقفت مكاني إلى أن أبيع

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) مروج الذهب ١/١٨٨.

(٣) في المخطوط (سامنان)، والصحيح سجستان.

غنمي. فقال له: إنّك لصادق، إن أطلقتك ليشيع الخبر عنّي أنّ زياد يقول مالا يفعل، فتفسد سياستي وتقل حرمتي وتنكسر هيبتي، والجنة خير لك من مقامك هنا، ثم ضرب عنقه. وجعل يدور في البلاد فكل من وجده ضرب عنقه، فقطع في تلك الليلة ألف وخمسمائة رأس رجل، وظلم وفجر وقويت شوكة معاوية حتى قيل:

غصبت أمية أرث آل محمّد ... سفهاً وشنت غارة الشنآن
وغدت تخالف في الخلافة أهلها ... وتقابل البرهان بالبهتان
وأتى زياد في القبيح زيادةً ... تركت يزيد يزيد في الطغيان
وتنقلوا في رتبة نبوية ... لم يبنها لهم أبو سفيان

وكان معاوية وعمّاله يسبّون علياًعليه‌السلام على المنابر، وكان من عادة حجر بن عدي إذا سبوا علياًعليه‌السلام عارضهم وأثنى عليه، ففعل ذلك في أمرة زياد بالكوفة فأمسكه وأرسل به جماعة من أصحابه إلى معاوية، فأمر بقتله وقتل ثمانية من جماعته، فقتلوا بقرية عذراء قرب دمشق ـ رحمهم الله تعالى ـ وعظم ذلك على المسلمين.

قال عكرمة: دخلت على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكي ويقرأ قوله تعالى: **﴿وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ** ـ إلى قوله ـ **فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾**[1]، ثم قال: قد علمت أنّ الله تعالى أهلك الذين أخذوا الحيتان، وأنجا الذين نهوهم، ولا أدر ما صنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية، وهذا حالنا[2].

وقيل أنّه قدم على معاوية ونهاه عن سب علي، فقال: هيهات يا ابن عباس هذا أمر دين أليس قد فعل علي وفعل وذكر كل ما كان بينه وبينه، فقال له ابن عباس: أولا لك فأولى يا معاوية الموعد القيامة ولذلك قيل:

أبدلوا الودّ والحفيظة في القر ... بى وأبدت ضبابها النافقاء
وقست منهم قلوب على من ... بكت الأرض فقدهم والسماء

روي عن الشافعي أنّه قال: أسر إلى الربيع أن أربعة من الصحابة لم تقبل لهم شهادة معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد[3].

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) بحار الأنوار ٦١/١٤.

(٣) خزانة الأدب: ٢٨٥/٢، المختصر في أخبار البشر: ١٢٩/١.

وفي سنة خمس وأربعين غزا معاوية بن خديج إفريقية.

وفي سنة ست وأربعين كانت الوقعة بين الربيع بن زياد الحارثي والترك على سبب فانهزم الترك.

وفي سنة سبع وأربعين جمعت الترك فالتقاهم عبدالله بن سوار العبدي ببلاد القيقان فاستشهد عبدالله، وغزا رويفع بن ثابت طرابلس المغرب(١).

وفي سنة ست وخمسين بايع معاوية بالخلافة لولده يزيد وامتنع عن البيعة الحسين بن علي عليه السلام، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن الزبير.

وفيها ولي خراسان سعد بن عثمان بن عفان، وغزا سمرقند وعزل بعد سنة. وأضيفت خراسان إلى عبيدالله بن زياد.

وفي سنة ستين مات معاوية وكان عمره خمساً وسبعين سنة، وولي بعده من بني أُميّة ثلاثة عشر خليفة، مدة ولاية الجميع ألف شهر ولي معاوية فيها تسعة عشر سنة وثلاثة أشهر، وكان قبلها أميراً على الشام عشرين سنة، استعمله عمر أربع سنين، واستمر مدة خلافة عثمان نحو اثني عشر سنة، ومتغلباً أربع سنين وتسع أشهر، وهو أوّل من حوّل الخلافة ملكاً، وأوّل من بايع لولده، وأوّل من وضع البريد، وأوّل من جعل المقصورة في المسجد.

وقال للأحنف بن قيس: كيف الزمان؟ فقال الأحنف: الزمان أنت إن صلحت أصلح وإن فسدت فسد. إنّ الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور؛ لأنّ العدل يضئ نوره، ويلوح من مسيرة ألف فرسخ، والجور يتراكم ظلامه، ويسود قتامه من مسيرة ألف فرسخ(٢).

وبعضهم لا يعد معاوية من الخلفاء لقوله عليه السلام الخلافة بعدي ثلاثون سنة وقد تمت بعلي عليه السلام(٣).

فصل
يزيد وابنه

وهو يزيد بن معاوية ربي في بني كلب مع أُمه ميسون بنت بحدل الكلبية لمّا طلقها معاوية حين سمعها تنشد:

للبس عباءة وتقر عيني	أحب إليّ من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرياح فيه	أحب إليّ من قصر منيف

---

(١) العبر في خبر من غبر: ٩/١.

(٢) التبر المسبوك في نصيحة الملوك ٣٠/١.

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ٥٤/١، تاريخ اصفهان: ١٢٦/١.

وبكـر يـتبع الأظعان صعب — أحب إليّ مـن بـغل زفـوف
وكـلب ينبح الأضياف دونـي — أحب إليّ مـن هـر ألوف
وخـرق من بـني عـمي فـقير — أحب إليّ مـن عـلج عـليف

فقال لها معاوية: ما رضيت يا بنت نجدل حتى جعلتيني علجاً، ألحقي بأهلك فمضت إلى كلب ويزيد معها فلمّا كبر استعمله معاوية على حمص.

فلمّا حضرته الوفاة كتب إليه، أما بعد: يا بني فقد قرب منّي ما بعد، والموت مفرق بين الأحبة، فإذا قرأت كتابي هذا فسر إليّ عاجلاً فإنّي ميّت لا محالة. فلمّا وصل البريد بالكتاب إلى يزيد بكى وأنشأ يقول:

جـاء البـريد بـقرطاس يـحث بـه — فأوجس القلب من قرطاسه جزعا
قلنا له الويل ماذا في صحيفتكم؟ — قال الخـليفة أمسـى مـدنفا وجـعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بـنا — لطـود غـلب مـن اطـودها انـقلعا
لما وصلت لباب القـصر ادهشـني — بكـاء رمـلة كـاد القـلب يـنصدعا
ولا أبـالي إذا عـاينت طـلعته — من غاب من هاشم بدر ومن طلعها
ذاك ابن هند الذي تخشى بوايقه — لو قارع الناس عن أحسابهم قـرعا

ثم خرج يزيد على البريد إلى دمشق ودخل دار أبيه، فقيل لمعاوية هذا ولدك يزيد قد أقبل، ففتح عيناه ونضر إليه ثم أخرج من كان عنده، ودنا يزيد من أبيه وقبل ما بين عينيه وجعل يوصيه.

قال الضحاك بن قيس الفهري: كنت حاضراً ذلك اليوم فوقفت عـلى بـاب البـيت، فسـمعت معاوية يوصي لولده يزيد ويقول: يا بني إنّ خير الأشياء التوفيق والرضا بالمقادير وقد قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[١]، ولو خلد في الدنيا أحد لخلد محمّد المصطفى سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله.

واعلم يا بني أنّه قد دنا أجلي وقرب مرتحلي، وإنّي موصيك بوصية إن حفظتها لم تزل بخير، فاحفظ وصيتي ولا تنقض عهدي.

فقال يزيد: يا أبتي أوصني فإنّي لوصيتك حافظاً ولعهدك راع.

قال: يا بني عليك بأهل الحجاز، فإنّهم منك وأنت منهم، فمن قدم عليك منهم فأكرمه، ومن غاب عنك فافتقده، وعليك بأهل الشام فإنّهم جلدة ما بين عينيك، إن دهمك عدو فسر بهم إليه، فإذا أنتصرت بهم فردّهم إلى بلادهم، فإنّهم متى صاروا في غير بلادهم تخلقوا بغير اخلاقهم.

---

(١) سورة الرحمان: ٢٦ ـ ٢٧.

وانظر إلى أهل العراق في أمورهم، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل العامل أهون عليك من شق العصا والعداوة الشحناء. ألا وأني قد وطئت لك البلاد وذللت لك الرقاب الصعاب من العباد، ولست أخشى عليك بعد وفاتي إلّا من أربعة نفر، لا يبايعونك على هذا الأمر ولا يتابعونك.

قال: يا أبتاه من هؤلاء الأربعة؟

قال: عبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، والحسين بن علي بن أبي طالب، فأمّا عبدالرحمن بن أبي بكر فإنّه رجل ترضيه بالدنيا فارضيه بالمال، وأما عبدالله بن عمر فإنّه رجل صاحب قرآن ومحراب فدعه وذاك، وإن لم يبق أحداً غيره لم يبايعك، وأمّا الذي يجاثيك مجاثات الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فعبدالله ابن الزبير فإن جانبك فجانبه، وإن جاذبك فجاذبه، وإن سالمك فسالمه، وإن ظفرت به فقطعه أرباً أرباً، وأمّا الحسين بن علي فإنّه ستدعوه الناس من المتعصبين، حتى يخرجوه عليك وربما نصروه، فإن ظفرت به فاحفظ قرابته من رسول الله ﷺ واعلم أنّ جدّه خير من جدك، وأبوه خير من أبيك، وأُمه خير من أمك، وبجده استنقذنا الله من الظلالة إلى الهدى، وعرّفنا الحلال من الحرام، وبلّغنا الدرجة العليا والمرتبة الرفيعة المنيعة من الملك والسلطان، يا بني كيف تحكم من بعد وفاتي؟

قال: أحكم بكتاب الله وسنة نبيّه محمّد ﷺ.

قال: يا بني إنّ أبا بكر ولي هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ، فسار في الناس بالرفق ولين الجناب، فخرج من الدنيا والناس عنه راضون، ثم وليه عمر بن الخطاب وكان قويّاً في ذات الله حسن السيرة، فسلك مسلك أبو بكر وصارت إلى أبيك من بعد أربعة نفر، تقدموني فوليتها بالحلم والسخاء والتدبير والاحتمال.

ثم قضى معاوية نحبه وقدم على عمله في شهر رجب سنة ستين.

فبويع ولده يزيد بالخلافة، وصلى على أبيه ودفنه ودخل إلى منزله فلم يظهر للناس ثلاثاً.

فلمّا كان في اليوم الرابع خرج اشعثاً أغبراً، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه، ثم قال: معاشر الناس إنّ معاوية كان حبلاً من حبال الله مدّه ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من كان قبله وخير من يكون بعده، إن يغفر الله له فهو أهله، وإن يعذبه فبذنبه، وقد ولاني هذا الأمر من بعده، وأمرني أن أحسن إلى محسنكم وأتجاوز عن مسيئكم، ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم، فعلى رسلكم فإنّ الله إذا أراد شيئاً كان، ثم نزل عن المنبر وعزّاه الناس في أبيه، فكان أحسنهم قولاً عبدالله بن هلال السلولي، فقال: آجرك

الله يا أمير المؤمنين على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فلقد رزئت عظيماً، وأعطيت جزيلاً جسيماً، فاشكر الله على عطيته، واصبر على رزيته، واحمده على ما أسدلك من مواهبه، واستعن به على نوائبه، ثم أنشأ يقول:

أصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة   واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا
لا رزء أعظم للأقوام ان علموا   مما رزئت ولا عقبى كاعقباكا
أصبحت أنت أمير الناس كلهم   وأنت ترعاهم والله يرعاكا

فرتب العمال وأمر الأمراء.

فأرسل أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام ليبايعوه، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل فبايعه ثلاثون ألفاً منهم، فكان من أمرهم ما قدّمنا ذكره في الركن الثاني من هذا الكتاب.

وفي سنة اثنين وستين اتفق أهل المدينة المنورة على خلع يزيد لقلة دينه، وأخرجوا نائبه عثمان بن محمّد بن أبي سفيان منها.

ودخلت سنة ثلاث وستين فجهز يزيد جيشاً مع مسلم بن عقبة فسار إليها في عشرة آلاف فارس، وحاصرها وعمل أهل المدينة خندقاً، وجرى قتال شديد قتل فيها الفضل بن العباس، وربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب، وجماعة من الأشراف والأنصار، ثم انهزم أهل المدينة وأباح مسلم المدينة لعسكره ثلاثة أيام، يقتلون الناس وينهبون الأموال ويفسقون في النساء، وبايع من بقي بها من الناس على أن يكونوا عبيداً ليزيد كل ذلك حسب وصية يزيد، وكانت الوقعة يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة، وتعرف بالحرة لأنهم التقوا بظاهر المدينة الشريفة. ثم سار مسلم بالجيش إلى مكة، فهلك في الطريق في أوّل سنة أربع وستين وأقام مقامه الحصين بن نمير، ومن أقبح القبائح أنّه استباح المدينة وشهد الوقعة وهو مريض في محفة، فلم يمهله الله عزّ وجلّ ولا مرسله يزيد بل هلك بعد بضعة وسبعين يوماً.

ووصل الحصين إلى مكة وحاصر عبدالله بن الزبير بمكة أربعين يوماً حتى جاءه الخبر بموت يزيد، فارتحل نحو الشام بعد أن رمى الكعبة بالمنجنيق وأحرقها بالنار.

روي في الفقيه أنّه لمّا حج يزيد ورجع من حجه مرتحلاً إلى الشام أنشأ يقول عند الجبل المعروف بثافل:

إذا تركنا ثافلاً يمينا   فلن نعود بعده سنينا
للحج والعمرة ما بقينا

فأماته الله قبل أجله. وكانت وفاة يزيد بحوارين من عمل حمص في ربيع الأوّل سنة أربع وستين، وعمره ثمانية وثلاثون سنة، ومدة خلافته ثلاث سنين ونصف، وخلف عدة بنين وبنات،

وكان شاعراً فصيحاً فاسقاً قبيحاً، فمن شعره في غلام:

دعوت بماء في إناء فجاءني غلام بها خمراً فأوسعته زجراً
فقال هو الماء القراح وإنما تجلى له خدي فأوهمك الخمرا

وقال في امرأة:

لها حكم لقمان وصورة يوسف ومنطق داود وعفة مريم
ولي ضر أيوب ووحشة يونس وأحزان يعقوب وحسرة آدم

من قصيدة. ولمّا هلك يزيد بويع بالخلافة ولده معاوية ـ وكان شاباً ديناً ـ فلم تكن ولايته إلّا أربعين يوماً، وقيل تسعين، وقيل شهرين أو أقل، ومات وعمره أحدى وعشرين سنة، وكان قبل مرضه جمع الناس وقال لهم: قد ضعفت عن أمركم فاختاروا من شئتم. فقيل: إنّ أُمه قالت له: ليتك كنت حيضة، فقال: ليتني كنت حيضة ولا علمت إنّ الله خلق جنة وناراً، وتغيّب في منزله حتى مات.

فبايع الناس عبدالله بن الزبير. فهدم الكعبة في سنة أربع وستين لإنّ حيطانها كانت قد مالت بسبب رمي المنجنيق، وأعادها على ما كانت عليه أولاً وأدخل الحجر فيها.

فصل
في مروان

وهو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، وفي عبدمناف يجتمع مع رسول الله ﷺ في عمود النسب، ذكر أنّه لمّا مات معاوية بن يزيد وبايع الناس لعبدالله بن الزبير قام مروان بن الحكم بالشام، واجتمعت عليه بنو أمية وجرت بينهما حروب، قتل فيها الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن سعد بن حارث بن فهر، يكنّى أبا أنس. قال ابن عبدون:

وعممت بالردى فودى أبي أنيس ولم ترد الردى عنه قنا زفر

وكان الضحاك يدعو عبدالله بن الزبير، وكان زفر بن الحرث معه وكان من فرسان وقته المشهورين في الحرب، وكان مروان بن الحكم يدعو لنفسه، فجمع كل واحد منهما أصحابه والتقيا بمرج راهط[1]، وكان أصحاب الضحاك ستين ألفاً أكثرهم فرسان، وكان أصحاب مروان ثلاثة عشر

(١) مرج راهط: موضع في الغوطة من دمشق، بها الوقعة المشهورة بين قيس وتغلب.

ألف أكثرهم رجّالة، فقاتلا بمرج راهط عشرين يوماً، وكان مع مروان عبيدالله بن زياد، فقال له: إنّ الضحاك أكثر منا عدّة وعدداً ومعه فرسان قيس، ولست تنال منه ما تريد إلّا بالخديعة وإنّما الحرب خديعة، فادعهم إلى الموادعة فإذا أمنوا كررنا عليهم، فأرسل مروان إلى الضحاك يدعوه إلى الموادعة حتى ينظر في أمره، فأصبح الضحاك وأصحابه القيسية قد اطمأنوا وطمعوا أن يبايع مروان لابن الزبير، فلمّا علم مروان أنّهم قد اطمأنوا هجم عليهم ففزع الناس إلى راياتهم على غير هبة، فنادى الناس أبا أنيس أعجزاً بعد كيس! فقتل الضحاك قتله زحمة بن عبدالله الكلبي وكان قتله سنة أربع وستين من الهجرة. وفرّ زفر بن الحرث الكلابي عنه، ومعه رجلان فأدركا وقتلا، ونجا زفر على فرس كان تحته فقال:

لعمري قد أبقيت وقعة راهط ... لمروان صدعاً بيناً متنائياً
فلم تر مني زلة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبي ورائيا
أيذهب يوماً واحداً إن أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا
أيترك كلب لم تنله رماحنا ... وتذهب قتلى راهط وهي ما هيا

وآخر الأمر أنّه استقر عبدالله بن الزبير خليفة على الحجاز والعراق واليمن، ومروان بن الحكم خليفة على الشام ومصر.

وفي سنة خمس وستين مات مروان بن الحكم، خنقته زوجته أم خالد بن يزيد بن معاوية، وصاحت مات فجأة ودفن بدمشق وعمره ثلاث وستون سنة، ومدة خلافته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وبويع ابنه عبدالملك في ثالث رمضان منها.

فصل
عبدالملك بن مروان

وهو أولّ من سمّي عبدالملك في الإسلام، وكان مظفراً على أعدائه، غلب على عبدالله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعبدالرحمن بن الأشعث، وكل واحد منهم قامت له معه قائمة وكلهم قتلوا في أيامه.

ويؤيد هذا خبر الرجل الذي ورد على معاوية من أهل الكتاب والعلم بالحدثان. فقال له معاوية: أتجدني في شيء من كتب الله؟ فقال له: إي والله، حتى لو كنت في أُمة من الأمم لوضعت يدي عليك من بينهم، فقال: كيف تجدني؟ قال: أوّل من يحول الخلافة ملكاً، والخشونة ليناً، ثم أنّ ربّك

من بعدها لغفور رحيم، فقال له معاوية: ثم ماذا يكون؟ قال: يكون منك رجلاً شرّاب للخمر، سفّاك للدم، يصطنع الرجال، ويحجر على الأموال، ويجنب الخيول، ويبيح حرمة الرسول، قال: ثم ماذا؟ قال: إنّما تكون فتنة تتشعب بقوم حتى يفضي، الأمر إلى رجل أعرفه بعينه، يبيع الآخرة الدائمة بحظه من الدنيا، فيجتمع عليه الأمر وليس منك، ولا يزال لعدوه قاهراً، وعلى من ناواه ظاهراً، ويكون له قرين مبير، فقال له معاوية: فتعرفه؟ قال: إذا رأيته نعم، فأراه جميع بني أمية الذين كانوا بالشام، فقال: ما أراه هاهنا، فوجهه نحو المدينة مع جماعة من رسله يثق بهم، فبينما هو يمشي في أزقة المدينة إذ رأى عبدالملك بن مروان يلعب بطائر على يده، فقال لهم: ها هو ذا! صاح به ما كنيتك، قال: أبو الوليد، قال: يا أبا الوليد إن بشرتك ببشارة تسرك ما يكون لي عندك؟ فقال: وما مقدارها؛ حتى أرى مقدارها من الجعل؟ قال: إن تملك الأرض، قال: مالي من مال، ولكن أرأيت إن تكفلت لك بجعل أيكون ذلك قبل وقته؟ قال: لا ، قال: فإن أحرمتك أيؤخر ذلك عن وقته؟ قال: لا ، قال: فحسبك[1].

قالوا: وكان عبدالملك من أكثر الناس علماً، وأبرعهم أدباً، وأحسنهم ديانة في صبوته، وكان يواظب المسجد حتى سمّي ـ حمامة المسجد ـ وكان له في وقت شبابه ونسكه صديق من أهل الكتاب، يقال له: يوسف، وكان قد أسلم، فقال له عبدالملك يوماً وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة إلى المدينة ـ كما قدمنا ـ: ألم تر إلى خيل عدوا الله كيف تقصد حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال له يوسف: جيشك والله إلى حرم الله أكثر من جيشه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عبدالملك: العياذ بالله! فقال له يوسف: والله ما قلت شاكّاً ولا مرتاباً، وأنّي لأجدك بجميع أوصافك، قال عبدالملك: فيكون ماذا؟ قال: تبدوا لها رهطك إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان، فكان كما قال.

وكان عبدالملك من أهل الحزم، وكان يقال في بني أمية أجلسهم معاوية وأحزمهم عبدالملك.

وبويع عبدالملك بالخلافة في ثالث رمضان سنة خمس وستين، فلمّا سلم عليه بالخلافة أوّل تسليمة ـ والمصحف في حجره فاطبقه ـ وقال: هذا فراق بيني وبينك، واستتبت له الأمر بمصر والشام.

وفي سنة ست وستين قام المختار بالكوفة طالباً بدم الحسين عليه السلام، وبايع الناس بها. وطلب الشمر فقيل له أنّه بدجلة بني غسان فسار إليه في أربعة آلاف فارس فخرج إليهم وهو يقول:

قصدتموا ليثا هزبرا قاتلي ... في كفه سهم يدق الكاهل

---

(١) الكامل في اللغة والأدب: ١/٢٤٩.

ما بارزته يوم عضب عصبة إلّا راته كالشجاع القائل
فان شككتم في مقالي فاسألوا عني من شئتم من القبائل
لا أرهب الموت ولا أحذره في كل حرب ومقام هائل
كم قد رميت في القبور من فتاً يصدع بالهندى والذوابل

فبرز إليه إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي وهو يقول:

لجحت في البغض لآل المصطفى ولم يكن فعلك فعل عاقل
ياكذب الامة يا نسل الخنا يابن الكلاب الفسق الاراذل
لاجعلن مغنمي ومكسبي قتلك فابشر بحسام قاتل
واعلم بأني أخذ بثأر من فضله الله على الأفاضل
ثار الحسين بن علي المرتضى سيد كل فارس وراجلي

ثم حمل عليه وضربه بعمود من حديد فكسر صلبه ووقع إلى الأرض، فأخذه أسيراً ورجعوا به إلى الكوفة، وعذّبوه بأنواع العذاب إلى أن مات وأحرقوه بالنار.

وبعث المختار إلى خولى بن يزيد الأصبحي فقتله وأحرقه بالنار، وأمر بحرملة بن الكاهل فقطع يديه ورجليه وحرقه. وكتب كتاباً إلى ابن الزبير، وقال لحامل الكتاب: إذا جئت مكة ودفعة الكتاب فأت المهدي محمّد بن الحنفية فأقرء السلام عليه وقل له: يقول لك أبو إسحاق أنّي أحبّك وأحبّ أهل بيتك، فلمّا جاء وقال له ذلك، قال محمّد بن الحنفية: كذب أبو إسحاق لو كان كذلك ما أجلس عمر بن سعد على وسائده وهو قاتل الحسين عليه السلام! فلمّا بلغه الرسول ذلك قتل عمر بن سعد، ثم قال لولده حفصا: أتحب أن تلحق به؟ قال: لا خير في العيش بعده، فقتله وبعث برأسه ورأس أبيه إلى محمّد بن الحنفية بالحجاز.

وأرسل الجنود لقتال عبيدالله بن زياد مع إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي، فانهزمت أصحاب ابن زياد وأخذهم السيف إلى الليل، فلمّا أصبح الصباح قال إبراهيم: إنّي قتلت البارحة رجلاً جائني منه رائحة المسك، وقد قسمته نصفين فرميت بذراعيه نحو المشرق وبرجليه نحو المغرب، وما أراه إلّا ابن مرجانة، فالتمس في القتلى فلقوه كما ذكر لهم، فأتوه برأسه فبعث به وعدة رؤوس إلى المختار. فبعث به المختار إلى علي بن الحسين عليه السلام بالمدينة.

قال الرسول: فقدمت به عليه وهو يتغدى فلمّا رآه قال: سبحان الله لقد أدخل رأس أبي عبدالله الحسين عليه السلام على ابن زياد وهو يتغدى، وانتقم الله للحسين عليه السلام.

وفي سنة سبع وستين ولي عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً البصرة، وطلب المهلب بن أبي صفره

من خراسان وأمرهما بالمسير معاً لقتال المختار بالكوفة فحصروا المختار، فقال لأصحابه: انزلوا بنا نقاتل حتى نموت أو يفتح الله لنا فضعفوا عن ذلك وعجزوا، فقال لهم المختار: أمّا أنا فلست أعطي يدي ولا أحكمهم في نفسي، وتغسل وتحنط وخرج في تسعة عشر رجلاً فقاتل حتى قتل وكان الذي قتله ضرار بن يزيد الحنفي، ونزل أصحابه فقتلهم مصعب جميعهم وكانوا سبعة آلاف.

وفي سنة سبعين غدر عبدالملك بعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وذبحه، وكان قد وثب في التي قبلها على دمشق وأراد الخلافة لنفسه فجرى بينهما قتالاً ثم اصطلحا بعد أن حصر عمرو بن سعيد ونزل إليه بالأمان.

وفيها ثارت الروم على المسلمين فصالحهم عبدالملك على ألف دينار في كل جمعة، وكان ذلك أوّل وهن دخل على الإسلام لاختلاف الكلمة.

وفي سنة إحدى وسبعين سار عبدالملك نحو مصعب فتعلقت به زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية وجعلت تبكي حتى بكى خدمها لبكائها، فقال عبدالملك: قاتل الله كثيراً كأنّه يرى يومنا هذا حيث قال:

إذا مـا أراد الغـزو لم يـثن هـمه	حـصان عـليها نـظم درٍ يـزينها
نـهته فـلما لم تـر النـهي عـاقه	بكت فـبكا مـما شجاها قـطينها

ثم خرج يريد مصعباً وكثير في موكبه، فقال له عبدالملك: يا أبا جمعة ذكرتك الساعة ببيتين من شعرك فإن أصبت ما هما فلك حكمك، قال: نعم أردت الخروج فبكت عاتكة بنت يزيد وبكى حشمها فذكرت قولي إذا ما أراد الغزو لم يثن همه وأنشده البيتين. قال: نعم فأعطاه ما طلب.

ثم نظر إليه وهو يسير في عرض الناس مفكراً، فقال عليّ بأبي جمعة فجيء به، فقال له: إن عرفتك بفكرتك فيما هي فلي حكمي؟ قال: نعم. قال قلت: في نفسك أنا في سوء حال خرجت مع رجل من أهل النار ليس علي ولا لي، وربما أصابني سهم فانقلب بغير معنى، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت مما في نفسي شيء فاحتكم الآن، قال: حكمي يا كثير أن أمر لك بعشرة آلاف درهم وأردك إلى منزلك، ففعل به ذلك وزحف نحو مصعب وزحف مصعب نحوه فالتقيا بالحاقول[1].

وفي سنة اثنين وسبعين التقى الجمعان ووقع القتال، وكان عبدالملك قد كاتب أصحاب مصعب ووعدهم الأماني إن غدروا بمصعب ورجعوا إليه، وكان من جملتهم إبراهيم بن مالك

---

(١) هكذا رسمها، وفي تاريخ اليعقوبي، والمنتظم، والمختصر: دير الجاثليق عند نهر الدجيل، وفي تاريخ الطبري: دير الجانليق.

الأشتر فجاءه بالكتاب بطابعه وأقرءه أياه، فإذا فيه من عبدالملك بن مروان إلى فلان وهو يعده فيه بولاية العراق إن غدر بمصعب ورجع إليه، فقال إبراهيم: ماكتب إلي عبدالملك إلّا وقد كتب إلى جميع أصحابك، وماكان في أحد منهم أقل طمعاً منّي مما كان فيّ، فهل أطلعك أحد منهم على ذلك؟ فقال: لا . قال: فارسل إليهم فاضرب أعناقهم فإنّهم ماكتموا عنك خبر كتبهم إلّا وقد عزموا على غدرك. فقال مصعب: لا أفعل هذا من غير أن يصح عندي. قال: فارسل إليهم واجعلهم في القيود حتى يصح ذلك. قال: إذاً لا تناصحنا عشائرهم فلمّا وقع القتال برز إبراهيم فقاتل حتى قتل، فقال مصعب: لقطن بن عبدالله الحارث أحمل عليهم يا أبا عبدالله في خيلك، قال: ما أرى ذلك، قال: ولم؟ قال: لأنّي أكره أن أقتل مدحجاً في غير شيء، فقال لحجار بن أبجر العجلي: يا أسيد قدّم رايتك، قال: التقدم إلى هؤلاء لؤم. فقال: ما نتأخر عنه فإنّه والله أكره لؤماً.

ثم قال لمحمّد بن عبدالرحمن: تقدّم، فقال: لا أرى أحداً يفعل ذلك فافعله أنت. فنافق قوم مصعب عليه، فقال مصعب: يا إبراهيم ولا إبراهيم لي اليوم، وعلم أنّه كان له ناصحاً بما أشار عليه.

ثم قال لابنه عيسى: يا بني الحق بمكة فاخبر عمك بما صنع أهل العراق فيّ ودعني فإنّي مقتول. فقال: والله لا تحدث قريش أنّي أسلمتك إلى القتل أبداً. قال: فتقدم يا بني بين يدي احتسبك فإنّي كنت أعرف فيك إمارة الكرم وأنت في مهدك فتقدم فقاتل حتى قتل.

فحول أهل العراق وجوههم وصاروا مع عبدالملك، وبقي مصعب في شرذمة قليلة، وجاءه عبيدالله بن زياد بن ظبيان وكان من أصحابه، فقال: أين الناس أيّها الأمير؟ قال: غدركم يا أهل العراق، فرفع عبيدالله يده ليضربه فبدره مصعب وضربه على البيضة فنشب السيف في البيضة فجاء غلام لعبيدالله فضرب مصعباً فقتله، ثم جاء عبيدالله برأسه لعبدالملك بن مروان وهو يقول:

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا ... وليس علينا قتلهم بمحرم

فلمّا نظر عبدالملك إلى رأس معصب خرّ ساجداً. فقال عبيدالله: ما ندمت على شيء كندمي على عبدالملك حين خرّ ساجداً إذ لم أضرب عنقه فأكون قد قتلت مَلِكي العرب في يوم واحد، وفي ذلك يقول:

هممت ولم أفعل وكدْتُ وليتني ... فعلت فأدمنت البكا لأقاربه

فأوردتها في النار بكر بن وائل ... وألحقت من قد خر شكراً لصاحبه

قال الصولي: قال عبدالملك بن عمير كنت مع عبدالملك بن مروان بقصر الكوفة حين جيء له برأس مصعب، فوضع بين يديه فرآني قد ارتعدت، فقال لي: مالك؟ فقلت: له أعيذك بالله يا أمير المؤمنين كنت بهذا القصر بهذا المكان مع عبيدالله بن زياد، فرأيت رأس الحسين بن علي عليه السلام بين

يديه بهذا الموضع، ثم كنت فيه مع المختار فرأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار بهذا المكان، ثم كنت فيه مع مصعب فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بهذا المكان، ثم رأيت رأس مصعب فيه بين يديك، فقال: عبدالملك لا أراك الله الخامس يا شيخ، ثم قام من موضعه وأمر بهدم ذلك المكان الذي كنّا فيه. فقال: متى تعد قريش مثل مصعب هذا سيد شباب قريش، فقيل له أنّه كان يشرب الطلا[1]. فقال: لو علم مصعب أنّ الماء يفسد مروءته ما شربه حتى يموت عطشاً.

وكان مصعب من أجمل الناس وأسخاهم وأشجعهم، فأخذته الليالي كما قال ابن عبدون:

وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة كانت بها مهجة المختار في وزر

ودخل عبدالملك مسجد الكوفة وبايعه الناس واستوثق له ملك العراقين.

فقال له الحجاج بن يوسف الثقفي: يا أمير المؤمنين إنّي رأيت في المنام كأنّي أسلخ ابن الزبير من رأسه إلى قدمه، فقال له عبدالملك: أنت صاحبه فاخرج معه الجيوش، فسار بهم حتى نزل على مكة.

وقاتل ابن الزبير وجرت بينهما وقعات كثيرة آخرها أنّه حصر عبدالله بن الزبير بمكة سبعة أشهر، ونصب المناجيق على أبي قيس وعلى قعيقعان ورمى البيت الحرام بالمنجنيق، وأبى ابن الزبير أن يسلم نفسه وقاتل قتالاً شديداً وما زال الحجاج يحاصره ويضيق عليه.

فلمّا كان في الليلة التي قتل في صبحتها جمع القرشيين، فقال لهم: ما تقولون؟ فقال لهم رجل من بني مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً، والله لئن صبرنا معك ما تريد إلّا أن نموت وإنّما هي أحد خصلتين: إمّا أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك، وإمّا أن تأذن لنا فنخرج، وقال له رجل: اكتب إلى عبدالملك، قال: كيف أكتب؟ قال: اكتب من عبدالله بن الزبير أمير المؤمنين إلى عبدالملك بن مروان، قال: فوالله لا يقبل هذا أبداً، قال: فاكتب من عبدالله ابن الزبير إلى عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين، فقال: والله لو تقع الخضراء على الغبراء أهون عليّ من ذلك، فقال له أخيه عروة بن الزبير ـ وهو جالس معه على السرير ـ: يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة، قال: فيمن؟ قال: فالحسن بن علي عليه السلام خلع نفسه وبايع معاوية، فرفع عبدالله رجله وركضه في صدره فأرماه عن السرير، وقال له: يا عروة ليس قلبي إذاً مثل قلبك، والله لو قلتها ما عشت إلّا قليلاً، فاضرب بسيفي في عز خير من المطم في ذل.

فلمّا أصبح دخل على زوجته أم هاشم بنت منظور بن ريان، فقال لها: اصنعي لي طعاماً، فلمّا

---

(١) الطلا ـ بالكسر ـ ما طبخ من عصير العنب.

صنعته له أخذ منه لقمة فلاكها ثم لفظها، وقال: اسقوني لبناً فسقوه، ثم اغتسل وتحنط وتطيب ثم أتى أُمّه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر، فقال لها: ما ترين يا أمّاه فقد خذلني الناس؟ فقالت: لا تلعب بك صبيان بني أميّة، عش كريماً ومت كريماً، فقال لها: إنّي أخشى أن يمثّل بي بعد القتل، فقالت له: إنّ الشاة لا تألم للسلخ بعد الذبح، فقبّل بين عينيها وودّعها. وخرج وأسند ظهره إلى الكعبة، وجعل يقاتل فلا يرم[1] جمعاً إلّا هده. فقال رجل من أهل الشام ـ اسمه جلبوب ـ: إنّما يمكنكم أخذه إذا ولي. فقيل له: فخذه أنت إذا ولي، قال: نعم، فأقبل إليه وهو يريد أن يحتضنه من خلفه، فعطف عليه بالسيف فقطّ ذراعيه فقتله فصاح، فقال له: اصبر جلبوب، ثم جعل يقول: لو كان قرني واحداً لكفيته، وحمل عليهم فقصفهم قصفاً شديداً وهو يقول:

قد أخذ أصحابك جز الاعناق وقد قامت الحرب بهم على ساق

فبينما هو يقاتل إذ جاءه حجر من حجارة المنجنيق فصرعه فاقتحم عليه أهل الشام فحزّوا رأسه وذهبوا به إلى الحجاج فبعث به إلى عبدالملك بن مروان. ثم أتى أُمه ليعزيها. فقالت له: يا حجاج أقتلت عبدالله؟ فقال لها: يا بنت أبي بكر أنا قاتل الملحدين. قالت: بل أنت قاتل الموحّدين. فقال لها: كيف رأيتي ما صنعت بابنك؟ قالت: رايتك أفسدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك، ولا ضير أنّ الله تعالى أكرمه على يديك وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، وإنّ نبينا محمّد ﷺ قد قال: يخرج من ثقيف كذّاب ورميز فالكذاب قد رأيناه ـ تعني المختار ـ وأمّا الرميز فأنت.

وكان قتل عبدالله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة، ولد عام الهجرة، وكان أوّل مولود ولد في الإسلام بالمدينة في قريش، هاجرت به أمه حملاً فولد به بالهجرة، وكان أطلس لا لحية له ولا شعر في وجهه، وكان فصيحاً شجاعاً. ومدة خلافته تسع سنين.

وعن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه **قال: كان** عثمان بن عفان قد استخلف عبدالله بن الزبير يوم الدار فبذلك ادعى الخلافة، ولمّا صلب ابن الزبير كان عبدالله ابن عمر يقول لقائده: جنّبني خشبة ابن الزبير، فلم يشعر ليلة حتى عثر بها، فقال: ما هذه؟ قال: خشبة ابن الزبير وكان منكساً، فوقف ودعا له: لإن علاك رجلاك لطال ما وقفت عليهما في مصلاك.

ثم قال لأصحابه: والله ما عرفته إلّا صوّاماً قوّاماً، ولكن ما زلت أخاف عليه هذا منذ أعجبته بغلة معاوية الشهباء ـ وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة راكب بغلة شهباء وخلفه خمسة عشر بغلة

---

(١) فلا يرم: أي لم يفارق مكانه.

شهباء عليها رحائل الأرجوان فيها الجواري عليهن الحلي والحلل والمعصفرات[1] ـ ففتنت الناس بذلك.

وبعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر توفّي عبدالله بن عمر.

وكان عبدالله بن الزبير يسمى العائذ لأنه كان يقول: أنا العائذ بالبيت. قال الشاعر:

ولم تــراقب مكــان ابــن الزبــير ولا رعت عياذته بـالبيت والحـجر

ويقال أنّ أوّل عائذ عاد بالبيت الحيتان الصغار خوفاً من الكبار في الطوفان.

وكان عبدالله بن الزبير يكنّى بأبي بكر وبأبي حبيب، ويقال له ولأخيه مصعب الخبيبين، وفيهما يقول الشاعر:

قـدني مـن نـصر الخبيبين قـدي ليس الإمــام بـالشحيح المـلحد

إشارة إلى عبدالملك، وبعد قتل عبدالله بن الزبير بويع لعبدالملك بن مروان بالحجاز واليمن، واجتمع الناس على طاعته.

ورد على علي بن الحسين عليه‌السلام صدقات رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وصدقات علي بن أبي طالب عليه‌السلام، وكانتا مضمونتين مع عمر بن علي بن أبي طالب فخرج عمر بن علي إلى عبدالملك يتظلم إليه من نفسه، فقال عبدالملك: أقول كما قال ابن أبي الحقيق:

إنــا إذا مــالت دواعـي الهـوى وأنــصت الســامع للــقائل

واصـــطرع النـــاس بألبـابهم نـقضي بـحكمٍ عـادلٍ فـاصل

لا نــجعل البـاطل حـقا ولا نـــلط دون الحـــق بـالباطل

نـــخاف أن تســـفه احـلامنا فـنحمل الدهـر مـع الخـامل

وكتب إلى الحجاج وهو أمير الحجاز، أما بعد: فانظر دماء بني عبدالمطلب فاحقنها فإنّي رأيت آل أبي سفيان لمّا ولغوا فيها لم يلبثوا إلّا قليلاً، وبعث بالكتاب سراً.

ورد الخبر على علي بن الحسين عليه‌السلام ساعة كتب الكتاب وبعث به إلى الحجاج، فكتب علي بن الحسين بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين من علي بن الحسين، أمّا بعد: فإنّك كتبت إلى الحجاج يوم كذا، من ساعة كذا، من شهر كذا بكذا، وأنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله أنبأني وخبّرني، وأنّ الله قد شكر لك ذلك وثبّت ملكك وزادك برهة، ففرح عبدالملك فرحاً شديداً، وبعث إلى علي بن الحسين بوقر راحلته دراهم، وأوصى به عامل المدينة.

---

(١) المعصفر: نبات تصبغ به الثياب فيقال: ثوب معصفر أي مصبوغ بالعصفر. لسان العرب: ٤: ٥٨١.

وفي سنة أربع وسبعين هدم الحجاج الكعبة، وأخرج الحجر عن البيت وأعادها كما كانت على زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ووضع الحجر في مكانه علي بن الحسين عليهما السلام، واستمر الحجاج أميراً بالحجاز.

وفي سنة خمس وسبعين حج عبدالملك وخطب له على منبر النبي ﷺ وعزل الحجاج عن الحجاز وولاه العراق وخرج في أيامه شبيب الخارجي وكثرت جموعه وحروبه مع الحجاج.

وفي سنة ست وسبعين وجّه إليه الحجاج ابن عمه زائدة بن قدامة الثقفي، فاستظهر عليه شبيب وقتله وهزم العساكر مرّات.

وفي سنة سبع وسبعين بعث إليه الحجاج عتاب بن ورقاء الرياحي فقتله أيضاً وهزم جيشه، فبعث إليه الحارث بن معاوية الثقفي فقتله، فبعث إليه أبا الورد النضري فقتله، فنزل وسار إليه بنفسه، فالتقوا وأشتد القتال، وقتلت غزالة امرأة شبيب ـ وكان يضرب بشجاعتها المثل ـ وسار شبيب نحو الأهواز، واتفقت له أمور وآخر الأمر أنّه تفرّقت عن شبيب جموعه وسقط من الجسر بفرسه فمات، وكان إليه المنتهى في الشجاعة، وكان أكثر ما يكون في مائتي نفس فيهزم الألوف[١].

ظفر الحجاج برجل من أصحابه ولمّا همّ بقتله سمع ضجّة بالباب، فقال لحاجبه: ما هذه؟ فقال: نسوة بالباب يسألن الإذن على الأمير، فأذن لهنّ فدخلن وهن ثلاث وعشرون امرأة، كلهنّ أهل بيت الرجل الذي يرِ قتله، فقال الحجاج: ما حاجتكن؟ فتقدمت امرأة منهن وقالت: أصلح الله الأمير إن رأيت أن تجود باستماع ما أقول، فقال: قولي ما أحببت فقالت:

أحجاج إما أن تمن بتركه ... علينا وإما ان تقتلنا معاً
أحجاج لو تشهد مقام بناته ... وعماته يندبنه الليل أجمعا
أحجاج كم نفجع به من نسائه ... ثماناً وتسعاً واثنين وأربعاً
فمن رجل دان يقوم مقامه ... علينا فمهلا لا تزدنا تضعضعاً

فرق الحجاج لقولها وعفى عنه وأذن في إعطاءه مائة دينار وكسوة، وكتب إلى عبدالملك بن مروان فعله وزاد في عطائه مائة أخرى.

وفي سنة ثمان وسبعين وثبت الروم على ملكهم ونزعوه من الملك وقطعوا أنفه ونفوه إلى بعض الجزائر.

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢٩٧/٢، الوافي بالوفيات: ٣٧٤/٥، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: ٧١/٢١، الذهبي في العبر في خبر من غبر: ١٥/١.

وفيها جرت حروب بافريقية وولي خراسان المهلب ابن أبي صفرة.

وفي سنة ثمانين بعث الحجاج على سجستان عبدالرحمن بن محمّد بن الأشعث عاملاً، فخرج على الحجاج فخلعه واستولى على العراق ثم على الكوفة.

وفي سنة إحدى وثمانين قام مع ابن الأشعث عامة أهل البصرة من العلماء والعباد والتقوا مع عسكر الحجاج يوم الأضحى، فانكشف عسكر الحجاج وانهزم هو وصارت بينهما حروب يقال أنّها بلغت أربعاً وثمانين وقعة.

وفي سنة اثنين وثمانين استقرت الحرب بالعراق بين الحجاج وبين ابن الأشعث، وكاد ابن الأشعث أن يغلب على العراق، وبلغ جيشه ثلاثة وثلاثين ألف فارس ومائة وعشرين ألف راجل، وقاموا على الحجاج لله تعالى.

وفي سنة ثلاث وثمانين كانت وقعة دير الجماجم، وكان شعار الناس: يا لثارت الصلاة، لأنّ الحجاج ـ قاتله الله ـ كان يميت الصلاة ويؤخرها حتى يخرج وقتها.

وفيها أمر عبدالملك الحجاج أن يخرج بجيوشه إلى عبدالرحمن، فخرج إليه وانهزم عبدالرحمن ولحق بالترك، فقبض عليه ملك الترك وأرسله مع أربعين من أصحابه إلى الحجاج، فألقى عبدالرحمن نفسه من سطح ومات وهو في الطريق. وذكر الذهبي في العبر أنّهم ظفروا به ثاني سنة وقتلوه بسجستان، وطيف برأسه في البلدان[١].

وفيها بنى الحجاج مدينة واسط.

وفي سنة أربع وثمانين فتحت أوربة[٢] من بلاد الغرب، وبلغ السبي خمسين ألفاً.

وفي سنة خمس وثمانين غزا محمّد بن مروان بن الحكم أرمينية فأقام سنة وأمر ببناء مدينتي أردبيل وبرذعة[٣].

وفيها كانت وقعة بين المسلمين والروم بطوانة أصيب بها المسلمون واستشهد منهم نحو الألف.

وفي سنة ست وثمانين مات عبدالملك بن مروان في منتصف شوال منها، وكانت مدة خلافته بعد خلافة ابن الزبير ثلاثة عشر سنة وأربعة أشهر تنقص سبع ليال وقبلها ثمانية.

---

(١) العبر في خير من غبر: ١/ ١٧، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: ١/ ٧٩.

(٢) أورَبَة: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء الموحدة وهاء. مدينة بالأندلس، وهي قصبة كورة جيان، وتسمى اليوم الحاضرة.

(٣) العبر في خبر من غبر: ١/ ١٧.

وكان يعد في الفقهاء والقراء، عدّه أبو الزناد في طبقة ابن المسيب. وكان شديد البخر سمّي لذلك بأبي الذبان[١] قال ابن عبدون:

ولم تدع لأبي الذبان قاضبة ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر

يعني عمرو بن سعيد لطيم الجن.

وكان عبدالملك[٢] يدعى المحِلّ لإحلاله الحرب والقتال في المحرم. وفي ذلك يتغزل رجل من الشعراء في رملة أخته:

ألا من لقلب معنى غزل بذكر المحلة أخت المحل

وكان يلقّب لبخله برشح الحجر.

دخلت عليه عزة معشوقة كثير، فقال لها: أنت عزة كثير؟ فقالت: بل أم بكر الكنانية، فقال: هل تروين قوله فيك:

وقد زعمت أني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير؟

تغير جسمي والخليفة كالذي عهدت ولم يخبر بسرك مخبر

فقالت: ما أروي هذا ولا أعرفه؛ ولكنّي أروي قوله:

كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت

صفوحاً فما تلقاك إلّا بخيلةً ومن مل منها ذلك الوصل ملت

فقال: أقسمت عليك لتكشفين عن وجهك؛ فكشفت فإذا بها دلفاء مكلثمة الوجه، فقال: يا ويحك مالذي رأى فيك كثير؟! قالت: الذي رأى فيك الناس حين جعلوك خليفة فلم يحر جواباً، وأمر بقضاء حاجتها وأحسن لها الجائزة.

وفي أيامه رحلت الدواوين إلى العربية من الرومية والفارسية، حوّلها عن الرومية سليمان بن سعد مولى الحسين، وحوّلها عن الفارسية صالح بن عبدالرحمن مولى عتبة.

وهو أبو الأملاك من بني أميّة فإنّه ولي الخلافة أربعة من ولده: الوليد وسليمان ويزيد وهشام.

وكان قد عهد لابنه الوليد بالخلافة. وقال له: إذا أنا مت فضعني في قبري ولا تعصر عينيك عصر الأمة، ولكن شمر وائتزر والبس للناس جلد النمر، فمن قال: برأسه كذا.. فقل بسيفك كذا..

ودفن عبدالملك بدمشق.

---

(١) انظر نهاية الارب في فنون الأدب: ٦/١، المختصر في أخبار البشر: ١٣٧/١.

وقال ابن شحنة الحنفي: سمي بذلك لانه إذا مرّ الذباب بفمه مات.

(٢) المحل عند أهل الشام هو عبدالله بن الزبير، وعند أهل الحجاز هو الحجاج بن يوسف، انظر فتح الباري: ٣٢٨/٨، الاغاني: ٢٠٦/٦، القرط على الكامل: ١٨٥/١، واما عبدالملك يدعى المحل فلم أعثر عليه.

فصل
الوليد بن عبدالملك

بويع بالخلافة لمّا مات أبوه سنة ست وثمانين بعهد منه، وفتحت في خلافته جزيرة الأندلس وما وراء النهر، وأضاف إلى الحجاج خراسان مع العراقين، وتغلغل الحجاج في بلاد الترك، ومسلمة بن عبدالملك في بلاد الروم فتحاً وسبياً. وفتح محمّد بن القسم الثقفي بلاد الهند، وولي الوليد ابن عمه عمر بن عبدالعزيز المدينة وأمره بتوسعة مسجد النبي ﷺ، فدعا عمر عشرة من فقهاء المدينة وهم: عروة بن الزبير، وعبدالله بن عتبة، وأبو بكر بن عبدالرحمن، وأبو بكر بن سليمان، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمّد بن أبي بكر، وسالم بن عبدالله بن عمر، وأخوه عبدالله، وعبدالله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، وقال: اللهم إنّي لا أقطع أمراً دونكم.

وفي سنة سبع وثمانين وسّع عمر بن عبدالعزيز مسجد النبي ﷺ وجدد عمارته، وأدخل بيوت زوجاته فيه بحيث صارت ساحة المسجد مائتي ذراع في مثلها بذراع، جهّزها إليه الوليد.

وفي سنة ثمان وثمانين رجعت الترك في جمع لم يسمع بمثله، فيقال كانوا مائتي ألف فالتقاهم قتيبة بن مسلم فهزمهم بعون الله، وأقبلت الروم في جمع عظيم فالتقاهم مسلمة وكسرهم ولله الحمد.

وفيها عمر الوليد الجامع المعروف ببني أمية بدمشق وصرف عليه أموالاً لا تحصى، فليس على وجه الأرض يوجد أحسن منه.

وفي سنة تسع وثمانين غزا مروان السويس الأقصى، وبلغ السبي أربعين ألفاً، وغزا مسلمة عمورية.

وفي سنة تسعين غزا قتيبة وردان وغزا مسلمة سورية.

وفي سنة إحدى وتسعين افتتح مسلمة مدائن كثيرة بما وراء النهر وأوطأ الكفار ذلاً وخوفاً، حتى حمل إليه طرخون القطيعة[1].

وفي سنة اثنين وتسعين افتتح طارق الأندلس.

وفي سنة ثلاث وتسعين كانت وقعة عظيمة بين قتيبة والترك فلم يثبت من الترك إلّا اليسير. وفتحت سمرقند صلحاً. وكانت الفتوح بأرض المغرب والروم والهند، ولم يفتح المسلمون بعد

(١) العبر: ١/١٨.

خلافة عثمان مثل هذه الفتوح.

وفيها عزل الوليد عمر بن عبدالعزيز عن المدينة بأبي بكر بن حزم.

وفي سنة أربع وتسعين افتتح قتيبة بن مسلم بن فرغانة والشاش.

وفي سنة خمس وتسعين هلك الحجاج القليل الدين.

وفي سنة ست وتسعين مات الوليد ابن عبدالملك بن مروان ودفن بدمشق وعمره اثنتان وأربعون سنة، ومدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر، وكان دميماً سائل الأنف جداً. وكان مع ظلمه كثير التلاوة لحاناً، قال الشاعر:

تعلم كتاب الله والزم تفهمه ... تنل شرفاً عند الاله ومكرمة

فقد قال خير الخلق خيركم الذي ... تعلم قرآن الاله وعلمه

فصل

سليمان بن عبدالملك

بويع بالخلافة لمّا مات أخوه الوليد في جمادى الآخر سنة ست وتسعين، وكان بمدينة الرملة فأتى دمشق وأحسن السيرة، واستوزر ابن عمه عمر ابن عبدالعزيز. وعمّر الجامع الأعظم بحلب مضاهياً لأخيه الوليد في عمارة الجامع الأعظم بدمشق.

وفي سنة سبع وتسعين حجّ بالناس خليفتهم سليمان بن عبدالملك.

فروي أنّه قال لأبي حازم المدني: ليت شعري ما لنا عند الله قال: اعرض عملك على كتاب الله، فإنّك تعلم مالك عنده. قال: فأين أجده؟ قال: عند قوله: **﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾**[١]. قال: فأين رحمة الله؟ قال: **﴿قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾**[٢].

وفي سنة ثمان وتسعين خرج سليمان بن عبدالملك بالجيوش إلى غزو قسطنطينية، ونزل بمرج دانق وأرسل أخاه مسلمة فأقام على قسطنطينية، وزرع بها الناس وأكلوا ولم يزل مسلمة قاهر لأهلها حتى جاءه الخبر بموت أخيه سليمان، وكانت وفاته في صفر سنة تسع وتسعين، وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر، وعمره خمس وأربعين سنة مات بالتخمة، فإنّه كان أكولاً إلى الغاية، قيل أتاه وهو بدانق آت بزمبيلين مملوئن تيناً وبيضاً فأكل الجميع تينه وبيضة فتخم ومات. وأوصى بالخلافة لعمر بن عبدالعزيز.

---

(١) سورة الإنفطار: ١٣ و١٤.

(٢) سورة الأعراف: ٥٦.

فصل

عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم

بويع بالخلافة سنة تسع وتسعين، وأبطل سبّ علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان يسب من سنة أحدى وأربعين حتى قيل في ذلك:

وعلى المنابر تعلنون بسبه ويسيفه نصبت لكم أعوادها
يا أُمة كفرت وفي أفواهها القرآن فيه ضلالها ورشادها

وجعل مكان السب ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[١].

وهي أجمع آية في كتاب الله، قيل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قرأها على الوليد بن المغيرة المخزومي، فقال له: أعد يا ابن أخي، فأعادها عليه فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو من قول البشر[٢].

وكتب طاووس بن كيسان الخولاني إلى عمر بن عبدالعزيز، إن أردت أن يكون عملك خيراً كلّه فاستعمل أهل الجنّة. فقال عمر: كفى بها موعظة[٣].

وكتب إلى الحسن البصري، أن أعنّي بأصحابك؟ فكتب إليه إمّا طالب الدنيا فلا ينصحك، وإمّا طالب الآخرة فلا يرغب فيك[٤].

قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبدالعزيز: يا ميمون احفظ عنّي أربعاً: لا تصحبن سلطاناً وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلونّ بامرأة ولو قرأت القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنّه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه في غد[٥].

وفي سنة إحدى ومائة يوم الجمعة لخمس بقين من رجب توفّي عمر بن عبدالعزيز بن مروان

---

(١) سورة النحل: ٩٠.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٩٢/٦.

(٣) وفيات الأعيان: ٥٠٩/٢.

(٤) التبر المسبوك في نصيحة الملوك: ٢٨/١.

(٥) مختصر تاريخ دمشق: ١٥٩/٨.

ابن الحكم، بخناصره بضم الخاء المعجمة، ودفن بدير سمعان المعروف الآن بدير البقر من عمل المعرة، وأكثر الناس على أنّه مات بالسم سمه بنو أمية، وكان مولده بمصر سنة أحدى وستين، فعمره أربعون سنة وشهور، ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر، وكان يدعى بالأشج لشجة كانت في وجهه. وجده لام عاصم بن عمر بن الخطاب. ويقال له الخليفة العادل.

قال محمّد بن علي بن الفضل: ما كنت أعلم أنّ أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبدالملك قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين، واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور، ورأيتهم في زمن سليمان بن عبدالملك قد اهتموا بطيب الأكل وطيب الطعام، ورأيتهم في زمن عمر بن عبدالعزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتلاوة القرآن، وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات، ليعلم أنّ في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان؛ لأن الوليد كان يصرف همّته إلى العمارة والزراعة، وكان سليمان همّته في كثرة الأكل وطيب المطعم وقضاء الأوطار، وكان همّ عمر بن عبدالعزيز العبادة والزهد.

فصل

يزيد بن عبدالملك

بويع بالخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز، بعهد من أخيه سليمان بن عبدالملك إليه بعد عمر بن عبدالعزيز.

وفي سنة اثنين ومائة أخرج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة من السجن، فخرج على الخليفة فأرسل إليه أخاه مسلمة بن عبدالملك فقاتله وقتله وقتل جميع آل المهلب، وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة حتى أنشد فيهم الشاعر:

نزلت على آل المهلب شاتياً غريباً عن الأوطان في زمن المحل

فما زلت في إحسانهم وافتقادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي

قال ابن خلكان: أجمع علماء التاريخ على أنّه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب، ولم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة. قال الأصمعي: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاعة فقال رجل منهم:

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلب لديك من الذي نتطلب

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسب

فـاصبر لعـادتك التـي عـودتنا أو لا فأرشـدنا إلى مـن نـذهب

فأمر له بمائة ألف دينار، فلمّا كان في العام المقبل وفد عليه فأنشده:

مـالي أرى أبـوابـهم مـهجورة وكأنّ بـابك مـجمع الأسـواق

حابوك أم هابوك أم شاموا النـدى بـيديْك فـانتجعوا مـن الآفـاق

إنّـي رأيـتك للـمكارم عـاشقاً والمكـرمات قـليلة العشـاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم. وقال أبو الحسن المدائني باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مغل بعض أملاكه بأربعين ألف درهم فبلغ ذلك يزيد فقال له: تركتنا بقالين؛ أما كان في عجائز الأزد من تقسّمه فيهن[١].

ومدحه عمر بن لجأ بشعر يقول فيه:

آل المـهلب قـوم إن نسـبتهم كـانوا الاكـارم آبـاء واجـداداً

كـم حـاسد لهـم بـغيا لفضلهم وما دنـا مـن مساعيهم ومـا سـادا

لو قيل للمجد حد عـنهم وخـلهم بما احتكمت من الدنيا لمـا حـادا

ان المكـارم ارواح يكـون لهـا آل المـهلب دون النـاس اجسـادا

وقال يزيد بن المهلب يوماً: والله للحياة أحب إليّ من الموت، ولثناء حسن أحب إليّ من الحياة، ولو أنّي أعطيت ما لم يعطه أحد، لأحببت أن تكون لي أذن أسمع غداً ما يقال فيّ إذا أنا مت كريماً. يقال أن ذكر الرجال بعدهم هو الحياة الثانية.

وفي سنة خمس ومائة توفّي يزيد بن عبدالملك لخمس بقين من شعبان وعمره أربعون سنة، وخلافته أربع سنين وشهر، وكان كثير اللهو والطرب، وكان عـهد بـالخلافة إلى أخـيه هشـام بـن عبدالملك، ثم بعده لابنه الوليد.

فصل
هشام بن عبدالملك

بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن عبدالملك في سنة خمس ومائة.

وفي سنة ست ومائة استعمل هشام خالد القسري على العراق.

---

(١) وفيات الأعيان وابناء أبناء الزمان: ٢٨٣/٦.

وفي سنة سبع ومائة استعمل أخاه مسلمة على آذربيجان وأرمينة وعزل الجراح بن عبدالله الحكمي.

وفي سنة ثمان ومائة غزا أسد بن عبدالله القسري الأعداء في جمع عظيم فهزمهم[١].

وفي سنة تسع ومائة غزا معاوية بن هشام بن عبدالملك فافتتح حصن العطاس.

وفي سنة عشر ومائة كانت وقعة الطين.

وفي سنة إحدى عشر ومائة عزل مسلمة من آذربيجان وأعيد الجراح.

وفي سنة اثنتي عشر ومائة سار مسلمة في شدة البرد إلى بلاد الترك حتى جاوز الباب، وفتح مدائن وحصون. وافتتح معاوية بن هشام خرشنة[٢] من ناحية ملطية.

وفي سنة ثلاث عشرة ومائة كانت الوقعة بين المسلمين والترك بظاهر سمرقند، وأعيد مسلمة إلى آذربيجان.

وفي سنة أربع عشرة ومائة عزل مسلمة عن آذربيجان ووليها مروان الحمار.

وفي سنة سبعة عشر ومائة حاست الترك بخراسان وانضم إليهم الحارث بن شريح الخارجي، وجاوزوا نهر جيحون فسار إليهم أسد بن عبدالله القسري فكسرهم وقتلهم قتلاً ذريعاً.

وفيها فتح مروان الحمار ثلاثة حصون، وأسروا الملك يونان شاه وبعث به إلى هشام فمنّ عليه وعاده إلى ملكه.

وفي سنة تسع عشر ومائة غزا أسد بن عبدالله القسري الترك، وقتل ملكهم خاقان وخلقاً عظيماً.

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة غزا مروان وافتتح أماكن.

وفيها قتل أبو محمّد البطال أحد الشجعان وله مواقف كثيرة لكن أكثروا الكذب عليه.

وفيها توفّي مسلمة بن عبدالملك[٣].

وفي سنة اثنين وعشرين ومائة، قام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالكوفة وبايعه جمع كثير، فقاتلهم الوالي على الكوفة ـ من جهة هشام ـ يوسف بن عمير الثقفي فتفرقت عن زيد أصحابه وبقي في جماعة يسيرة، فقاتل أشد قتال وهو يقول متمثلاً:

---

(١) في المخطوط (عبيد العمري)، والصحيح ما اثبتناه انظر: العبر في خبر من غبر: ١/٢٣، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٢٩١.

(٢) بفتح أوله، وتسكين ثانيه، وشين معجمة، ونون: بلد قريب ملطية من بلاد الروم. معجم البلدان: ٢/٣٥٩.

(٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان: ١/١١٩.

ذل الحـــياة وذل المـــمات وكـــلا أراه طـــعاماً وبـــيلاً
فـان كـان لابـدّ مـن واحـد فسيري إلى الموت سيراً جميلاً

فقتل زيد بسهم غريب[1] ودفن فاستخرجه بعد دفنه يوسف المذكور وبعث برأسه إلى هشام وصلب بالكوفة.

فقال بعض شعراء بني أمية يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من جملة أبيات:

صلبنا لكم زيداً على جذع نـخلة ولم أر مهدياً على الجذع يـصلب

وذكر ابن عياش وجماعة من الأخباريين أنّ زيداً أقام بالكوفة مصلوباً خمس سنين عرياناً، فلم ير أحد له عورة ستراً من الله تعالى، وقال بعضهم: إنّ العنكبوت نسج على عورته. وقيل صلب أربع سنين حتى مات هشام.

وولي الوليد بن يزيد فظهر ولده يحيى بن زيد بخراسان وهي واقعة مشهورة، قتل فيها يحيى بن زيد وصلب إلى أن خرج أبو مسلم الخراساني فأنزله وصلى عليه ودفنه، فكتب الوليد إلى عامله بالكوفة أن احرق زيداً بخشبته، ففعل به ذلك وأذرا رماده في الرياح على شاطئ الفرات، وكان عمر زيد لما قتل اثنين وأربعين سنة.

وفي هذه السنة كانت حروب وملاحم، وخرجت طائفة بايعوا عبدالواحد الهواري ثم انتصر عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً[2].

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة قتل بالمغرب كلثوم بن عياض القشيري في عدة من أمرائـه واستبيح عسكره، وهزمهم أبو يوسف الأزري رأس الصفرية وثبت ابن عمّ كلثوم ـ بلج القشيري ـ فكان النصر، وقتل في المعركة أبو يوسف الأزري.

وفيها حجّ بالناس يزيد بن هشام بن عبدالملك.

وفي سنة خمس وعشرين ومائة توفّي هشام بن عبدالملك بالرصافة لست خلون من ربيع الأوّل، فكانت خلافته تسع عشر سنة وتسعة أشهر، وكان عمره خمساً وخمسين سنة، وكان أحول بين الحول.

---

(١) يقال سهم غرب: إذا كان لا يعرف راميه، وقيل: إذا أتاه من حيث لا يدري، النهاية لابن الأثير: ٣٥٠/٣. وفي المخطوط (غرير).

(٢) في المخطوط (عبد الرحمن) والصحيح ما اثبتناه انظر العبر: ٢٨/١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٤٠٤/٢، وقد ذكره في احداث السنة التي تليها.

وفيه قال الفرزدق لما حبسه بين مكة والمدينة بسبب أبيات قالها في علي بن الحسين عليه السلام:

أيحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس تهوى منيبها

يقلب رأساً لم يكن رأس سيد وعينا له حولا بادٍ عيوبها[1]

فأخرجه من الحبس.

فصل

الوليد بن يزيد بن عبدالملك

وكان يقال له: الجبّار العنيد؛ لأنّه تفأل في المصحف فظهر قوله تعالى: **﴿وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾**[2] فجعل المصحف غرضاً ورماه بالسهام حتى خرقه، وهو يقول: تهددني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد:

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

وبويع الوليد بالخلافة بعد موت عمه هشام سنة خمس وعشرين ومائة، بعهد له من أبيه يزيد بن عبدالملك.

وكان في أسوء حال في البرية خوفاً من عمه هشام، فعكف على اللهو وشرب الخمر ومعاشرة النساء، وكان كثير الاشتهار بخلع العذار والشراب والسماع لا يرعوي لعذل عاذل، ولا يسمع النصح من قول قائل.

قيل: أنّه سمع عن ابن شراعة الكوفي وكان من أهل البطالة المشهورين فبعث إليه من دمشق فحمل إليه، فلمّا دخل عليه، قال له: قبل أن يسأله عن شيء يا ابن شراعة أنّي ما أرسلت إليك لأسألك عن كتاب الله ولا عن سنة رسول الله.

قال: يا أمير المؤمنين لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حماراً.

فقال: إنّما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة.

فقال: إنّما أنا دهقانها الخبير، ولقمانها الحكيم، وطبيبها الماهر.

قال: فاخبرني عن الشراب؟

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي: ٢/٢٦٨.

(٢) سورة إبراهيم: ١٥.

قال: سل عمّا بدا لك.

فقال: ما تقول في الماء؟

قال: لابدّ منه، وشريكي فيه الحمار.

قال: فاللبن؟

قال: ما رأيته قط إلّا استحييت من طول ما أرضعتني أمي.

قال: فالسويق؟

قال: شراب الحزين والمستعجل والمريض.

قال: فشراب التمر؟

قال: سريع الامتلاء، سريع الانفشاش.

قال: فنبيذ الزبيب؟

قال: حاموا به عن الشراب.

قال: فالخمرة؟

قال: أواه، تلك والله صديقة روحي.

قال: وأنت والله صديق روحي.

قال: فأي المجالس أحسن؟

قال: ما شرب فيه على وجه السماء، بروض خضراء من كف حسناء[1].

ثم أنّ الوليد لم يزل عاكفاً على الشراب والصبيان والملاهي ومعاشقة النساء.

عشق سعدى ابنة سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فتزوجها ثم طلقها، فرجعت إلى المدينة فتزوجها ابن عمه بشر بن الوليد، وكانت من أجمل النساء، فندم على طلاقها وكان يحبّها.

فدخل عليه أشعب يوماً، فقال له: هل لك أن تبلغ عنّي سعدى رسالة ولك عشرون ألف درهم أعجّلها لك؟

قال: هاتها. فدفعها إليه، فقال: ما رسالتك؟

قال: إذا قدمت المدينة فاستأذن على سعدى، وقل لها: يقول لك الوليد:

أسعدى ما إليك لنا سبيل ... ولا حتى القيامة من تلاقي

عسى ولعل دهراً ان يؤاتي ... بموتٍ من حليلك أو فراقي

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ٤١٩/١، العقد الفريد ١٨/٣.

فلمّا بلّغها الرسالة، قالت لجوارها: اقتلوا هذا الخبيث، ثم قالت له: ما حملك على هذه الرسالة؟

قال: عشرون ألف درهم معجلة.

فقالت: والله لأجلدنّك أو لتبلغنه عنّي كما بلغتني عنه.

قال: والجائزة.

قالت: لك بساطي هذا.

قال: قومي عنه، فقامت عنه فطواه وضمّه، وقال: هاتي رسالتك.

قالت: قل له:

اتبكي على سعدى وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع؟

فبلّغه الرسالة فغضب، وقال له: يا أشعب اختر منّي واحدة من ثلاثة، إمّا أن أقتلك، وإمّا أن ألقيك من أعلى هذا القصر، أو أطرحك للسباع.

فقال: يا سيدي ماكنت لتعذّب عينين نضرت بهما إلى سعدى فضحك وخلى سبيله.

وحكى خالد بن ذكوان، قال: بتّ عنده ليلةً فجلسنا نتحدث. فقال لجواريه: اسقوني، فجاءوا بإناءٍ مغطا ووضعوه بين يديه، وبيني وبينه ثلاث جوار، وهو يشرب القدح ويستدعى بآخر، فما طلع الفجر حتى أحصيت عليه سبعين قدحاً.

وجلس يوماً يشرب وجارية من جواريه تغنّي وتقول: قينة في يمينها أبريق فقال لها: لو أتممت الشعر؟ فقالت: لست أرويه. فبعث في المقام إلى حماد الراوي فلمّا دخل قال له: قينة في يمينها أبريق. فقال حماد:

ودعوا الصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قدمته على عقارٍ كعين الد يك صفي سلافه الراووق

مرة قبل مزجها فإذا ما مزجت لذ طعمها لمن تذوق

وكان كثيراً ينشد ويقول:

عللاني وأسقياني من شراب أصبهاني

من شراب الشيخ كسرى وشراب الهرمزاني

إن ما بالكأس لمسكا أو بكف من سقاني

انما الكأس ربيع يتعاطى بالبنان

وكان ينشد كثيراً ويقول:

ليت حـظي اليـوم مـن كـــل مـعاش لي وزاد
قـــهوة أبـــذل فـــيها طـــارفي بـعد تـلادي
فـــيظل القـــلب مـنها هـائماً فـي كـل وادي
ان فـــي ذاك فسـادي وصـــلاحي ورشـادي

وكان أيضاً ينشد ويقول:

امـدح الكأس ومـن أعـمله واهج قوماً قـتلونا بـالعطش
إنـما الكأس ربـيع بـاكـر فإذا مـا لم نـذقه لم نـعش

ولمّا أفرط في شربه وضيّع أمور ملكه، تغيّر الناس له وطعنوا فيه، فدخل عليه معاوية بن عمرو بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين إنّه ينطقني الأمن بك وتسكتني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك، فأسكت معظماً أم أقول متأسفاً؟ قال: قل مقبول منك، والله فينا عالم الغيب ونحن إليـه صائرون، فعتب عليه في انهماكه في الشراب، وتضييع الملك فلم يجد عنده مساغاً لعـذل ولا مدخلاً لقول فتركه.

ثم قال الوليد لمّا كثر عليه الكلام والعذل والقول فيه:

خذوا ملككم لا ثـبت الله مـلككم ألا ربّ مـــلك قـد أزيـل فـزالا
دعوا لي سـلما مـع شـراب وقـينة وكأس ألا حســبي بـذاك كـمالا

وسلما هذه فتن بها بعد سعدى وهي اختها، فتزوجها بعد سعدى وله فيها أشعار كثيرة وكلام، وأسرّ في قوله وأجهر، فمن شعره فيها قبل تزويجه إيّاها:

حـــدثوني أن ســـلما خـرجت نـحو المـصلى
فـــإذا طـير مـليح فـــوق غـصن يـتفلى
قـلت يـا طير ادن مني فـــدنا ثـــم تـــدلى
قلت هـل تـعرف سلما قـــال لا ثـــم تـــولا
فترك في القلب جـرحـا بـــاطنا ثـــم تـــخلا

فلمّا ظهر تخليه وانهماكه في المعاصي، ورمى بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه أجمعوا على قتله، وأن يقلدوا بالخلافة ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فخرج عليه يزيد بن الوليد بن عبدالملك وبايعه الناس فجمع يزيد الجيوش ودخل دمشق، وكسر باب المقصورة وأخذ الأموال وحملها على العجل نحو باب المضمار، ونادى مناديه من انتدب إلى قتال الوليد فله ألفان، فانتدب معه ألف ألف رجل.

وبلغ الوليد بن يزيد الخبر وكان في البلقاء فتوجّه إلى حمص فقصده يزيد بالجيش، وجرت بينهما حروب وآخر الأمر أحاطت الخيل بالوليد فتفرق من كان حوله، فأخذ المصحف فوضعه في حجره، وقال: اقتل كما قتل ابن عمي عثمان بن عفان.

فهجم عليه الناس وكان أوّل من هجم عليه السري بن زياد بن أبي كبشة السكسكي، وعبدالسلام اللخمي فقتلاه، ثم أخذ رأسه إلى يزيد فوضع على رمح ثم طيف به في دمشق، وذلك سنة ستة وعشرين ومائة[1].

وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم نبق الخلافة بين الكأس والوتر

وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وعمره اثنين وأربعين سنة، ومع فسقه كان قد زاد العطايا، ولم يقل في شيء سأله لا، ولا قل ذلك على الرعيّة.

فصل
يزيد بن الوليد بن عبدالملك وأخيه

بعد قتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك استقر في الخلافة يزيد بن الوليد، ونقص الناس زياداتهم فسمّي يزيد الناقص، وخالف عليه أهل حمص وأهل فلسطين وقهرهم، وعصى عليه عامل العراق ثم استذل به، وبعد منه أظهر الخلاف عليه مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم، وكانت خلافته خمسة أشهر واثني عشر يوماً، ومات بدمشق سنة ست وعشرين ومائة، واستقر في الخلافة بعده أخوه إبراهيم المخلوع، ولم يتم له الأمر، كان يسلم عليه بالخلافة تارة وبالإمارة تارة، ومكث أربعة أشهر وقيل سبعين يوماً.

وفي سنة سبع وعشرين ومائة سار إليه مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم من الجزيرة ليخلعه، فلمّا قرب من دمشق أرسل إليه إبراهيم سليمان بن هشام بن عبدالملك في مائة وعشرين ألفاً، وكان مع مروان ثمانون ألفاً، واقتتلوا قتالاً عظيماً فانتصر مروان ودخل دمشق وخلع إبراهيم وبويع له بالخلافة.

---

(١) تاريخ دمشق: ١٦٥/٢٠، وانظر تاريخ خليفة بن خياط: ١٠١/١، وفي المخطوط (عبدالسلام النجبي)، والصحيح ما اثبتناه.

فصل
مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم

بويع بالخلافة بدمشق ورجع إلى منزله بحران، وجاء إليه إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام بالأمان وبايعاه.

وخالف عليه أهل حمص وأهل دمشق وأهل فلسطين وقهرهم.

ثم سار مروان إلى قرقيسيا فخلعه سليمان بن هشام، واجتمع عليه سبعون ألفاً من أهل الشام، فسار إليه مروان والتقى الجمعان بأرض قسرين، فانكسر سليمان وقتل من عسكره ما يزيد على ثلاثين ألفاً.

وفي سنة ثمان وعشرين ومائة ظهر الضحاك بن قيس الخارجي وخافه مروان، ثم جرى بينهما قتال انهزم فيه مروان، وقتل الضحاك وقام بأمر الخوارج سفيان، فقاتلهم مروان عشرة أشهر، كل يوم راية مروان مهزومة. ثم رحل شيبان على حمية نحو شهرروز، ثم توجّه إلى كرمان، فقتل هناك.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة ظهرت دعوة بني العباس بخراسان، وذلك أنّ أبا مسلم الخراساني كان يختلف إلى محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس وولده إبراهيم من بعده المدعو: بالإمام وكانا بالشراة من عمل الشام بقرية يقال لها حميمة، واستدعى الناس إلى مبايعة بني العباس.

ففطن به نصر بن سيار أمير خراسان، وأرسل إلى مروان مراراً يعلمه بذلك وهو يتغافل عنه.

ومن جملة ما أرسل إليه أبياتاً يقول فيها:

ائمتنا يقاض أم نيام	ألا هبوا فقد آن القيام
أرى تحت الرماد وميض نارٍ	ويوشك ان يكون لها ضرام
فإن النار من عودين تورى	وإن الحرب أوله كلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أُمية أم نيام

وفي سنة أحدى وثلاثين ومائة توفّي نصر بن سيار، وواصل بن عطاء، ومالك بن دينار، وهزم قحطبة بن شبيب، وكان من قواد الشيعة عسكر يزيد بن هبيرة، ثم فقد قحطبة وولى أخوه حميد مكانه فمضى نحو الكوفة.

فاستولى أبو مسلم الخراساني على بعض بلاد خراسان، وبايع أهلها لإبراهيم الإمام بعد وفاة

أبيه محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس، فأرسل مروان إلى عامله بالبلقاء، فأمسك إبراهيم الإمام وبعثه إليه فحبسه حتى مات في حران.

وكان إبراهيم الإمام نعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير من الحميمة ـ مع أخيه عبدالله أبي العباس السفاح ـ إلى الكوفة، وأوصى بالخلافة إلى أخيه السفاح.

فسار بهم إلى الكوفة، ومعه أخوه أبو جعفر المنصور، وعمه عبدالله بن علي وغيرهما من بني العباس.

وقدم الكوفة واستخفى بها شهراً ثم ظهر وسلم عليه الناس بالخلافة وعزوه في أخيه إبراهيم.

ودخل دار الإمارة بالكوفة صبيحة الجمعة ثاني عشر ربيع الأوّل سنة اثنين وثلاثين ومائة، ودخل المسجد وخطب الناس وصلى بهم الجمعة، ثم عاد إلى المنبر وصعد معه عمه داود بن علي، فقام دونه وخطبا الناس وحضاهما على الطاعة.

وجلس أبو جعفر المنصور يأخذ البيعة لأخيه السفاح في المسجد، وخرج عسكر السفاح فعسكر بحمام أعين.

وبعث السفاح عمّاله إلى البلاد ثم ارتحل ونزل هاشمية الكوفة بقصر الإمارة.

فسار مروان الحمار ويسمّى بالجعدي لأخذه بقول جعد بن درهم وهو آخر خلفاء بني أمية، طالباً أبا عون عبدالملك بن يزيد الأزدي المستولى على شهرزور من جهة بني العباس.

فلمّا وصل مروان إلى الزاب التقاه أبو عون بما معه من الجموع، وكان مع مروان مائة وعشرون ألفاً من العسكر، وحفر مروان خندقاً وعقد عليه جسراً، وتكاثرت عليه جيوش السفاح مع عمه عبدالله بن علي، والتقى الجمعان فرأى مروان الأعلام السود التي خرجت من خراسان.

فالتفت إلى أبي جعدة المخزومي وقال له: ما تلك البخت[1] المجللة؟ قال: هي أعلام القوم.

قال: ومن تحتها؟ قال: عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس، قال: وأي عبدالله هو؟ قال: هو الفتى المعروف الطويل الخفيف العارضين، الذي رأيته في وليمة كذا يأكل ويجيد، فسألتني عنه فنسبته لك، فقلت: إنّ هذا الفتى لتلقامة[2]، فقال: قد عرفته؛ والله لقد وددت أنّ علي بن أبي طالب مكانه، إنّ علياً وولده لا حظ لهم في هذا الأمر، وهذا رجل من بني هاشم وابن عم رسول الله ﷺ، ومعه ريح الشأم ونصر الشام.

---

(١) في اللسان: دخيل في العربية أعجمي معرب، وهي الابل الخرسانية.

(٢) اللقم: سرعة الأكل والمبادرة إليه.

ثم أرسل إليه يقول له: يا ابن عمّي الأمر إليكم صائر لا محال، فالله الله في بنات عمّك؟ فكتب إليه عبدالله بن علي الحق لنا في دمك وعلينا في حرمك.

فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبدالعزيز: إن زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنّا الذين ندفعها إلى المسيح عليه السلام، وإن قاتلونا قبل الزوال فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وأرسل مروان إلى عبدالله بن علي يسأله الموادعة، فقال عبدالله: كذب ابن زريق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله.

فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤهم بقتال، وجعل ينظر إلى الشمس وكان مروان من أهل الحزم والعزم والمعرفة بالحدثان، وكان يرى أنّه يقتله رجل من ولد العباس اسمه على العين.

فلمّا نهض نحوه عبدالله بن علي قال: ما تغني القوة إذا انقضت المدة؟ ثم ولى منهزماً، فقال رجل من ولد سعيد بن العاص يعير مروان:

لج الفـرار بـمروان فـقلت له ... عـاد الظلوم ظليماً همه الهرب
أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت ... عنك الهوينا فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب وان ... يـطلب نـداه فكلب دونه كلب

وسار عبدالله بن علي عمّ السفّاح في أثر مروان إلى دمشق، وحاصرها وفتحها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضين من رمضان سنة اثنين وثلاثين ومائة، فأقام بها خمسة عشر يوماً، ثم رحل منها إلى فلسطين فأقام بها، وأرسل أخاه صالحاً وراء مروان فألحقه وقد جاور نيل مصر بقرية بوصير، فحمل صالح على مروان فطعنه وهو لا يعرفه، فصاح صائح صَرِع أمير المؤمنين وابتدروه فسبق إليه رجل من أهل الكوفة ـ كان يبيع بها رمّاناً ـ فاحتز رأسه فأخذه عامر بن إسماعيل الحارثي[1]، فبعث به إلى أبي عون وبعثه أبو عون إلى صالح، فلمّا وصل إليه أمر أن يقص لسانه فأخذته هرّة، وقيل أنّه لمّا وضع رأس مروان بين يدي عبدالله بن علي جاءت هرّة فاقتلعت اللسان وجعلت تمضغه. فقال عبدالله بن علي: لو لم ترنا الأيام من عجائبها إلّا لسان مروان في فم هرّة لكفانا.

ثم بعث بالرأس إلى السفاح فلمّا وضع بين يديه خرّ لله ساجداً، وقال: الحمد لله الذي أظهرني عليك ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، ثم تمثّل بشعر ذي الاصبغ العدواني[2]:

---

(١) في مخطوطة مكتبة السيّد المرعشي (العامري)، وفي الكامل، ومخطوطة استان قدس رضوي (الحارثي) وهو في أغلب المصادر التاريخية، وذكره في الثقات لابن حيان: عامر بن إسماعيل المروزي، وفي تاريخ الإسلام للذهبي: ٩/٤٤٧ (عامر بن عامر الحارثي الجرجاني).

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٤٩٣.

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني

قال ابن عبدون:

ولم تعد قضب السفاح نابية عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

وكان قتل مروان لليلتين من ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائة، وكان عمره اثنين وستين سنة، ومدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر ونصف.

واستقر الأمر للسفاح، وفتح صالح بن علي مصر وقال:

قد فتح الله مصراً عنوةً لكم وأهلك الفاجر الجعدي إذ ظلما

فلاك مقوله هر يجرره وكان ربّك من ذي الكفر منتقما

ولمّا قتل مروان هرب ابناه عبدالله وعبيدالله إلى أرض الحبشة، فلقوا من الحبشة بلاء قاتلهم الحبشة فقتل عبيدالله ونجا عبدالله في عدة ممن معه، فبقي إلى خلافة المهدي بن المنصور، فأخذه نصر بن محمّد بن الأشعث عامل فلسطين، فبعث به إلى المهدي ولا نعلم ما صنع به[1].

ذكر أنّ عبدالله بن مروان [هرب بمال و][2]اجتمع بملك النوبة، قال له: كيف سلبتم نعمتكم وزال عنكم الملك، وأنتم أقرب إلى نبيكم من الناس جميعاً؟ فقال: جاء من هو أقرب منّا إليه فسلبنا وطردنا وقتلنا، وجئت مستجيراً بالله ثم بك. قال: فلم كنتم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم؟ فقال: فعل ذلك عبيد وأتباع وأعاجم دخلوا في ملكنا بغير إذننا ورأينا، قال: فلم كنتم تركبون على دوابكم بمراكب الذهب والفضة والديباج وهي محرمة عليكم؟ فقال: مثل القول الأوّل. قال: فلم كنتم إذا خرجتم للصيد هجمتم على القرى وكلفتم أهلها مالا يطيقون بالضرب الموجع، ثم لا يقنعكم ذلك حتى تمشون في زروعهم فتفسدوها في طلب دراج قيمته نصف درهم أو عصفور لا قيمة له، والفساد محرم عليكم في دينكم؟ فقال: فعل ذلك عبيد وأتباع. فقال: لا ؛ ولكنّكم استحللتم ما حرم الله عليكم، وفعلتم ما نهاكم عنه، وأحببتم الظلم، وكرهتم العدل، فسلبكم الله العزّ والنعمة لم تبلغ غايتها بعد، وإنّي أخاف أن تنزل بك النقمة إذ كنت من الظلم فتشملني معك، فإنّ النقمة إذا نزلت عمّت، والبلية إذا حلّت شملت فاخرج بعد ثلاث من أرضي فإنّي إذا وجدتك بعدها أخذت جميع ما معك وقتلتك أنت ومن معك. فخرج من أرضه إلى بلاد الإسلام فأخذ وجيء به إلى أعدائه.

---

(١) المنتظم: ٤٣٩/٢، تاريخ الطبري: ٩٤/٦، المختصر في أخبار البشر: ١٤٦/١.

(٢) بين المعقوفين لم نتمكن من قرائتها، وما اثبتناه يقتضيه السياق.

ولمّا قتل مروان قصد عامر الكنيسة التي فيها حرم مروان، وكان مروان قد وكّل بهنّ خادماً وأمره أن يقتلهنّ بعده، فأخذه عامر بن إسماعيل الحارثي وأخذ نساء مروان وبناته فسيرهنّ إلى صالح بن علي، فلمّا أدخلهنّ عليه تكلّمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمّك، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال: إذاً لا أستبقي منكنّ واحدة، ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم الإمام؟ ألم يقتل هشام بن عبدالملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد، وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل ابن زياد الدعي مسلم بن عقيل؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته؟ ألم يخرج إليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا فوقفهن موقف السبي؟ ألم يحمل إليه رأس الحسين وقد أفرغ من دماغه؟ فما الذي يحملني على الإبقاء عليكنّ؟

قالت: فليسعنا عفوكم! فقال: أمّا هذا فنعم، وإن أحببت زوجتك ابني الفضل، فقالت: وأي خير عزّ من هذا بل تلحقنا بحران فحملهنّ إليها.

فلمّا دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء فسبحان من لا يزول ملكه ولا يبقى إلّا وجهه.

فصل
السفاح

وهو عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب.

وفي عبدالمطلب يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب. وهو أوّل من أقام دولة بني العباس. وكنيته أبو العباس، وأُمه ريطة بنت عبدالله بن عبدالمدان الحارثي، وكان محمّد بن علي لمّا أراد أن يتزوج ريطة منعه الوليد بن عبدالملك، ثم سليمان بعده لأنهم كانوا يرون أنّ ملكهم يزول على يدي رجل من بني العباس يقال له: ابن الحارثية.

وكان بدؤو ذلك وأوله أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم العباس بن عبدالمطلب أنّ الخلافة تزول إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقّعون ذلك ويتحدّثون به بينهم. ثم أنّ أبا هاشم عبدالله بن محمّد بن علي المعروف بابن الحنفية خرج إلى الشام، فلقى محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس. فقال له: إنّ هذا الأمر الذي يرتجيه الناس فيكم فلا يسمعه منكم أحد.

وكان أبو هاشم صاحب الشيعة فأوصى إلى محمّد بن علي وصرف الشيعة إليه، ودفع إليه كتبه

ومات عنده بالحميمة في خلافة سليمان بن عبدالملك.

فلمّا ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة شكى إليه محمّد بن علي الوليد وسليمان، ومنعهما أياه أن يتزوج ريطة وسأله أن لا يمنعه زواجها، وكانت بنت خاله. فقال له عمر: تزوّج من شئت فتزوّجها، فولدت له أبا العباس السفاح، وكان خراب ملك بني أُمية على يديه كما كانوا يرون ذلك في الآثار.

وكان من حديث ابن الحارثية فيما حكى الهيثم بن عدي قال: حدّثني غير واحد ممن أدركته من المشايخ أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام صيّر الأمر إلى الحسن، فصيّره الحسن إلى معاوية، فكره ذلك الحسين ومحمّد بن الحنفية، فلمّا قتل الحسين عليه السلام، صار أمر الشيعة إلى محمّد بن الحنفية ـ يعني كأمر المختار وشبهه ـ لأنّ علي بن الحسين عليه السلام تخلّى وأقبل على العبادة حتى سمّي زين العابدين.

قال: والذي عليه الأكثر أنّ محمّد بن الحنفية أوصى إلى ابنه أبي هاشم، فلم يزل قائماً بأمر الشيعة، فلمّا كان في أيام سليمان بن عبدالملك أتاه وافداً فأكرمه سليمان، وقال: ما علمت قريشاً قط يشبه هذا فقضى حوائجه، ثم شخص يريد فلسطين.

فلمّا كان ببلاد لخم وجذام، ضربت له أبنية في الطريق ومعهم اللبن المسموم، فكل ما مرّ بقوم قالوا له: هل لك في الشراب، فقال: جزيتم خيراً، ثم مرّ بآخرين فعرضوا عليه، وهو يظنّهم من لخم وجذام، فقال: هاتوا فما استقر الشراب في جوفه، حتى قال لأصحابه: إنّي ميّت، انظروا من القوم؟ فإذا هم قد قوضوا أبنيتهم وذهبوا، فقال: ميلوا بي إلى ابن عمّي وأسرعوا، فإنّي أخشى أن لا ألحقه وأموت بغير وصيّة.

وكان محمّد بن علي والد أبي العباس السفاح بالحميمة من أرض الشراة.

فلمّا وصل إليه، قال له: يا ابن عمّي إنّي ميّت وأنت صاحب هذا الأمر وولدك ابن الحارثية القائم به، ثم أخوه من بعده، والله لا يتم هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من خراسان، ثم ليبلغنّ ما بين حضرموت وأقصى أفريقية، وما بين الهند وأقصى فرغانة، وعليك بهؤلاء الشيعة فهم دعاتك وأنصارك، ولتكن دعوتك خراسان ولا تتعدّاها، سيما مرو؛ واستبطن هذا الحي من اليمن؛ فإنّ كل ملك لا يقوم بهم فمصيره إلى انتقاض، وانظر إلى هذا الحي من قيس وتميم فاقصهم، إلّا من عصمه الله منهم وهم قليل، ثم منهم اثني عشر نقيباً، وبعدهم سبعون نقيباً، فإنّ الله لم يصلح أمر بني إسرائيل إلّا بهم، وقد فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا مضت سنة الحمار فوجه رسلك نحو خراسان، فمنهم من يقتل ومنهم من ينجوا حتىٰ يظهر الله عزّ وجلّ دعوتكم.

فقال محمّد بن علي: يا أبا هاشم! وما سنة الحمار؟ قال: قضى الله أنّه لم يمض مائة سنة من نُبَوّة

إلّا تنقض أمرها، لقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ -إلى قوله- وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾[1].

واعلم أنّ صاحب هذا الأمر من ولدك عبدالله بن الحارثية، ثم أخوه عبدالله، ولم يكن لمحمّد ابن علي في ذلك الوقت ولد يقال له ابن الحارثية.

ثم مات أبو هاشم وبقيت الشيعة تختلف إلى محمّد بن علي، فلمّا ولد له أبو العباس السفاح من الحارثية أخرجه إلى الشيعة في خرقة، وقال لهم: هذا صاحبكم فجعلوا يلمسون أطرافه، فلمّا مات محمّد بن علي أوصى إلى ابنه إبراهيم، وهو الذي يدّعى بالإمام فأخذه مروان بن محمّد فحبسه فهاجت الشيعة.

فقال لهم يقطين بن موسى -وكان من دعاتهم-: أنا أعرّفكم من يلي أمرنا بعده، فشخص إلى الشام ووقف لمروان بن محمّد يوماً وهو خارج إلى صلاة الجمعة، فقال له: يا أمير المؤمنين إني رجل تاجر قدمت بما تقدم به التجار، فادخلت إلى رجل له هيبة وجاه فابتاع منّي متاعاً كثيراً ولم يزل يسوفني بثمنه إلى أن جاءت رسلك، فأمرت بحبسه فإن رأيت أن تجمع بيني وبينه وتأخذ لي بحقي فافعل.

فقال مروان: لبعض خدمه يا غلام إذا نحن صلّينا فسر معه إلى إبراهيم بن محمّد، وقل له أخرج لهذا من حقّه، فلمّا قضى مروان الصلاة مضى الخادم بيقطين فأدخله على إبراهيم. فقال له يقطين: يا عدو الله إلى من تكلني؟ قال: إلى ابن الحارثية، فعاد يقطين إلى الشيعة فأعلمهم أنّ أبا العباس السفاح هو الإمام بعده.

فلمّا كانت سنة أحدى وثلاثين ومائة هزم قحطبة بن شبيب وكان من قواد الشيعة عسكر يزيد بن هبيرة، ثم فقد قحطبة وولي أخوه حميد مكانه، فمضى نحو الكوفة وقدمها أبو العباس السفاح، ومعه أخوه أبو جعفر المنصور، وعمه عبدالله بن علي، وجماعة من بني العباس، ودخلوا الكوفة في صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة بحمام أعين، فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم نحو من أربعين ليلة من جميع القوّاد والشيعة. وأراد فيما ذكر أن يحول الأمر إلى آل أبي طالب لمّا بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام.

ويحكى أنّ أبا العباس ومن معه لقيتهم امرأة في الطريق فنظرتهم ملياً، ثم قالت: سبحان الله فالتفت إليها أبو جعفر المنصور، وقال لها: ما شأنك يا أمة الله؟ قالت: ما رأيت أعجب من هذا؛ خليفة وخليفة وخارجي.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٩.

فقال لها: ما هذا الكلام؟ قالت: ليلين هذا ـ وأشارت إلى أبي العباس، ولتخلفنه أنت، وأشارت إلى أبي جعفر، وليخرجن عليك هذا، وأشارت إلى عبدالله بن علي، ولتقتلنّه أنت، وأشارت إلى أبي جعفر فكان الأمر كذلك.

وما ذكر خبر خروجه عليه عند ذكر أبي جعفر المنصور.

وقد ذكر هذا الخبر على وجه آخر يقرب من هذا، وذلك يحتمل حدوث أبو العباس والمنصور عن أبي البطاح عن إبراهيم بن السندي، عن أبيه، عن عبدالصمد بن علي، قال: لما أخذ مروان بن محمّد إبراهيم الإمام خرجت مع أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور وعبدالله بن علي فانتهينا إلى ماء من مياه بني تميم، فإذا نحن بامرأتين مقبلتين فوقفتا علينا، فقالتا: ما رأينا وجوهاً أكرم ولا أنظر ولا أصبح من خليفتين وأمير، فانتهرهما عبدالله بن علي ـ وكان فيه حدّة ـ، وقال: كفّا عنّا. فقالت أحداهما: أتغضب أيضاً!، إي والله إنّ هذا الخليفة وأشارت إلى أبي العباس، وإنّ هذا الخليفة ـ وأشارت إلى أبي جعفر، وإنّ هذا الأمير وأشارت إلى عبدالله بن علي وليضفرن بك هذا ـ وأشارت إلى أبي جعفر ـ فانتهرناهما جميعاً.

قال السندي: فقلت لعبدالصمد: فلم خرجت مع عبدالله بن علي وأنت قد سمعت هذا وعرفته؟ قال: كنت نسيته.

ولمّا عرفت الشيعة والقواد أنّ أبا العباس السفاح ومن معه من أهل بيته بالكوفة، لبسوا السلاح يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأوّل سنة اثنين وثلاثين ومائة، واصطفوا لخروج أبي العباس وأتوه بالدواب فركب برذوناً أبلق[1]، وركب من معه من أهل بيته، فدخلوا دار الإمارة ثم خرج إلى المسجد، فخطب وصلى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر مرة ثانية حين بويع له بالخلافة، فقام في أعلاه وصعد معه عمه داود بن علي فقام دونه.

فتكلم أبو العباس فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرّمه وشرّفه وعظّمه، وأختاره لنا وأيّدنا به، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه، والقوام به والذابّين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحقّ بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبيائه من شجرته، واشتقنا من شجرته واشتقنا من نبعته، وجعله من أنفسنا عزيز عليه ما عنتنا، حريصاً علينا بالمؤمنين رؤفاً رحيماً، وأنزل عليه كتاباً يتلى عليهم، فقال تبارك وتعالى فيما أنزل من

---

(١) برذون: دابة دون الخيل وأقدر من الحمر، يقع على الذكر والانثى، وأبلق: الذي فيه سواد وبياض. أقرب الموارد ١/٦٠ (بلق).

محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ﴾[٣]، وقال: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٥]، فأعلمهم جلّ ثناءه فضلنا وأوجب عليهم حقّنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبائية الضلال: أنّ غيرنا أحق بالرئاسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، بم ولم أيّها الناس؟! وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم، وإخوانا على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وآله.

فلمّا قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها ثم وثب بنو حرب، وبنوا مروان فابتزوها وتداولوها فجاروا فيها، واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقّنا ليمنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإنّي لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلاّ بالله.

ثم مدح أهل الكوفة وزاد عطائهم، وبعث عمّاله إلى البلاد، وجهّز الجيوش لحرب مروان، وملك الناس بالرغبة والرهبة.

فلمّا أستقر له الأمر قرب سليمان بن هشام بن عبدالملك.

فقصد سديف مولى بني هاشم الكوفة، فلمّا وصل إلى باب السفاح أناخ راحلته وعقلها بفاضل

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤) سورة الحشر: ٧.

(٥) سورة الأنفال: ٤١.

زمامها، ثم قال لها: أبشري يا ناقتي بالكرامة الكبرى والمسرّة العظمى، فقد بلغتك مامولِك.

فقال له رجل: يا هذا إنّك لعديم العقل؛ تخاطب ناقة عجماء! فنظر إليه شزرا وقال: نعم أخاطبها وأبشرها بالفرج، ثم قال:

أقول لها يا ناق قري وابشري ... بجود كريم الوالدين هجاني
فسوف غدا تلقين رجلا معظما ... له في الورى فضل ورفعة شاني
ألا انه السفاح والسيّد الذي ... له همةٌ تعلو بكل مكاني
أتت ناقتي تشكو إليه تعسفاً ... لما قد عراها من اذى السيراني

ودخل على السفاح ويده فوق يد سليمان بن هشام بن عبدالملك وأنشد من أبيات:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الظلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى ... لا يرى فوق ظهرها أموياً

فأمر السفاح سليمان فقتل في الحال فأنشأ سديف يقول:

أصبح الملك عالي الدرجات ... بكرام وسادة وحمات
يا سليل المطهرين من الرجس ... ويا رأس منبر الحاجات
لك اعني خليفة الله ذي المجد ... وأهل البهاء والحسنات
أي دهر أظلنا أي دهر ... قد خصصنا بالموت في الغمرات
قد دهتنا بنوا أمية حتى ... لبس الجسم منهم سقمات
واستباحوا حريمنا وسبونا ... ورمونا بالذل والنكبات
اين زيد واين عون ومن حل ... طريحاً مجندلا بالفرات
والإمام الذي بحران اضحى ... وإمام الهدى ورأس الثقات
كيف اسلو الحسين وهو قتيل ... شائع الرأس مهتك الحرمات

فقتل السفاح جميع من كان عنده من بني أمية وأنشأ يقول:

تناولت ثأري من أمية عنوة ... وحزت برأي عن هاشم وقيصرا
وألقيت ذلاً عن مفارق هاشمٍ ... وألبستها عزاً ومجداً ومفخرا

ثم قال:

حسبت أُمية ان سترضى هاشم ... عنها ويذهب زيدها وحسينها
كذبت وحق محمّد ووصيه ... حقا ستنظر ما يسوء ظنونها
وتذل كل خليلة لخليلها ... بالمشرفي وتستقص ديونها

ليلى ستعلم أي دين أجلت أيضاً ومن هو في الأنام زبونها

وأمّا عمه عبدالله بن علي فكان عنده بالشام بعد أن هزم مروان وقتله نحو سبعين رجلاً من بني أُمية وقد اجتمعوا للطعام.

فدخل شبل بن عبدالله مولى بني هاشم وأنشده:

أصبح الملك ثابت في الأساس بالبهاليل[1] من بني العباس
طلبوا وتر هاشم وشفوها بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً واقطعن كل رقلة وغراس
ذلها أظهر التودد منها وبها منكم كحد المواسي
فلقد غاضني وغاض لغيري قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وشهيد بجانب المهراسِ[2]
والقتيل الذي بحران اضحى ثاوياً بين غربة وتناسِ

فأمر عبدالله بهم فضربوا مكانهم بالعمد حتى ماتوا، وبسط عليهم الأنطاع، ومد عليهم الطعام وأكل الناس فوقهم، وأنين بعضهم يسمع.

ونبش عبدالله بن علي بدمشق قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلّا خيطاً كالهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه خيطاً كالرماد، ونبش قبر عبدالملك بن مروان فوجدوا فيه جمجمة، وكان لا يوجد في القبر العضو غير هشام بن عبدالملك فإنّه وجد صحيحاً لم يبل منه إلّا أرنبة أنفه، فضربه عبدالله بالسياط ثمانين سوطاً، وصلبه وحرقه وأذرا رماده في الريح، كما فعلوا بزيد بن علي بن الحسين.

واستخرج سليمان بن عبدالملك من أرض دانق فلم يجدوا إلّا صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقوه.

وقتل أولاد بني أمية عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلّا رضيع أو من هرب إلى الأندلس، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك. فلمّا فرغ منهم قال:

بني أُميّة قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأوّل الماضي

---

(١) البهاليل: جمع بهلول، قال المبرد: والبهلول: الضحاك.

(٢) يعني بزيد، زيد بن علي بن الحسين بن علي عليه السلام، وكان قد خرج على هشام بن عبدالملك فقتله وصلبه.
وشهيد بجانب المهراس: يريد حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه والمهراس: ماء بأحد.

يطيب للناس ان النار تجمعكم عوضتم من لضاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
ان كان غيظي لفوت منكم فلقد رضيت منكم بما ربي به راضي

وقتل سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس بالبصرة أيضاً جماعة من بني أمية وأطعمهم الكلاب.

فلمّا رأى بنو أمية ذلك أشتدّ خوفهم، وتشتت شملهم، وأختفى من قدر على الاختفاء منهم. وكان ممن اختفى منهم عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان.

قال: فكنت لا أتي مكاناً إلّا عرفت فيه فضاقت عليّ الأرض، فقصدت سليمان بن علي وهو لا يعرفني، فقلت له: لفظتني البلاد إليك ودلّني فضلك عليك، فإمّا قتلتني فاسترحت وإمّا رددتني سالماً فأمنت.

فقال: ومن أنت؟ فعرّفته نفسي. فقال: مرحباً بك ما حاجتك؟ فقلت له: إنّ الحرم اللواتي أنت أولى الناس بهن، وأقربهم إليهن قد خفن لخوفنا، ومن خاف خيف عليه.

قال: فبكى كثيراً، ثم قال: بل يحقن الله دمك ويوفر مالك ويحفظ حرمك.

ثم كتب إلى السفاح يا أمير المؤمنين أنّه قد دفت دافة من بني أمية علينا وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإيّاهم عبدمناف فالرحم تبل ولا تقتل، وترفع ولا توضع؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان، شكراً لله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا، فأجابه إلى ما سأل. وكان هذا أوّل أمان لبني أمية.

وولي السفاح أخاه يحيى بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس الموصل، وأخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وما يليها، وعمّه داود بن علي مكة والمدينة واليمن واليمامة، وابن أخيه عيسى ابن موسى ابن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس الكوفة وسوادها.

وكان على الشام عمه عبدالله بن علي، وعلى البصرة عمه سليمان بن علي، وعلى مصر أبو عون ابن يزيد الأزدي، وعلى خراسان أبو مسلم الخراساني، وخلع أبو الورد بن الكوثر من أصحاب مروان طاعة بني العباس، فسار إليه عبدالله بن علي وهو بقنسرين في جمع عظيم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وثبت أبو الورد حتى قتل وانهزم أصحابه. وجدد عبدالله بيعة أهل قنسرين وعاد إلى دمشق، وكان قد خرج من بها عن الطاعة، ونهبوا أهل عبدالله فهربوا منه حين عاد ثم آمنهم فرجعوا.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وقيل في سنة ثمان وثلاثين ومائة نازل طاغية الروم أليون بن قسطنطين ملطية وألح عليهم بالقتال حتى سلموها بالأمان، فهدم المدينة والجامع وأرسل مع

المسلمين عسكراً حتى يبلغوهم مأمنهم.

وفي سنة أربع وثلاثين ومائة تحوّل السفاح عن الكوفة فنزل الأنبار.

ومن أخباره أنّه كان قد تزوج قبل الخلافة أم سلمة بنت يعقوب من بني مخزوم، وكانت قبله عند عبد الوليد بن عبد الملك، ثم عند هشام بن عبدالملك، وكان لها مال عظيم وخدم وحشم، ولمّا دخل عليها وجدها قد كللت كل عضو من أعضائها بالجوهر، فحظيت عنده وحلف لها أنّه لا يتزوج عليها ولا يتسرى، فغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمراً إلّا بمشورتها.

فخلى به يوماً خالد بن صفوان وكان من أهل الفصاحة واللسان، فقال: يا أمير المؤمنين: إنّي فكّرت في أمرك وسعة ملكك، وأنّك قد ملّكت امرأة واقتصرت عليها، فإن مرضت مرضت وأحرمت نفسك التلذذ بالجواري واستظرافهن، ومعرفة اختلاف حالاتهنّ والنفع بما يكون منهنّ؛ إذ منهنّ الطويلة الغيداء، والفضة البيضاء، والعفيفة الادماء، والدقيقة السمراء، والزهرة العجزاء، من مولدات المدينة، يفتن بمجاورتهن ويلذ بخلوتهم، وأين أمير المؤمنين عن بنات الأتراك والنظر إلى ما عندهن من التحمير والتعطر وحسن الخدمة، وجعل خالد يطيل الوصف بفصاحته وعذوبة لسانه.

فلمّا فرغ من كلامه أصغا له أبو العباس وحسن موقعه منه وتشوّق إلى ما سمعه من كلامه، ثم قال له: انصرف ويقى أبو العباس مفكّراً فيما سمع.

فدخلت عليه أم سلمة فأنكرت ما رأت من فكره وقلّة بشره، وقد كان وفى لها بما شرط لها، فقالت: يا أمير المؤمنين: هل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له؟ قال: لا والحمد لله، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد. فقالت: فما قلت لابن الزانية؟ قال: سبحان الله ينصحني وأزجره.

فأرسلت أم سلمة مواليها من النجارية إلى خالد. وقالت لهم: أضربوه بالمقارع حتى يموت.

قال خالد: فخرجت مسروراً بما رأيت من أمير المؤمنين فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بعبيد تسأل عنّي، فتحققت الصلة فقلت ها: أنا ذا فأهوى إليّ أحدهم بخشبة فأيقنت بالشر، فركضت برذوني وضربت أحدهم كفّاً وتعادى الباقون خلفي، ففتهم ركضاً فأتيت منزلي فاختبأت فيه ولم أخرج، فلم أشعر بعد أيام إلّا والقوم قد هجموا علي يقولون: أجب أمير المؤمنين، فركبت إليه وأنا آيس من الحياة، فدخلت عليه في بيت فيه سور مرخاة في ناحية من البيت. فقال لي: يا خالد أين كنت؟ قلت: مالي من غيبة يا أمير المؤمنين. قال: يا خالد كنت وصفت لي سيرة النساء فاعدها لي.

قال خالد: وسمعت حركة من خلف الستر، فعلمت أنّه أمر مصنوع، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين حدّثتك أنّ العرب أخذت اسم الضرّة من الضرر. قال: لم يكن هذا حديثك! قلت: وحدثتك أنّ

الثلاث نساء للرجل، كثلاث دجاجات في قدر يغلي عليها قلبه.

قال: لم يكن هذا حديثك! قلت: وأخبرتك أنّ الأربع نساء شر مجموع لمن كن عنده، يقهرنه ويهرمنه. قال: ما سمعت هذا منك! قلت: بلى بهذا حدّثتك.

قال: أفتكذبني؟ قلت: أفتقتلني؟ وأخبرتك أنّ أبكار النساء رجال إلّا أنهنّ لا خصى لهن.

قال: فسمعت ضحكاً من خلف الستر، فقلت: نعم وأخبرتك أنّ بني مخزوم ريحانة قريش، وأنّ عندك ريحانة من الرياحين، فلا تطمح بعينيك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإماء.

فسكت أبو العباس متعجّباً، وقيل من وراء الستر صدقت يا عمّاه وبررت وانصفت، بهذا حدثته ولكنّه غير حديثك، ونطق به على لسانك. قال: فانسللت وخرجت فبعثت إليّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وتخت ثياب وبرذون، فكان أبو العباس إذا رآني بعد ذلك تبسّم ضاحكاً.

وفي سنة ست وثلاثين ومائة توفّي أبو العباس السفاح بالأنبار في ذي الحجة بالجدري، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، ومدة خلافته من بعد مروان أربع سنين وقبله ثمانية أشهر، وعهد بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى.

قال جعفر بن يحيى: نظر السفاح يوماً في المرآة وكان من أجمل الناس وجهاً طويلاً أبيض أقنى الأنف حسن الوجه واللحية، فقال: اللهمّ إنّي لا أقول كما قال سليمان بن عبدالملك: أنا الملك الشاب، ولكن أقول: اللهمّ عمّرني طويلاً في طاعتك متمتعاً بالعافية، فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لغلام الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام، فتطير من كلامه، وقال: حسبي الله لا قوّة إلّا بالله عليه توكّلت وبه أستعين، فما مضت الأيام حتى أخذته الحمّى واتصل مرضه فمات بعد شهرين وخمسة أيام، وصلّى عليه عمه عيسى بن علي ودفنه بالأنبار العتيقة.

فصل
أبي جعفر المنصور

واسمه عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، وفي عبدالمطلب يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب، وكنيته أبو جعفر المنصور، وكان أسمر نحيفاً خفيف العارضين، ولد بالحميمة من أرض الشراة، قيل أنّه كان من أهل العلم البارع في جميع الأشياء.

حدّث عنه شبيب بن شيبة الانعمي التميمي، قال: حججت في العام الذي هلك فيه هشام بن عبدالملك، وولي الوليد بن يزيد بن عبدالملك، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة، فبينما أنا

جالس في ناحية من المسجد الحرام، إذ أقبل علينا من بعض أبوابه فتى أسمر اللون، رقيق البشرة، موفّر خفيف اللحية، رحب الجبهة، أقنى الأنف، كأنّ بين عينيه لساناً ناطق، عليه هيبة الملوك، تقبله القلوب وتتبعه العيون، يعرف الشرف في تواضعه، والعقل في صورته، واللب في مشيته، فما ملكت نفسي أن نهضت في أثره مسائلاً عنه وعن خبره، فسبقني وأحرم بالطواف فلمّا فرغ من الطواف ركع عند المقام ركعتين، وأنا أرعاه ببصري، ثم نهض منصرفاً فأصابته كبوة في الحرم، دميت لها إصبع رجْله، فجلس لها مقرفصاً فدنوت منه متوجعاً لما نابه، متّصلاً به أمسح رجله من أثر التراب، فلم يمتنع علي فشققت حاشية ثوبي وعصبت بها أصبعه، وما ينكر ذلك ولا يدفعه، ثم نهض متوكئاً عليّ فانقدت له أماشيه حتى أتى داراً بأعلى مكة، فابتدره رجلان تكاد صدورهم تنفرج من هيبته، ففتحوا له الباب فدخل وجذبني فدخلت معه، ثم خلى يدي وأقبل على القبلة فصلّى ركعتين أوجزهما في تمام، ثم أستوى في صدر مجلسه فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أتمّ صلاة وأطيبها، ثم قال لي: لم تخف عليّ مكانك منذ اليوم، ولا فعلك بي فمن تكون يرحمك الله؟ فقلت: شبيب بن شيبة التميمي، قال: الانعمي؟ قلت: نعم. قال: فرحّب وقرب ووصف قومي بأبين بيان، وأفصح لسان. فقلت له: أنا أجلك عن المسألة يرحمك الله وأحب المعرفة. فتبسّم ضاحكاً، وقال: لطف أهل العراق، أنا عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس. فقلت له: بأبي أنت وأمي ما أشبهك بنسبك وأدّلك على منصبك، ولقد سبق إلى قلبي من محبتك مالا أبلغه بوصفي لك. قال: فاحمد الله يا أخا بني تميم، فإنّا قوم يسعد الله من أحبنا بحبه، ويشقى من أبغضنا ببغضه، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ورسوله وأهل بيته، ومهما ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه. فقلت له: أنت توصف بالعلم، وأنا من حملته، وأيام الموسم ضيفة، وشغل أهله كثير، وفي نفسي أشياء أحب أن أسألك عنها، أفتأذن لي فيها؟ فقال: نحن من أكثر الناس مستوحشون، وأرجو أن يكون للستر موضعاً وللأمانة راعياً، فإن كنت كما رجوت فافعل. قال: فقدمت له من القول والإيمان ما سكن إليه، فتلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[1]، ثم قال: سل عمّا شئت، قلت: ما ترى فيمن على الموسم؟ وكان عليه يوسف بن محمّد بن يوسف الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فتنفس الصعداء، وقال: عن الصلاة خلفه تسألني أم كرهت أن يتأمّر على آل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من ليس منهم؟ فقلت: عن كلا الأمرين سألت. قال: إنّ هذا عند الله عظيم، فأمّا الصلاة ففرض لله تعبد بها خلقه، فأد

---

(١) سورة الانعام: ١٩.

ما فرض الله عليك في كل وقت، ومع كل أحد، وعلى كل حال، فإنّ الذي قرّبك لحج بيته وحضور جماعته وأعياده، لم يخبرك في كتابه أنّه لا يقبل نسكا إلّا مع أكمل المؤمنين إيماناً رحمة منه لك، ولو فعل بك ذلك لضاق الأمر عليك، فاسمح يسمح لك، ولا يحتاج أقول لك الجواب الثاني؛ لأنّ بجواب الدين حصل الجواب عن الدنيا.

قال: ثم سألته عن أشياء من أمر ديني، فلم أحتج أن أسأل عن أمر ديني أحداً بعده، ثم قلت: يزعم أهل العلم أنّه ستكون لكم دولة. فقال: لا شك في ذلك تطلع طلوع الشمس وتظهر ظهورها، فنسأل الله خيرها ونعوذ به من شرها، فخذ بخظ لسانك ويدك منها إن أدركتها. قلت: أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم ساداتها؟ فقال: نعم، قوم يأبون إلّا الوفاء لمن اصطنعهم، ونأبى إلّا طلباً لحقنا، فننصر ويخذلون كما نصرنا وأنا أوّلهم[1]. قال: فاسترجعت، فقال: سهّل عليك الأمر: ﴿**سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[2]، وليس ما يكون منهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم وحفظ أعقابهم وتجديد الصنعة عندهم.

قلت: وكيف تسلم لهم قلوبكم وقد قاتلوكم؟ فقال: نحن قوم قد حبب إلينا الوفاء وإن كان علينا، وبُغّض إلينا الغدر وإن كان لنا، فأمّا أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا وأمراء جيوشنا فهم ومواليهم منا، وموالي القوم من أنفسهم، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا بالمحسن عن المسيء، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل بأنسابه، فتذهب الثائرة وتخف الفتنة وتطمئن القلوب.

فقلت: ويقال أنّه يبتلى بكم من أخلص المحبة لكم؟ فقال: قد روي أنّ البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره. قلت: لم هذا؟ قال: يرفعون الولي ويحطون العدو، ثم قال: من يسعد بنا من أوليائنا أكثر، وإنّا نحن بشر وأكثرنا أذن، ولا يعلم الغيب إلّا الله، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك. فإنّ مع الولي النصر والإذلال والثقة والاسترسال، ومع العدو التحرز والاحتيال والتذلل. وربما أمل المذل وأخل المسترسل، وإنّك لسؤول يا أخا بني تميم.

قلت: إنّي أخاف أن لا أراك بعد اليوم. قال: أرجوا أن أراك وتراني كما تحب عن قريب إن شاء الله تعالى. فقلت: عجل الله ذلك. قال: آمين. قلت: ووهب لي السلامة منكم لأنّي من محبيكم. فقال: آمين وتبسّم، وقال: لا بأس عليك أعاذك الله من ثلاث. قلت: ما هن؟ قال: قدح في الملك، أو هتك في الدين، أو تهمة في حرمة.

---

(١) في العقد الفريد: (كما نصر بأولنا أولهم).

(٢) سورة الفتح: ٢٣.

ثم قال: خذ عنّي ما أقول لك، لا تجالس عدونا وإن أحظيناه فإنّه مخذول، ولا تخذل وليّنا وإن أقصيناه فإنّه منصور، واصحبنا بترك المماكرة وكن متواضعاً إذا رفعوك، وصِل إذا قطعوك، ولا تخطب الأعمال ولا تتعرض للأموال وأنا رائح عنك غداً فهل من حاجة؟ فنهضت لوداعه، ثم قلت له: أتوقت لظهور الأمر؟

فقال: الله الموقت، وقد قامت النوحيات بالشام، وهما آخر العلامات. قلت: وما هما؟

قال: موت هشام العام، وموت محمّد بن علي آخر ذي القعدة، وعليه تخلفت. قلت: فهل أوصى؟ قال: نعم إلى أخي إبراهيم.

قال: فلمّا خرجت تبعني مولى له بكسوة، وقال: يقول لك أبو جعفر خذ هذه فصل فيها، وافترقنا فوالله ما رأيته إلّا وحرسيّان قابضان على يدي ليدنوني منه في جماعة من قومي لإبايعه، فلمّا نظر إليّ عرفني. فقال: خليا عمن صحت مودته وتقدمت خدمته وأخذت قبل اليوم بيعته، فأكثر الناس من قوله العجب. ثم قال لي: أين كنت عنّي أيام أخي أبو العباس؟ فذهبت أعتذر إليه. فقال: أمسك فإنّ لكل شيء وقت لا يعدوه، فاختر بين رزق يسعك أو عمل يرفعك. فقلت: أنا حافظ لوصيتك. قال: وأنا لها أحفظ، إنّما نهيتك أن تخطب الأعمال ولم أنهك عن قبولها. قلت: الرزق مع قبول أمير المؤمنين أحبّ إليّ، قال: هو أحسن لقلبك وأحب إلي لك.

ثم قال: هل زدت فى عيالك شيئاً بعدنا، وقد كان سألني عنهم فذكرتهم له فعجبت من حفظه، وقلت: الفرس والغلام.

قال: الحق عيالك بعيالنا، وخادمك بخدمنا، وفرسك بأفراسنا، ولو وسعني لحملت لك من بيت المال، وقد ضممتك إلى المهدي وأنا موصيه بك فإنّه أفرغ لك منّي[1].

وذكر أنّ بيعة أبي جعفر كانت بمكة في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وكان أخوه أبو العباس السفاح عقد له الخلافة من بعده، وجعله ولي عهد المسلمين، ومن بعد أبي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس، وجعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى.

فلمّا دخلت سنة ست وثلاثين ومائة كتب أبو مسلم الخراساني إلى السفاح يشاوره في القدوم عليه والحج وكان مذلل خراسان لم يفارقها إلى هذه السنة، فكتب إليه السفاح يأمره بالقدوم عليه وأمر القواد وسائر الناس أن يتلقوه فدخل أبو مسلم على السفاح فأكرمه وأعظمه ثم استأذن السفاح

---

(١) العقد الفريد ٢٤٩/٢.

في الحج فأذن له، وقال: لولا أنّ أبا جعفر يريد الحج لاستعملتك على الموسم، وكتب السفاح إلى أبي جعفر أنّ أبا مسلم يريد الحج ويريد أن يسألني أن أوليه الموسم فاكتب إليّ تستأذنني في الحج فإنّك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك، فكتب أبو جعفر إلى أخيه السفاح يستأذنه في الحج فأذن له، فقال أبو مسلم: ما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا وحجا معاً.

وتوفّي السفاح في ذي الحجة هذه السنة وأبو جعفر بمكة فأخذ البيعة لأبي جعفر عيسى بن موسى، وكتب إليه يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له، فلقيه الرسول بمنزل صفية، فقال: صفت لنا إن شاء الله وكتب إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان أبو جعفر قد تقدم فأقبل أبو مسلم إليه.

فلمّا جلس ألقى إليه الكتاب فقرأه وبكى واسترجع، ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً، فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ قال: أتخوف شر عمّي عبدالله بن علي وشيعة علي. قال: لا تخفه فإنّا أكفيكه إن شاء الله، إنّما عامة جنده ومن معه أهل خراسان، وهم لا يعصونني فسرى عنه الجزع.

وبايع له أبو مسلم والناس، وأقبلا حتى دخلا الكوفة. فصلى بها أبو جعفر وبايعه الناس وأقام بالأنبار.

فقام عمه عبدالله بن علي بالشام، لمّا ورد عليه كتاب عيسى بن موسى يخبره بموت السفاح، ويأمره بالبيعة لأبي جعفر، فأمر عبدالله منادياً فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح، ودعا الناس إلى نفسه وأعلمهم أنّ السفاح حين أراد أن يوجّه الجنود إلى مروان بن محمّد دعا بني العباس فأرادهم على المسير إليه، وقال: من انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي، فلم ينتدب غيري وعلى هذا خرجت من عنده، وقتلت من قتلت.

وشهد له أبو غانم الطائي، وخفاف المروزي وغيرهما من القواد فبايعوه.

فقال أبو مسلم لأبي جعفر: إن شئت جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك، وإن شئت أتيت خراسان فأمددتك بالجنود، وإن شئت سرت إلى حرب عبدالله بن علي، فأمره بالمسير لحرب عبدالله بن علي.

فسار أبو مسلم في الجنود نحو عبدالله ولم يتخلف عنه أحد، وجعل على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي.

فلمّا بلغ عبدالله بن علي إقبال أبي مسلم نحوه خشي أن لا يناصحه أهل خراسان، فقتل منهم نحو من سبعة عشر ألفاً.

وأقبل عبدالله بن علي حتى نزل نصيبين وخندق عليه.

وقدم أبو مسلم فيمن معه فنزل ناحية نصيبين، فأخذ طريق الشام ولم يعرض لعبدالله.

وكتب إليه: إنّي لم أومر بقتالك، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام فأنا أريدها.

فقال: من كان مع عبدالله من أهل الشام لعبدالله،كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا، ولكنّا نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله، فقال لهم عبدالله: إنّه والله ما يريد الشام وما توجّه إلّا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم، فأبوا إلّا المسير إلى الشام، وأبو مسلم قريب منهم فارتحل عبدالله نحو الشام، وتحول أبو مسلم فنزل في معسكر عبدالله بن علي في موضعه وغور ما حوله من المياه وألقى فيها الجيف. وبلغ عبدالله ذلك، فقال لأصحابه: ألم أقل لكم! ورجع فنزل في موضع عسكر أبي مسلم الذي كان به، فاقتتلوا خمسة أشهر عدة وقعات، وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة، فحملوا على عسكر أبي مسلم فأزالوه عن موضعهم وقتلوا منهم، فأمر أبو مسلم منادياً فنادى: يا أهل خراسان ارجعوا فإنّ العاقبة لمن اتقى فتراجع الناس إليه.

فلمّا كان يوم الثلاثاء والأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخر سنة سبع وثلاثين ومائة، التقوا فاقتتلوا فمكر بهم أبو مسلم فانهزم أصحاب عبدالله بن علي. فقال عبدالله لابن سراقة الأزدي: ياابن سراقة ما ترى؟ قال: أرى أن نصبر ونقاتل حتى نموت، فإنّ الفرار قبيح بمثلك؛ وقد عبته على مروان. قال: فإنّي أتي العراق قال: فأنا معك، فانهزموا وتركوا عسكرهم فحواه أبو مسلم، وكتب بذلك إلى المنصور فأرسل أبا الخطيب مولاه يحصي ما أصابوا من العسكر. فغضب وقال: أنا أمين على الدماء، خائن في الأموال، وشتم المنصور فرجع أبو الخطيب إلى المنصور فأخبره، فخاف أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان ويفسد عليه الأمور.

فكتب إليه بولايته مصر والشام وصرفه عن خراسان فلم يجب، وسار إلى قصد خراسان، وكانت أمواله وخزائنه بالري، فتغير أبو جعفر المنصور لذلك وطلب أبا مسلم مراراً آخرها مع أبي حميد المروزي. وقال له: كلّم أبا مسلم بألين ما تكلّم به أحد أو امنه واعلمه أنّي رافعه وصانع به ما لم يصنعه أحد، إن هو صلح ورجع إلى ما أحب، فإن أبى أن يرجع فقل له: يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا بريئ من محمدﷺ، إن مضيت مشاقاً ولم تأتني، إن وكلت أمرك إلى أحد سواي، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسي، ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار اقتحمتها، حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك، ولا تقولن له هذا الكلام حتى تيأس من رجوعه ولا تطمع منه في خير.

فسار أبو حميد فقدم على أبي مسلم بحلوان، فدفع إليه كتاب المنصور ولاينه في الكلام جداً، فأبى وقال: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن أتيه. قال: قد عزمت على خلافه. قال: نعم، قال:

لا تفعل، قال: لا أعود إليه أبداً، فلمّا آيس من رجوعه معه. قال له: ما أمره به أبو جعفر، فوجم طويلاً، ثم قال: قم. فقام عنه وقد كسره ذلك القول ورعبه.

وكان أبو جعفر قد جاء إلى المدائن وكتب إلى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان حين اتهم أبا مسلم أنّ لك إمرة خراسان ما بقيت، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم إنّا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وآله، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلّا بإذنه، فوافاه كتابه على تلك الحال فزاده رعباً وهماً.

فأرسل إلى حميد وقال له: إنّي كنت عازماً على المضي إلى خراسان، ثم رأيت أنّ أوجه أبا إسحاق إلى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه، فإنّه ممن أثق به فوجهه، فلمّا قدم تلقّاه بنوا هاشم بكل ما يحب، وقال له المنصور: اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك ولاية خراسان، وأجازه فرجع أبو إسحاق وقال لأبي مسلم: ما أنكرت شيئاً رأيتهم معظمين لحقك، يرون لك ما يرون لأنفسهم، وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين، فيعتذر إليه ممّا كان منه فأجمع على ذلك.

فقال له: نيزك قد اجمعت على الرجوع؟ قال: نعم وتمثل:

ما للرجال مع القضاء محالة   ذهب القضاء بحيلة الأقوام

قال: إذا عزمت على هذا فخار الله لك احفظ عنّي واحدة، إذا دخلت عليه فاقتله، ثم بايع لمن شئت فإنّ الناس لا يخالفونك.

وكتب أبو مسلم إلى المنصور يخبره أنّه منصرف إليه وسار نحوه في ثلاثة آلاف رجل إلى المدائن، وأخّر باقي عسكره بحلوان.

فلمّا دنى أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه فتلقاه بنو هاشم والناس، فدخل على المنصور فقبّل يده فأمره أن ينصرف ويروح نفسه ليلته ويدخل الحمام فانصرف.

فلمّا كان الغد دعا المنصور عثمان ابن نهيك وأربعة من الحرس، منهم شبيب بن رواح، وأبو حنيفة حرب بن قيس، فأمرهم بقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه وتركهم خلف السرادق، وأرسل إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان عند عيسى بن موسى يتغدى فدخل على المنصور.

فلمّا جلس بين يديه، قال له أبو جعفر: أخبرني عن نصلين[1] أصبتهما مع عبيدالله بن علي؟ قال: هذا أحدهما. قال أرنيه، فانتضاه وناوله إيّاه، فوضعه أبو جعفر تحت فراشه، وأقبل عليه يعاتبه ويعدد عليه وكان اسمه عبدالرحمن، ويقول له: يا عبدالرحمن أنت الذي فعلت كذا وكذا، لأمور

---

(١) في البداية والنهاية ١٠/٧٥، السيفان.

كان قد قصر فيها بحق أبي جعفر، وأنت الذي كتبت إليّ تبدأ بنفسك؟ وتخطب عمتي أمينة بنت علي؟ وتزعم أنّك ابن سليط بن عبدالله بن العباس؟! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً، فجعل يقول: يا أمير المؤمنين أبقني لأعينك على أعدائك، فقال له: يابن الفاعلة ويلي عليك وأي عدو أعدى لي منك، لا أبقاني الله إن أبقيت عليك، وشتمه وصفق بيده على الأخرى، فخرج عليه القوم بأسيافهم فقطعوه، وكان أوّل من ضربه عثمان بن نهيك فقدّه إلى حمائل سيفه. فقال أبو جعفر: هذا جزاء من تعدا طوره ثم قال[1]:

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأساً كنت تسقي بها أمر في الحلق من العلقم

وكان مقتل أبي مسلمة في شعبان بالمدائن سنة سبع وثلاثين ومائة، وكان قد قتل في دولته ستمائة ألف صبراً، وقيل أنّه أحصى كل ما قتل أبو مسلم في حروبه مع بني أمية وقوّادهم فوجدوا ذلك ألف ألف.

ولمّا قتل دخل أبو الجهم على المنصور فرأى أبا مسلم قتيلاً، فقال: ألا أرد الناس؟ قال: بلى. قال: فمر بمتاع يحمل إلى رواق آخر وخرج أبو الجهم، فقال: انصرفوا فإنّ الأمير يريد القائلة عند أمير المؤمنين، ورأوا المتاع ينقل فظنوه صادقاً فانصرفوا.

وأذن لهم المنصور بالجوائز فأعطى أبا إسحاق مائة ألف.

ودخل عيسى بن موسى على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان هاهنا، فقال عيسى: قد عرفت نصيحته وطاعته ورأى الإمام إبراهيم وما كان فيه. فقال: يا أحمق! والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه، ها هو ذا في البساط. فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون، وكان لعيسى فيه رأي. فقال له المنصور: خلع الله قلبك، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم.

وذكر أنّه لما حجّ أبو مسلم قيل له أنّ بالحيرة نصرانيّاً قد أتت عليه مائتا سنة، وعنده علم من العلم الأوّل، فوجّه إليه فأتي به. فلمّا نظر الشيخ النصراني إلى أبي مسلم، قال له: قدمت بالكفاية ولم تنل العناية، وقد بلغت النهاية وأحرقت نفسك لمن سيقتلك، حسبك وكأنّي بك وقد عاينت رمسك، فبكى أبو مسلم. فقال له النصراني: لا تبك لم تؤت من حزم ولا من رأي ولا من تدبير نافع ولا من سيف قاطع، ولكن ما اجتمع لأحد أمله إلّا أسرع إليه أجله وعند التناهي يكون الفرج.

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٥٦/٦.

قال: فما تراه يكون؟ قال: إذا تواطأ الخليفتان على أمركان والتقدير في يد من يبطل معه التدبير، ولو رجعت إلى خراسان سلمت وهيهات فأراد الرجوع فلم يتفق له، فلولا أنّ البصر يعمى إذا نزل القدر، لكانت هذه دلالة تقع موقع العيان، وتبعث على التيقظ في الحذر والاحتيال في الهرب، ولكن لكل نفس غاية، ولكل أمر نهاية.

قال ابن خلكان: إنّ أبا مسلم من قرية من قرى خراسان، وأنّ أباه رأى في منامه كأنّه جلس للبول فخرج من إحليله نار وارتفعت في السماء، وسدّت الآفاق وأضلت الأرض، ووقعت بناحية المشرق، فولد له أبو مسلم من جارية بعد موت أبيه، وكان أبو مسلم قصيراً، اسمراً، جميلاً، حلو المنطق، فصيحاً بالعربية والفارسية، ورؤية للشعر، عالماً بالأمور، لم ير ضاحكاً ولا مازحاً، ولا يأتي النساء إلّا مرة واحدة في الشهر، ويقول: الجماع جنون، ويكفي الإنسان أن يجن في الشهر مرة.

وقيل: أنّه كان لقيطاً قد ربّاه محمّد بن علي والد المنصور، فلمّا بلغ أحدى وعشرين سنة قدّمه على الشيعة، ولم يزل يقود الجيوش ويدوخ الأرض، ويقتل أتباع مروان بن محمّد بكل موضع، وأبو العباس السفاح مختف في تلك المدة، وكان فاتكاً شجاعاً ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ومروءة.

وقيل له بما نلت ما أنت فيه من القهر للاعداء؟ فقال: ارتديت الصبر، واثرت الكتمان، وخالفت الأحزان والأشجان، وسامحت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همّتي وأدركت نهاية بغيتي. ثم قال:

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
طفقت اسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا
ما زلت أضربهم بالسيف فانتبهوا ... من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقيل لعبدالله بن المبارك أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج؟ قال: لا أقول أنّ أبا مسلم خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان أشرّ منه.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة، وسّع المنصور المسجد الحرام ـ شرّفه الله تعالى ـ.

وفيها: نزل أليون بن قسطنطين بدانق في مائة ألف، فخرج إليه صالح بن علي عمّ المنصور فهزمه ولله الحمد والمنة.

وفي سنة تسع وثلاثين ومائة ظفر المنصور بعمه عبدالله بن علي، وكان مستخفياً عند أخيه سليمان بن علي في البصرة، وسلمه لعيسى بن موسى وأمره بقتله، فدعى عيسى يونس بن فروة وأخبره الخبر، فقال: أراد أن يقتله ثم يقتلك؛ لأنّه أمر بقتله سرّاً ثم يدعيه عليك علانية، فلا تقتله

ولا تدفعه إليه سراً أبداً. وكتب يستعلم من عيسى ما فعل، فكيف إنّي قد انفذت ما أمرت بـه، فوضع المنصور على أعمامه من يحركهم على الشفاعة في أخيهم عبدالله بن علي، ففعلوا وشفعوا فيه فشفعهم. وقال لعيسى: إنّي كنت دفعت إليك عمّي وعمّك عبدالله ليكون في منزلك، وقـد كلمني عمومتك فيه وقد صفحت عنه فأتنا به. قال: يا أمير المؤمنين، ألم تأمرني بقتله فقتلته؟ قال: ما أمرتك. قال: بلى قد أمرتني. قال: ما أمرتك إلّا بحبسه وقد كذبت.

ثم قال المنصور لعمومته: إنّ هذا نداء لكم بقتل أخيكم، قالوا: فادفعه إلينا نقيده به، فسلمه إليهم وخرجوا به إلى الرحبة.

واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدهم ليقتله، فقال له عيسى: أفاعل أنت! قال: إي والله. قال: ردّوني إلى أمير المؤمنين فردّوه إليه. فقال له: إنّما أردت بقتله أن تقتلني، هذا عمك حي سوي. قال: أتينا به فأتى به. قال: يدخل حتى أرى رأي، ثم انصرفوا ثم أمر به فجعل في بيت أساسه ملح، وأجرى الماء في أساسه، فسقط عليه البيت فمات، ودفن في مقابر باب الشام، وكان عمره اثنين وخمسين سنة.

قيل وركب المنصور يوماً ومعه ابن عياش، فقال له المنصور: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين، قتلت ثلاث خوارج أسماؤهم على العين؟ قال: لا أعرف إلّا ما تقول العامّة: أنّ علياً قتل عثمان، وكذبوا؛ وعبدالملك بن مروان قتل عبدالرحمن بن الأشعث؛ وعبدالله بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص؛ وعبدالله بن علي سقط عليه البيت. فقال المنصور: إذا سقط عليه البيت فما ذنبي أنا؟ قال: ما قلت أنّ لك ذنباً.

وهو أوّل من قتل عمه في الإسلام على الملك.

روي أنّه قال: رأيت كأنّي حول الكعبة وإذا مناد من جوف الكعبة يا أبا العباس فـنهض أخـي ودخل الكعبة، ثم خرج وبيده لواء قصير فمضى، ثم نادى مناد يا عبدالله، فـنهضت أنـا وعـمّي عبدالله بن علي نبتدر، فلمّا استوينا على الدرجة العليا دفعته عن الدرجة فهوى، ودخلت الكعبة وإذا برسول الله ﷺ جالس فعقد لي لواء طويلاً على قناة طويلة، وقال: خذها حتى تقاتل بـها الرجال.

وفيها ابتدأت الدولة الأموية بالأندلس لعبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك.

وفي سنة أربعين ومائة أرسل المنصور عبدالرحمن ابن أخيه إبراهيم الإمام في سبعين ألفاً من المسلمين عمّر ملطية.

وفيها أمر المنصور بعمارة المصيصة، وأسكنها ألف جندي وسمّاها المعمورة، وقيل أنّ فيها

حجّ المنصور فأحرم من الحيرة فلمّا قضى حجّه توجّه إلى بيت المقدس، وسار منه إلى الرقة، فقتل بها منصور بن جعونة العامري، وعاد إلى هاشمية الكوفة.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة ظهرت زنادقة يقولون بالتناسخ على مذهب أبي مسلم الخراساني، يزعمون أنّ روح آدم في عثمان بن نهيك، وأنّ ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وأنّ جبرائيل هو الهيثم بن معاوية، فحبس المنصور منهم نحو مائتي رجل. فأخذ الباقون نعشاً وأوهموا أنّهم اجتمعوا بجنازة، فلمّا وصلوا باب السجن رموا النعش وكسروا باب السجن، وأخرجوا أصحابهم وتجمعوا نحو ستمائة نفر، وأتوا باب المنصور فخرج المنصور ماشياً واجتمع عليه الناس، وكان معن بن زائدة مستخفياً منه فخرج وقاتل معه الزنادقة فانكسرت الزنادقة وقتلوا عن آخرهم.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة ثارت الديلم، وقتلوا خلائق من المسلمين، فانتدب الناس لغزوهم وسار محمّد بن الأشعث إلى المغرب بالتقى بالاباضية فهزمهم، وقتل زعيمهم أبو الخطاب في الوقعة.

وفي سنة أربع وأربعين ومائة حج المنصور وحبس من أولاد الحسن بن علي عليه السلام أحدى عشر رجلاً، وقيّدهم وجعل الأغلال في أعناقهم، وجعلهم في المحامل بغير وطاء، ولمّا خرج بهم رياح عامل المدينة من المدينة، وقف جعفر ابن محمّد الصادق عليه السلام من وراء ستر يراهم ولا يرونه، وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله، ثم قال: والله لا يحفظ الله حرمة بعد هؤلاء. ولما ساروا كان محمّد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن بن الحسن عليه السلام يأتيان كهيئة الأعراب، فيسايران أباهما ويستاذنانه في الخروج، ويقول: لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك، وقال لهما إن منعكما أبو جعفر ـ يعني المنصور ـ أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين.

ووصل المنصور إلى مكة فنزل دار الندوة، وكان يطوف ليلاً ولا يشعر به أحد، فإذا طلع الصبح صلى بالناس وراح في موكبه إلى منزله، فبينما هو ذات ليلة يطوف بالبيت إذ سمع قائلاً يقول: اللهم اني اشكو إليك ظهور البغي والفساد [في] الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم، فملأ المنصور مسامعه منه ثم استدعاه، فقال له: ما هذا الذي سمعته منك؟ فقال: إن أمنتني على نفسي انبأتك بالأمور من أصلها. قال: أنت آمن على نفسك. فقال: ان الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق، وحصول ما حصل من البغي والفساد لأنت، فان الله سبحانه وتعالى استرعاك أمور المسلمين فأغفلتها، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد، وحجبة معهم السلاح، واتخذت وزراء ظلمة وأعوانا فجره، إن أحسنت لا يعنونك، وإن أسأت لا يردونك،

وقويتهم على ظلم الناس، ولم تمنعهم على اغاثة المظلوم والجائع والعاري، فصاروا شركائك في سلطانك، فصانعهم العمال بالهدايا خوفاً منهم، وقالوا: هذا قد خان الله، فما لنا لا نخونه؟ فاختزنوا الأموال، وحالوا دون دعوة المتظلم ودونك، فامتلأت بلاد الله فساداً وبغياً وظلماً، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؟

ثم قال له: أعلم يا أمير المؤمنين اني كنت أسافر إلى بلاد الصين وكان بها ملك قد ذهب سمعه فجعل يبكي، فقال له وزراءه: ما يبكيك أيها الملك؟ فقال: ما أبكي على ما نزل بي من ذهاب سمعي، ولكن المظلوم يصرخ بالباب ولا اسمع نداءه؛ ان كان سمعي قد ذهب فان بصري باقي، نادوا في الناس: لا يلبس ثوباً أحمراً إلّا مظلوم، وكان يركب الفيل في طرف كل نهار يطلب مظلوماً فلا يجده.

هذا وهو مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين على شح نفسه، وأنت مؤمن بالله، وابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك.

فانك لم تجمع الأموال إلّا لواحدة من ثلاث إن قلت: أجمعها لولدي؛ فقد أراك الله الطفل الصغير يخرج من بطن أُمه ولا مال له فيعطيه الله، فلست بالذي تعطى بل الله سبحانه يعطي، وان قلت: أجمعها لتشييد سلطاني فقد أراك الله عبرا في الذين تقدموا، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الأموال ولا ما أعدوا من السلاح، وإن قلت أجمعها لغاية هي احشم من الغاية التي أنا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة إلّا العمل الصالح.

يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك إلّا بالقتل؟ فكيف تصنع بالذي لا يعاقب بالقتل بل بأليم العقاب، وهو يعلم ما اضمره قلبك، وعقدت عليه جوارحك، فماذا تقول إذا كنت واقفاً بين يديه للحساب عريانا؟ هل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً؟

قال: فبكى المنصور بكاء شديداً، وقال: ليتني لم أخلق ولم أك شيئاً، ثم قال له: فما الحيلة فيما حولت؟ فقال: عليك بالأعلام العلماء الراشدين، قال: فروا مني! قال: فروا منك مخافة ان تحملهم على طريقتك، ولكن افتح الباب، وسهل الحجاب وخذ الشيء مما حل وطاب، وانتصف للمظلوم من الظالم، وأنا ضامن لمن هرب منك أن يعود إليك فيعاونك على أمرك، فقال المنصور: اللّهم وفقني للعمل بما قال هذا الرجل الصالح، ثم حضر المؤذنون وأقاموا الصلاة فلما فرغ من صلاته قال علي بالرجل، فطلبوه فلم يجدوه فقيل له انه الخضر عليه السلام.

وطلب العلماء وقال عبدالرحمن بن زياد بن انعم الأفريقي أرسل إليّ أبو جعفر المنصور فقدمت عليه، فدخلت والربيع قائم على رأسه فاستدناني، ثم قال: يا عبدالرحمن كيف ما مررت

من اعمالنا إلى ان وصلت إلينا؟ قال: قلت رأيت أمير المؤمنين أعمالاً سيئة، وظلماً فاشياً، وظننته لبعد البلاد منك، فجعلت كلما دنوت منك كان أعظم للأمر. قال: فنكس رأسه طويلاً ثم رفعه إليّ، فقال: كيف لي بالرجال؟ قلت: افليس عمر بن عبدالعزيز كان يقول: ان الوالي بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها، فإن كان براً أتوه ببرهم، وان كان فاجراً اتوه بفجورهم. قال: فأطرق طويلاً، فقال لي الربيع وأومأ إليّ أن أخرج فخرجت وما عدت إليه.

وفيها توجّه جيش العراق لغزوا الديلم مع محمّد بن السفاح.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة ابتدأ المنصور في عمارة بغداد. وظهر محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام بالمدينة، لليلتين بقيتا من جمادى الآخر، وكانوا بنو هاشم قد بايعوه في دولة بني أميّة ـ فحمل المنصور أهله إلى العراق كما تقدم ـ ورد رياحاً إلى المدينة أميراً عليها، فألح في طلب محمّد فضيق عليه وطلبه حتى سقط ابنه فمات، ورهقه الطلب يوماً فتدلى في بئر بالمدينة وانغمس في الماء إلى حلقه وبلغ رياحاً خبر محمّد وانه بالمذاد[1] فركب نحوه في جنده فتنحى محمّد عن طريقه، واختفى في دار الجهينة حيث لم يره رياح، ورجع إلى دار مروان وكان عبدالله بن عمرو بن أبي ذئب، وعبدالحميد بن جعفر يقولان لمحمّد ما تنتظره بالخروج! فوالله ما على هذه الأمة أشأم منك أخرج ولو وحدك، فتحرك وخرج قبل وقته الذي واعد أخاه إبراهيم على الخروج فيه، وكان قد وجهه إلى البصرة، وقيل بل خرج محمّد لميعاده مع أخيه، وانما أخوه تأخر لجدري لحقته.

وأتى رياح الخبر ان محمّداً خارج الليلة، فاحضر أهل المدينة وفيهم جعفر بن محمّد عليه السلام، ومحمّد بن عمران قاضي المدينة، والعباس بن عبدالله بن الحارث وغيرهم. وقال: يا أهل المدينة أمير المؤمنين يطلب محمّدا في شرق الأرض وغربها وهو بين أظهركم، أقسم بالله لئن خرج لأقلتنكم أجمعين! فبينما هم عنده إذ ظهر محمّد فسمعوا التكبير. فقال ابن مسلم بن عقبة المري اطعني في هؤلاء واضرب اعناقهم. فقال الحسين بن علي بن الحسين عليه السلام والله ما ذاك إليك إنا لعلى السمع والطاعة.

وأقبل محمّد بن المذاد في مائة وخمسين رجلاً فأتى داراً في بني سلمة تفاؤلاً بالسلامة، وقصد السجن فكسر بابه وأخرج من فيه، وأتى دار الإمارة وهو يقول لاصحابه لا تقتلوا إلا تقتلوا، فامتنع منهم رياح فدخلوا من باب المقصورة، وأخذوا رياحاً أسيراً وأخاه عباساً، وابن مسلم بن عقبة

(١) موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبيّ صلى الله عليه وآله.

المري، فحبسهم في دار الإمارة.

ثم خرج إلى المسجد فصعد المنبر فخطب الناس وحثهم على طاعته، وقال: والله ما خرجت بين اظهركم وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلّا وقد أخذت لي فيه البيعة.

وكان المنصور يكتب إلى محمّد على ألسن قواده، يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه.

وكان محمّد يقول هذا ويقول لو التقينا مال إلي القواد كلّهم.

واستولى محمّد على المدينة وتبعه أهلها، وكان أهلها قد استفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمّد، وقالوا ان في أعناقنا بيعة لأبي جعفر! فقال: انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين، فاسرع الناس إلى محمّد ولزم مالك بيته.

وأرسل محمّد إلى إسماعيل بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وكان شيخاً كبيراً فدعاه إلى بيعته، فقال يا ابن أخي أنت والله مقتول فكيف أبايعك؟ فارتدع الناس عنه قليلاً، فأمر به فقتل على ما في الكافي.

وكان رجل من آل أويس بن أبي سرح العامري اسمه الحسين بن صهر بالمدينة، لمّا ظهر محمّد فسار من ساعته إلى المنصور فبلغه في تسعة أيام، فدخل عليه في الليل إلى بغداد، فقال: يا أمير المؤمنين خرج محمّد بن عبدالله بالمدينة، قال: قتلته والله ان كنت صادقاً؛ أخبرني من معه فسمي له من معه من وجوه أهل المدينة وأهل بته فأمر له بتسعة آلاف درهم.

وأشفق المنصور من محمّد، فقال: له الحارثي المنجم يا أمير المؤمنين ما يجزعك منه؟ فوالله لو ملك الأرض ما لبث إلّا تسعين يوماً.

فأرسل المنصور إلى عمه عبدالله بن علي ـ وهو محبوس عنده ـ إن هذا الرجل قد خرج فإن كان عندك رأي فأشر به علينا ـ وكان ذا رأي عندهم ـ فقال: إن المحبوس محبوس الرأي، فأرسل إليه المنصور: لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك، وأنا خير لك منه، وهو ملك بأهل بيتك، فأعاد عليه عبدالله أرتحل الساعة حتى تأتي الكوفة، فاجثم على أكبادهم فإنهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم، ثم احففها بالمسالح ـ أي بالرايات أو بالرجال المسلحة ـ فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه أو أتاها من وجه من الوجوه فاضرب عنقه، وابعث إلى سلم بن قتيبة ينحدر إليك ـ وكان بالري ـ وأكتب إلى أهل الشام فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما حمل البريد، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم.

ففعل المنصور ذلك وسار إلى الكوفة ومعه عبدالله بن الربيع بن عبدالله بن عبدالمدان، فقال له المنصور ان محمّداً قد خرج بالمدينة، فقال عبدالله: هلك والله وأهلك، خرج في غير عدد

ولا رجال. وذكر له قول مروان بن محمّد عن عبدالله بن علي، وددت والله ان علي بن أبي طالب يقاتلني مكانه؟ ان علياً وولده لا حظ لهم في هذا الأمر فسرى عنه همه.

وقال لأبي أيوب، وعبدالملك: هل من رجل تعرفانه بالرأي يجمع رأيه إلى رأينا؟ قالا بالكوفة بديل بن يحيى ـ وكان السفاح يشاوره ـ فأرسل إليه المنصور إن محمداً قد ظهر بالمدينة، قال: فاشحن الأهواز بالجنود لانها الباب الذى تؤتون منه. فلمّا ظهر إبراهيم أخو محمّد بالبصرة قال له ذلك، قال: فعاجله بالجنود وأشغل الأهواز عليه.

وشاور المنصور أيضاً جعفر بن حنظلة البهراني عند ظهور محمّد، فقال: وجه الجند إلى البصرة. فلمّا صار إبراهيم إلى البصرة أرسل إليه كيف خفت البصرة؟ قال: لان محمّد ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب، حسبهم ان يقيموا شأن انفسهم، وأهل الكوفة تحت قدمك، وأهل الشام أعداء آل أبي طالب، فلم يبق إلّا البصرة.

ثم ان المنصور كتب إلى محمّد بسم الله الرحمن الرحيم **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1]، ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ، ان اومنك وجميع ولدك وأخوانك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم اوصالي واعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وانزلك من البلاد حيث شئت، وان أطلق من في حبسي من أهل بيتك، وان أومن كل من جائك وبايعك واتبعك أو دخل في شيء من أمرك، ثم لا اتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً، فإن أردت ان تتوثق لنفسك فوجه من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تتوثق به، والسلام.

فكتب إليه محمّد بسم الله الرحمن الرحيم **﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾**[2]، وأنا أعرض عليك من

---

(١) سورة المائدة: ٣٣ و ٣٤.

(٢) سورة القصص: ١ ـ ٦.

الأمان مثل ما عرضت عليّ، فإن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر لنا، وأخرجتم له شيعتنا وخطيتم بفضلنا، فإن علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟

ثم قد علمت أنه لم يطلب الأمر إلّا من له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا، لسنا من أبناء اللعناء والطرداء والطلقاء، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنت فاطمة في الإسلام دونكم، ان الله أختارنا وأختار لنا فوالدنا من النبيين محمّد صلى الله عليه وآله وافضلهم، ومن السلف أولهم إسلاماً علياً، ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن عبدالمطلب ولد حسناً مرتين، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله ولدني مرتين من حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم اماً وأباً، لم تعرق في العجمة ولم تنازع في أمهات الأولاد، فما زال يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى يختار لي في الأشرار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار. فلك الله عليّ إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته إلّا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمني من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لانك أعطيتني من الأمان والعهد ما أعطيته رجالا قبلي، فأي الأمانات تعطيني؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن علي أم أمان أبي مسلم الخراساني؟

فلمّا ورد كتابه على المنصور، قال له أبو أيوب المورياني: دعني أجيبه عليه. قال لا إذا تقارعنا على الأحساب، فدعني واياه. ثم كتب إليه المنصور كتاباً يشتمل على حق وباطل ذكره ابن الأثير فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولاكالعصبة والأولياء؛ لأن الله جعل العم أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً، أُولى من يدخل الجنة، ولكن اختار الله لخلقه على علمه فيما مضى فيهم واصطفائه لهم.

وأمّا ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتا ولا أبناً، ولو أن رجلاً رزق الإسلام بالقرابة رزقه عبدالله ولكان أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء، قال عزّ وجلّ: **﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن**

يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١] ولقد بعث الله محمّداً عليه السلام، وله عمومة أربعة، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾**[٢] فأنذرهم فدعاهم، فأجاب اثنان، أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلاً ولا ذمة ولا ميراثاً، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً وابن خير الأشرار، وليس في الكفر بالله صغير ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم **﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾**[٣].

وأمّا أمر علي وأن هاشماً ولده مرتين وأن عبدالمطلب ولد حسناً مرتين وأن النبي ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وآله لم يلده هاشم إلّا مرة، ولا عبدالمطلب إلّا مرة، وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وأنه لم يلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، فانظر ويحك، أين أنت من الله غداً! فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفساً وأبا وأولاً وآخراً[٤] إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلّا بنو أمهات أولاد.

ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، أفضل من علي بن الحسين، وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسن بن الحسن.

وما كان فيكم بعده مثل محمّد بن علي وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك ولامثل ابنه جعفر، وجدته أم ولد ولهو خير منك.

وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وآله، فإن الله تعالى يقول في كتابه: **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ﴾**[٥]، وإنكم بنو بنته وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تجوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها؟ ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة رضي الله عنها نهاراً، ومرضها سراً، ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلّا الشيخين، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون.

وأما ما فخرت به من علي وسابقته فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وآله الوفاة فأمر غيره بالصلاة، ثم

---

(١) سورة القصص: ٥٦.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٤) في الكامل: (وأولاد وأخاً).

(٥) سورة الأحزاب: ٤٠.

أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يروا له حقاً فيها. وأما عبدالرحمن فقدم عثمان عليه، وهو له متهم، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته وأغلق بابه دونه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه، فاجتمعا على خلعه ثم كان الحسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولاية ولا حلة، فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه.

ثم خرج عمك الحسين علىٰ ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسنينا سلفكم وفضلناه، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت انا انما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر، وليس كما ظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلما منهم مجتمعاً عليهم بالفضل، وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما يلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له وذكرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه.

ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين اخوته، فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر، فلم يزل نليها في الجاهلية والإسلام، ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلّا بأبينا حتى يغيثهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به.

ولقد علمت انه لم يبق أحد من بني عبدالمطلب بعد النبي صلى الله عليه وآله غيره، فكانت وراثه من عمومته.

ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلّا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلّا والعباس وارثه ومورثه.

وأما ما ذكرت من بدر فان الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله، وينفق عليهم للازمة

التي أصابته، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كارهاً لمات طالب وعقيل جوعاً وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدى عقيلاً ونوفلاً يوم بدر، فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم في الإسلام، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ثم ان المنصور أحضر ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمّد، فقال: شاور عمومتك يا أمير المؤمنين؟ قال: فاين قول ابن هرئمة:

نزور أمـراً لا يـمحض القـوم سرّه ... ولا يـنتجي الأدنـين فـيما يـحاول

إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتـى ... وإن قــال إنــي فـاعلٌ فـهو فـاعل

امض أيها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلاّ أن تشخص أنت أو أشخص أنا فسار وسير معه الجنود.

وقال المنصور لما سار عيسى لا أُبالي ايهما قتل صاحبه.

وقال له حين ودعه: يا عيسى أني أبعثك إلى ما بين هذين، واشار إلى جنبيه، فإن ظفرت بالرجل فاغمد سيفك وابذل الأمان، وان تغيب فضمنهم إياه، فانهم يعرفون مذاهبه، ومن لقيك من آل أبي طالب فاكتب إليّ باسمه، ومن لم يلقك فاقبض ماله. فتغيب جعفر الصادقعليه السلام عنه فقبض ماله، فلمّا قدم المنصور المدينة، قال له جعفر في معنى ماله، فقال: قبضه مهديكم.

فلمّا بلغ محمّداً قرب عيسى من المدينة، أمر بحفر الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الأحزاب، وبدأ هو فحفر بنفسه، وخطب الناس وقال لهم: انا قد جمعناكم وأخذنا عليكم الميثاق، وعدوكم في عدد كثير والنصر من الله والأمر بيده، وانه قد بدأ لي أن أذن لكم، فمن أحب منكم ان يقيم أقام، ومن أحب ان يظعن ظعن، فخرج عالم كثير وبقي محمّد في شرذمة يسيرة، فأرسل إليه عيسى يخبره ان المنصور قد آمنه وأهله، فاعاد الجواب يا هذا ان لك برسول اللهصلى الله عليه وآله قرابة قريبة، واني أدعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه والعمل بطاعته، وأحذرك نقمته وعذابه، واني والله ما أنا بمنصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه، وإياك ان يقتلك من يدعوك إلى الله فتكون شر قتيل، أو تقتله فيكون أعظم لوزرك، فلمّا بلغته الرسالة، قال عيسى: ليس بيننا وبينه إلاّ القتال.

وقال محمّد للرسول: علام تقاتلونني وانما أنا رجل فر من أن يقتل؟ قال: القوم يدعونك إلى الأمان فان أبيت إلاّ قتالهم قاتلوك على ما قاتل عليه خير آبائك، طلحة والزبير على نكث بيعتهم وكيد ملكه. فلمّا سمع المنصور قوله. قال: ما سرني انه قال غير ذلك.

ونزل عيسى بالجرف لاثني عشرة من رمضان يوم السبت، فاقام السبت والأحد وغدا يوم الاثنين، فوقف على سلع فنظر إلى المدينة ومن فيها ونادى يا أهل المدينة ان الله حرم دماء بعضنا على بعض، فهلموا إلى الأمان.

فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن خرج من المدينة فهو آمن، خلوا بيننا وبين صاحبنا، فاما لنا واما له، فشتموه فانصرف من يومه وعاد من الغد في ذلك اليوم، وقد فرق القواد من سائر جهات المدينة وأخلى ناحية مسجد أبا الجراح لخروج من ينهزم، وبرز محمّد في أصحابه وكانت رايته مع عثمان بن محمّد بن خالد بن الزبير، وكان شعاره أحد أحد فبرز أبو القلمس فقتله، وبرز إليه آخر، فقتله وقال حين ضربه: خذها وانا ابن الفاروق، فقال رجل من أصحاب عيسى: قتلت خيراً من ألف فاروق.

وقاتل محمّد بن عبدالله يومئذٍ قتالاً عظيماً، فقتل بيده سبعين رجلاً وظهر عن شجاعته.

وأمر عيسى حميد بن قحطبة فتقدم في مائة كلهم رجالة سواه، فزحفوا حتى بلغوا جداراً دون الخندق عليه ناس من أصحاب محمّد، فهدم حميد الحائط وانتهى إلى الخندق، ونصب عليه أبواباً وعبر هو وأصحابه عليها، فجازوا الخندق وقاتلوا من ورائه أشد قتال من بكرة إلى العصر، وأمر عيسى أصحابه فألقوا الحقائب وغيرها في الخندق، وجعل الأبواب عليها وجازته الخيل فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانصرف محمّد قبل الظهر فاغتسل وتحنط ثم رجع، فقال له عبدالله بن جعفر بأبي أنت وأمي، والله مالك بما ترى طاقة، فلو اتيت الحسن بن معاوية بمكة فان معه جل أصحابك، فقال: لو خرجت لقتل أهل المدينة والله لا ارجع حتى أقتل أو اقتل وأنت مني بسعة فاذهب حيث شئت، فمشى معه قليلاً ثم رجع عنه، وتفرق عنه جل أصحابه حتى بقي في ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً، فقال بعض أصحابه نحن اليوم بعدة أهل بدر.

وصلى محمّد الظهر والعصر وكان معه عيسى بن خضير وهو يناشده ألا ذهبت إلى البصرة أو غيرها، ومحمّد يقول والله لا تبتلون بي مرتين ولكن أذهب أنت حيث شئت، فقال: ابن خضير واين المذهب عنك؟! ثم مضى فاحرق الديوان الذي فيه اسماء من بايعهم، وقتل رياح بن عثمان، وأخاه عباساً، وقتل ابن مسلم بن عقبة المري، ورجع إلى محمّد فقاتل بين يديه حتى قتل، فعرقب محمّد فرسه وعرقب بعض أصحابه دوابهم ولم يبق أحد إلّا كسر جفن سيفه، فقال لهم محمّد قد بايعتموني ولست بارحاً حتى أقتل فمن أحب أن ينصرف فقد أذنت له، واشتد القتال فهزموا أصحاب عيسى مرتين أو ثلاثاً، ونادى محمّد حميد بن قحطبة أبرز إليّ فانا محمّد بن عبدالله، فقال حميد قد عرفتك وأنت الشريف ابن الشريف الكريم ابن الكريم لا والله لا أبرز إليك وبين يدي من

هؤلاء الأغمار[١] أحد فإذا فرغت منهم فسائر إليك فجعل محمّد يهد الناس هداً، وكان اشبه الناس بقتال حمزة رضي الله عنه، ولم يزل يقاتل حتى ضربه رجل دون شحمة اذنه اليمنى، فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم فطعنه في صدره فصرعه، ثم نزل إليه فأخذ رأسه واتى به عيسى، وقيل بل رمى بسهم وهو يقاتل فوقف إلى جدار فتحاما الناس، فلمّا وجد الموت تحامل على سيفه فكسره.

قال ابن الاثير وهو ذو الفقار سيف علي كرم الله وجه وقيل بل اعطاه رجلاً من التجار كان معه وله عليه اربعمائة دينار، وقال: خذه فانك لا تلقي أحد من آل أبي طالب إلّا أخذه واعطاك حقك. فلم يزل عنده حتى ولي جعفر بن سليمان المدينة فاخبر به، فأخذ السيف وأعطاه أربعمائة دينار ولم يزل معه حتى أخذه منه المهدي، ثم صار إلى الهادي فضرب به كلباً فانقطع السيف، وقيل بل بقي إلى أيام الرشيد وكان يتقلده، وكان به ثمان عشرة فقرة وهذا ما ذكره ابن الاثير.

والمشهور عندنا ان السيف باقي مع ذخائر النبوّة، وان مهدي آل محمّد عليه السلام يخرج به إذا شاء الله.

ولما أتى عيسى برأس محمّد، قال لاصحابه ما تقولون فيه؟ فوقعوا فيه، فقال بعضهم: كذبتم ما لهذا قاتلناه ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصى المسلمين، وان كان لصواماً قواماً! فسكتوا.

فأرسل عيسى الرأس إلى المنصور مع محمّد بن أبي الكرام بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، فطيف به في الكوفة وسيره إلى الآفاق.

وكان قتل محمّد وأصحابه يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة.

ولمّا ورد الخبر بقتل محمّد على أخيه إبراهيم بالبصرة كان يوم العيد فخرج فصلى بالناس ونعاه على المنبر واظهر الجزع عليه وتمثل على المنبر:

يا با المنازل يا خير الفوارس من	يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا
الله يعلم أني لو خشيتهم	وأوجس القلب من خوفي لهم فزعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخي لهم	حتى نموت جميعاً أو نعيش معاً

وكان محمّد يلقب بالمهدي وبالنفس الزكية. وسئل جعفر الصادق عليه السلام عن أمر محمّد، فقال: فتنة يقتل فيها أخوه لأبيه وأمة بالعراق وحوافر فرسه في ماء.

---

(١) الاغمار: جمع الغمر بالتثليث: الجاهل ومن لم يجرب الأمور.

وكان إبراهيم قد قدم إلى البصرة قبل موت أخيه، ودعا الناس إلى بيعة أخيه فاجابوه، وعظم أمره وملك الأهواز وواسط وبلغ عسكره مائة ألف.

ثم ان إبراهيم عزم على المسير إلى الكوفة، وحسن له ذلك من كان عنده من أهل الكوفة، فسار عن البصرة إلى الكوفة.

وكان المنصور لما بلغه ظهور إبراهيم في قلة من العسكر، فقال: والله ما أدري كيف أصنع ما في عسكري إلّا ألفا رجل فرقت جندي، فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً، ومع محمّد بن الأشعث بافريقية أربعون ألفا، والباقون مع عيسى بن موسى والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفاً.

ثم كتب إلى عيسى بن موسى يأمره بالعود مسرعاً فاتاه الكتاب وقد أحرم بعمرة فتركها وعاد.

وكتب إلى مسلم بن قتيبة فقدم عليه من الري. فقال له المنصور: اعمد إلى إبراهيم ولا يروعنك جمعه فوالله انهما جملا بني هاشم المقتولان، فثق بما أقول وضم إليه غيره من القواد، وكتب إلى المهدي يأمره بانفاذ خزيمة بن خازم إلى الأهواز، فسير في أربعة آلاف فارس فوصلها وقاتل المغيرة عامل إبراهيم فرجع المغيرة إلى البصرة واستباح خزيمة الأهواز ثلاثاً، وتوالت على المنصور الفتوق من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد، وإلى جانبه إبراهيم من معه من أهل البصرة والكوفة في مائة ألف مقاتل ينتظرون به صيحته.

فلمّا توالت الأخبار عليه بذلك أنشد:

وجعلت نفسي للرماح دريئةً   إنّ الرئيس بمثل ذاك فعول

قال بعضهم: دخلت عليه في تلك الأيام وما اظن انه يقدر يقوم بتلك العظائم، فوجدته أسداً مشمراً عن ذراعيه ويتمثل بهذا البيت:

تفرقت الظباء على خداش   فما يدري خداشٌ ما يصيد

ثم انّ المنصور رمى كل ناحية بحجرها، ويقى على مصلاه خمسين يوماً ينام عليه ويجلس عليه، وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها ما غيرها ولا هجر المصلى.

واهديت إليه امرأتان من المدينة فلم ينظر إليهما، وقال ليست هذه أيام نساء ولا سبيل إليهما، حتى انظر رأس إبراهيم.

ثم وجه إلى إبراهيم عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً وعلى مقدمته حبيب بن قحطبة في ثلاثة آلاف.

وقال له: لمّا ودعه ان هؤلاء الخبثاء يعني المنجمين يزعمون انك إذا لاقيت إبراهيم يجول

أصحابك جولة حين تلقاه، ثم يرجعون إليك وتكون العاقبة لك.

فالتقى الجمعان على ستة عشر فرسخاً من الكوفة، واقتتل الناس قتالاً شديداً، وانهزم حميد بن قحطبة وانهزم الناس، فعرض لهم عيسى يناشدهم الله والطاعة، فقال حميد: لا طاعة في الهزيمة ومر الناس فلم يبق مع عيسى إلّا نفر يسير، فقيل له: لو تنحيت عن مكانك حتى يثوب إليك الناس فتكر بهم. فقال: لا ازول من مكاني هذا أبداً حتى أقتل أو يفتح الله على يدي، والله لا تنظر أهل بيتي إلى وجهي أبداً وقد انهزمت عن عدوهم!

وجعل يقول لمن يمر به أقرئ أهل بيتي السلام وقل لهم لم أجد فداءً أفديكم به أعز من نفسي وقد بذلتها دونكم.

فبينما هم على ذلك لا يلوى أحد على أحد إذ اتى جعفر ومحمّد ابنا سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس من ظهور أصحاب إبراهيم ولا يشعر باقي أصحابه الذين يتبعون المنهزمين حتى نظر بعضهم فرأى القتال من ورائهم فعطفوا نحوه، ورجع أصحاب المنصور يتبعونهم فكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم.

وكان من صنع الله للمنصور ان أصحابه لقيهم نهر في طريقهم فلم يقدروا على الوثوب ولم يجدوا مخاضة فعادوا باجمعهم، وكان أصحاب إبراهيم قد مخروا[1] الماء ليكون قتالهم من وجه واحد، فلمّا انهزموا أصحاب المنصور منعهم الماء من الفرار فرجعوا. وقبل الماء انهزم أصحاب المنصور ونادى منادي إبراهيم ألا لا تتبعوا مدبراً! فرجعوا فلمّا رؤوهم ـ أصحاب المنصور ـ راجعين ظنوهم منهزمين فعطفوا في آثارهم وكانت الهزيمة على أصحاب إبراهيم، وثبت إبراهيم في نفر من أصحابه يبلغون ستمائة وقيل أربعمائة وقاتلهم حميد بن قحطبة، وجعل يرسل الرؤوس إلى عيسى، وجاء إبراهيم سهم غائر وقع في حلقه فنحره، فتنحى عن موقفه. فقال: انزلوني؟ فانزلوه عن مركبه وهو يقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً﴾[2] أردنا أمراً وأراد الله غيره، واجتمع عليه أصحابه يحمونه ويقاتلون دونه. فقال حميد بن قحطبة لاصحابه شدوا على تلك الجماعة حتى تزيلوهم عن مواضعهم وتعلموا ما اجتمعوا عليه؟ فشدوا عليهم فقاتلوهم أشد القتال، حتى أفرجوهم عن إبراهيم، وخلصوا إليه وحزوا رأسه فاتوا به عيسى فأراه ابن أبي الكرام الجعفري، فقال: نعم هذا رأسه فنزل عيسى إلى الأرض فسجد وبعث برأسه إلى المنصور.

---

(١) أي: شقوا الماء.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٨.

وكان قتله يوم الاثنين لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، سنة خمس وأربعين ومائة، وكان عمره ثمان وأربعين سنة، ومكث من منذ خرج إلى ان قتل ثلاثة أشهر إلّا خمسة أيام.

وبلغ المنصور الخبر بهزيمة أصحابه أولاً فعزم على اتيان الري فاتاه نوبخت المنجم، وقال يا أمير المؤمنين: الظفر لك وسيقتل إبراهيم! فلم يقبل منه، فبينما هو كذلك إذا جاءه الخبر بقتل إبراهيم فتمثل:

فألقت عصاها واستقرّ بها النّوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فاقطع المنصور نوبخت ألفي جريب بنهر جوبر. وحمل رأس إبراهيم إلى المنصور فوضع بين يديه، فلمّا رآه بكى حتى خرجت دموعه على خد إبراهيم، ثم قال: اما والله اني كنت لهذا كارهاً؛ ولكنك ابتليت بي وابتليت بك.

ورثا عبدالله بن مصعب بن ثابت محمّداً وأخاه إبراهيم فقال:

يا صاحبي دعا الملامة واعلما ... أن لست في هذا بألوم منكما
وقفا بقبر ابن النبي فسلما ... لا بأس أن تقفا به فتسلما
قبر تضمن خير أهل زمانه ... حسباً وطيب سجية وتكرما
رجل نفى بالعدل جور بلادنا ... وعفا عظيمات الأمور وأنعما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يجر ... عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لو أعظم الحدثان شيئاً قبله ... أحداً لكان قصاره أن يسلما
ضحوا بإبراهيم خير ضحية ... فتصرمت أيامه وتصرما
بطلا يخوض بنفسه غمراتها ... لا طائشاً رعشاً ولا مستسلماً
حتى مضت فيه السيوف وربما ... كانت حتوفهم بالسيوف وربما
اضحى بنو الحسن أبيح حريمهم ... وأصبح نهبهم متقسما
ونساؤهم في دورهن نوائح ... سجع الحمام إذا الحمام ترنما
يتوسلون بقتلهم ويرونه ... شرفاً لهم عند الإمام ومغنما
والله لو شهد النبيّ محمّد ... صلّى الاله على النبيّ وسلما
إشراع أمته الاسنة لابنه ... حتى تقطر من ظباتهم دما
حتى لا يقن انهم قد ضيعوا ... تلك القرابة وستحلوا المحرما

وفي سنة ست وأربعين ومائة تحول المنصور إلى بغداد لتكميل عمارتها. وشاور أصحابه في نقض المدائن وإيوان كسرى، ونقل نقضه إلى بغداد. فقال خالد ابن برمك: لا أرى ذلك؛ لانه علم

من أعلام الإسلام، يستدل به الناظر على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وانما هو على أمر دين، ومع هذا ففيه مصلى علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال المنصور: أبيت يا خالد إلا الميل إلى أصحابك العجم، وأمر بنقض القصر الأبيض فنقضت ناحية منه وحمل نقضه، فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد، فدعا خالداً فأعلمه ذلك، فقال يا أمير المؤمنين: قد كنت أرى أن لا تفعل، فاما إذا فعلت فاني أرى أن تهدم؛ لئلّا يقال إنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك، فأعرض عنه وترك هدمه.

ونقل أبواب مدينة واسط فجعلها على بغداد، وباباً جيء به من الشام، وباباً آخر جيء به من الكوفة، وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض، وعمل لها سورين، فالسور الداخل أعلى من الخارج، وبنى قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجانب القصر، وجعل الطريق أربعين ذراعاً، وكان مقدار النفقة على بنائها وبناء المسجد والقصر والأسواق والخنادق وأبوابها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً، وكان الاستاد من البنائين يعمل يومه بقيراط فضة.

وفي سنة سبع وأربعين ومائة خلع المنصور العهد الذي كان عهده السفاح بعد المنصور لابن أخيه عيسى بن موسى، وأكرهه على ذلك واعطاه مالاً وبايع لابنه المهدي محمّد بن المنصور، ثم جعل عيسى بن موسى بعد المهدي، فقال له: بعض أهل الكوفة هذا الذي كان غداً فصار بعد غد.

وفيها ولي المنصور خالد بن برمك الموصل.

وفيها ولد الفضل بن يحيى بن برمك، وارضعته الخيزران أم الرشيد، وكان أخا الرشيد من الرضاعة.

وفي سنة ثمان وأربعين ومائة توجّه حميد بن قحطبة في جيش كثيف إلى أرمينية.

وفي سنة تسع وأربعين ومائة غزا الناس بلاد الروم مع العباس بن محمّد، فمات في الغزاة أكبر أمرائه محمّد بن الأشعث الذي كان أمير مصر.

وفيها حج بالناس المنصور.

وفي سنة أحدى وخمسين ومائة بنى المنصور الرصافة لابنه المهدي، وهي من الجانب الشرقي ببغداد وهي التي قال عنها علي بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائة غلبت الاباضية على أفريقية.

وفيها أمر المنصور الناس بلبس القلانس الطوال. فقال أبو دلامة:

وكـنـا نـرجـي مـن إمـام زيـادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس

وحج بالناس هذه السنة المهدي بن المنصور.

وفي سنة أربع وخمسين ومائة سار المنصور إلى الشام، وزار القدس وجهز يزيد بن حاتم في خمسين الفاً، وعقد له على الغرب فاستعاد أفريقية من الخوارج الاباضية. قيل انه انفق على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف درهم.

وفي سنة سبع وخمسين بنى المنصور قصره الذي يدعى الخلد، وحول الأسواق إلى الكرخ.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائة خرج المنصور من بغداد يريد الحج ومعه ولده المهدي يودعه، فقال له: يا ولدي أني ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، ووقع في نفسي أني أموت في ذي الحجة هذه السنة، ولذلك خرجت إلى الحج فاتق الله في عباد الله واحفظ محمّداً في أمته، واياك والدم الحرام، وانظر إلى هذا السفط، فاحتفظ به فان فيه علم آبائك وما هو كائن إلى يوم القيامة، فان أحزنك أمر فانظر في الدفتر الكبير، فان أصبت فيه ما تريد وإلّا فالثاني، والثالث، حتى بلغ سبعة، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة، فإنك واجد فيها ما تريد، وما أظنك تفعل.

وكان المنصور قد رأى عجائب كثيرة، ومواعظ مؤدية إلى الهلاك، من ذلك انه كان جالساً على باب خراسان، إذ جاء سهم فراعه ذلك السهم، وسقط بين يديه فجعل يقلبه فإذا بين الريشتين مكتوب:

اتـطمع فـي الحـياة إلى المـعاد وتـحسب ان مـالك مـن نـفاد

سـتسأل عـن ذنـوبك والخطايا وتسأل بـعد ذاك عـن العـباد

ثم قرأ عند الريشة الثانية:

احسنت ظنك بـالايام إذ حسـنت ولم تـخف يـوماً يأتـي بـه القـدر

وسـالمتك اللـيالي فـاغتررت بـها وعند صفوا الليالي يحدث الكـدر

ثم قرأ عند الريشة الثالثة:

دع المـقادير تـجري فـي أعـنتها واصبر فليس لها صبر عـلى حـال

يوماً تريك خسـيس الحـال تـرفعه إلى السـماء ويـوماً تـحفظ العـال

ومنها انه هتف به وهو بقصر المدينة هاتف ينشده ويقول:

أمـا وربّ السكـون والحـرك إن المـنايا كـثيرة الشـرك

عـليك يـا نـفس إن أسأت وإن أحسـنت فـاليوم كـان ذاك لك

مـا اخـتلف اللـيّل والنّـهار ولا دارت نـجوم السـماء فـي الفـلك

إلّا لنـــقل الســلطان مــن مــلك　　قــد انــقضى مــلكه إلى مــلك
حـــتى يـــصيرنه إلى مـــلك　　مـــا عـــز ســـلطانه بـــمشترك
ذاك بـــديع الســـماء ومـاسكها　　ســـخر نـجوم الســماء والفـلك

ومنها انه رأى بعد ذلك كان منشداً ينشده هذه الأبيات:

أأخي تحفظ من مناكا　　فكأن يـومك قـد أتـاكـا
ولقـد أراك الدهـر مـن　　تـصريفه مـا قـد أراكـا
وإذا رأيت النـاقص الـ　　ـعبد الذليل فأنت ذاكا
مـلكت مـا مـلكته　　والأمر فـيه إلى سـواكـا

ومنها انه لمّا دخل آخر منزل نزل به في طريق مكة، نظر في صدر البيت الذي نزل فيه فإذا فيه مكتوب:

أبا جعفر حانت وفـاتك وانـقضت　　ســـنونك وأمـر الله لابـد واقـع
أبـا جـعفر هـل كـاهن أو مـنجم　　لك اليـوم مـن حـرّ المنية مـانع

فدعى بالمتولي لاصلاح المنازل، فقال له: ألم آمرك أن لا تدخل أحداً من الدعاة هذا البيت؟ فقال والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها، فقال أقرء ما في صدر هذا البيت! قال ما أرى شيئاً مكتوباً، فالتفت إلى حاجبه الربيع بن يونس فقال له: أقرء آيةً من كتاب الله شوقني بها إلى لقائه فقرأ: ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1]، فقال له ما وجدت آية تقرأوها غير هذه الآية، فقال والله لقد محى القرآن من قلبي غير هذه الآية.

فمرض بالاسهال فلمّا اشتد وجعه جعل يقول للربيع: بادر بي حرم ربي هارباً إليه من ذنوبي.

فلمّا وصل إلى بئر ميمون مات بها في السحر لست خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة محرماً، وكان عمره ثلاثاً وستون سنة، ومدة خلافته اثنين وعشرين سنة وثلاثة أشهر، ولم يحضره عند وفاته إلّا خدمه والربيع مولاه، فكتم الربيع موته، ومنع من البكاء عليه، ثم أصبح فحضر أهل بيته والقواد فعرفهم الربيع بوفاة المنصور، وبايعهم للمهدي ولعيسى بن موسى من بعده على يدي موسى الهادي بن المهدي.

فلمّا فرغوا من البيعة اشتغلوا بتجهيز المنصور، ففرغوا منه العصر وكفن وغطى وجهه وبدنه، وجعل رأسه مكشوف لاجل احرامه. وصلى عليه عيسى بن موسى، ودفن بالمعلى ونزل في قبره

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

عمّه عيسى بن علي.

وكان المنصور من أحسن الناس خلقاً في الخلوه حتى يخرج إلى الناس، وكان أوحد أهل زمانه إلّا انه كان بخيل، حتى قيل لجعفر الصادق عليه السلام ان المنصور يكثر لبس جبّة هروية وانه يرقع قميصه! فقال جعفر: الحمد لله الذي لطف له حتى ابتلاه بفقر نفسه في ملكه والله أعلم.

فصل
المهدي

وهو محمّد بن أبي جعفر المنصور.

لمّا توفي المنصور في بئر ميمون واجتمع الناس خرج الربيع وفي يده قرطاس، ففتحه وقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله المنصور أمير المؤمنين، إلى من خلف من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين.

أما بعد، فإني كتبت كتابي هذا، وأنا حيّ في آخر يوم من أيام الدنيا، وأوّل يوم من أيام الآخرة، أقرأ عليكم السلام وأسأل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذق بعضكم بأس بعض. ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي وإذكارهم البيعة له، وحثهم على الوفاء بعهده، فبايع من كان هناك من بني هاشم والقواد على يدي موسى الهادي بن المهدي، وبايع سائر الناس بين الركن والمقام، وقدم الخبر على المهدي بوفاة أبيه بعد ثمانية أيام مع منارة منتصف ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة فبايعه أهل بغداد.

ولمّا قدم الحجاج بغداد سنة تسع وخمسين ومائة الح المهدي على ولي العهد عيسى بن موسى بالرغبة والرهبة حتى خلع نفسه ليولي العهد ابنه موسى الهادي فاجاب خوفاً على نفسه، فاعطاه عشرة آلاف ألف درهم وعدة اقطاعات.

وفي سنة ستين ومائة حج المهدي وفرق أموالاً عظيمة، ووسع مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمر برد نسب زياد إلى أبيه عبيد الرومي، وأخرجه من نسب الأمويين إلى ثقيف.

وفي سنة إحدى وستين ومائة ظهر عطاء المقنع الساحر الملعون بخراسان، وكان رجلاً أعوراً قصيراً من أهل مرو، سمي حكيماً وكان اتخذ وجهاً من ذهب فجعله على وجهه لئلا يرى فسمي المقنع، وادعى النبوة ثم الربوبية، وكان يقول: ان الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة ثم في صورة نوح، وهكذا إلى أبي مسلم الخرساني، وتبعه جماعة من ضلال الناس وكانوا يسجدون

له واغاروا على أموال المسلمين، وكان يعتقد ان أبا مسلم الخراساني أفضل من النبي صلى الله عليه وآله، وكان ينكر قتل يحيى بن زيد، وادعى انه يقتل قاتله، وبنا قلعة سماها سنام وراء النهر، فوجه إليه المهدي جيشاً فقاتلهم أربعة أشهر، وقتل منهم سبعمائة ثم حصروه في القلعة سنة ثلاث وستين ومائة، فسقى نسوته سماً فمتن ثم تناول منه فمات، وقتل كل من كان في قلعته من اشياعه.

وفي سنة اثنين وستين ومائة سار الحسن بن قحطبة لغزو الروم فاغار وحرق وسبي.

وفي سنة أربع وستين ومائة كان مجيء ميخائيل البطريق، وطارد الأرمني لعنهما الله في تسعين ألفاً، ففشل عبدالكبير، ومنع المسلمين عن ملتقاهم فهم المهدي بضرب عنقه وسجنه.

وفي سنة خمس وستين ومائة غزا المسلمون وعليهم هارون الرشيد وهو صبي أمرد وفي خدمته الربيع الحاجب، فالتقوا مع الروم وكسروهم وقتلوا منهم خمسين ألفاً، وفتحوا ما حده من الروم حتى وصلوا خليج قسطنطينية، وسبوا وغنم المسلمون وغنم المسلمون ما لا يحصى حتى بيع الفرس بدرهم والبغل الجيد بعشرة دراهم. وصالحتهم ملكة الروم على مال جزيل.

وفي سنة سبع وستين ومائة زاد المهدي في المسجد الحرام، ومسجد النبيّ صلى الله عليه وآله.

وفي سنة ثمان وستين ومائة غزا المسلمون الروم بنقضهم الهدنة.

وفي سنة تسع وستين ومائة خرج المهدي إلى جهة جرجان، وسبب خروجه إليها انه كان قد عزم على خلع ابنه موسى الهادي، والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادي، فبعث إليه وهو بجرجان في المعنى فلم يفعل فبعث إليه في القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع من القدوم عليه، فسار المهدي يريده فلمّا بلغ ماسبذان أكل طعاماً ثم قال إني داخل أنام فلا توقظوني حتى أكون أنا الذي أنتبه فدخل ونام، ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فاتوه مسرعين، فقال: وقف على الباب رجل فقال:

كأني بهذا القصر قد باد أهله	وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة	وملك إلى قبر عليه جنادلة
فلم يبق إلّا ذكره وحديثه	تنادي عليه معولات حلائله

فبقي بعد ذلك عشرة أيام ومات بتلك البلدة. وأختلف في سبب موته، فقيل: انه كان يتصيد فطردت الكلاب ظبياً وتبعه فدخل باب خربه، ودخلت الكلاب خلفه ثم تبعها فرس المهدي، فدخل فدق الباب ظهره فمات من ساعته، وقيل: بل بعثت جارية من جوارية إلى هرة لها بلباً فيه سم فدعا به المهدي فأكل منه، وخافت الجارية ان تقول انه مسموم فمات منه، وقيل: بل عمدت حسنة جاريته إلى كمثرى فأهدته إلى جارية أخرى، وكان المهدي يتخطاها وسمت منه كمثراة هي

أحسن الكمثرى، فاجتاز بالمهدي فدعا به وكان يعجبه الكمثرى، فأخذ تلك الكمثرة المسمومة فأكلها، فلمّا وصلت إلى جوفه صاح جوفي جوفي! فسمعت الجارية ـ حسنة ـ صوته فجائت تبكي وتلطم وجهها، وتقول: أردت أن أنفرد بك فقتلتك! فمات من يومه، ورجعت حسنة وعلى قبتها المسوح، فقال أبو العتاهية في ذلك شعراً:

رحن في الوشى وأقبلن عليهن المسوح   كـل نـطاح من الدنـيا له يـوم نـطوح

لست بالباقي ولو عمرت ما عـمر نـوح   فعلى نـفسك نـح إن كـنت لابـدّ تـنوح

وكان موته لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً، وعمره ثلاث وأربعون سنة، وصلى عليه ابنه الرشيد، ودفن تحت جوزة كان يجلس تحتها، وكان أبيض طويلاً وقيل أسمر باحدى عينيه نكتة بياض، وكان كريماً يقال إنّه اعطى شاعراً خمسين ألف دينار.

وعن الفضل بن الربيع انه أخبر عن أبيه الربيع ان المهدي لما حبس موسى بن جعفر عليهما السلام، ففي بعض الليالي رأى المهدي في منامه علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول يا محمّد: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾**[1]، قال الربيع: فأرسل إليّ ليلاً فراعني وخفت من ذلك، وجئت إليه فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان من أحسن الناس صوتاً فقال: عليّ الآن بموسى بن جعفر، فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن، رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في النوم فقرأ عليّ كذا، فتؤمنّي أن لا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي؟ فقال: والله لا فعلت ذلك ولا هو من شأني، قال: صدقت. يا ربيع اعطه ثلاثة آلاف دينار، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلّا وهو في الطريق خوف العوائق.

وقيل أنّه أمر له بعشرة آلاف دينار وردّه إلى أهله إلى المدينة، والله العالم.

فصل
الهادي

وهو موسى بن المهدي، بويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه المهدي وهو مقيم بجرجان يحارب أهل طبرستان، وكتب الرشيد إلى الافاق بوفاة المهدي وأخذ البيعة للهادي وسار نصير

(١) سورة محمّد: ٢٢.

الوصيف إلى الهادي بجرجان، فأعلمه بوفاة المهدي والبيعة له، فنادى بالرحيل، وركب على البريد مجدّاً فبلغ بغداد في عشرين يوماً، ولمّا قدمها استوزر الربيع وقتل جماعة من الزنادقة، منهم: علي بن يقطين، ويعقوب بن عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب، وكان سبب قتله أنّه أتى به إلى المهدي فأقرّ بالزندقة، فقال: لو كان ما تقول حقّاً لكنت حقيقاً أن تتعصّب لمحمّدﷺ، ولولا محمّد من كنت؟! أما والله لولا أنّي جعلت على نفسي أن لا أقتل هاشمياً لقتلتك.

ثم قال للهادي: أقسمت عليك أن وليت هذا الأمر لتقتلنّه! ثم حبسه فلمّا مات المهدي قتله الهادي، ولمّا قتل يعقوب أدخل أولاده على الهادي فأقرّت ابنته فاطمة أنّها حبلى من أبيها، فخوفت فماتت من الفزع. وهذا ذكره ابن الأثير والله أعلم[1].

وفي هذه السنة التي بويع فيها الهادي وهي سنة تسع وستين ومائة، ظهر الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالبعليه السلام ـ أحد دعاة الزيدية ـ بالمدينة وقوى أمره وأخذ مكة فقاتله من كان حاجّاً من العباسيين فقتل الحسين بفخ قرب مكة، وحمل رأسه مع رؤوس كثيرة من قومه إلى الهادي.

وفي قتله يقول الهادي:

سلى همومي وأطفا نار موجدتي ... عون الإله على الأعداء بالظفر

في كل يوم لنا من أهلنا حسد ... لأن ملكنا وصرنا سادة البشر

لم يدفعوا بصغير الأمر أكبره ... وهل يقاس ضياء الشمس بالقمر

وقطع الهادي جوائزهم حتى نقل المقداد السيوري في التنقيح شرح مختصر النافع عن البخاري النسابة، عن الجوادعليه السلام أنه قال: لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ.

وهو الذي قال فيه ابن عبدون:

واسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفخ لآل المصطفى هدر

وكان الحسين المذكور شجاعاً كريماً، قدم مرة على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار، ففرقها ببغداد والكوفة ورجع بعباءة ليس تحتها قميص. وكان عمر الحسين هذا لمّا قتل بفخ ست وعشرين سنة. وفيه يقول بعض الشعراء في ذلك العصر:

لا تبكين على الحسين ... بعولة وعلى الحسن

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/٨٠، تاريخ الاسلام ٣/١١٨٨.

وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس له كفن
نزلوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن

والحسن الذي ذكر في هذه الأبيات هو: الحسن بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان أسر في ذلك اليوم وضربت عنقه، وابن عاتكة هو: عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم ابن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

وذكر الطبري والصولي وابن قتيبة والخوارزمي أنّ المقتول بفخ هو الحسن بن علي بن الحسين ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه والله أعلم.

وفي سنة سبعين ومائة في ربيع الأوّل مات الهادي وعمره ست وعشرين سنة وخلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر.

واختلف في سبب وفاته، فقيل: كان سببها قرحة كانت في جوفه. وقيل: مرض بحديثة الموصول، وعاد مريضاً فتوفّي. وقيل: أنّ وفاته من قبل جوار لأُمّه الخيزران كانت أمرتهنّ بقتله.

وكان سبب أمرها بذلك لأنّه لمّا ولي الخلافة كانت تستبد بالأُمور دونه، وتسلك به مسلك المهدي حتى مضى أربعة أشهر، فانثال الناس إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً، فقالت: لابدّ من إجابتي إليه فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك، فغضب الهادي وقال: ويلي على ابن الفاعلة! قد علمت أنّه صاحبك، والله لا قضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: لا أبالي والله، وغضب. فقامت مغضبة، فقال: مكانك والله وإلّا أنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوّادي وخاصّتي لأضربن عنقه أو لأقبضنّ ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إيّاك وإيّاك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمّي، فانصرفت وهي لا تعقل فلم تنطق عنده بعدها، ثم أنّه قال لأصحابه: أيّما خير! أنا وأُمّي، أم أنتم وأمهاتكم؟ قالوا: بل أنت وأُمّك خير. قال: فأيّكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أُمّه، فيقولوا: فعلت أم فلان وصنعت؟ قالوا: لا نحبّ ذلك، قال: فما بالكم تأتون بأمّي فتتحدثون بحديثها؟ فلمّا سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

ثم بعث إلى أُمه باوز. وقال: استطيبتها فكلي منها، فقيل لها: امسكي حتى تنظري، فجاءوا بكلب وأطعموه منها فتساقط لحمه لوقته، فأرسل إليها كيف رأيت الأوز؟ قالت: طيباً، فأرسل إليها ما أكلت منها، ولو أكلت لاسترحت منك. متى أفلح خليفة له أم؟

وقيل: كان سبب أمرها بذلك أنّ الهادي لمّا جدّ في خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد، فوضعت جواريها عليه لمّا مرض فقتلته بالغم والجلوس على وجهه فمات،

فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته وصلّى عليه الرشيد، وكان طويلاً جسيماً أبيض مشرباً بحمرة. ودفن في بستانه والله أعلم.

فصل
الرشيد

وهو هارون بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، وأُمه وأم الهادي الخيزران أم ولد يمانية، وكان مولده بالري في آخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، وقيل ولد مستهل المحرم سنة سبع وأربعين ومائة، وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكي قبله بسبعة أيام، وأرضعت أم الفضل الرشيد وأرضعت الخيزران الفضل، وتزوج الرشيد بنت عمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور.

وبويع بالخلافة صبيحة الليلة التي مات فيها الهادي سنة سبعين ومائة، وعمره خمس وعشرين سنة أو ثلاث وعشرين.

وفيها ولد الأمين وكان المأمون أكبر منه بسنة.

وفيها استوزر الرشيد يحيى بن خالد البرمكي وأرمى مقاليد الأمور إليه، فأنشد إبراهيم النديم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمين أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وفي هذه السنة عمر الرشيد طرسوس على يد فرج الخادم التركي.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة حج بالناس الرشيد فأحرم من بغداد.

وفي سنة خمس وسبعين ومائة عقد الرشيد لابنه محمّد الأمين بن زبيدة بولاية العهد، ولقّبه الأمين وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين.

وفي سنة ست وسبعين ومائة فتحت الروم.

وفيها ظهر يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالديلم، واشتدت شوكته وكثرت جموعه وأتاه الناس من الأمصار، واغتمّ الرشيد لذلك، فندب إليه الفضل ابن يحيى البرمكي في خمسين ألفاً، وولاه جرجان وطبرستان والري وغيرها، وحمل معه الأموال فكاتب الفضل يحيى بن عبدالله ولطف به وحذّره وأشار عليه، وبسط أمله وبذل له ألف ألف درهم فأجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطّه، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجملة من بني هاشم ومشايخهم، منهم عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس، فأجابه الرشيد

إلى ذلك وسرّ به وعظمت منزلة الفضل عنده، وسير الأمان مع هدايا وتحف إلى يحيى، فقدم يحيى مع الفضل بغداد، فلقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال كثير ثم أمسكه وحبسه عند جعفر بن يحيى، فدعا به ليلة وسأله عن بعض أمره، فقال له: اتق الله في أمري، ولا تتعرض غداً أن يكون خصمك محمّد صلى الله عليه وآله فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً فرق له، وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: فكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه، وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له، ومن خواص جعفر فرفعه إلى الرشيد، فقال: ما أنت وهذا؟ فعله عن أمري. ثم أحضر جعفراً للطعام فجعل يلقمه ويحادثه ثم سأله عن يحيى. فقال: هو بحاله في الحبس. فقال: بحياتي، ففطن جعفر. وقال: لا وحياتك، وقصّ عليه أمره. وقال: علمت أمر لا مكروه عنده. فقال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما في نفسي فلمّا قام عنه. قال: قتلني الله إن لم أقتلك.

وقال صاحب شرح طوق الحمامة: كان جعفر يرى سرور الرشيد بموت من يموت في حبسه من هؤلاء الأصناف ـ يعني الذين كان يخاف منهم على الخلافة ـ فشرب يوماً فسرّ. فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ يحيى بن عبدالله قد مات فسرّ بذلك، وقال: الحمد لله الذي كفاني أمره ولم يؤثمني فيه. وانصرف جعفر فأخبر أباه يحيى بما كان. فقال يحيى: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن تركناه تلفنا، وإن قتلناه فالنار لنا، ثم انفتح ليحيى باب في أمره على ما خيل إليه، فكتب إلى علي بن عيسى بن ماهان وكان والي خراسان وكان متزوجاً بنت يحيى البرمكي، فعرّفه ما جرى وفزع إليه في أن يكون يحيى بن عبدالله عنده موسعاً عليه، إلى أن يقضى الله فيه قضاه، ولم يكن يحيى يعلم ما بين علي ابن عيسى وبين ابنيه الفضل وجعفر من العداوة، فلمّا وصل الكتاب إلى علي بن عيسى ووصل يحيى بن عبدالله. قال: هذه من حيل الفضل وجعفر عليّ، فأجاب يحيى بأنّه يفعل ما أراد، وأنفذ كتاب إلى الرشيد وأعلمه أنّ يحيى بن عبدالله عنده، فكتب إليه الرشيد بحسن موقع ما فعله ويعلمه فساد أمراء البرامكة لديه، وأمره أن يبعث بيحيى بن عبدالله إليه من غير أن يعلم أحداً بمكاتباته، فلمّا وصل يحيى بن عبدالله إلى الرشيد حبسه حتى مات في الحبس. وأوقع بالبرامكة بعد مدة من ذلك الوقت.

وفي سنة خمس وسبعين ومائة أو سبع وسبعين ومائة هاجت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وكان سببها أنّ عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيذام رأس المضرية أحد فرسان العرب المشهورين واسمه عامر، فخرج أبو الهيذام بالشام وجمع جمعاً عظيماً. وقال يرثي أخاه:

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا ... فإن بها ما يدرك الطالب الوترا

ولسنا كمن ينعى أخاه بعبرة ... يعصرها من ماء مقلته عصراً

وإنا أناس ما تفيض دموعنا | على هالك منا وإن قصم الظهرا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة | في قطري كنائبها جمراً

ثم أنّ الرشيد احتال على أبي الهيذام بأخ له كتب إليه فأرغبه فشدّ عليه فكتّفه، وأتي به إلى الرشيد فمنّ عليه وأطلقه.

وفيها خرج الوليد بن طريف الثعلبي بالجزيرة وقويت شوكته فسيّر الرشيد إليه يزيد بن مزيد بن زائدة، وهو ابن أخي معن بن زائدة، فأرسل الوليد إلى يزيد يقول له:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا | بشط الزاب أي فتى تكون

فلمّا التقوا وقعت الحملة على الوليد، واحتال عليه يزيد فقتله وأخذ رأسه، فلحقتهم أخته ليلى بنت طريف على فرس وبيدها رمح وهي تريد الحرب، فرجع إليها يزيد وضربها برمحه على قطاة فرسها. وقال لها: أمّا تستحي؟ فرجعت وهي تقول من أبيات:

بتل بناثا رسم قبر كأنه | على علم فوق الجبال منيف
تضمن جوداً حاتمياً ونائلاً | وسورة مقدام وقلب حصيف
فان يك ارداه يزيد بن مزيد | فيا ربّ خيل فضها وصفوف
وان يك امسا رمس قبر فقد مضى | به وهو محمود الفعال منيف
إلّا يا لقومي للنوائب والردى | وهو ملح بالكرام عفيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى | وللشمس همت بعده بكسوف
فيا شجر الخابور مالك مورقاً | كأنك لم تجزع على بن طريف
فتى لا يحب الزاد إلّا من التقى | ولا المال إلّا من قناً وسيوف
ولا الخيل إلّا كل جرداء شطبة | وكل حصان باليدين غروف
فلا تجزعا يا ابني طريف فإنني | أرى للموت نزالاً بكل شريف

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة وثبت الحوفية بمصر بعاملهم إسحاق بن سليمان وقاتلوه، فأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين عامل فلسطين فقاتلوا الحوفية وهم من قيس وقضاعة، فأذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم، فعزل الرشيد إسحاق عن مصر واستعمل عليها هرثمة مقدار شهر، ثم عزله واستعمل عليها عبدالملك بن صالح.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة اعتمر الرشيد في شهر رمضان، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحاج.

وحج بالناس ومشى من مكة إلى منى إلى عرفات وشهد المشاعر كلّها ماشياً، ورجع على طريق

البصرة.

وفي سنة ثمانين ومائة استعمل الرشيد علي بن عيسى بن ماهان على خراسان.

وفي سنة أحدى وثمانين ومائة فتح الرشيد حصن الصفصاف من أرض الروم.

وفي سنة اثنين وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه عبدالله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان، ولقّبه المأمون وسلّمه إلى جعفر بن يحيى.

وفيها سملت الروم عيني طاغيتهم قسطنطين وحكموا عليهم أُمه.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة قصد خاقان بلاد المسلمين وقتل وسبي فبلغ السبي مائة ألف، واهتمّ لذلك الرشيد وبعث البعوث فردّوا العدو وسدّوا الباب الذي خرج منه.

وفي سنة أربع وثمانين ومائة ولي الرشيد حماد البربري اليمن.

وفي سنة خمس وثمانين ومائة ملكوا الفرنج مدينة برشلونة بالأندلس وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حماة ثغورهم إليها وتأخر المسلمون إلى ورائهم، وكان سبب ملكهم إيّاها اشتغال الحكم الأموي صاحب الأندلس بمحاربة عمّيه سليمان وعبدالله.

وفي سنة ست وثمانين ومائة اتفق الحكم مع عمه عبدالله.

وفيها كانت الوقعة بين علي بن عيسى بن ماهان وأبي الحصن.

وفيها حجّ الرشيد وبايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقّبه المؤتمن، وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان في حجر عبدالملك بن صالح، وجعل خلعه وإثباته إلى المأمون، وكان عبدالملك بن صالح قد كتب إلى الرشيد:

يا أيها الملك الذي ... لو كان نجما كان سعداً
للقاسم اعقد بيعةً ... واقدح له في الملك زندا
الله فرد واحد ... فاجعل ولاة العهد فردا

فلمّا أجابه إلى ذلك أنشد عبدالملك بن صالح:

حب الخليفة حبا لا يدين له ... عاصي الإله وشار يلقح الفتنا
الله قلد هارونا سياستنا ... لما اصطفاه فاحيا الفرض والسننا
وقلد الأمر هارون برافته ... فينا اميناً ومأمونا ومؤتمنا

ولمّا وصل الرشيد إلى مكة ومعه أولاده والفقهاء والقضاة والقوّاد كتب كتاباً فيه أنا أشهد فيه على محمّد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين، وعلّق الكتابين في الكعبة وجدّد العهود عليهما في الكعبة، ولمّا فعل الرشيد ذلك

قال الناس: قد ألقى بينهما شرّاً وحرباً، وخافوا عاقبة ذلك! وكان ما خافوه.

ثم أنّ الرشيد شخّص في سنة تسع وثمانين ومائة إلى بعض الجهات ومعه المأمون، فأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء أنّ جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون، وجدّد له البيعة عليهم وأرسل إلى بغداد مجدداً له البيعة على الأمين.

وفي سنة سبع وثمانين ومائة أوقع الرشيد بالبرامكة فقتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ـ والبرمك هو الذي يخدم بيت النار ويعمره ـ وكان برمك من مجوس بلخ، وكان عظيم القدر فيهم وساد ابنه خالد ووزر لأبي العباس السفاح بعد أبي سلمة الحلال، وأوّل من جاء منهم من بلخ جعفر ابن برمك، وكان ورث الوزارة أباً عن جد إلى زمن أزدشير، ولهم كتب مضنية في الوزارة ويعلمونها أولادهم، فطلبه سليمان بن عبدالملك بن مروان، فقدم عليه ودخل والسمّ معه وكان مع سليمان حجر السم فاضطرب الحجر في جيبه فغضب سليمان وأخرجه. وقال: لولا أنّه جاء من أرض بعيدة لضربت عنقه لأنّه حضر بين يدي ومعه السمّ القاتل، فقيل له ذلك. فقال: نعم، هو معي تحت فص خاتمي لأنّ آبائي طلب منهم الملوك أموالاً وعذّبوهم فخشيت أن أكلف شيئاً من ذلك فأمص خاتمي وأستريح من الإهانة.

فأحضره سليمان وخلع عليه. فقال له: يا أمير المؤمنين كيف عرفت أنّ السمّ مع العبد. قال: معي خرزتان يتحركان إذا حضر السمّ وأخرجهما وهما كالجزع اليماني فاضطربتا وكادت تقع أحدهما على الأخرى.

وكان جعفر بن يحيى قد بلغ من الرشيد ما لم يبلغه وزير من خليفة، حتى أنّه كان يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده، فمن ذلك ما حكاه إبراهيم بن المهدي أخو هارون الرشيد، وكان إبراهيم من أهل الطبقة العالية في صنعة العود.

قال: قال لي جعفر يوماً يا إبراهيم إذا كان غداً فبكّر إليّ فلمّا كان الصباح مشيت إليه مبكراً، فجلسنا نتحدث، فلمّا ارتفع النهار أحضر حجاماً فحجمنا ثم قدّم لنا الطعام فطعمنا، ثم خلع علينا ثياب المنادمة. وقال جعفر لحاجبه: لا تدخل علينا إلّا عبدالملك القهرمان، فنسي الحاجب ما قال له جعفر، فجاء عبدالملك بن صالح الهاشمي، وكان رجل من بني هاشم ذو ملاحة وفصاحة وحلماً وعلماً وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة وديانة، فدخل في نفس الحاجب أنّه الذي أمره جعفر بإدخاله فأدخله علينا، فلمّا رآه جعفر تغيّر لونه. فقال عبدالملك: اصنعوا بنا ما تصنعون بأنفسكم، فجاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ثم جلس يشرب فلمّا بلغ ثلاثاً، قال: لتخفف عنّي فإنّه شيء ما شربته قط فتهلل وجه جعفر، ثم قال له: هل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي

فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى إنّ أمير المؤمنين عليّ غاضب فسأله الرضا عنّي؟ قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: وعليّ دين أربعة آلاف دينار. قال: هي حاضرة من مال أمير المؤمنين. قال: وابني إبراهيم أريد أن أشدّ ظهره بصهارة أمير المؤمنين. قال: قد زوّجه أمير المؤمنين بابنته عائشة. قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: نعم قد ولاه أمير المؤمنين مصر. قال إبراهيم بن المهدي: فانصرف عبدالملك بن صالح وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين.

فلمّا كان من الغد وقفنا على باب الرشيد، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمّد بن واسع وإبراهيم بن عبدالملك بن صالح فعقد له النكاح، وحملت البدر إلى منزل عبدالملك بن صالح، وكتب سجل إبراهيم على مصر، وخرج جعفر فأشار إليّ فركبت معه، فلمّا صار إلى منزله نزل فنزلت لنزوله، فالتفت إليّ وقال: قلبك معلق بخبر عبدالملك؟ فأحببت معرفته، وذلك أنّي لمّا دخلت على أمير المؤمنين تمثلت بين يديه، وابتدأت القصة من أوّلها إلى آخرها كما كانت، فجعل يقول: أحسن والله، ثم قال: ما صنعت؟ فأخبرته بما سأل وبما أجبته، فجعل يقول أحسنت أحسنت وخرج إبراهيم والياً على مصر من يومه[1].

وذكروا الناس لقتل جعفر وزوال دولتهم أسباباً: منها ما قدّمناه من حال يحيى بن عبدالله الحسني، ومنها أنّه رفعت إلى الرشيد قصة لم يعرف صاحبها منها:

قل لأمين الله في أرضه ... ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلك ما بينكما حسد
أمرك مردود إلى أمره ... وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ ... ـفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصاؤها ... وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ... ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه ... إلّا إذا ما بطر العبد

فلمّا وقف الرشيد عليها أضمر له السوء.

وقيل: أنّه لمّا وجّه الرشيد ليقطين بن موسى إلى افريقية لإصلاحها وكان يقطين من كبار الشيعة وممن كان مع إبراهيم الإمام، فقال: يا أمير المؤمنين اكشف لي عن جسدك حتى أقبّله لأكون قد

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٨٢/٦، العقد الفريد ٧٦/١.

قبّلت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال له: يا أمير المؤمنين حدثني مولاي إبراهيم الإمام أنّ الخامس من خلفاء بني العباس تغدر به كتابه، فإن لم يقتلهم قتلوه، فقال: الله، حدثك الإمام بهذا؟ قال: نعم، فأمر أن يكتب له الحكاية، ومات يقطين سنة ست وثمانين ومائة وأوقع الرشيد بالبرامكة سنة سبع وثمانين ومائة.

وأقوى الأسباب عند العامة ما سمع من يحيى بن خالد وهو يقول: وقد تعلق بأستار الكعبة لمّا حجّ آخر حجة، اللهمّ إن كان رضاك أن تسلبني نعمك عندي فاسلبني! اللهم إن كان رضاك أن تسلبني أهلي وولدي فاسلبني إلّا الفضل، ثم ولّى فلمّا كان عند باب المسجد رجع فقال مثل ذلك، وجعل يقول: اللّهم أنّه سمج بمثلي أن يستثني عليك اللّهم والفضل، وسمع أيضاً يقول في ذلك المقام، اللّهم إنّ ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك، اللّهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك ولا تجعل عقوبتي في الآخرة فاستجيب له.

وحكى أنّ علية بنت المهدي قالت لأخيها للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: ما رأيت لك يا سيدي يوم سرور تام منذ قتلت جعفراً فلاي شيء قتلته؟ فقال لها: يا حبابتي والله لو علمت أنّ قميصي هذا يعلم السبب لحرقته.

والسبب الأشهر في قتل جعفر الذي عليه الأكثر أنّ الرشيد كان يحب جعفراً حباً شديداً، حتى أنّه كان لا يطيق يفارقه وكانت العباسة أخت الرشيد من أعظم حرمه وأجلهنّ عنده، وكان أيضاً لا يريد أن يفارقها، وكان متى غاب عنه جعفر لم يتم له سرور، ومتى غابت العباسة لم يتم له سرور أيضاً، فقال: يا جعفر إنّي لا يتم لي سرور إلّا بك وبالعباسة ورأيت أن أزوجها منك ليحل لكما الاجتماع معاً، وإياكما أن تجتمعا وأنا دونكما فتزوجها على هذا الشرط فبقيا على تلك الحال ما شاء الله.

ثم أنّ العباسة عشقت جعفراً فراودته فأبى وخاف على نفسه، فلمّا أعيتها الحيلة في أمره علمت أنّ النساء أقرب إلى الخديعة، فبعثت إلى أُمه عتابة أن ارسليني لجعفر كأنّي جارية من جواريك التي ترسليهنّ إليه؟ وكانت عتابة ترسل إلى ابنها جعفر في كل جمعة بجارية بكر عذراء، وكان لا يطأ تلك الجارية حتى يشرب شيئاً من النبيذ فأبت عليها أم جعفر، فقالت العباسة: إن لم تفعلي بي ذلك، قلت للرشيد أنّ أُم جعفر كلمتني في كيت وكيت، وإن أنت فعلت ذلك بي واشتملت منه على ولد زاد في شرف ابنك، وما عسى أن يفعل أخي لو قد علم أنّي اشتملت منه على ولد، فطمعت أُم جعفر في ذلك وجعلت تعد ولدها بأن ترسل إليه بجارية عذراء عندها من

هيئتها وصفتها كيت وكيت، وجعلت تمطله في ذلك وجعفر يطالبها بعد بها المرة بعد المرة.

فلمّا علمت أنّه قد اشتاقت نفسه لتلك الجارية التي ذكرت له أيّاها. قالت للعباسة: تهيئ في هذه الليلة، ففعلت العباسة وأدخلت على جعفر وكان لا يثبت صورتها، فإنّه إنّما كان يجلس معها والرشيد حاضر، فكان لا يرفع طرفه إليها مخافة من الرشيد.

فلمّا دخلت عليه وقضى منها وطره. قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ فقال لها: وأي بنت ملك أنت؟ قالت: أنا مولاتك العباسة، فطار السكر من رأسه وذهب إلى أُمه فدخل عليها، فقال لها يا أمّاه بعتيني والله رخيصاً.

فاشتملت العباسة من تلك الليلة على ولد، فلمّا ولدته وكّلت به غلاماً يقال له رياش وحاضنته بامرأة يقال لها بره، فلمّا خافت ظهور الأمر، بعثت بهم إلى مكة.

وكان يحيى بن خالد ينظر في قصر الرشيد على حرمه وخدمه، وكان يغلق باب القصر بالليل وينصرف بالمفاتيح معه، ولم يزل يفعل ذلك حتى ضيق على حرم الرشيد، فشكت زبيدة أم الأمين أمره إلى الرشيد. فقال له الرشيد: يا أبت! وكان يدعوه بذلك، ما بال زبيدة تشكوك؟ قال: يا أمير المؤمنين أمتّهم أنا في حرمك وخدمك؟ قال: لا، قال: فلا تقبل قولها، ثم أنّ يحيى ازداد لها منعاً وعليها غلظة.

فدخلت زبيدة على الرشيد. وقالت: ما يحمل يحيى على ما يفعل بي من منعه خدمي عن مكاني ووضعي في غير موضعي، فقال لها الرشيد: يحيى عندي غير متّهم في حرمي وخدمي. فقالت: لو كان كذلك لحفض ابنه مما ارتكبه. فقال لها: وما ذاك؟ فخبّرته بخبر العباسة. فقال: وعلى هذا دليل؟ فقالت: وأي دليل أدلّ من الولد. قال: وأين الولد؟ قالت: كان هنا، فلمّا خافت ظهوره وجّهت به إلى مكة، فقال لها: وهل علم بهذا أحد سواك؟ قالت: ما في قصرك أحد إلّا وقد علم بما أخبرتك به، فسكت عنها وأظهر أنّه يريد الحج، فخرج وخرج معه جعفر، ولمّا أراد جعفر الركوب دعا بالاصطرلاب ليختار وقتاً وهو في داره على دجلة، فمرّ رجل في سفينة وهو لا يراه ولا يدري ما يصنع والرجل ينشد ويقول:

تدبر بالنجوم ولست تدري وربّ البيت يفعل ما يريد

فضرب بالاصطرلاب الأرض وركب فكتبت العباسة إلى الخادم والداية أن يخرجا بالصبي إلى اليمن.

وفهم جعفر التغير من الرشيد عند حجّه معه. ووصلوا الحيرة فركب جعفر إلى كنيسة بها لحاجة له فيها فوجد حجراً عليه كتابة لا تفهم لأحد، فأحضر تراجمة الخط. وقال في نفسه: قد جعلت ما

فيه فألاً لما أخافه من الرشيد وأرجوه، فقرئ فإذا فيه:

إن بني المنذر عام انقضوا ... بحيث شاد البيعة الراهب
اضحوا ولا يرجوهم راغب ... يوماً ولا يرهبهم راهب
تنفح بالمسك ذفاريرهم ... والعنبر الخام لها قاطب
فاصبحوا أكلاً لدود الثرى ... وانقطع المطلوب والطالب

فحزن جعفر عند ذلك وكانت تجري على لسانه مع الأحيان فيقول: ذهب والله أمرنا.

وكان جعفر يصنع للرشيد طعاماً بعسفان إذا حجّ، فصنع له ذلك ودعاه فلم يحضر عنده، فكان ذلك أوّل تغيّر أمره.

فلمّا وصل الرشيد إلى مكة، وكّل من يثق به بالبحث عن أمر الصبي والداية والخادم، فوجد الأمر صحيحاً فأضمر السوء بالبرامكة من أجل ذلك. وكانت سبب زوال نعمتهم.

ثم دعا بالسندي بن شاهك وهو أحد قوّاده فأمره بالمضي إلى دار السلام ـ بغداد ـ والتوكل بالبرامكة جميعاً وأن يكتب أسماؤهم وأسماء أقاربهم، ومن ينسب إليهم والأولاد الصغار ولا يترك منهم أحد، وأن يجعل ذلك سرّاً بحيث لا يعلم به أحد حتى يصل إلى بغداد، ثم يقضي ذلك إلى من يثق به من أهله وأعوانه، ففعل السندي ذلك.

فلمّا انصرفوا من الحج ونزلوا الأنبار ونزل الرشيد بالأنبار قرب الكوفة بموضع يقال له: العمر، سلخ المحرم سنة سبع وثمانين ومائة وكان معه جعفر.

فانصرف جعفر إلى موضعه ودعا بأبي زكار الأعمى الطنبوري، ومدّت الستار وجلسن جواريه خلفها يضربن بالعود ويقنين وأبو زكار ينشده ويقول:

ما يريد الناس منا ... ما ينام الناس عنا
إنما الناس يريدوا ... يظهروا ما قد دفنا

ودعا الرشيد من ساعته بياسر الخادم وهو غلام من غلمانه وكان شجاعاً. فقال له: يا ياسر أنّي دعوتك لأمر لم أر له محمّداً ولا عبدالله ولا القاسم أهلاً ورأيتك ناهضاً به، فحقق ظنّي واحذر أن تخالفني فيكون سبب سقوط منزلتك عندي. فقال: يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت. قال: اذهب إلى جعفر بن يحيى وأتني برأسه الساعة على أي حال تجده، فوقف ياسر متحيّراً لم يجره جواباً. فقال: يا ياسر ألم أتقدم إليك إن خالفت أمري؟ فقال: بلى، ولكن الأمر عظيم وددت أنّي متّ قبل هذا! قال: فامضي لما أمرتك، فمضى ومعه جماعة من الجند إلى جعفر ليلاً وعنده ابن يختيشوع الطبيب وأبو زكار ينشده ويقول:

فــلا تــبعد فكــل فــتى ســيأتي عــليه المــوت يــطرق أو يــغادي
فـلو فـوديت مـن حـدث الليالي فــديتك بــالطريق وبــالبلادي
وكــل ذخــيرة لابــد يــوماً وان بــقيت تــصير إلى نـفادي

فقال ياسر: يا أبا الفضل الذي جئت له هو والله ذاك قد طرقك، ودخل عليه بغير إذن، فقال له جعفر: يا ياسر سررتني بإقبالك، وفجعتني بدخولك بغير إذني. فقال: الأمر أكبر من ذلك، أنّ أمير المؤمنين أمرني فيك بكذا وكذا، فأقبل جعفر يقبّل قدمي ياسر، ويقول: دعني أدخل أوصي؟ فقال: أمّا الدخول فلا سبيل إليه وأمّا الوصيّة فاصنع ما شئت، فأوصى بما أراد، وأعتق مماليكه وقال: يا ياسر إنّ لي عليك حقاً ولم تجد مكافأتي إلّا في هذه الساعة. قال: تجدني سريعاً إلّا فيما يخالف أمير المؤمنين. قال: فارجع إليه واعلمه أنّك نفّذت أمره بي فإن أصبح نادماً كانت حياتي على يديك، وكانت لك عندي نعمة وإن أصبح على مثل مذهبه نفّذت لما أمرك به.

قال: ما إلى هذا سبيل. قال: فأسير معك إلى مضرب أمير المؤمنين بحيث أسمع كلامه ومراجعتك له، فإذا أبديت عذراً ولم يقنع إلّا بمصيرك برأسي فعلت. فقال: أمّا هذا! فنعم، فصارا جميعاً إلى مضرب الرشيد فلمّا سمع حسّه، قال: يا ياسر من معك؟ قال: جعفر، فقال: ائتني برأسه والله يا ماص بظر أمه لئن راجعتني لاقدمنك قبله، فرجع وقتله وأتى برأسه.

فلمّا وضعه بين يدي الرشيد أقبل عليه مليّاً، ثم قال: يا ياسر ائتني بفلان وفلان، فلمّا أتاه بهما. قال لهما: اضربا عنق ياسر فإنّي لا أقدر أرى قاتل جعفر، فضربا عنقه(١).

وكان قتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومائة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وأرسل الرشيد بجثّته فصلبت بجسر بغداد، وقبض على يحيى والفضل وسجنهما حتى ماتا في السجن، وكانت الوزارة فيهم سبعة عشر سنة. وقد قيل:

لا تــغبطن وزيــراً للــملوك وان انــاله الدهــر مــنهم فــوق هــمته
واعــلم بــان له يــوماً تــمور بــه الأرض الوقــور كــما مــارت لهــيبته
هارون وهو أخو موسى الشقيق له لولا الوزارة لم يأخــذ بــلحيته

وقال الرقاشي وقيل أبو نؤاس:

الآن اســترحــنا واســتراحت ركــابنا وأمسك من يجدي ومن كان يـجتدي
فـقل للـمطايا قـد أمـنت مـن السـرى وطــي الفــيافي فــدفداً بــعد فــدفد

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: ١/ ١٨٨.

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولم تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهند أصيب بسيف هاشمي مهند

وحكي أنّه أصيب على باب قصر علي بن عيسى بن هامان بخراسان صبحة الليلة التي قتل فيها جعفر كتاب بقلم جليل فيه:

إن المساكين بني برمك صبت عليهم غير الدهر
إن لنا في أمرهم عبرة فليعتبر ساكن ذا القصر

وحدث المغيرة بن محمّد المهلبي قال: حدثنا الأصمعي، قال: وجهت إلى الرشيد بعد قتله لجعفر فجئت إليه، فقال لي: أتريد أن أسمعك أبيات أبي المغيرة؟ قلت: إذا شاء أمير المؤمنين، فقال:

لو أنّ جعفر خاف أسباب الردى لنجا بمهجته طمير ملجم
ولكان من حذر المنية حيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما أتاه يومه لم يدفع الحدثان عنه منجم

فعلمت أنّها له، فقلت: هذه أحسن أبيات في معناها، فقال: الحق الآن بأهلك يا ابن قريب.

وحكى سهل بن هارون صاحب داود بن الرشيد بعد يحيى البرمكي، وهو صاحب كتاب ثعله وعفره، وهو كتاب مثنى فيه على نحو كليله ودمنه، قال: كنت مع يحيى بن خالد البرمكي في الرقة داخل سرادقه وأنا بين يديه أحصل أوراق العامة وهو يعقدها جملاً بكفّه إذ غشيته سآمة، وأخذته سنة من النوم، فغلبته عيناه. فقال لي: يا سهيل، طرق النوم نظري وكل خاطري، فما ذاك؟ قلت: ضيف كريم وملك لا يغالب، قال: فنام هنية ثم انتبه مرعوباً، فقال: يا سهيل الأمر ما كان، قد ذهب والله ملكنا، وزال عزّنا، وانقضت أيام دولتنا. قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ فقال: رأيت كان منشداً أنشدني في المنام:

كأن لم يكن بين الحجون[1] إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكه سامر

فأجبته من غير روية ولا إجالة فكر:

بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

قال سهيل: فلمّا كان في اليوم الثالث من ذلك اليوم وأنا بين يديه أكتب توقيعات، إذ رأيت رجلاً

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة.

ساعي إليه حتى أكبّ عليه. فقال له: ويحك ما كتم خيراً ولا كتم شراً. قال: قتل أمير المؤمنين جعفراً، قال: وفعل؟ قال: نعم، فما زاد على أن رمى القلم من يده، وقال: هكذا تقوم الساعة.

ثم قال: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا معتبر. ثم قبض على يحيى وعلى الفضل فسجنا حتى ماتا في السجن.

واحتوى الرشيد على جميع أموال البرامكة في سائر البلاد، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ورقيق ومتاع، ولم يعرض الرشيد لمحمّد بن خالد بن برمك وولده وأسبابه، لأنّه علم براءته مما دخل فيه أهله، وقيل كان يسعى بهم الرشيد.

وكتب يحيى إلى الرشيد كتاباً من السجن يقول فيه: إلى أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخلف المهديين، وخليفة ربّ العالمين، من عبد أسلمته ذنوبه، وأوثقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وزلّ به الزمان، وأناخ عليه الحدثان، فصار إلى الضيق بعد السعة، وعالج البؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافتقد الهجوع، فساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت جزعاً يا أمير المؤمنين، حجب الله عنّي فقدك لما أصبت به من بعدك، لا لمصيبتي بالحال والمال، فإنّ ذلك كان بك ولك عارية في يدي منك، ولا بأس أن تسترد العواري، فأمّا المحنة في جعفر فبجرمه أخذته، وبجريرته عاقبته، وما أخاف عليك زلّة في أمره، ولا مجاوزة به فوق ما يستحقّه، فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتي، وارحم ضعفي وشيبتي، ووهن حيلي وقوّتي، وهب لي رضى عنّي، فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك، ولكنّي أقرّ بذنوبي، وقد رجوت أن يظهر على الرضا من وضوح عذري، وصدق نيّتي، وظاهر طاعتي، وفلج حجتي، ما يكتفي به أمير المؤمنين ويرى الجلية فيه، ويبلغ المراد منه إن شاء الله تعالى، وكتب له شعراً يقول فيه:

قل للخليفة ذو الصنا	ئع والعطايا الفاشية
وابن الخلائف من قريشٍ	والملوك الهادية
ملك الملوك وخير من	ساس الملوك الماضية
ان البرامكة الذين	رموا لديك بداهية
عمتهم لك سخطة	لم تبق منهم باقية
فكأنهم مما بهم	أعجاز نخل خاوية
صفر الوجوه عليهم	خلع المذلة بادية
مستضعفون مطردون	بكل أرض قاصية

مـن دون مـا يـلقون مـن ... عـيب يشـيب النـاصية
اضـحوا وجـل مـرادهـم ... مـنك الرضـا والعـافية
بـعد الإمـارة والوزارة ... والأمـور العـالية
انـظر إلى الشـيخ الكـبير ... فـنفسه لك راجـية
أو مـا سـمعت مـقالتي ... يـا ابـن الفـروع الزاكـية
مـا زلت ارجـو راحـة ... واليـوم خـاب رجـائيه
واليـوم قـد سـلب الزمـا ... ن كـرامـتي وبـهائيه
ألقـى الزمـان حـرابـه ... مـتشفيا بـفنائيه
ورمـى سـواد مـقاتلي ... فـاصاب حـين رمـانيه
يـامن يـود لي الردى ... يكـفيك ويـحك مـابيه
يكـفيك انـي مستباح ... عشـيرتي وبـناتيه
يكـفيك مـا أبصرت من ... ذلي وذل مكـانيه
وذهـاب مـالي كـله ... وفـدى الخـليفة مـالية
ان كـان لا يكـفيك إلّا ... ان اذوق حـماميه
فـلقد رأيت المـوت مـن ... قـبل المـمات عـلانية
وفـجعة اعـظم فـجعته ... وفـنيت قـبل فـنايه
وهويت فـي قـعر السجون ... عـلى رفـيع بـنايه
نـظر بـعينك هـل تـرى ... إلّا قـصوراً خـالية
وذخـائرا مـوروثة ... قسـمن قـبل مـماتيه
ومـصارعاً وفـجائعاً ... ومـصائباً مـتوالية
ونـوادبـاً تـندبنني ... تـحت الدجـى بكـنائية
أأبـا عـلي البـرمكي ... فـما اجـبت الداعـية
وبـدارهـن وقـد سـمعت ... مـقلقل احشـائيه
اخـليفة الله الرضـا ... لا تشـمتن اعـدائـيه
اذكـر مـقاسات الأمـور ... وخـدمتي وعـنائيه
ارحـم جعلت لك الفداء ... ضـعفي وشـدة حـالية
أرحـم اخـاك الفـضل و ... البـاقين مـن أولاديـه

اخـــليفة الرحـــمن انك   لو رأيت بـــناتيه
وبكـــاء فـاطمة الكـبيرة   والمـــدامـــع جـارية
ومـــسقالها بــــتوجع   يـــا شـــقوتي وعـــنائيه
من لي وقـد غـضب الإمام   عـــلى جـــميع رجـاليه
وعـدمت طـيب مـعيشتي   وتـــغيرت حـــالاتيه
يـا نـعمة المـلك الرضـى   عـــودي عـــلينا ثـانية

قال فلما رأى الرشيد هذه الأبيات وقع تحتها:

أجـرى القـضاء عـليكم   فـــاجبتموه عـــلانية
مـن تـرك نـصح إمامكم   عـــند الأمـــور البـــادية
يــــا آل بـــرمك إنـــما   كـــنتم مـــلوكاً عـــاتيه
فكـــفرتموا وعـــصيتموا   وجـــحدتموا نـــعمائيه
هــذي عـقوبة مـن عـصى   ربّ السـماء وعـصانيه

وكتب تحتها أيضاً: ﴿**وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[١]، فلما رآها يحيى كتب إليه في الجواب يقول له:

ستعلم فـي الحساب إذا التقينا   غـداً عـند الإله مـن الظلوم
سـينقطع التـلذذ عـن أنـاس   ادامـــوه ويـــنقطع الهـموم
إلّا يــا بـــائعاً ديـنا بـدنيا   غـروراً لا يـدوم لهـا نـعيم
تـخل مـن الذنـوب فـانت منها   عـلى ان لست ذا سـقم سـقيم
تـنام ولم تـنم عـنك المـنايا   تـنبه للـمنية يـا غشـوم
تـروم الخـلد فـي دار الرزايـا   وكـم قـد رام قـبلك مـا تـروم
إلى ديـان يـوم الديـن نـمضي   وعـند الله تـجتمع الخـصوم

وكان يحيى من أهل العقل البارع، والسخاء الكامل، وكان يقول: ما رأيت أحداً قط إلّا هبته حتى يتكلّم، فإذا تكلّم كان بين اثنتين أمّا أن تزيد هيبته، وأمّا أن تضمحل، وفيه قيل:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا   ولكـنني رق ليـحيى بـن خـالد

---

(١) سورة النحل: ١١٢.

فـقلت شـراءً قـال بـل عـن وراثـة تـوارثـني عـن واحـد بـعد واحـد

وتوفي يحيى في سجن الرشيد بالرقة سنة تسعين ومائة بعد قتل جعفر بثلاث سنين وهو ابن سبعين سنة، وكان موته فجأة، أكل ونام فنبّهوه لصلاة العصر فوجدوه ميتاً بعد مرض طويل كان قد برئ منه، فلمّا بلغ الرشيد موته استرجع وقال: اليوم مات أعقل الناس، ولو بقي لرددته إلى حاله.

وكان الفضل من كرماء بني برمك على كرمهم، قال السلطان عماد الدين: كان من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله، وبقي في السجن بعد أبيه سنتين، ثم مات فيه سنة ثلاث وتسعين ومائة وعمره خمس وأربعون سنة.

ولمّا بلغ خبر موته للرشيد قال: أمرئ قريب من أمره. ومات الرشيد بعده في تلك السنة.

وحدث إسحاق قال: كان خاتم الوزارة للفضل قبل جعفر، فلمّا أراد الرشيد أن يصرف الوزارة إلى جعفر، قال ليحيى: يا أبت أردت أن أجعل الخاتم الذي لأخي الفضل لجعفر، وكان يدعوا الفضل يا أخي، فإنّ أم الفضل كانت أرضعت الرشيد وهي زبيدة بنت سيرين[١] بربرية من مولدات المدينة، وقد احتشمت من الكتابة إليه في ذلك، فكتب إليه يحيى قد أمر أمير المؤمنين أعلا الله أمره بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك. فكتب إليه الفضل قد سمعت وأجبت إلى ما قاله أمير المؤمنين في أخي وأطعت، وما انتقلت عنّي نعمة صارت إليه، ولا غربت عنّي رتبة طلعت عليه. فقال جعفر: لله در أخي ما أنفس نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى شواهد العقل فيه، وأوسع في البلاغة ذرعه، وأرحب بها جنابه، يوجب على نفسه ما يجب له، ويحمل الكرم فوق طاقته.

وحكي عنه أنّه كان يقول: ما سرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز.

وأتاه حاجبه يوماً فقال: إنّ بالباب رجلاً يزعم أنّ له نسباً إليك، فقال: أدخله، فدخل رجل حسن الوجه رث الهيئة، فسلم عليه فأومأ إليه بالجلوس، فلمّا استقر مجلسه، قال له: ـ بعد ساعة ـ ما حاجتك؟ قال: قد أعلمتك بها رثاثة ملبس. قال: أجل فما الذي رميت به. قال: ولادتي قريب من ولادتك، وجواري يدنوا من جوارك، واسمي مشتق من اسمك، فقال الفضل: أمّا الجوار فيمكن وقد يوافق الإسم، ولكن ما علمك بالولادة، قال: أخبرتني أمي أنّها لمّا ولدتني قيل لها: ولد هذه الليلة ليحيى بن خالد غلام، وسمّي الفضل، فسمّتني أمي فضيلاً إكثاراً لاسمك، وصغرته لصغور قدري عن قدرك، فتبسّم الفضل، ثم قال له: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون سنة، قال: صدقت هذا المقدار الذي أعد، ثم قال: فما فعلت أُمّك؟ قال: ماتت، قال: فما منعك من

---

(١) هكذا في النسختين، واما في تاريخ بغداد (سنين)، وفي المنتظم (منين).

اللحاق بنا متقدماً؟ قال: لم أرض نفسي للقائك لأنها كانت في عامية معها حداثة تقعدني عن لقاء الملوك، وعلق هذا بقلبي منذ أعوام، فشغلت نفسي بطلب ما يصلح للقائك حتى رضيت نفسي، قال: فما يصلح لها؟ قال: الكبير من الأمر والصغير، قال: يا غلام، أعطه لكل عام مضى من عمره ألف درهم، وأعطه بعد هذا عشرة آلاف دينار، يحمل بها نفسه إلى وقت احتياجه إليها، وخلع عليه وحمله على مركب مهري.

وكان جعفر من أهل الفصاحة البارعة، والفطنة التي لا توجد عند ذكر قط.

منها: أنّ يهودياً زعم أنّ الرشيد يموت سنة كذا، فاغتمّ الرشيد وأحضر اليهودي، فقال له جعفر: أنت تزعم أنّ أمير المؤمنين يموت إلى كذا، قال: نعم، قال: وأنت كم عمرك فذكر عمراً طويلاً، فقال للرشيد: أقتله يا أمير المؤمنين حتى تعلم أنّه قد كذب في عمرك كما كذب في عمره؟ فقتله وذهب عنه غمّه.

ومن عجائب جعفر أنّه كان يرى الكاتب يكتب على بعد فيقرأ بتحريك القلم ما يكتب الكاتب.

ويقال أنّ كتّاب وقته كانوا يوجّهون غلمانهم فيقفون ببابه إذا جلس لإزالة المظالم، فكلّ ما خرج نسخة توقيع دفع غلام إلى صاحبها ديناراً وأخذ التوقيع منه ليرى كيف هو ويأخذ على مثاله.

وكان جعفر بخيل ولولا ذلك ما كان يجاريه أحد من أهل زمانه.

ومما حكي من بخله أنّه أراد يوماً أن يحفظ كتاب كليلة ودمنة فصعب عليه ذلك، فقال له عبدالحميد بن عبدالرحمن اللاحقي: أنا أنظمه لك شعراً ليخف عليك حفظه، فقال له: افعل فنقله إلى قصيدة مزدوجة عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت وعملها في ثلاثة أشهر، فأعطاه يحيى على ذلك عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، وقال جعفر: أكون روايتك لها ولا أعطيك شيئاً.

وأوّل القصيدة:

هـذا كـتاب أدب ومـحنة وهـو الذي يـدعونه كـليلة ودمـنة

قال ابن عبدون:

وأشـرقت جـعفراً والفـضل يـنظره والشيخ يحيى بريق الصـارم الذكـر

وحدّث محمّد بن غسان صاحب صلاة الكوفة وقاضيها، قال: دخلت على أمي يوم الأضحى فرأيت عندها عجوزاً في ثياب رثّة وإذا لها بيان ولسان، فقلت لأمي: من هذه العجوز؟ فقالت: هذه خالتك عتابة أم جعفر البرمكي، فسلّمت عليها وسلّمت عليّ، وقلت لها: صنع بك الدهر ما أرى! قالت: نعم يا بني إنّما كنّا في عواد ارتجعها الدهر منا، فقلت: حدّثيني ببعض شأنك، فقالت: خذه

جملة! لقد مضى عليّ أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أنّ ابني عاقّ لي، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدي شاة، أجعل أحدهما شعاراً والآخر دثاراً، قال: فغمّني ذلك وأبكاني فوهبت لها دنانير كانت عندي، فكادت أن تموت من الفرح، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يبقى إلّا وجهه[1].

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وثمانين ومائة خلعت الروم ملكتهم ريني وولوا نقفور، وزعموا أنّه من أولاد جفنة من غسان.

فكتب إلى الرشيد من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أمّا بعد فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ولذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل قِبَلك من أموالها، وافتد نفسك، وإلّا فالسيف بيننا. فلمّا قرأ الرشيد الكتاب أشتدّ غضبه، وتفرّق جلساؤه خوفاً من نادرة تقع منه، ثم كتب بيده على ظهر الكتاب من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه، ثم ركب من يومه وأسرع حتى نزل على هرقله ـ مدينة هرقل ـ وأوطأ الروم ذلاً وبلاءً فقتل وسبي، وذل نقفور وطلب الموادعه على خراج يحمله كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك فلمّا نقض نقفور العهد فلم يحسن أحد أن يبلغ الرشيد حتى عملت الشعراء أبياتاً يلوحون بذلك منها:

نـقض الذي أعـطيته نـقفور	فـعليه دائـرة البـوار تـدور
أبشـر أمـير المـؤمنين فـإنه	فـتح أتـاك بـه الإله كـبير
فـتح يـزيد عـلى الفتوح يـومنا	بـالنصر فـيه لواؤك المـنصور

فلمّا سمعها الرشيد قال: أو قد فعل ذلك نقفور؟! وكرّ راجعاً في مشقة الشتاء حتى أناخ بفنائه ونال منه مراده.

وفي سنة ثمان وثمانين ومائة غزا المسلمون الروم من درب الصفصاف فخرج إليهم نقفور ملك الروم فجرح ثلاث جراحات وانهزم، وقتل من جيشه عدّة ألوف، قيل أربعون ألفاً وسبعمائة.

وفيها حج بالناس الرشيد فقسّم أموالاً كثيرة وهي آخر حجّة حجها في قول بعضهم. فسمع إعرابية بمكة تقول:

طـحنتنا كـلاكـل الأعـوام	وبـرتنا طـوارق الأيـام

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٠، اعلام الناس بما وقع للبرامكة ١/٨١.

فـــاتيناكـــم نـــمد أكــفا لقـــمامات زادكـــم والطـعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا أيـها الزائـرين بـيت الحـرام

فبكى الرشيد، وقال لأصحابه: سألتكم بالله إلّا دفعتم إليها صدقاتكم، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها وملئوا حجرها دراهم ودنانير.

وفي سنة تسع وثمانين ومائة سار الرشيد إلى الريّ، لمّا بلغه أنّ علياً بن عيسى بن هامان ظلم أهل خراسان وأقام بالريّ أربعة أشهر حتى أتاه علي بن عيسى، فلمّا قدم عليه أهدى له الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة فردّه إلى خراسان. ورجع الرشيد إلى العراق ودخل بغداد في آخر ذي الحجة، فلمّا مرّ بالجسر أمر بإحراق جثة جعفر بن يحيى البرمكي.

وفي سنة تسعين ومائة فتح الرشيد هرقلة ـ مدينة هرقل ـ ودخلها في شـوال فـي مـائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً، وخرّبها وسبي أهلها وبثّ جيوشه تغير في بلاد الروم وتغنم وتخرّب، وبعث نقفور الجزية عن رأسه وامرأته وخواصه فكان ذلك خمسين ألف دينار.

وفي سنة إحدى وتسعين ومائة أوقع الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الأموي صاحب الأندلس بأهل طليطلة[1]، فقتل منهم ما يزيد على خمسة آلاف رجل من أعيان أهلها.

وفي سنة اثنين وتسعين ومائة ظهرت الحرامية بجبال أذربيجان فغزاهم حازم بن خزيمة وقتل وسبى.

وفيها سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث ابن نصر بن سيار وكان مريضاً، واستخلف على الرقة ابنه القاسم وضمّ إليه خزيمة ابن خازم، وسار من بغداد إلى النهروان لخمس خلون من شعبان واستخلف ببغداد ابنه الأمين وأمر المأمون بالمقام ببغداد، فقال الفضل ابن سهل للمأمون: لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك؟ ومـحمّد الأمـين المـقدّم عليك؟ وإنّ أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنوا هاشم وزبيدة وأموالها، فاطلب من أمير المؤمنين أن تسير معه، فطلب منه ذلك فأجابه بعد امتناع.

فلمّا سار الرشيد سايره الصباح الطبري، فقال له: يا صباح لا أظنّك تراني أبداً فدعا له، فقال: ما أظنّك تدري ما أجد؟ قال: لا والله! فعدل عن الطريق واستظل بشجرة وأمر خواصّه بالبعد، فكشف عن بطنه فإذا عليه عصابة حرير، فقال: هذه علّة أكتمها الناس كلّهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب، وما منهم أحداً إلّا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري فاكتم ذلك عليّ.

---

(١) مدينة كبيرة في أواسط الأندلس بالقرب من «مدريد» الآن، فتحها طارق بن زياد.

قال جبرائيل بن يختيشوع الطبيب: كنت مع الرشيد في الرقة وكنت أوّل من يدخل عليه في كل غداة أتعرّف حاله، فدخلت عليه يوماً فسلّمت عليه فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابساً مفكراً مهموماً فسألته عن حاله، فقال: رأيت في منامي كأنّي جالس على سريري هذا إذ بدت من تحتي ذراع أعرفها وكف أعرفها لا أفهم اسم صاحبها وفي الكف تربة حمراء، فقال لي قائل ـ اسمعه ولا أرى شخصه ـ: هذه التربة التي تدفن فيها، فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: طوس، وغابت اليد وانقطع الكلام، ثم سار إلى خراسان ودخلنا طوس، فقال لي: أتذكر رؤياي بالرقة في طوس، ثم رفع رأسه إلى مسرور، فقال: جئني من تربة هذا البستان! فأتاه منها في كفّه حاسراً عن ذراعيه، فلمّا نظر إليه، قال: هذه والله الذراع التي رأيتها في منامي، وهذه الكف بعينها، وهذه التربة الحمراء، وأقبل على البكاء والنحيب ثم مات بعد ثلاثة.

قيل: أنّه لمّا آيس من نفسه أمر بحفر قبره، فحفر في موضع من الدار التي كان فيها في بستان حميد بن قحطبة، وأنزل إليه قوماً فقرءوا فيه القرآن كلّه وهو في محفة على شفير القبر، يقول ابن آدم: تصير إلى هذا.

وقال الهيثم بن عدي: لمّا حضرت الرشيد الوفاة غشي عليه، ففتح عينيه منها فرأى الفضل بن الربيع على رأسه، فقال يا فضل:

أحين دنا ما كنت أرجو دنوه ... رمتني عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً وقد كنت محسداً ... فصبرا على مكروه من العواقب
سأبكي على الوصل الذي كان بيننا ... وأندب أيام السرور الذواهب

وقال سهل بن صاعد: كنت عند الرشيد وهو يجود بنفسه، فدعا بملحفة غليظة فاختبئ بها وجعل يقاسي ما يقاسي، فنهضت فقال: أين سهل؟ فقلت: ما يتسع قلبي أرى أمير المؤمنين يعاني من المرض ما يعاني، فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين فضحك ضحك صحيح، ثم قال: يا سهل اذكر في هذا الحال قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم ... شماساً وصبراً شدة الحدثان

ثم مات وصلّى عليه ابنه صالح، وذلك لثلاث خلون من جمادي الآخر بمدينة طوس سنة ثلاث وتسعين ومائة، وكان عمره سبعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، ومدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً، وكان جميلاً وسيماً أبيض جعداً، وقد خطّه الشيب.

قال ابن الأثير: وكان يتصدّق كل يوم بألف درهم، ويصلّي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلّا من مرض، وكان إذا حجّ أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل

بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة، وكان يطلب العمل بآثار جدّه المنصور إلّا في بذل المال، فإنّه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه المال. وكان في بيت المال لمّا توفّي تسعمائة ألف ألف ونيف.

وكان المأمون حينئذٍ بمرو وكان لا يضيع عند الرشيد إحسان محسن ولا يؤخر ذلك، وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المرآء في الدين، وكان يحب المديح لا سيما من شاعر فصيح.

قال محمّد بن منصور البغدادي لمّا حبس الرشيد أبا العتاهية جعل عليه عيناً يأتيه بما يقول، فرآه يوماً وقد كتب على الحائط شعراً:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسئ هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى، وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار.

وقال له: قل شعراً، فقال:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

قال: ثم ماذا؟ قال:

يسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرواح وفي البكور

قال: ثم ماذا؟ قال:

فإذا النفوس تقعقت ... في ظل حشرجة الصدور

قال: ثم ماذا؟ قال:

فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلّا في غرور

فقال له الفضل بن الربيع: أراد أن تسرّه فأسئته؟

فصل
الأمين

وهو محمّد بن هارون الرشيد، ويكنّى بأبي موسى، وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، سمّيت زبيدة لرغبتها في وضع الزباد والمسك عليها في صغرها.

وحكى أنّها رأت في الليلة التي علقت فيها بمحمّد، كأنّ ثلاث نسوة دخلن عليها وهي في مجلس، فقعدت اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها، فدنت إحداهن فوضعت يدها على بطنها،

ثم قالت: ملك ضخم، عظيم القدر، ثقيل الحمل، نكد الأمر.

ثم قامت الثانية: ففعلت فعل الأولى، وقالت: ملك ناقص الجد، مغلول اليد، ممزق الود، تجور أحكامه، وتخونه أيامه.

وقامت الثالثة وقالت: ملك قصاف، عظيم الاتلاف، كثير الخلاف، قليل الانصاف.

قالت زبيدة: فانتبهت وأنا فزعة، فلمّا كانت في الليلة التي وضعت محمّداً فيها، دخلن عليّ وأنا نائمة في الصورة التي وردن عليّ فيها أولاً، فقعدن عند رأسي وطلعن في وجهي.

ثم قالت إحداهن: شجرة نضرة، وريحانة عبقة، وروضة زاهرة.

ثم قالت الثانية: عين عبقة، قليل لبنها، سريع فناؤها، عجل ذهابها.

وقالت الثالثة: عدو لنفسه، ضعيف بطشه، سريع عشقه، هزال عرشه.

قالت: فانتبهت من نومي وأنا فزعة، فأخبرت بذلك بعض قهارمتي[١]. فقالت: بعض ما يطرق النائم وعبث من عبث التوابع.

فلمّا تمّ فصاله أخذت مرقدي فدخلن عليّ ومحمّد أمامي في مهده فوقفن على رأسي وأقبلن على محمّد.

فقالت إحداهن: ملك جبّار، متلاف مهذار، بعيد الآثار، سريع العثار.

ثم قالت الثانية: ناطق مخصوم، ومحارب مهزوم، وراغب محروم، وشقي مهموم.

وقالت الثالثة: احفروا قبره، ثم شقّوا لحده، وقرّبوا كفانه، وأعدوا جهازه، فإنّ موته خير من حياته.

وكانت ولادة الأمين سنة سبعين ومائة في أوّل خلافة أبيه الرشيد.

وبويع للأمين بالخلافة في عسكر الرشيد بطوس، صبحة الليلة التي توفي فيها الرشيد يوم الخميس لثلاث خلون من جمادي الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة.

ولم يلي الخلافة هاشمي ابن هاشمية بعد علي بن أبي طالب وابنه الحسن عليهما السلام غير الأمين، وفيه يقول أبو الهزل الحمير:

مــلك أبــوه وأمــه مـن نـبعة ... مــنها ســراج الأمــة الوهــاج

شــربوا بــمكة مـن ذرى بـطحائها ... مــاء النــبوة ليس فــيه مـزاج

وهو أوّل من سمّي بالأمين، وكان أصغر سناً من المأمون.

---

(١) القهارمة: جمع قهرمان وهو الوكيل أو أمين الدخل والخرج.

وكان الرشيد يقول: والله إنّي لأعرف في عبدالله المأمون حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزّ نفس الهادي، ولو شبّهته بالرابع لما بعد عنه ـ يعني نفسه ـ ولكنّي أقدم محمداً عليه لأجل زبيدة، وميل بني هاشم لذلك.

وقال في ذلك:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني غلبت على الأمر الذي كا أحزما

وكيف يرد الدر في الضرع بعدما توزع حتى صار دهناً مقسما

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما

ثم قال لما بلغه أنّ الأمين يتهدد المأمون:

محمّد لا تظلم أخاك فانه يعود عليك البغي ان كنت باغيا

فلا تعجلن الدهر يوما فانه إذا مال بالاقوام لم يبق باقيا

وكان المأمون بمرو، فكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يخبره بوفاة الرشيد، والبيعة له مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم والقضيب والبردة النبوية.

وكتب حموية مولى المهدي صاحب البريد إلى نائبه ببغداد وهو سلام أبو مسلم، يعلمه بوفاة الرشيد والبيعة للأمين، فدخل أبو مسلم على الأمين فعزّاه في أبيه وهنأه بالخلافة.

فلمّا وصل رجاء الخادم، انتقل الأمين من قصره بالخلد إلى دار أبيه قصر الخلافة، وصلى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزّا نفسه والناس ووعدهم الخير، وأمن الأبيض والأسود، وفرق في الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهراً، ودعا إلى البيعة فبايعه أجلة أهل بيته، ووكل عم أبيه وأمه سليمان بن المنصور بأخذ البيعة على القواد وغيرهم، وأمر السندي بن شاهك أيضاً بمبايعة من عداهم.

وكان الأمين من أهل الشدّة والبطش، لكن كان ضعيف العقل، فخالف عليه أهل مصر ثم أطاعوا، وكان يخطب للأمين والمأمون معاً.

وفي سنة أربع وتسعين ومائة كان ابتداء الفتنة بين الأمين والمأمون، وكان سبب ذلك أنّ الرشيد لمّا سار نحو خراسان، وأخذ البيعة للمأمون على جميع من في عسكره من القوّاد وغيرهم، وأقرّ له بجميع ما معه من الأموال وغيرها على ما سبق ذكره، عظم ذلك على الأمين. ثم بلغه شدّة مرض الرشيد فأرسل بكر بن المعتمر، وكتب معه كتباً وجعلها في قوائم صناديق المطبخ، وكانت منقورة وألبسها جلود البقر، وقال له: لا تظهرن أمير المؤمنين ولا غيره على ذلك ولو قتلت، فإذا مات فادفع إلى كل إنسان منهم ما معك. له فلمّا قدم بكر بن المعتمر طوس بلغ هارون قدومه فدعا به وسأله

عن سبب قدومه، فقال: بعثني الأمين لآتيه بخبرك، قال: فهل معك كتاب؟ قال: لا ، فأمر بما معه ففتش فلم يصيبوا شيئاً فأمر به فضرب فلم يقر بشيء فحبسه وقيّده.

ثم أمر الفضل بن الربيع بتقريره فإن أقرّ وإلّا ضرب عنقه، فقرره فلم يقر بشيء، ثم غشي على الرشيد فصاح النساء فأمسك الفضل عن قتله، وحضر عند الرشيد، فأفاق وهو ضعيف قد شغل عن بكر وغيره ثم مات.

وكان بكر قد كتب إلى الفضل يسأله أن لا يعجل في أمره بشيء، فإنّ عنده أشياء يحتاج إلى علمها، فأحضر الفضل وأعلمه بموت الرشيد وسأله عمّا عنده، فخاف أن يكون الرشيد حيّاً فلمّا تيقّن موته أخرج الكتب التي معه، وهي كتاب إلى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن، ولم يكن المأمون حاضراً ـ كان بمرو ـ وكتاب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر إليه واستصحاب ما فيه من مال وغيره، وأن يتصرّف هو ومن معه برأي الفضل بن الربيع، وكتاب إلى الفضل بن الربيع يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك.

وأقرّ كل من كان إليه عمل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجاب، فلمّا فرّقوا الكتب تشاوروا هم والقوّاد في اللحاق بالأمين. فقال الفضل بن الربيع: لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل إلى الأمين فرحلوا إليه محبّة منهم لأهليهم ووطنهم، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.

فلمّا بلغ المأمون ذلك جمع من عنده بمرو من قوّاد أبيه وهم عبدالله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وشبيب بن حميد بن قحطبة، والعلاء مولى هارون وهو على حجابته، والعباس بن المسيب بن زهير وهو على شرطته، وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته، وعبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح الهاشمي. وذو الرئاستين الفضل بن سهل وهو أعظمهم عنده قدراً وأخصّهم به.

واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفي فارس فيردّهم، فخلى به ذو الرئاستين الفضل ابن سهل، وقال له: إن فعلت ما أشار به هؤلاء جعلوك هدية إلى أخيك؛ ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً وتوجّه رسولاً يذكّرهم البيعة، ويسألهم الوفاء، ويحذّرهم الحنث وما فيه دنياً وآخرة.

ففعل ذلك؛ ووجّه سهل بن صاعد، ونوفل الخادم، ومعهما كتاب، فلحقا الجند والفضل بن الربيع بنيسابور، فأوصلا الفضل كتابه، فقال: إنّما أنا واحد من الجند، وشدّ عبدالرحمن بن جبلة الأنباري على سهل بن صاعد ليطعنه فأمره على جنبه، وقال له: قل لصاحبك، لو كنت حاضراً

لوضعته فيك، وسب المأمون. فرجعا إلى المأمون بالخبر.

فقال ذو الرئاستين: أعداء استرحت منهم، ولكن أفهم عنّي أنّ هذه الدولة لم يكن قط أعزّ منها أيام المنصور، فخرج عليه المقنع وهو يدعي الربوبية، وقيل طلب بدم أبي مسلم الخراساني، فتضعضع العسكر لخروجه بخراسان، ثم خرج بعده يوسف البرم، وهو عند المسلمين كافراً، فتضعضعوا أيضاً له، وأخبرني أنت، أيّها الأمير كيف رأيت الناس عندما ورد عليهم خبر رافع بن الليث؟ قال: رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً، قال: فكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم؛ كيف يكون اضطراب أهل بغداد؟ اصبر، وأنا أضمن لك الخلافة. قال المأمون: قد فعلت، وجعلت الأمر إليك، فقم به. فقال ذو الرئاستين: والله لأصدقنّك أنّ عبدالله بن مالك ومن معه من القواد إن قاموا لك بالأمر كانوا أنفع لك منّي برئاستهم المشهورة، وبما عندهم من القوّة، فمن قام بالأمر كنت خادماً له، حتى تبلغ أملك وترى رأيك.

وقام ذو الرئاستين وأتاهم في منازلهم، وذكرهم البيعة وما يجب عليهم من الوفاء. قال: فكأنّي جئتهم بجيفة على طبق، فقال بعضهم: هذا لا يحل، أخرج! وقال بعضهم: ومن الذى يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه؟ فجئت إلى المأمون فأخبرته، فقال: قم بالأمر! قال: فقلت له: قد قرأت القرآن، وسمعت الأحاديث، وتفقهت في الدين، فأرى أن تبعث إلى من بحضرتك من الفقهاء، فتدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة، وتقعد على الصوف وترد المظالم.

ففعل المأمون ذلك جميعه، وأكرم القواد والملوك، وأبناء الملوك، وكان يقول للتميمي: أقيمك مقام موسى بن كعب؛ وللربعي: أقيمك مقام أبى داود، خالد بن إبراهيم؛ ولليماني: أقيمك مقام قحطبة، ومالك بن الهيثم؛ وكان هؤلاء نقباء الدولة العباسيّة. ووضع عن خراسان ربع الخراج، فحسن ذلك عند أهلها. وقالوا: المأمون ابن أختنا وابن عم نبيّنا صلى الله عليه وآله.

وأما الأمين فلمّا سكن الناس أمر ببناء ميدان حول قصر المنصور بعد بيعته بيوم فقال شاعرهم:

بنى أمين الله ميداناً	وصير الساحة بستاناً
وكانت الغزلان فيه بانا	يهدى إليه فيه غزلانا

وأقام المأمون يتولى ماكان بيده من خراسان والري وأهدى إلى الأمين وعظمه.

فأمر الأمين بالدعاء على المنابر لابنه موسى، وكان السبب في ذلك أنّ الفضل بن الربيع لمّا قدم العراق من طوس، ونكث عهد المأمون، أفكر في أمره، وعلم أنّ المأمون إن أفضت إليه الخلافة وهو حي، لم يبق عليه، فسعى في إغراء الأمين، وحثّه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد، ولم يكن ذلك في عزم الأمين، فلم يزل الفضل يصغر عنده أمر المأمون، ويزين له

خلعه، وقال له: ما تنتظر بعبدالله والقاسم، فإنّ البيعة كانت لك قبلهما وإنّما أدخلا فيها بعدك. ووافقه على هذا علي بن عيسى بن ماهان، والسندي وغيرهما فرجع الأمين إلى قولهم.

ثم أنّه أحضر عبدالله بن حازم واستشاره في خلع المأمون، فقال: أُنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أوّل خليفة نكث عهده، ونقض ميثاقه، وردّ رأي الخليفة قبله. فقال: اسكت! فعبدالملك يعني ابن مروان كان أفضل منك رأياً وأكمل نظراً، يقول: لا يجتمع فحلان في هجمة.

ثم جمع القواد وعرض عليهم خلع المأمون فأبوا ذلك وربما ساعده قوم. حتى بلغ خزيمة بن خازم! فقال: يا أمير المؤمنين لم ينصحك من كذّبك، ولم يغشك من صدّقك، لا تجرئ القواد على الخلع، فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإنّ الغادر مخذول، والناكث مغلول، فأقبل الأمين على علي بن عيسى بن ماهان فتبسّم وقال: لكن شيخ هذه الدعوة، وباب هذه الدولة لا يخالف على إمامه، ولا يوهن طاعته، ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها، لأنّه كان هو والفضل بن الربيع يعصيانه على الخلع، ولح الأمين في خلع المأمون حتى أنّه قال يوماً للفضل بن الربيع: يا فضل أحياة مع عبدالله وبقائه؟ لابد من خلعه.

فلمّا كانت سنة خمس وتسعين ومائة أبطل الأمين اسم المأمون من الخطبة وجعل مكانه في العهد ابنه موسى وسمّاه الناطق بالحق ـ وكان طفلاً ـ وأرسل إلى الكعبة بعض الحجبة فأتاه بالكتابين الذين وضعهما الرشيد في الكعبة ببيعة الأمين والمأمون، فأحضرهما عنده فمزقهما الفضل بن الربيع.

فلمّا بلغ ذلك المأمون مع عزل المؤتمن عما كان بيده أسقط اسم الأمين من الطرز، وقطع البريد عنه، وكان رافع بن الليث بن نصر بن سيار لمّا بلغه حسن سيرة المأمون طلب الأمان من المأمون فأجابه إلى ذلك، فحضر عند المأمون وأقام هرثمة بسمرقند ومعه طاهر بن الحسن، ثم قدم هرثمة على المأمون فأكرمه وولاه الحرس، فأنكر الأمين ذلك وأرسل إلى المأمون جماعة فيهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس يطلب منه أن يقدّم ابنه موسى على نفسه، ويحضر عنده فقد استوحش لبعده.

فلمّا سمع المأمون هذه الرسالة استشار الفضل بن سهل، فقال له: أحضر هشاماً والد علي واستشره فأحضره واستشاره. فقال: إنّما أخذت البيعة علينا على أن لا تخرج من خراسان فمتى فعل محمّد ذلك فلا بيعة له في أعناقنا، ومتى هممت بالمسير إليه تعلقت بك بيميني، فإذا قطعت تعلقت بيساري، فإذا ضربت عنقي، كنت قد أديت ما عليّ فقوى عزم المأمون على الامتناع. فأحضر العباس وأعلمه أنّه لا يحضر ولا يقدم موسى على نفسه، فقال العباس: ما عليك أيّها الأمير

من ذلك، فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع، فما ضرّه! فصاح به ذو الرئاستين: اسكت إنّ جدّك كان أسيراً في أيديهم، وهذا بين أخواله وشيعته، ثم قاموا فخلا ذو الرئاستين بالعباس واستماله ووعده أمرة بالموسم ومواضع من مصر فأجاب إلى بيعة المأمون، ورجع إلى الأمين وأخبره بامتناع المأمون.

وفي سنة خمس وتسعين ومائة وثب الحسن بن علي بن ماهان ببغداد فخلع الأمين في رجب وحبسه، ودعى إلى بيعة المأمون فلم يلبث أن وثب الجند عليه فقتلوه وأخرجوا الأمين، وجرت أمور طويلة آخرها أنّه كان طاهر بن الحسن مقيماً بالري من جهة المأمون، فخلع بيعة الأمين وبايع بالخلافة للمأمون.

وفي سنة ست وتسعين ومائة جعل الأمين يعتل على المأمون بأنواع العلل، ويظهر للناس أنّه يخالفه فيما لا ينبغي خلافه، وتشاجر الأمر بينهما فتكلم الأمين مع جميع قوّاده في أن يرسلهم بالجيوش إلى أخيه المأمون ليأخذوه له، فكلهم أبوا أن يقودوا إليه عسكراً وقالوا له: بالأمس أخذت له البيعة علينا من بعدك فكيف ننكث بيعته! فطلب الأمين علي بن عيسى بن ماهان، فلمّا دخل عليه وسّع له في صدر المجلس، وأمر أن يبسط له فراش في مجلسه على عوائد الملوك. وقال له: أنت كبير القوّاد وأشجعهم، وقد أردتك لأمر لم أجد أحداً يشتغل به سواك، ولا ينهض به غيرك، قال: أنا عند ظن أمير المؤمنين، ومستنفذ في مرضاته جهد غايتي وطاقتي، فقال له: إنّ أخي قد خالفني في أمور ضاق بها ذرعي، وقد أقسمت أن يساق إليّ في قيد، وقد صنعت له قيداً من فضة أجعله فيه لأبرئ قسمي، فسر إليه بالجيوش حتى تأتيني به، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، فأقطعه كور الجبل كلها نهاوند وهمدان وقم واصفهان وغير ذلك حربها وخراجها، وأعطاه الأموال وحكمه في الخزائن وجهّز معه مائتي ألف فارس وبعث معه القيد وقال: قيده به.

وكتب إلى أخيه كتاباً يقول فيه: لا يحصى عدد جنودي إلّا من يحصى عدد ما في هذا الجراب، وبعث إليه جراباً قد ملأه سمسماً. وقيل أنّه بعث إليه قفيزا من حب ورس.

فلمّا قرأ المأمون الكتاب على أصحابه. قال له طاهر بن الحسن: اكتب إليه أمّا إحصاؤه فلا؛ ولكن عندي ديك أعور يلتقطه كله في يوم واحد، وكان طاهر أعور.

فلمّا عزم علي بن عيسى على المسير من بغداد ركب إلى باب زبيدة أم الأمين ليودّعها، فقالت له: يا علي إنّ أمير المؤمنين وإن كان ولدي وإليه تناهت شفقتي، فإنّي على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنّما ابني ملك نافر أخاه في سلطانه، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فاعرف لعبدالله حقّه فإنّك لست نظير له وأوصته به.

ثم خرج علي بن عيسى من بغداد في شعبان وركب الأمين يشيّعه ومعه القوّاد والجنود، وذكر مشايخ بغداد أنّهم لم يروا عسكراً أكثر رجالاً وأفركراعاً وأتمّ عدة وسلاحاً من عسكره.

ووصّاه الأمين وأمره إن قاتله المأمون أن يحرص على أسره ثم سار علي بن عيسى فلقيته القوافل عند جلولاء فسألهم فقالوا له: إنّ طاهراً مقيماً بالري يعرض أصحابه ويرم آلته، والأمداد تأتيه من خراسان وهو يستعد للقتال. فقال: إنّما طاهر شوكة من أغصاني، وما مثل طاهر يتولى الجيوش، ثم قال لأصحابه: ما بينكم وبين أن ينقصف طاهر انقصاف الشجر من الريح العاصف إلّا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان، فإنّ السخال لا تقوى على النطاح، والبغال لا صبر لها على لقاء الأسد، وإن أقام تعرّض لحد السيوف وأسنة الرماح.

وأنفذ الكتب إلى ملوك الديلم وطبرستان وما والاها من الملوك يعدهم الصلاة، وأهدى لهم التيجان والأسورة وغيرها، وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان، وكانوا أهل خراسان يبغضون علي ابن عيسى، وكان قد أساء السيرة في أهلها وظلمهم لمّا ولي خراسان أيام الرشيد فجدّوا في محاربته.

ولمّا توجّه علي بن عيسى بالجيوش نحو المأمون، أخرج المأمون إليه طاهر بن الحسن، وهرثمة ابن أعين في أربعة آلاف فارس، وقيل في ثلاثة عشر ألفاً، فلمّا اجتمعا في أرض واحدة بينها وبين الري عشرة فراسخ، خرج طاهر في جملة خيل ووقف بموضع يشرف منه على عسكر علي بن عيسى، فرأى ما ملأ الأرض، فهاله كثرة القوم فالتفت إلى هرثمة، وقال: ما ترى هذا جمع لا قبل لنا به! فقال هرثمة: الرأي كما ترى فما عندك من الرأي، قال: أمّا أنا فوالله لا أرجع إلى صاحبي مهزوماً أبداً، ولكن أجعلها خرجة أضرب في عسكرهم بمن تبعني من أصحابي حتى نموت أو يفتح الله لنا. فقال هرثمة: وأنا أفعل مثل فعلك، فرجعا إلى عسكرهما وانتخبا من أصحابهما تسعمائة أكثرهم من الخوارزمية، ثم اقتحما بهم عسكر علي بن عيسى، وجعلا يشقا بهم الناس حتى وصلا إلى مضرب علي بن عيسى، فخرج اليهم عبد أسود كان لعلي بن عيسى، وكان من أنجاد الرجال كالمدافع عن سيده، فضرب طاهر يده إلى قائم سيفه وضرب به الأسود فقسمه نصفين فسمّي بذي اليمينين. ثم اقتحم على علي بن عيسى فقتله ورفع رأسه على رمح فانفض جمعه منهزمين فاتبعهم طاهر وأصحابه نحو من ستة أيام يقتلونهم في كل موضع، ومضى طاهر وهرثمة من حينهما حتى نازلا الأمين ببغداد فحاصراه، هذا قول صاحب شرح طوق الحمامة.

وقال ابن الأثير: إنّ علي بن عيسى عبأ جنده ميمنة وميسرة وقلباً، وصيّر عشر رايات في كل راية ألف رجل، وقدمها راية راية، وجعل بين كل رايتين غلوة سهم، وأمر أمراءها إذا قاتلت الراية الأولى

فطال قتالهم أن تتقدم التى تليها وتتأخر هي لتستريح، وجعل أصحاب الجواشن أمام الرايات، ووقف هو في القلب في شجعان أصحابه.

فقيل لطاهر: لو أخّرت القتال حتى يعرفوا أصحابك وجه المأخذ في قتالهم، فقال: إن أصحابي قليل، والقوم عظيم سوادهم، كثير عددهم، فإن أخّرت القتال اطلعوا على قلتنا، واستمالوا من معي برغبة ورهبة، ولكن ألف الرجال بالرجال وأقحم الخيل، وأعتمد على الطاعة والوفاء، وأصبر صبر محتسب للخير، حريصاً على الفوز بالشهادة، فإن نصرنا الله فذلك الذى نريده ونرجوه، وإن تكن الأخرى فلست بأوّل من قاتل فقتل، وما عند الله أجزل وأفضل.

ثم عبأ أصحابه كراديس وسار بهم يحذرهم ويوصيهم ويرجيهم، فهرب من أصحابه نفرا إلى علي بن عيسى فجلد بعضهم وأهان الباقين، وكان ذلك مما ألب الباقين على قتاله، وزحف الناس بعضهم على بعض؛ فقال أحمد بن هشام لطاهر: ألا تذكر علي بن عيسى البيعة التي أخذها هو علينا للمأمون خاصّة معاشر أهل خراسان؟ فقال: أفعل فأخذ طاهر البيعة فعلقها على رمح وقام بين الصفين وطلب الأمان؛ فأمنه علي بن عيسى، فقال له: ألا تتقي الله عزّ وجلّ أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت للمأمون خاصة، اتقي الله، فقد بلغت باب قبرك! فقال علي: من أتاني به فله ألف درهم؛ فرماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله فانفض جمعه منهزمين فاتبعهم طاهر وأصحابه فرسخين وأوقفوهم فيها اثنتي عشرة مرة، في كل مرة ينهزم عسكر الأمين وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون، حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة ونادى طاهر من ألقى سلاحه فهو آمن، فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم. وحمل رأس علي بن عيسى إلى طاهر، وشدّت يداه إلى رجليه وحمل على خشبة إلى طاهر، فأمر به فألقى في بئر واعتق طاهر من كان عنده من غلمانه شكراً لله.

ورجع إلى الري وكتب إلى المأمون وذي الرئاستين، بسم الله الرحمن الرحيم كتب [إلى الفضل][1] كتابي إلى أمير المؤمنين، ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في إصبعي، وجنده متصرفون تحت أمري والسلام.

فورد الكتاب مع البريد من الري إلى مرو في ثلاثة أيام، فدخل ذو الرئاستين على المأمون فهنّاه بالفتح، وأمر الناس فدخلوا عليه فسلموا عليه بالخلافة، ثم وصل رأس علي بن عيسى بعد الكتاب بيومين فطيف به في خراسان.

ويقال: أن إرسال طاهر لقتال علي بن عيسى كان عن رأي ذوبان، وهو من رجال ملك

(١) اضفناها من تاريخ ابن خلدون: ٢٣٤/٣.

كابلستان[١]، وكان قد وجّهه ملكه بهدية للمأمون، وكتب إليه كتاباً يقول فيه: إنّي قد وجّهت إليك بهدية، ليس في الأرض أسنى منها ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر، فعجب المأمون من ذلك. وقال للفضل بن سهل: سل الشيخ وكان ذوبان شيخاً فسأله، فقال: ما معي من شيء أكبر من علمي، قال: وأي شيء علمك؟ قال: رأي ينفع، وتدبير يقطع، ودلالة تجمع، فلمّا أجمع المأمون على أن يوجّه إلى لقاء علي بن عيسى. قال لذوبان: ما ترى في التوجّه إلى ابن عيسى وإلى العراق؟ قال: رأي وثيق، وأمر ونيق[٢]، وحزم مصيب، وملك قريب، والسير ماضٍ فاقض ما أنت قاض. قال: فمن توجّه إليه؟ قال: الفتى الأعور الطاهري الأطهر يسير ولا يعثر، قوي مرهوب غالب غير مغلوب. قال: وكم توجّه معه من الجند؟ قال: أربعة آلاف من أسياف، لا تنقص في العدد ولا تحتاج إلى مدد. فقال: وفي أي وقت يخرج إليه؟ قال: مع طلوع الفجر يجتمع له الأمر ويصير إليه النصر، نصر سريع وقتل ذريع والنصر له لا عليه، ثم يرفع الأمر إليك وإليه.

فلمّا ظفر طاهر وقتل علي بن عيسى بن هامان قائد الأمين ووزيره، واستولى على عسكره وأمواله، أمر المأمون لذوبان بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها. وقال: أيّها الملك إنّ ملكي لم يوجهني إليك لقصد مالك، فلا تجعل ودّي لنعمتك سخطاً، وسأقبل ما يفي بهذا المال ويزيد. قال: وما هو؟ قال: كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الأخلاق وعلوم الآفاق، وهو من كتب عظيم الفرس، فيه شفاء للنفس، وفيه من صنوف الأدب ما ليس يوجد في كتاب عاقل لبيب ولا فطن أديب، يوجد في الخزائن تحت الإيوان بالمدائن، يقاس بالذراع في وسط الإيوان لا زيادة ولا نقصان، فاحفر المدر واقلع الحجر، فإذا وصلت إلى الساحة فاقلعها، تجد الحاجة تحتها ولا تتعرض لغيرها فيلزمك غب ضيرها.

فأرسل المأمون إلى أيوان كسرى، فحفروا في وسطه فوجدوا صندوقاً صغيراً من زجاج أسود عليه قفل منه فحمل إلى المأمون. فقال لذوبان: هذا بغيتك؟ قال: نعم أيّها الملك. قال: خذه فأخذه فتكلم بلسانه ونفخ في القفل فانفتح، فأخرج منه ديباج فنشرها، فسقط منها أوراق عددها مائة ورقة ولم يكن في الصندوق شيء سواها، فأخذ الأوراق وانصرف إلى منزله.

---

(١) في المخطوط (كلمسان) والصحيح ما أثبتناه.

كابلستان: من ثغور طخارستان، أقليم متاخم للهند سكانه ترك، يقال لهم: الخلج. وهو بين الهند وسجستان مراصد الاطلاع.

(٢) نَيِّقٌ: ككيس. قاموس المحيط ١٣/٣.

قال الفضل بن سهل: فجئته فسألته. فقال: هذا كتاب جاويد أزدجرد وهو تأليف مبجور[١] وزير أنوشروان، فطلبت منه شيئاً فأعطاني ورقات منه، فترجمها علي بن الحضرمي فحملتها إلى المأمون فقرأها، وقال: هذا والله هو الكلام لا ما نحن عليه، على لين ألسنتنا وفحولة ساداتنا، ولولا أنّ العهد حبل طرفه بيد الله وطرفه الآخر بأيدينا لأخذته منه[٢].

وأمّا الأمين فإنّه أتاه نعي علي بن عيسى وهو يصطاد السمك، فقال: للذي أخبره ويلك دعني؛ فإنّ كوثراً قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصدت شيئاً بعد. ثم بعث الفضل بن الربيع إلى نوفل الخادم، وهو وكيل المأمون على ملكه بالسواد، والناظر في أمر أولاده ببغداد. وكان للمأمون معه ألف ألف درهم كان قد وصله بها الرشيد، فأخذ جميع ما عنده وقبض ضياعه وغلاته. وندم الأمين على نكثه وغدره.

وفي هذه السنة خلع داود بن عيسى بن موسى بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس الأمين، وهو عامله على مكة والمدينة، وبايع للمأمون في رجب سنة ست وتسعين ومائة، وسار من مكة على طريق البصرة إلى فارس إلى كرمان حتى صار إلى المأمون بمرو، فأخبره بذلك فسر المأمون وتيمّن ببركة مكة والمدينة واستعمل عليهما داود، وأعطاه خمسمائة ألف درهم وسيّر معه أخيه العباس بن موسى وجعله على الموسم، فسارا حتى أتيا طاهر ببغداد وهو محاصرها، فأكرمهما وقربهما ووجّه معهما يزيد بن جرير عاملاً على اليمن وبعث معه خيلاً. فلمّا قدم اليمن دعا أهلها إلى خلع الأمين والبيعة للمأمون، فأجابوه وخلفوا محمّداً وبايعوا للمأمون.

وفيها في رجب وشعبان عقد الأمين نحواً من أربعمائة لواء لقوّاد شتّى، وأمر عليهم علي بن محمّد بن عيسى بن نهيك، وأمرهم بالمسير إلى هرثمة بن أعين، فساروا إليه فالتقوا بنواحي النهروان في رمضان، فانهزموا وأسر علي بن محمّد بن عيسى فسيره هرثمة إلى المأمون، ورحل هرثمة فنزل النهروان، ثم رحل ونزل على بغداد، وانضم إلى طاهر وحصر الأمين في بغداد.

وكان الأمين ضعيف العقل، قال إبراهيم بن المهدي: استأذنت على الأمين وقد اشتد الحصار عليه من كل جهة، فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول فكابرت ودخلت، فإذا هو قد قطع دجلة بالشباك، وكان في وسط القصر بركة عظيمة لها مخترق إلى الماء، وفي المخترق شباك من حديد، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والحشم، والغلمان قد انتشروا في تفتيش الماء في البركة وهو

---

(١) في جمع الجواهر في الملح والنوادر: (كنجور)، وفي سراج الملوك (بنجور).

(٢) سراج الملوك للطرطوشي: ١٥٩/١، وجمع الجواهر في الملح والنوادر: ٣٥/١ باختلاف بسيط.

كالواله، فقال لي وقد ثنيت عليه السلام: لا تؤذيني يا عمّ قد ذهبت مقرطتي في البركة ـ والمقرطة سمكة صغيرة صيدت له فعلق بها قرط ذهب فيه حبة در ـ فخرجت وأنا آيس من فلاحه، وقلت: لو ارتدع في وقت لكان هذا الوقت أحق بالارتداع.

وحكى أيضاً إبراهيم بن المهدي قال: لمّا اشتد حصار طاهر على الأمين، خرج من قصر الذهب ليلة وأنا معه حتى صار إلى قرب الفرات، فقال لي: أما ترى طيبة هذه الليلة وحسن القمر وضوءه في الماء، فقلت: إنّ الموضع لحسن، فنزل ونزلت معه وأمر بالشراب فوضع بين أيدينا فشرب رطلاً وشربت مثله فغنيت، فقال لي: تريد من يضرب لك على العود؟ فقلت: ما أستغني عن ذلك، فدعا بجارية، يقال لها ضعف، فتطيرت من اسمها، فلمّا جاءت، قال لها: غنينا، فغنّت بشعر النابغة الجعدي تقول:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر دنيا منك ضرج بالدم

رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة كحاشية الثوب اليماني المسهم

فاشتد ذلك عليه وعليّ. وقال لها: غنينا غير هذا فغنت:

أبكي فراقهم عيني فأرقها إن التفرق للأحباب بكاء

ما زال يعدوا عليهم صرف دهرهم حتى تفانوا وصرف الدهر عداء

فقال لها: فعل الله بك وصنع، أما تعرفين من الغناء غير هذا؟ قالت: ما غنيت إلّا بما كنت تقترحه علي أبداً ثم غنت:

اما وربّ السكون والحرك ان المنايا كثيرة الشرك

الأبيات التي تقدمت في فصل المنصور.

فقال لها: اسكتي فعل الله بك وصنع، ثم قال لها غنّي فغنت:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

فأسكتها وتركها ساعة وأمرها بالغناء فغنت:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوائر

فقال لها: قومي فعل الله بك وصنع، فقامت فعثرت بقدح بلور حسن الصنعة كان بين يديه فكسرته.

فقال لي: أما ترى ما أظنّ أمري إلّا قد قرب، فدعوت له بالبقاء، فسمعنا قائلاً يقول: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان.

فقال يا إبراهيم: أسمعت هذا؟

قلت: نعم، فقام وقمت وسمعت قائلاً يقول:

لا تـــعجبن مــن العـجب قد جاء ما ينفي العجب
قـــد جـــاء أمـــر قـادح فـيه لذي عـجب عـجب

قال إبراهيم: فما قعدت معه بعد ذلك إلى أن قتل.

وقال كوثر الخادم: أمر الأمين يوماً أن يفرش له بساطاً على دكاك القصر الذي سمّاه بـالخلد، فبسط وطرحت النمارق وجلس وجلسن بين يديه عشر مغنيات، فابتدأت واحدة فغنت:

هـم قـتلوه كـي يكـونوا مكـانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبـه

فلعنها وأسكتها، وقال للأُخرى غنّي فغنت:

من كان مسروراً بقتل مالك فـليأت نسـوتنا بـوجه نـهار
يجد النساء حواسراً يندبنه قد قمن قبل تبلج الأسحار

فزاد ضجره ولعنها، ثم قال للثالثة غنّي فغنت:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر دنيا منك ضرج بالدم

فقام من مجلسه وأمر بهدم الدكات تطيراً مما جرى.

فلمّا ضيّقا طاهر وهرثمة على الأمين، كتب الأمين إلى طاهر، الحمد لله الذي يرفع من يشـاء بقدرته، ويضع من يشاء بحكمته، الذي يمنع ويعطي ويقبض ويبسط، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان، وكسف البال وتشتت الأحوال، وصلى الله على محمّد وآله وصحبه خير صحب وآل.

أمّا بعد: فقد رأيت من الصلاح الخروج إلى أخي من هذا السلطان، فإنّي أرا له حظّاً دوني وهو المحكم في أمري، فاعطني الأمان على نفسي وأهلي وولدي وأمي وحاشيتي حتى أخرج إليك على حكم أخي، راضياً بجوره دون عدله، وانتقامه دون عفوه. فقال طاهر: هيهات هل كان هذا قبل ضيق الخناق وظهور الفاق، لا أفعل ذلك حتى ينزل على حكمي.

فلمّا يئس منه كتب إليه، أعلم يا طاهر أنّه ما قام لنا قائم قط بحق فتممه لأحدنا إلّا كان السيف جزاؤه منّا، فانظر لنفسك ودع هذا الأمر، وقد علمت ما فعل أبو مسلمة الجلال في أوّل هذا الأمر وإلى ما كان من أبي العباس السفاح، وما كان من أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة وعلى أي شيء انقضى أمره. فقال طاهر: أليس أنّ الناس يضعفون عندي الأمين ويقولون: إنّ هذا مضعف، والله لقد قدح في قلبي ناراً من الجزل لا يطفئها أمن أبداً، وكان يقرأ كتابه على أهل خراسان ويقول:

ليس بمضعف ولكنّه مخذول.

ولمّا يئس الأمين من طاهر خاطب هرثمة يطلب منه الأمان فأعطاه الأمان، ودخل هرثمة بغداد وخرج الأمين منها لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة.

وكاتب طاهر جماعة من قوّاد الأمين وأعطاهم الأمان، فأجابه بعضهم وخرج عن بغداد من كانت به قوّة، فكان أحدهم إذا خرج آمن على ماله ونفسه، فكان مثلهم كما قال الله تعالى: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**﴾[1]، فأنشد بعض فتيان بغداد:

بكيت دماً على بغداد لما	فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور	ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين	فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا	ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصباحاً	وباكية لفقدان الشقيق
حيارى هكذا ومفكرات	عليهن القلائد في الحلوق
ومغترب قريب الدار ملقى	بلا رأس بقارعة الطريق
فما ولد يقيم على أبيه	وقد فر الصديق عن الصديق

وكان خروج الأمين من بغداد في حراقة فاصطنعها عليه طاهر وأرصد له الرصائد، فلمّا حصل فيها بمن معه دخل إليه أصحاب طاهر في الزوارق ففرقوا الحراقة[2] وأخذوا الأمين أسيراً وسيق إلى طاهر.

فحكا أحمد بن سلام صاحب المظالم، قال: كنت مع الأمين مع من كان في الحراقة فأخذت وأدخلت بيتاً، فلمّا مضى من الليل ساعة إذ أدخل عليّ رجل عريان عليه سراويل وعمامة قد تلثم بها وعلى كتفه خرقة، فلمّا ذهبوا نزع العمامة عن رأسه فإذا هو الأمين فبكيت، فقال لي: من أنت؟

فقلت: مولاك أحمد بن سلام.

فقال: انظمّ إليّ يا أحمد فقد استوحشت، وجعل يضمّ عليه الخرقة التي كانت على كتفه،

---

(١) سورة الحديد: ١٣.

(٢) الحراقة: بالفتح والتشديد، ضرب من السفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر. لسان العرب: ٤٢/١٠.

فنزعت جبّة كانت عليّ فطرحتها عليه.

فقال لي: يا أحمد ما فعل أخي المأمون! أحي هو أم ميّت؟

فقلت: بل حيّ يرزق بخراسان.

فقال: لعن الله أصحاب الفتن الذين كتبوا إليّ أنّه قد مات.

فقلت: بل لعن الله وزراءك.

فقال: لا تقل ذلك فإنّ الذنب لي أكثر منهم، فبينما نحن كذلك، إذ فتح الباب علينا رجل ودخل فنظر في وجه الأمين وانصرف فإذا هو محمّد بن حميد، فلمّا انتصف الليل دخل علينا قوم من العجم في أيديهم السيوف. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهبت والله نفسي، أما من حيلة أما من مغيث؟ ثم أخذ وسادة فتترس بها فضربه مولى لطاهر ضربة بالسيف فوقعت في مقدم رأسه، وضرب هو لضاربه بالسوادة التي كانت في يده ضربة ألقاه على ظهره، ونزل عليه ليأخذ السيف منه فصاح من تحته بالفارسية قتلني، فهجم عليه الباقون فاستوعرته سيوفهم، وحزّوا رأسه وحملوه إلى طاهر فوجّه به إلى المأمون، وكتب إليه قد وجهت إليك الدنيا والآخرة.

فلمّا وضع الرأس بين يديه بكى، فقال له الفضل بن سهل: احمد الله يا أمير المؤمنين، فإنّه أراكه في حالة كان يحب أن يراك فيها، فقال: صدقت أنا ومحمّد كما قال قيس بن زهير في بني بدر حيث قال:

فان اك قد شفيت بهم غليلي ... فلم أقطع بهم إلّا بناني

وفي قتل الأمين يقول طاهر بن الحسن:

ملكت الناس قهراً واقتداراً ... وافنيت الجبابرة الكبار

ووجهت الخلافة نحو مرو ... إلى المأمون تبتدر ابتدارا

حصرت المترف المخلوع حتى ... نسجت من الدماء له إزارا

فتكت به برغم انوف قوم ... ولو نطقوا لساروا حيث سارا

وكانت خلافة الأمين أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام وعمره ثمانياً وعشرين سنة، وكان بطلاً برعاً، صغير العينين جميلاً طويلاً، منهمكاً على المعاصي واللهو، وطلب الملهين من جميع البلدان وضمّهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق، واحتجب عن أخوته وأهل بيته، واستخف بهم وبقوّاده، وقسّم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه، وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواضع خلواته ولعبه ولهوه، وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحيّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً، فقال أبو نوّاس في ذلك من

أبيات:

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب(١)
فإذا ما ركابه سرن برا ... سار في الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صور ... ة ليث تمر مر السحاب

ولم يوجد في سيرته ما يستحسن ذكره، ولمّا وصل خبر قتله للمأمون أذن للقوّاد بالدخول وقرء الفضل بن سهل الكتاب عليهم فهنّوه بالظفر ودعوا له، واستوثق الأمر للمأمون شرقاً وغرباً.

وكتب إلى طاهر وهرثمة بخلع القاسم المؤتمن من ولاية العهد، فخلعاه في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وتسعين ومائة.

قال السيوطي: وعندما قتل الأمين دخل على أُمه زبيدة بعض من كانت تثق به من خدمها، فقال لها: ما يحبسك وقد قتل ابنك أمير المؤمنين؟ قالت: ويلك وما أصنع؟ قال: تخرجين وتطلبين بثأره ودمه، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، وأنتِ أحق منها بذلك، فقالت: يا هذا ما للنساء وللخروج بطلب الدماء، لقد كان خروجها فلتة هزّت الناس بها، أخرج عنّي لا أم لك. ثم أمرت بتسويد ثيابها ودعت بدوات وقرطاس وكتبت إلى المأمون تقول:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... إلى الملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها ... إليك ابن عمي من جفون ومحجري
فجعت بأدنى الناس منك قرابة ... فمذ غاب عن عيني قل تصبري
أتى طاهر لا تطهر الله طاهراً ... فما طاهر في فعله بمطهر
فأبرزني مكشوفة الرأس حاسراً ... وأنهب أموالي وحرق ادوُري
يعزّ على هارون ما قد لقيته ... وما نالني من ناقص الخلق أعوري
تذكر أمير المؤمنين قرابتي ... فديتك من ذي قربة متذكر
فان كان ما ابدى لأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدر
وان كان ما قد كان منه تعديا ... على أمير المؤمنين فغير

فلمّا قرأ المأمون الأبيات استعبر وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: إنّي لا أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين بلغه قتل عثمان، والله ما أمرت ولا رضيت، اللّهم حلل قلب طاهر حزناً. ثم أمر لزبيدة بما يكفيها إلى أن ماتت وكان موتها سنة ثلاث ومائتين.

---

(١) صاحب المحراب: هو سليمان بن داود الذي بنى بيت المقدس.

وذكر الأمين عند الفضل بن سهل بخراسان، فقال: كيف لا نستحل قتال محمّد وشاعره يقول في مجلسه:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر

فصل
المأمون

هو عبدالله بن هارون الرشيد، ويكنّى بأبي العباس كنّاه بذلك الرشيد، وكان يحب أن يكنّى بأبي جعفر لجلالة المنصور في نفوسهم، وهو أوّل من سمّي بالمأمون، وأُمه أم ولد تسمّى مراجل، وتقلّد الخلافة وهو ابن سبع وعشرين سنة وتسعة أشهر.

واستوثق له الأمر ـ بعد قتل الأمين ـ شرقاً وغرباً، وهو أوّل من قتل أخاه في الإسلام على الملك.

وأوّل من قال بخلق القرآن من الخلفاء، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**﴾[1].

قالوا: كان المأمون من أهل العلم الفائق والأدب البارع، وكان محباً في لعب الشطرنج، وكان يقول هو ممّا يستجد الذهن، وكان فطناً حاذقاً، وكان يقول: أدبر أمر الدنيا فاتسع في ذلك، وأضيق عن تدبير شبرين في شبرين يعني رقعة الشطرنج ومن شعره في وصفها:

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إلفين موصوفين بالكرم
تذكر الحرب فاحتالا لها شبهاً من غير ان تأثما فيها بسفك دم
هذا يكر على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى حكمة حارت بمعرفة في عسكرين بلا بوق ولا علم

وبويع بالخلافة بمرو سنة ثمان وتسعين ومائتين، وولي الحسن بن سهل على العراق وفارس والحجاز واليمن والأهواز، وكان قد عقد لأخيه الفضل بن سهل فوق ذلك، وسمّاه ذا الرئاستين يعني الحرب والقلم.

وفي سنة تسع وتسعين ومائة ظهر محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، لعشر خلون من جمادي الآخر بالكوفة، يدعوا إلى الرضا من

(١) سورة الشعراء: ٥.

آل محمّد عليهم السلام والعمل بالكتاب والسنّة، وهو الذي يعرف بابن طباطبا.

قال ابن الأثير: وكان القائم بأمره في الحرب أبو السرايا بن منصور، وكان يذكر أنّه من ولد هاني ابن قبيصة بن هاني بن مسعود الشيباني، وكان سبب خروجه أنّ المأمون لمّا صرف طاهراً عمّا كان عليه من الأعمال التي افتتحها ووجه الحسن بن سهل إليها، تحدث الناس بالعراق أنّ الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنّه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقوّاده، وأنّه يستبد بالأمور دونه، فغضب لذلك بنوا هاشم ووجوه الناس، واجترأوا على الحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار، فكان أوّل من ظهر ابن طباطبا بالكوفة وأتاه أبو السرايا.

قيل: كان أوّل أمره يكري الحمير، ثم قوي حاله فجمع نفراً وقتل رجلاً من بني تميم بالجزيرة وأخذ ما معه، فطلب فاختفى وعبر الفرات إلى الجانب الشامي، وكان يقطع الطريق في تلك النواحي ثم لحق بيزيد ابن مزيد الشيباني بأرمينية ومعه ثلاثون فارساً فقوّده، فلمّا عزل يزيد عن أرمينة صار أبو السرايا إلى أحمد بن يزيد، فوجّهه أحمد طليعة إلى عسكر هرثمة في فتنة الأمين والمأمون.

وكانت شجاعته قد اشتهرت فراسله هرثمة يستميله، فمال إليه وانتقل إلى عسكره، وقصده العرب من الجزيرة واستخرج لهم الأرزاق من هرثمة، فصار معه نحو ألفي فارس وراجل، فصار يخاطب بالأمير.

فلمّا قتل الأمين نقصه هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فاستأذنه في الحج فأذن له وأعطاه عشرين ألف درهم ففرقها في أصحابه ومضى، وقال لهم: اتبعوني متفرقين ففعلوا فاجتمع معه نحو من مأتي فارس فسار بهم إلى عين التمر، وحصر عاملها وأخذ ما معه من المال وفرقه في أصحابه، وسار فلقي عاملاً آخر ومعه مال على ثلاثة أبغال فأخذها، وسار فلحقه عسكر كان قد سيره هرثمة خلفه، فعاد إليهم وقاتلهم وهزمهم ودخل البرية وقسّم المال بين أصحابه، وانتشر خبره فلحق به من تخلّف عنه من أصحابه وغيرهم فكثر جمعه، فسار نحو دقوقا وعليها أبو ضرغامة العجلي في سبعمائة فارس، فخرج إليه فلقيه فاقتتلوا فانهزم أبو ضرغامة ودخل قصر دقوقا فحصره أبو السرايا، وأخرجه من القصر بأمان وأخذ ما عنده من الأموال.

وسار إلى الأنبار وعليها إبراهيم الشروي مولى المنصور، فقتله أبو السرايا وأخذ ما فيها، وسار عنها ثم عاد إليها عند إدراك الغلال فاحتوى عليها، ثم ضجر من طول المدة فقصد الرقة فمر بطوق ابن مالك التغلبي وهو يحارب القيسية، فأعانه عليهم وأقام معه أربعة أشهر يقاتل على غير طمع إلّا للعصبية الربعية على المضرية، فظفر طوق وانقادت له قيس.

وسار عنه أبو السرايا إلى الرقة، فلمّا وصلها لقيه محمّد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا فبايعه أبو السرايا، وقال له: انحدر أنت في الماء وأسير أنا على البر حتى نوافي الكوفة فدخلاها وابتدأ أبو السرايا بقصر العباس بن موسى بن عيسى فأخذ ما فيه من الأموال والجواهر وكان عظيماً لا يحصى، وبايعهما أهل الكوفة واستوثق لمحمّد أهلها، وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب فبايعوه، فوجّه الحسن بن سهل إلى الكوفة زهير بن المسيب في عشرة آلاف فارس وراجل، فخرج إليه ابن طباطبا وأبو السرايا فواقفوه في قرية شاهي فهزموه واستباحوا عسكره، وكانت الوقعة سلخ جمادي الآخر.

فلمّا كان من الغد مستهل رجب مات محمّد بن إبراهيم بن طباطبا فجأة، وقيل سمّه أبو السرايا لأنّه علم أنّه لا حكم له معه، وأخذ مكانه غلاماً أمرد، يقال له محمّد بن محمّد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام فكان الحكم إلى أبي السرايا، وكثر فساده وجيوشه وأخذ بلاد كثيرة. فسار إليه هرثمة وكانت بينهما وقعة قتل فيها جماعة من أصحاب أبي السرايا، فانحاز إلى الكوفة بمن معه من الطالبيين، فنهبوها وهدموا أكثرها وعملوا أعمالاً قبيحة، وما نعلم كيف تمّ أمرهم[1].

وفي سنة المائتين ظهر أيضاً إبراهيم المجاب بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر العلوي واستولى على الجزيرة، وكان يسمى بالجزّار لكثرة من قتل وسبي.

وفي هذه السنة أمر المأمون بإحصاء بني العباس فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى.

وفي سنة إحدى ومائتين جعل المأمون ولي عهده علي الرضا بن موسى الكاظم عليهما السلام، وطرح السواد ولبس الخضرة وكتب بذلك إلى الافاق، فأظهر العباسيون الخلاف وأنكروا عليه جعل الخلافة في آل علي بن أبي طالب عليه السلام، وتفويض الأمور إلى الحسن بن سهل.

وفي سنة اثنين ومائتين بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي في المحرم، وجرت حروب وقتال.

فسار المأمون من مرو إلى العراق، فلمّا وصل سرخس ورد على الفضل بن سهل كتاب من أخيه الحسن إنّي نظرت في تحويل السنة فرأيت أنّك تذوق في شهر كذا يوم الأربعاء حرّ الحديد وحرّ النار، وأرى أن تدخل أنت وأمير المؤمنين والرضا الحمام في هذا اليوم، وتحتجم فيه وتصب على بدنك الدم ليزول عنك نحسه، فأعلم المأمون بذلك فأرسل المأمون إلى الرضا الرقعة مرتين. فكتب إليه الرضا عليه السلام إنّي رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الليلة في النوم، فقال لي: يا علي لا تدخل

(١) الكامل في التاريخ: ١٤٤/٣

الحمام غداً، ولا أرى لك ولا للفضل أن تدخلا الحمام غداً. فقال: صدق رسول الله ﷺ لست بداخل الحمام غد والفضل أعلم، فدخل الفضل الحمام بسرخس فوثب عليه أربعة فقتلوه في الحمام، فجعل المأمون لمن يحضرهم عشرة آلاف دينار، فلمّا أحضروا قالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله فقتلهم.

وعقد المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل، وزوّج ابنته من علي الرضا، فلمّا دخلت سنة ثلاث ومائتين توفّي الرضا عليه السلام فجأة بطوس على قول أهل التاريخ وصلى عليه المأمون ـ وعندنا أنّه سمّه ـ ودفنه عند قبر أبيه الرشيد وكتب إلى بغداد بموته، وأنّ السبب في اختلافهم عليه قد زال فخلعوا إبراهيم بن المهدي، واختفى إلى أن قدم المأمون بغداد، وكانت مدة ولايته نحو سنة وإحدى عشر شهراً.

وفي هذه السنة غلبت السوداء على عقل الحسن بن سهل حتى شدّ في الحديد، قال الشاعر:

ما وهب الله لامرئ هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه

هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقده للحياة أجمل به

وفيها ابتدأت دولت بني زياد.

وفي سنة ثلاث ومائتين قدم المأمون بغداد وأعاد لبس السواد.

وفي سنة خمس ومائتين استعمل المأمون طاهر بن الحسن على المشرق، فتوفّي فجأة في سنة سبع ومائتين.

وفي سنة عشر ومائتين ظفر المأمون بعمّه إبراهيم بن المهدي وحبسه وعفى عنه، ودخل على بوران بنت الحسن بن سهل ونثرت عليه جدة بوران أم الحسن ألف حبة لؤلؤ فوق البندق، وأوقدت شمعة زنتها أربعون مناً وكتب الحسن أسماء ضياعه ونثرها على القوّاد.

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين نادى منادي المأمون برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضّله على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين أظهر المأمون القول بخلق القرآن وتفضيل علي عليه السلام على جميع الصحابة رضي الله عنهم.

وفي سنة أربعة عشرة ومائتين اقتتل محمّد بن حميد الطوسي وبابك الخرمي فانتصر بابك وقتل الطوسي.

وفي سنة ستة عشرة ومائتين غزا المأمون الروم، وأقام بها ثلاثة أشهر وفتح أخوه عدة حصون، وأغار جيشه فغنموا وسبوا حتى دخل إلى دمشق ودخل الديار المصرية.

وفي سنة ثمان عشرة ومائتين مات المأمون لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب بالبردون من بلاد الروم، وحمل إلى طرسوس ودفن بها. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ومولده نصف ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة، وكان كثير الإحسان للعلويين وأوصى بهم عند وفاته كثيراً، وأعاد فدك إلى آل فاطمة، وكان فاضلاً مباركاً في علوم كثيرة على قول أهل التاريخ. وشعر حسن، فمن شعره:

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
فناجيت من أهوى وكنت مباعداً ... فياليت شعري عن دونك ما أغنى
أرى أثراً منها بعينيك بيناً ... لقد أخذت عيناك من عينها حسنا

وحكي عنه من طيب أخباره أنّه تنبّأ رجل في أيامه، فقال ليحيى بن أكثم القاضي: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ وإلى دعواه، فركبا في الليل ومعهما خادم حتى سارا إلى بابه وكان مستتراً بنبوته، فاستأذنا عليه فخرج إذنه، فقال: من أنتما؟ قال: رجلان يريدان يسلمان على يديك، قال: ادخلا فدخلا، وجلس المأمون عن يمين المتنبئ ويحيى عن يساره، فقال له المأمون: إلى من بعثت؟ قال: إلى الناس كافّة، قال: فيوحى إليك، أم ترى في المنام، أم ينكت في قلبك، أم تناجى، أم تكلّم؟ قال: بلى أناجى وأكلم، قال: ومن يأتيك؟ قال: جبرائيل. قال: فمتى كان عندك؟ قال: الساعة، قبل أن تأتياني، قال: فما أوحي إليك؟ قال: أوحي إليّ أنّه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله. فقال له المأمون: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله، فكان يوري.

وداعب ليحيى يوماً، فقال له: وهو يعرض له باللواط، يا يحيى من الذي يقول؟

قاضٍ يرى الحد في الزنا ولا ... يرى على من يلوط من بأس

فقال له الذي يقول:

شاهدنا يرتشي وحاكمنا ... يلوط والرأس شر من رأس
وما أرى الجور ينقضي وعلى ... الأمة وآلٍ من آل عباس

وكان يحيى يرى بمحبة الغلمان حتى قيل فيه:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً ... فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... وقاضي قضاة المسلمين يلوط

ويقال أنّ المأمون لمّا خرج في تلك الغزوة التي مات في طريقها صاح في إحدى الليالي بغلام له اسمه شقير، وقال له: ويلك من يغنّي؟ فقال: ما يغنّي أحد! قال: شقير، ثم قمت إلى الباب فلم

أسمع حسّاً، فقلت: ما أسمع شيئاً، فقال: بلى والله إنّه كان يغنّي ويقول:

ألم تـــعجب لمــنزلة ودور خــلت بـين المسـقر والحـدور

كـــان بــقية الاثـــار فـــيها بـــقايا الخـط مـن قـلم الدبـور

فاعتل في اليوم الثالث من تلك الليلة.

وحكي أنّه بنى قصراً بطليطلة أنفق عليه مالاًكثيراً فبينما هو نائم فيه إذ سمع منشداً يقول:

أتـــبني بـــناء الخـالدين وإنـما بـــقاؤك فـيها لو عـلمت قـليل

لقـد كـان فـي ظـل الأراك كـفاية لمـن كـان يـوما يـعتريه رحـيل

فلم يلبث بعدها إلّا يسيراً حتى قضى نحبه. وأوصى بالخلافة لأخيه المعتصم.

قال إبراهيم بن المهدي: رأيت في منامي كأنّ جارية من جوار الرشيد في يدها عود وهي على منبر الرسول ﷺ تغني وتقول:

سوف يأتي الرسول من بعد شهر ثـم يـنعي الخـليفة المأمـون

فقلت: هذه بشارة بفجيعة فجاء ناعيه بعد شهر.

فصل
المعتصم

وهو محمّد بن هارون الرشيد، وكنيته أبو إسحاق، وأُمه أم ولد اسمها مراجل وهي أُم للمأمون والمؤتمن، بويع بالخلافة سنة ثمان عشرة ومائتين، وأراد الجند مبايعة العباس بن المأمون فطلبه المعتصم فدخل عليه، فبايعه وخرج إلى الجند وقال: قد بايعت عمّي فرضوا.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين كان أحمد بن حنبل قد صمم على عدم القول بخلق القرآن وقد طلبه المأمون، فلمّا أحضر إلى المعصتم جلده حتى غاب عقله وتمزّق جلده وقيّده وحبسه.

وفي سنة عشرين ومائتين خرج المعصتم لبناء سامراء.

وفي سنة إحدى وعشرين ومائتين كانت وقعة عظمى بين بابك الخرمي وبغا الكبير فانكسر بغا ثم تقوّى وقصد بابك فهزمه.

وفي سنة اثنين وعشرين ومائتين كانت وقعة الافشين والخرمية ونجى بابك ولم يزل الافشين يتحيل عليه حتى أسره بعد أن عاب وأفسد العباد والبلاد، وأحضر في آخر الأمر إلى بغداد أميراً وكان يوم دخوله بغداد يوماً مشهوداً.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين كان إحضار بابك إلى المعتصم فأمر بقطع أربعته وصلبه.

وفيها أخرج ملك الروم توفيل وبلغ زبطرا وقتل وسبي ومثّل بالمسلمين وصاحت امرأة هاشمية بأيدي الروم وامعتصماه فبلغ ذلك المعتصم فنهض من وقته بعساكر لا تحصى، حتى بقي بينه وبين ميمنته فرسخان وكذلك ميسرته فخرب بلاد الروم وأخذها حتى وصل عمودية، وكانت أشرف بلاد النصارى لم يوجد أشرف منهم قط، فحاصرها وأخذها وأحرقها وخرّبها، وسبى أهلها وغنم أموالها، وكان مقامه عليها خمسة وخمسين يوماً. وفي عوده أمسك العباس بن المأمون لمّا بلغه أنّه بايع جمعاً من القوّاد، وقصد الوثوب عليه وسلمه لرجل، فلمّا وصل إلى منبج، طلب طعاماً فأكل ومنع الماء حتى مات.

وفي سنة ست وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الافشين وحبسه ثم منعه الطعام حتى مات، وقيل خنقه وصلبه.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين مات المعتصم بالله بسرّ من رأى وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين، وكان ثامن الخلفاء العباسيين، وترك ثمان بنين وثمان بنات، وهو أوّل من أضيف إلى لقبه اسم الله تعالى، وكان مولده سنة سبع وتسعين ومائة، وكان كثير الخلق كثير الصدقة.

قيل خرج عليه تميم بن جميل فجعل لمن أحضره مالاً عظيماً، فأحضر فأمر بضرب عنقه، وأحضر السيف والنطع فجعل تميم ينظر اليهما وكان رجلاً جسيماً وسيماً جميلاً فصيحاً، فأحب المعتصم أن يختبره، فقال: يا تميم إن كان لك حجّة فأت بها أو عذر فأت به، فقال: أمّا إذا أذن أمير المؤمنين فإنّي أقول الحمد لله الذي بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولمّ بك شعث المسلمين إنّ الذنوب لتخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، ولقد عظم الذنب، وكبر الجرم، وساء الظنّ، ولم يبق إلّا عفوك أو انتقامك، وأرجوا أن يكون أقربها إليك أليقهما بك وأنشأ يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... ومن ذا الذي مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من خشيت تتفتت
فإن عشت عاشوا في نعيم وغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الخدود وصوتوا

وكـم قـائل لا يـبعد الله داره   وآخـر جـذلان يسـر ويشـمت

فبكى المعتصم رقّة له، وقال: يا تميم كاد السيف أن يسبق العدل، اذهب فقد وهبتك للصبية وغفرت لك الذنب، وأمر له بمائة ألف درهم وعقد له على ولاية وصرفه مكرماً.

فصل
الواثق بالله

وهو ابن المعتصم وأُمه قراطيس[1] الرومية، بويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة سبع وعشرين ومائتين.

وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين فتح المسلمون أماكن من جزيرة صقلية.

وفي سنة تسع وعشرين ومائتين صادر الواثق الكتاب.

وفي سنة ثلاثين ومائتين خرجت المجوس من أقاصي الأندلس في البحر وعاثوا في البلاد، وانهزم منهم المسلمون أولاً ثم اجتمعوا من كل جهة فانهزم المجوس، وغنم المسلمون أربعة مراكب بما فيها وعاد المجوس إلى بلادهم.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين ورد كتاب الواثق على أمير البصرة بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وفي سنة اثنين وثلاثين ومائتين مات الواثق بالله لست بقين من ذي الحجة بالاستسقاء، وكان قد حضر المنجّمون ونظروا في مولده وقدّروا أنّه يعيش خمسين سنة فلم يعش إلّا عشرة أيام، وكانت خلافته خمس سنين وسبعة أشهر وكسراً، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان محبّاً للعلويين حتى أنّه لم يبق في أيامه في الحرمين سائل.

فصل
المتوكل

وهو جعفر بن المعتصم، ويكنّى بأبي الفضل، وأُمّه أم ولد تسمّى شجاع، بويع بالخلافة بعد

---

(١) في مخطوطة مكتبة السيّد المرعشي، ومخطوط مشهد «استان قدس رضوي» (فلطين) وهو تصحيف، والصحيح ما اثبتناه وهو الموافق لما في الكامل في التاريخ، ومروج الذهب، والمختصر في أخبار البشر.

أخيه الواثق.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين قبض المتوكل على محمّد بن عبدالملك الزيات وصادره وحبسه في التنور الذي كان الزيات اقترحه للعذاب، فيه مسامير حديد أطرافها إلى داخل تمنع فيه من الحركة.

وفيها ولي المتوكل ابنه المنتصر الحرمين والطائف واليمن.

وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين قبض المتوكل على إيتاخ التركي خوفاً منه، وعمل لذلك حيلاً كثيرة وأماته عطشاً وأخذ له ألف ألف دينار[1].

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي عليهما السلام فهدم وطيف بالماء، فحار الماء حول القبر فسمّي الحائر، وكان كثير البغض في علي بن أبي طالب عليه السلام ومنع القول بخلق القرآن.

وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين وثبت بطارقة أرمينية على متوليها يوسف بن محمّد فقتلوه، فجهز المتوكل إليهم بغا الكبير فالتقوا عند دبيل فكسرهم بغا، وقتل منهم زهاء من ثلاثين ألفاً وسبي وغنم.

وفيها غضب المتوكل على أحمد بن أبي داود وآله وأخذ منهم ستة عشر ألف ألف درهم.

وفي سنة تسع وثلاثين ومائتين غزا المسلمون الروم فشارفوا القسطنطينية فأغاروا وأحرقوا ألف قرية وسبوا.

وفيها عزل المتوكل يحيى بن أكثم عن القضاء، وصادره وأخذ منه مائة ألف دينار.

وفي سنة أربع وأربعين ومائتين رحل المتوكل إلى دمشق وجعلها دار الخلافة، ونقل دواوين الملك إليها وأنشد يزيد المهلبي الثاني:

اظن الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن يدع العراق وساكنيه فقد تبلى المليحة بالطلاق

ثم استوبأ المتوكل دمشق، واستثقل ماءها وعاد إلى سامراء، وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً.

وفي هذه السنة سأل المتوكل يعقوب بن السكيت ـ إمام النحو واللغة ـ أيمّا أحبّ إليك أبناي المعتز والمؤيد أو الحسن والحسين؟ فقال: والله أنّ قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك، فأمر به فسلّ لسانه من قفاه، ومات من ساعته. والسكيت الكثير السكوت[2].

---

(١) العبر: ٧٨/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٨٣/٤.

(٢) المختصر في أخبار البشر: ١٧٥/١، معجم الأدباء ١١/٣.

قال الحسن بن عبدالمجيب سمعت يعقوب بن السكيت يقول:

ومن الناس من يحبك حباً ظاهر الحب ليس بالتقصير
فإذا ما سألته نصف فلس لحق الحب باللطيف الخبير

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين قتل المتوكل. قتله جماعة بالليل بالسيوف في خلوته باتفاق ولده المنتصر، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان لأربع خلون من شوال، فكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وعمره نحو أربعين سنة، فلمّا أصبح المنتصر، قال للناس: إنّ الفتح ابن خاقان قتل أبي فقتلته به، فذكره ابن عبدون في شعره فقال:

وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت لجعفر بابنه والأعبد الغدر

وكان المتوكل هو العاشر من خلفاء بني العباس.

وحكي عنه أنّه كان بين يديه أحد خواصّه يقرأ كتاباً من الملاحم، فمرّ به الخليفة العاشر من بني العباس يقتل في مجلسه فوجل لذلك، فقال له القارئ: أخوك الواثق هو العاشر وما كل هذا يصح، قال: كيف هو العاشر؟ قال القارئ: فعددت الخلفاء وعددت له إبراهيم بن المهدي فيهم فطابت نفسه.

قال: وفسّر عليّ يوماً منامه، فقال: رأيت كأنّي أرى دابّة تكلمني والله لو كانت بين ألف دابة لميزتها، فجرى على لساني قوله تعالى: **﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾**[1]، فقلت له: الدابة عجماء لا تتكلم، يدل هذا على أنّ الله يفتح لك ما لم يقدر غيرك على فتحه، فلمّا كان بعد شهور أهديت له هدايا فرأى دابةً، فقال: والله هذه تلك الدابة فقتل بعد أيام.

وكان سبب قتله تقديم المعتز على المنتصر، وقبضه لضياع وصيف التركي ودفعها للفتح بن خاقان، وكان يقول للمنتصر بعدما ولاه العهد: أنت المنتظر لست بالمنتصر، والله لأخلعنّك ولأصيّرنّها لأخيك المعتز، وكان يأمر عبيده أن يؤذوه حتى وصلوا إلى سبّ أمّه، وكان يقول: والله لو كانت بعض حرم سواسك لوجب أن تمنع من ذكرها. وكان من جملة ما نقد المتوكل على المنتصر أقبل يوماً فقام له الناس ولم يقم المنتصر حتى قرب فأنكر المتوكل ثم قال:

هم سمنوا كلبا ليأكل بعضهم ولو اخذوا بالحزم ما سمنوا كلبا

وذكر ابن المدبر، قال: وصف للمتوكل سيف جليل كان لأحد أصحاب البحرين، فوجّه من

---

(١) سورة النمل: ٨٢.

اشتراه بألفي درهم، فلمّا رآه استحسنه فالتفت إلى باغر التركي فقال: هذا سيف وحشي وأنت وحش قد وهبته لك، وأمره أن يقف به على رأسه فقتله به.

ويقال أنّ باغر لم يسل السيف حتى سله لقتله.

ولمّا تواطأ المنتصر مع غلمانه على قتل المتوكل، قال لزرافة الحاجب التركي أنّي أريد أن أتحدّث معك سرّاً، فخرج زرافة مع المنتصر من الدار فدخل ماغر التركي ومحسن السعدي فقتلا المتوكل والفتح بن خاقان معه.

وحكي عن ابن أبي ربعي أنّه رأى في منامه كأن رجلاً ينشده هذان البيتان:

يا عين ويحك اهلي	بالدمع منك واسبلي
دلت على يوم القيامة	قتلة المتوكلي

ورأى هذا قبل قتله بيسير.

وقال صالح بن أحمد: سهرت ذات ليلة فغفوت، فرأيت رجلاً يعرج به إلى السماء وقائلاً يهتف بي وهو ينشد ويقول:

ملك يقاد إلى مليك قادر	متفضل بالعدل ليس بجائر

قال: فما أمسيت ذلك اليوم حتى ورد علينا قتل المتوكل من سر من رأى إلى بغداد.

وذكر أبو أيوب قاضي نصيبين أنّه رأى في المنام قائلاً يقول:

يا نائم الليل في جثمان يقضان	ما بال عينك لا تبكي بهملان
إن الليالي لم تحسن إلى أحد	إلّا أساءت له من بعد احسان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت	بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

قال: فأتى البريد بقتلهما في تلك الليلة، وكان قتلهما بالجعفري وهو قصر تأنق في بنيانه، وسمّي: بالجعفري إضافة إلى اسمه، ويقال: أنّه أنفق في بنيانه ألف ألف دينار.

وحكي عن البحتري الشاعر أنّه حدّث عن قتل المتوكل، قال: لمّا كان عشية الأربعاء لأيام خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، وهي الأربعاء التي قتل في ليلتها المتوكل، قال للفتح بن خاقان: نحب أن نصطبح فأحضر المغنيين فلمّا جلس أحضروا وكان فيهم أحمد بن أبي العلاء فدعا به وقال له غنّي فغناه:

يا عاذلي عن الملام دعاني	أن البلية فوق ما تصفاني
زعمت بثينة أن رحلتنا غدا	لا مرحباً بغد فقد ابكاني

فتطير المتوكل منه، وقال يا أحمد: كيف وقع لك أن تغني بهذا الشعر فشغل قلب ابن أبي العلاء

بما أنكر عليه، ثم ذهب ليغني غيره فغناه ثانية، فقال المتوكل: نسأل الله خير هذا اصرفوا المغنيين، وقام لصلاة الظهر فلمّا فرغ قال له الفتح: يا سيدي اتمم يومك ما هذا الفكر الردئ فدعا بالشراب ثم قال: أين ابن العلاء؟ فلمّا حضر، قال له: ويحك يا أحمد ما أعجب ماكان منك اليوم، إذ غنيت ذلك الصوت مرتين ثم قال له: غنّي فأعمى الله قلب ابن أبي العلاء حتى أعاد البيتين بأعيانهما، فاغتم المتوكل غاية الغم وقتل في تلك الليلة.

فصل
المنتصر

وهو محمّد بن المتوكل، ويكنّى بأبي جعفر، وأُمه أم ولد تسمّى حبشية.

قال أبو علي: حدّثني مخصي، قال: قالت حبشية بات عندي المتوكل ليلة وخرج نصف الليل، فغلبتني عيناي فرأيت إنساناً في النوم وهو يقول: يا حبشية حملتي الليلة بأشأم خلق الله، وكان المنتصر وهو الذي قتل أبوه بأمره، وبويع بالخلافة بعده، وبقي فيها ستة أشهر وكان الناس يتلاقون وقت خلافة المنتصر، فيقول بعضهم لبعض والله لا عاش بعد أبيه إلّا ستة أشهر كما عاش شيرويه بن كسرى حين قتل أباه فكان كذلك.

وحكي أنّ أحمد بن الخصيب خرج يوماً مسروراً، فقال: إنّ أمير المؤمنين رأى في منامه كأنّه صعد درجات حتى انتهى إلى خمس وعشرين مرقاة، ثم قيل له قف هذا آخر عمرك، وكان عمره خمسة وعشرين سنة بعدد الدرج.

وقيل أنّه بسط له بعد قتل أبيه بساطاً كان من أحسن البسط فجلس عليه، فلمّا استقر على البساط نظر فإذا عليه صورة مصوّرة وعليها كتابة، فقرأت فوجدت هذه صورة شيرويه بن كسرى قتل أباه، فما عاش بعده إلّا ستة أشهر، فلمّا كمل المنتصر الستة أشهر بعد قتل أبيه، حدث به ورم في بطنه فمات بعد ثلاثة أيام من حدوثه.

وقيل وهو الأكثر أنّه وجد حرارة ففصده جريد بن بخوع[1] بمبضع مسموم فمات، ومن العجب أنّ الذي فصده احتاج إلى الفصد فأمر تلماذه أن يفصده وأخرج له ذلك المبضع المسموم وكان قد نسيه ففصده التلماذ به فمات، وكان المنتصر ينشد لمّا اشتدت عليه العلة ويقول:

(١) كذا في المخطوط.

فما فرحت نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الربّ الكريم أصير
وما كان ما قدمته رأي فلتة ولكن بما قد كان اشار مشير

ويروى أنّه قال لابنه لمّا أحس بالموت عاجلت فعوجلت:

وروعت كل مأمون ومؤتمن واسلمت كل منصور منتصر

وفي سنة ثمان وأربعين ومائتين في شهر ربيع الأوّل مات المنتصر بعد أن أمر بزيادة العلويين وأمر بزيارة قبر الحسين عليه السلام[1]، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، واتفق أركان الدولة بغا الكبير وبغا الصغير وأناس على أن لا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لكونهم قتلوا أباهم، وبايعوا المستعين.

فصل
المستعين

وهو أحمد بن المعتصم أخو الواثق والمتوكل، حدث أبو مزاحم الكاتب قال: لمّا دُعي أحمد ابن المعتصم إلى أن يبايع له بالخلافة، قال: أستعين بالله وأفعل فسمّى المستعين وبويع له يوم الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وفيها مات بغا الكبير عن سن عالية وأموال جزيلة.

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين كانت الوقعة بين المسلمين والروم بمرج الاسقف.

وفي سنة خمسين ومائتين ظهر عمر بن يحيى بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالكوفة وكثر جمعه، ثم قتل وحمل رأسه إلى المستعين. ثم ظهر الحسين بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بطبرستان، وكثر جمعه، ووثب أهل حمص على عاملها الفضل فقتلوه، وتوجّه إليهم موسى بن بغا الكبير وتقاتلوا بين حمص والرستن، وكسر أهل حمص وقتل منهم جمعاً كثيراً وأحرقها.

وفي سنة أحدى وخمسين ومائتين قتل بغا الصغير ماغر وجرت فتنة بين الأتراك، فهرب المستعين من سامراء إلى بغداد، وأخرجوا المعتز بن المتوكل من الحبس وبايعوه لسبع بقين من المحرم، فجهّز أخاه طلحة في خمسين ألفاً من الأتراك إلى المستعين فتحصّن في بغداد، وجرى

---

(١) أنه أزال عن الطالبيين ما كانوا فيه من الخوف والمحنة من منعهم من زيارة تربة الحسين الشهيد، ورد فدك إلى آل علي. انظر الكامل ١١٦/٧، الوافي بالوفيات: ٢٨٩/٢.

قتال فلمّا رأى المستعين اختلال حاله، أرسل للمعتز على أنّه يخلع له نفسه ويسلّم الأمر إليه، على أن يعطيه خمسين ألف دينار ويقيم حيث يشاء، وعلى أن يكون بغا ووصيف اللذان كانا ناصحين له أحدهما على الحجاز وما والاه، والآخر على الجبل وما والاه، فتعاقدا على هذا وأخذا العهود والمواثيق بعضهما على بعض على أن لا ينكث أحدهما ولا يغدر بصاحبه.

وفي سنة اثنان وخمسين ومائتين يوم الجمعة رابع المحرم خطب للمعتز ببغداد وبويع له بالخلافة، وأراد المستعين أن ينزل البصرة فقيل له أنّها حارّة، فقال: أتراها أحرّ من فقد الخلافة؟ ثم نقل إلى البصرة وأقام بها موكلاً به في قصر الحسن بن سهل، ثم أختار نزول واسط وانحدر إليها، فكتب المعتز إلى أحمد بن طولون بقتل المستعين فامتنع من قتله، وسار المستعين إلى القاطول[1] فتلقاه سعيد الحاجب بن صالح صاحب المعتز فضربه حتى مات، وحمل رأسه إلى المعتز.

وقيل أنّه ربط في رجليه حجراً ورما به في الدجلة، وقيل أنّه لمّا أحاط به سعيد وعلم أنّه يريد قتله سأله أن يمهله حتى يركع ركعتين، فلمّا صار في الركعة الثانية قال أحد الأتراك لسعيد تعطيني جبته وأتولى قتله؟ قال: نعم. فقام إليه وهو قد سجد فقتله وأخذ رأسه وجاء به إلى المعتز، فأمر له المعتز بخمسمائة ألف درهم وولاه البصرة، وفي ذلك يقول جنيد الكاتب، الذي يعرف بأبي دجانة:

خلع الخليفة أحمد بن محمّد ... وسيقتل التالي له أو يخلع
إيهاً بني العباس إن سبيلكم ... في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت ... بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وفي خروجه إلى واسط يقول بعض الشعراء:

إنى أراك من الفراق جزوعا ... أضحى الإمام مشيعاً مخلوعا
لا تنكرن حدث الزمان وريبه ... إن الزمان يفرق المجموعا
فأزله المقدور عن رتب العلا ... فثوى بواسط لا يروم رجوعا
غدروا به مكرا وخانوا عندما ... لزم الفراش وخالف التصنيعا
ولو انه سعر الحروب بنفسه ... متلبسا لقتالهن دروعا
لغدا على ريب الزمان محرما ... ولكان إذ غدر الزمان منيعا

---

(١) موضع على دجلة.

وهو أوّل من سمّي بالمستعين، وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وكسراً، وعمره أربعاً وعشرين سنة.

فصل
المعتز

وهو عبدالله بن المتوكل، وقيل اسمه الزبير، وهو أوّل من سمّي بالمعتز، وكان يوصف بالحزم والعزم على صغر سنه، فإنّه ولي الخلافة صغيراً، فاستقل بنفسه وخلع المستعين، ثم قتله ثم خلع أخويه لأبيه المؤيد والموفق، وفي حزمه وعزمه يقول أبو الحسن أحمد بن محمّد الأسدي في قصيدة مزدوجة:

وثبتت خلافة المعتز　　　ولم يثبت أمره بعجز

بويع بالخلافة بسامراء سنة إحدى وخمسين ومائتين، وثاني سنة بويع له ببغداد وغيرها، فتغلب عيسى بن الشيخ عامل الرملة على دمشق واعمالها لمّا كانت فتنة الأتراك بالعراق.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين منع عيسى وضيق رزق الجند أربعة أشهر فقتلوه، فقرر المعتز مكانه بغا السراي.

وفيها تغلب يعقوب الصفار على هراة وبوسنج[1] وعظم أمره.

وفي سنة أربع وخمسين ومائتين قتل بغا الصغير المعروف بالسراي، وحمل رأسه إلى المعتز.

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين استولى يعقوب الصفار على كرمان ثم استولى بالسيف على فارس، ودخل شيراز ونادى بالأمان، وكتب إلى الخليفة المعتز أنّه تحت طاعته، وبعث إليه هديّة جليلة منها عشرة بزاة بيض ومائة من مسكا.

وفيها طلب الأتراك من المعتز نفقة، فعجز عنها. واتفقت الأتراك والمغاربة والفراعنة على خلعه، وصاروا إلى بابه فأذن لبعضهم في الدخول فجروا برجله وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الحر طولاً ثم أدخلوه حجرة وأحضروا القاضي ابن أبي الشوارب وأشهدوا عليه بخلع نفسه، وكتب بذلك كتاباً على نفسه فوجهوا الخلافة إلى محمّد بن الواثق وسمّوه المهتدي، ثم أدخلوا عليه المعتز، فقال له المهتدي: خلعت نفسك؟ فقال: بل خلعت. فوجئ في قفاه حتى سقط ثم أقيم،

(١) بوسنج: معرب بوشنك بلد من هراة. القاموس ١/٢٠٩.

فقال: خلعت نفسي وسلمت ورضيت. وسلم على المهتدي بالخلافة، ثم أخرج في الحر فطلب نعلاً فلم يعطوه، فأرخى سراويله ومشى عليها إلى الحجرة، ثم منعوه الطعام والشراب إلى أن مات.

وقيل أدخل حماماً وهو عطشان فلم يسقوه، وأغلق عليه باب الحمام حتى مات فيه، ولذلك قال ابن عبدون:

ولا وفت بعهود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر

فسبحان من لا يفنى ملكه ولا يذل ... سلطانه ولا تلحقه آفة الموت

وكانت مدة خلافة المعتز أربع سنين وتسعة أشهر إلّا سبعة أيام، وعمره أربعاً وعشرين سنة وثلاثة عشر يوماً.

فصل
المهتدي

وهو محمّد بن الواثق، بويع بالخلافة ولقّب بالمهتدي.

وأمسكت قبيحة أم المعتز وظهر لها أموال كثيرة ألف ألف دينار تحت الأرض، وقدر مكوك زمرد، وقدر مكوك لؤلؤ، وكيلجة ياقوت أحمر، فقال صالح بن وصيف: قبح الله قبيحة عرضت ابنها للقتل لخمسين ألف دينار وعندها هذه الأموال كلّها. وكان المتوكل سمّاها قبيحة لفرط حسنها ثم سارت قبيحة إلى مكة فكانت تدعى بصوت عالي على صالح بن وصيف، وتقول: هتك ستري، وقتل ولدي، وغرّبني عن بلدي، وركب الفاحشة منّي.

وفي هذه السنة وهي سنة خمس وخمسين ومائتين ظهر علي بن محمّد بن عبدالرحيم، من ولد عبدالقيس بجمع من الزنج، وادعى أنّه علي بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن أبي طالب عليه السلام، واستفحل أمره بالبصرة.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين قتل موسى بن بغا صالح بن وصيف، فكتب المهتدي إلى بابكيال مقدم الأتراك أن يقتل موسى بن بغا، فأطلعه على ذلك واتفقا على قتل المهتدي، فلمّا وصلا إليه أمسك المهتدي بابكيال وحبسه وقتله، وركب إلى موسى فخامرت عليه الأتراك الذين كانوا معه وصاروا مع موسى، فهرب المهتدي واختفى ثم أمسك وعصر على خصيتيه حتى مات.

وكانت خلافته أحد عشر شهراً وبضعاً، وعمره ثمانياً وثلاثين سنة، وكان ورعاً كثير العبادة، قصد أن يكون في بني العباس كعمر بن عبدالعزيز في بني أمية؛ ولكن كما قال الشاعر:

واعـــترت آل عــباس عــبيدهم بذيل رياء من بيض ومن سمر

أشارة إلى تغلب عبيدهم الأتراك عليهم حتى كانوا يقتلونهم كيف شاؤا ويعزلونهم متى شاؤا.

فصل
المعتمد

وهو أحمد بن المتوكل وكنيته أبو العباس، كان في الحبس فأخرجه كبراء الدولة وسمّوه المعتمد على الله.

وبويع بالخلافة وهو خامس عشر خليفة من العباسيين، واستمر في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام، وكان محكوماً عليه، ضيق عليه أخوه الموفق في الأموال والأحكام. واستقل أحمد بن طولون بمصر والشام، واستولى صاحب الزنج المقدم ذكره على البصرة وواسط وبلاد كثيرة، واستولى يعقوب الصفار على بلخ وكابل ونيسابور والأهواز، وملك الحسن بن زيد العلوي طبرستان، ونصر بن ماهان ما وراء النهر، وخرج بالصين خارجي مجهول الإسم والنسب واستولى على بلاد كثيرة، وقتل وسبى خلقاً كثيراً ثم عدم. وتغلب الأجناد والقواد على غالب البلاد. وقطع أحمد بن طولون خطبة الموفق واسمه ولقبه فلعنه المعتمد على المنابر بإلزام أخيه الموفق له.

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين أخذت الزنج البصرة وخرّبوها وقتلوا من بها، ثم أغارت الزنج على واسط وهجّ أهلها حفاة وعراة، ونهبت الزنج ديارهم وغزاهم من المسلمين أربعة آلاف، فأحدق بهم البطارقة فلم ينج منهم إلّا خمسمائة، واستشهد الباقون.

وفيها أخذ الحسن بن زيد العلوي جرجان وملكها.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين أرسل المعتمد أخاه الموفق أبا أحمد لقتال الزنج، فجرى بينه وبينهم حروب يطول شرحها فكشف الزنج عن الأهواز واستولى عليها، ثم سار إلى مدينة صاحب الزنج ففتحها بالأمان، وكان قد حصنها صاحبها وسمّاها بالمختارة.

وفي سنة اثنين وستين ومائتين لمّا عجز المعتمد عن يعقوب الصفار كتب إليه بولاية خراسان وجرجان فلم يرض، وجاء في سبعين ألفاً حتى وافى باب الخليفة وأضمر في نفسه الاستيلاء على العراق والحكم على المعتمد، فانكسر عسكره وغنم أصحاب الخليفة منه ما لا يعد ولا يحصى.

وفي سنة ست وستين ومائتين قتل أهل حمص عاملهم عيسى الكرخي.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين غزا نائب الثغور الشامية، فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً، وغنموا غنيمة عظيمة حتى بلغ السهم أربعين ديناراً.

وفي سنة تسع وستين ومائتين تحمل المعتمد من أخيه الموفق، وكاتب أحمد بن طولون وسافر في خواصه يريد اللحاق بابن طولون فلم يقدر، ووكل به الموفق من يمنعه من ذلك، وجمع ابن طولون القضاة والأمراء بمصر، وقال: إنّ الموفق نكث بأمير المؤمنين فاخلعوه، فخلعوه من العهد إلّا القاضي بكار فقيّده وحبسه، وأمر بلعن الموفق على المنابر.

وفي سنة سبعين ومائتين قتل صاحب الزنج وحمل رأسه إلى الموفق وبعث بـه إلى بـغداد، وكانت أيامه قد طالت على المسلمين خمس عشرة سنة، قال الصولي: إنّه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف.

وفيها توفي أحمد بن طولون، وولي مصر بعده ابنه خمارويه.

وفي سنة إحدى وسبعين ومائتين كانت الوقعة بين المعتضد بن الموفق وخمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر، وآخرها هزيمة المعتضد وأصحابه بين دمشق والرملة إلى طرسوس في نفر قلائل، وهزيمة خمارويه إلى حدود مصر، وثبات عسكره غير عالمين بهزيمته، فانهزم كل منهما ولم يعلم بهزيمة صاحبه، وذهبت خزائن كل منهما وهي من الغرائب.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين قبض الموفق على ابنه المعتضد وبقي محبوساً إلى أن مات والده الموفق في سنة ثمان وسبعين ومائتين بداء الفيل، فولي بعده ابنه المعتضد مكـانه ولايـة العهد، وكان قد بلغ ديوانه مائة ألف جندي.

وفي سنة ست وسبعين ومائتين كانت حروب صعبة بين خمارويه ومحمّد بن الساج ثم هرب محمّد إلى بغداد.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين تحركت القرامطة بسواد الكوفة، استزل عقلهم شخص اسمه كريب ثم خنقوه، فقالوا: قرمط أحدث لهم ديناً ودعاهم إليه وغيّر الصلاة والأذان والصيام وأباح الخمس ورفع غسل الجنابة.

وفي سنـة تسـع وسبعين ومائتين في رجـب توفي المعتمد على الله من كثرة الخمـر والأكـل، ليلـة أحتضـره ابن أخيـه المعتضـد وأعيان الدولة فنظـر المعتضد إلى عمّـه المعتمد ميّتاً، وحمـل إلى سامراء ودفـن بها، وكانـت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام، وعمره خمسين سنة وستة أشهـر.

فصل
المعتضد

وهو أحمد بن الموفق بن المتوكل، ويكنّى بأبي العباس، بويع له بالخلافة بعد عمه المعتمد، فغلب على الأتراك الغلبة التي تجب أن تكون لمثله فى أمثالهم، وأذلّهم وردّهم إلى مراتبهم من العبودية، وكانوا الأتراك منذ مات الواثق يتحكّمون على الخلفاء في خلافتهم تحكّم الصبيان على أهاليهم، وكان المعتضد مهاباً لا يقدم أحداً على أمر من أموره، وكان عزيزاً وكان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس، ووطده[١] بعد أن كان قد أخلقه الأتراك، وفي ذلك يقول علي بن أبي العباس الرومي:

ألا يـــابني العـباس إن إمــامكم إمام الهدى والجود والبأس أحمدا
كـما بأبـي العـباس أسس مـلككم كـذا بأبـي العـباس أيـضاً تـجددا

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين أخذ المعتضد ماردين.

وفيها دخل طفح بن خف عامل دمشق من قبل خمارويه من طرسوس إلى الروم وفتح وسبي.

وفي سنة اثنين وثمانين ومائتين وقع الصلح بين المعتضد وخمارويه وتزوج بابنته.

وفيها قتل خمارويه، قتله بعض خدمه على فراشه بدمشق، وولي مصر ولده حسن صغيراً.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين خلع طفح أمير دمشق حسن بن خمارويه بدمشق، واختلف جيش حسن عليه فقتلوه ونهبوا مصر وأحرقوها وأقعدوا مكانه أخاه هارون.

وفيها أمر المعتضد بتوريث ذوي الأرحام وإبطال ديوان المواريث، وأظهر سب معاوية ويزيد، وصحح أنّ المفسرين اتفقوا على أنّ المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنوا أُمية ثم أحجم عن ذلك. والأكثر على أنّهم اليهود لقوله تعالى عنهم: ﴿مَن لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[٢].

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين فتح المـعتضد آمد بـالأمان ثـم سـار إلى قـنسرين وسـلم العواصم.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الأوّل، ومـولده فـي ذي

---

(١) في المخطوط (ووطنه)، وما اثبتناه من نهاية الأرب في فنون الأدب.

(٢) سورة المائدة: ٦٠.

الحجة سنة اثنين وأربعين ومائتين، وخلافته سبع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وكان مهاباً شهماً شحيحاً.

فصل
المكتفي بالله

وهو علي بن المعتضد بويع بالخلافة بعد والده.

وفي سنة تسعين ومائتين اشتدّت شوكة القرامطة حتى حصروا دمشق، وقتل كبيرهم يحيى المعروف بالشيخ، وأقاموا أخاه أبا الحسن أحمد ـ وله شامة في وجهه زعم أنّه ابنه ـ وكثر جمعه وصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه فأخذه وانصرف عنهم، وأخذ حمص وخطب له على منابرها وتسمى أمير المؤمنين المهدي، وعهد إلى ابن عمه عبدالله وسمّاه المدّثر المذكور في القرآن، ونهب حماة والمعرة وبلادهما وقتل الأطفال، فخرج المكتفي ونزل الرقة وأرسل إليه الجيوش، فكسروه في سنة إحدى وتسعين ومائتين، بمكان بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً، وأدخل رأس صاحب الشامة إلى بين يدي المكتفي بالله إلى بغداد وطيف به.

وفي سنة اثنين وتسعين ومائتين جهّز المكتفي جيشاً إلى الشام ومصر وافتتحها جديداً، وقتلت أولاد أحمد بن طولون وكانوا بضعة عشر رجلاً.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين قويت القرامطة وأخذوا دمشق ونهبوا وسفكوا وتوجّهوا إلى الكوفة، فجهز المكتفي إليهم جيشاً فكسروه وقتلوا وغنموا من المسلمين خلقاً كثيراً ومالاً كثيراً.

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين أخذت القرامطة حجاج العراق وقتلوهم عن آخرهم، وبلغت عدّة القتلى عشرين ألفاً، وجهّز إليهم المكتفي عسكراً واقتتلوا، وانكسرت القرامطة ومات كبيرهم ابن ركونة.

وفي سنة خمس وتسعين ومائتين توفي المكتفي بالله لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً، وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

فصل
المقتدر بالله

وهو أبو الفضل جعفر بن المعتضد، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي بالله، وعمره ثلاثة

عشر سنة وهو ثامن عشر الخلفاء العباسيين.

وفي سنة ست وتسعين ومائتين خلع القواد والقضاة المقتدر بالله، وبايعوا عبدالله بن المعتز، ولقّبوه الراضي بالله.

وجرت بذلك حروب وأمسك الراضي بالله وخنق، وقيل رمي به في صهريج ماء في شدة البرد فمات فيه.

وكان من أهل الأدب البارع والشعر الفائق.

وفيه يقول علي بن محمّد بن بسام حين قام ولم يتم له أمر، حتى قتل فمات بالبرد كما مات أبوه بالحر:

لله درك من ميت بمصطنع ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لولا ولا ليت ينقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

وكان فاضلاً شاعراً وشهامة إليها النهاية.

ومن شعره:

أخذت من شبابي الأيام وتولى الصِّبا عليه السلام

وارعوى باطلي وبان حديث النفس عني وعفت الأحلام

ولي الخلافة يوماً واحداً، والحق أنّه أصابته دعوة العلويين، فإنّه كان يقول: إن وليت! ما أبقي علوياً، فدعوا عليه، وكان مولده لسبع بقين من شعبان سنة سبع وأربعن ومائتين.

وفي هذه السنة قوى أبو عبدالله الشيعي القائم بدعوة العلويين الفاطمية بالمغرب، وقتل جميع عساكر أبي نصر زيادة الله، ثم مات أبو نصر وانقضت به دولة الأغالبة، فكانت مدة ملكهم بإفريقية مائة سنة واثنى عشر سنة، فإنّ الرشيد ولي إبراهيم بن أغلب إفريقية في سنة أربع وثمانين ومائة، وابتدأت دولة الفاطمية بإفريقية في هذه السنة، وانقرضت بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة أوّلهم أبو محمّد عبدالله بن محمّد بن عبدالله بن ميمون بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وقيل في نسبته غير ذلك. وطعنت طائفة في نسبه فقالوا: إنّ أبوه اسمه سعيد بن أحمد بن عبدالله القداح بن ميمون بن ديصان، وسمّي القداح لأنّه كان يقدح العيون، وبدولة الفاطميين انقرضت دولة الأدارسة.

وولد إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وكان قد استفحل أمرهم بالمغرب بفاس والبربر وطنجة، وحملت رؤسهم إلى المهدي، وكانت مدة دولتهم فوق مائة سنة.

ودولة بني مدرار من سلجماسة وكانت مدة ملكهم مائة وثلاثين سنة.

ودولة بني رستم وكانت مدة ملكهم مائة وستين سنة.

ولمّا استقرت دولة عبدالله الفاطمي المهدي قتل أبا عبدالله الشيعي وأخاه أبا العباس، اللذين أقاما دولته ودعيا الناس إلى بيعته.

قال بن الأثير: كان قتلهما سنة ست وتسعين.

وقال صاحب الجمع والبيان في تاريخ القيروان: أنّه في سنة ثمان وتسعين ومائتين.

وفي سنة تسع وتسعين ومائتين قبض المقتدر على وزيره أبا الحسن بن الفرات، ونهب داره وولي محمّد بن يحيى بن عبدالله بن خاقان، وكان يرتشي كثيراً ويعزل سريعاً حتى أنشدوا فيه.

وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا اجتمعوا عليه فخير القوم أوفرهم بضاعة

ثم عزله المقتدر بعد سنة وولي علي بن عيسى.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة بعث المهدي الفاطمي جيشاً مع ابنه أبي القاسم محمّد إلى ديار مصر، فاستولى على الاسكندرية والفيوم، فبعث إليهم المقتدر جيشاً طردوهم فعادوا إلى الغرب.

وفي سنة اثنين وثلاثمائة قبض المقتدر على الحسين بن عبدالله بن الجصاص الجوهري، وأخذ منه صنوفاً قيمتها أربعة آلاف ألف دينار.

وفيها أرسل المهدي جيشاً في البحر واستولى على الاسكندرية، فأرسل المقتدر إليه مؤنس الخادم فاقتتلوا بين مصر والاسكندرية، أرسل ثلاث مرات لأخذ مصر ويرسل المقتدر إليه عساكراً يدفعه عنها بعد أخذه الاسكندرية وبلاداً معها، ثم في الرابعة انهزمت المغاربة بعد قتل خلق وعادوا إلى بلادهم. وبنى المهدي المهدية المشهورة ببلاد الغرب على جانب البحر، وجعلها داراً لملكه، وجعل لها سوراً محكماً وأبواباً عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار، وقال الآن آمنت على الفاطميين.

وفي سنة أربع وثلاثمائة غزا مؤنس الخادم بلاد الروم من ناحية ملطية، فافتتح حصوناً وأثر أثرة حسنة.

وفي سنة خمس وثلاثمائة قدمت رسل ملك الروم إلى بغداد، فلمّا استحضروا صفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة وصفّ العسكر، وكانوا الخدم أربعة آلاف خادم أبيض، وثلاثة آلاف أسود، والحجاب سبعمائة حاجب، وجعلت المراكب في دجلة مزيّنة لا يحصى عددها، وكانت الستور المعلقة على الأبواب ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها ديباج مذهب اثني عشر ألفاً وخمسمائة،

وكانت البسط اثنين وعشرين ألفاً، ومائة سباع معها مائة سبع، وعملت شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً، عليها عصافير وطيور من ذهب وفضة، والأوراق ذهب وفضة، والأغصان والطيور تصفر بحركات مزينة مدهشة، فشاهدت الرسل ما يطول شرحه، وصار الوزير يبلغ كلامهم الخليفة ويرد عنه.

وفي سنة ست وثلاثمائة جهّز المهدي جيشاً كثيفاً مع ابنه القائم إلى مصر، ووصل الاسكندرية واستولى عليها، ثم وصل الجيزة وملك الأشمونين وكثيراً من الصعيد، وبعث المقتدر مؤنس الخادم وجرت بينهما وقعات، ووصل الاسكندرية من جهة إفريقية ثمانون مركباً نجدة للقائم، وأرسل المقتدر من طرسوس خمسة وعشرين مركباً لقتال مراكب القائم والمراكب على رشيد، واقتتلوا المراكب في البحر، واقتتلت العساكر في البر، فهزم عسكر المهدي ومراكبه وعادوا إلى إفريقية بعد أن قتل منهم وأسر.

وفي سنة سبع وثلاثمائة ظهر ابن الادارسة حسن بن محمّد بن القاسم بن إدريس ورام رد الدولة بعد انقراضها فلم يتم له مطلب، وانقضت دولة الادارسة من جميع الغرب الأقصى، وتغلب الزناتيون[١] على فاس حتى ظهر يوسف بن تاشفين أمير المسلمين فاستولى على تلك البلاد.

وفي سنة ثمان وثلاثمائة ظهر اختلال الدولة العباسية وحميت الغوغاء ببغداد، فركب الجند وقصدوا دار الوزير خليل بن العباس، وكان له مماليك كثيرة فحموا داره، ودام القتال أياماً وقتل خلق كثير ووقع النهب في بغداد، وجرت فتن بها وبمصر وملك العبيديون[٢] جرة الفسطاط، وهرب الناس وانجفلوا[٣].

وفي سنة تسع وثلاثمائة أخذت الاسكندرية واستردت سوالب الخليفة[٤].

وفي سنة عشر وثلاثمائة كبست القرامطة وأميرهم سليمان بن أبي سعيد الجباي[٥] البصرة ليلاً، وعلوا على سورها وقتلوا عاملها وأقاموا سبعة عشر يوماً، يقتلون ويحملون الأموال منها ثم جرت حروب كثيرة مع القرامطة وانتصر فيها كبيرهم أبو طاهر سليمان ومعه سبعمائة فارس ومثلها رجاله، كسر مرة أربعين ألفاً، وأسر أميرهم يوسف بن أبي الساج، وأخذ مرة الحجاج وأموالهم، وأخذ مرة

---

(١) الزناتة: قبيلة من البربر بالمغرب. انظر ترتيب المدارك: ٧٩٢.

(٢) العبيديون: بطن من الحسينيين بني الحسين السبط بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) أي: ذهبوا مسرعين.

(٤) العبر: ١/١١٢.

(٥) هكذا في المخطوط، وفي المختصر في أخبار البشر (الجاني)، وفي أغلب المصادر التاريخية (الجنابي).

البصرة وقتل عاملها ونهب أموالها، وأخذ مرة الكوفة وما فيها، وأخذ مرة الرحبة ونهب وسبى.

وفي سنة اثنى عشر وثلاثمائة ذبح المقتدر وزيره أبا الحسن بن الفرات وولده معاً، واستوزر أبا الحسن علي بن عيسى.

وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة قلد المقتدر بن يوسف بن أبي الساج نواحي الشرق، وبعثه من آذربيجان إلى واسط.

وفيها استولى نصر بن محمّد الساماني على الري.

وفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة وصلت القرامطة إلى الكوفة، فسار إليهم يوسف بن أبي الساج من واسط بعسكر ضخم نحو أربعين ألفاً، وكانت القرامطة ألفاً وخمسمائة منهم ثمانمائة رجالة، فاحتقرهم ابن أبي الساج، وقال: ارسلوا الكتب إلى الخليفة بالنصر فهؤلاء في يدي، واقتتلوا فقدر الله انهزم عسكره وأسره أبو طاهر القرمطي وقتله، واستولى على الكوفة ونهب ثم جهّز المقتدر مؤنس الخادم في عساكر فانهزم أكثر العسكر قبل الملتقى، ثم ألتقوا فانهزمت عساكر الخليفة، ووقع الجفل في بغداد خوفاً من القرامطة.

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة استوزر المقتدر أبا علي بن مقلة عوضاً عن علي بن عيسى.

وفيها وصل الدمستق وهو اسم للنائب على بلاد الروم إلى شرقي قسطنطينية وحضر خلاط[1] ثم صالحهم على أن يضعوا الصليب مكان المنبر ففعلوا، ورحل إلى بدليس ففعل فيها كذلك.

وفي سنة سبعة عشر وثلاثمائة أنكر الجند والقوّاد على المقتدر استيلاء النساء والخدّام على الأمور، وأخذ الأموال الكثيرة، واجتمعوا إلى مؤنس الخادم وأتوا المقتدر إلى أن اشهدوا عليه وخلع نفسه، وبايعوا أخاه محمّد بن المعتضد ولقّبوه بالقاهر، ونهبوا دار الخلافة ونبشوا من قبر في تربة بنتها أم المقتدر ستمائة ألف دينار، وثالث يوم بكر الناس يطالبون بحق البيعة، واجتمعوا وازدحموا ولم يحضر مؤنس، فهجموا على القاهر فاستخفى وهربت جماعته، فعاد الناس إلى بيت مؤنس الخادم وطلبوا منه المقتدر فأخرجه، فحملوه على رؤسهم حتى أدخلوه دار الخلافة، وأحضر إليه أخوه القاهر بالأمان، فرحّب به وأقام عذره وحبسه عند أُمه فأحسنت إليه ووسعت عليه وسكنت الفتنة.

وفي سنة ثمان عشرة وثلاثمائة استطالت الرجالة بإعادة المقتدر واقتتلوا هم والجند فهربت الرجالة إلى واسط واستولوا عليها، فتبعهم مؤنس الخادم وقتل منهم وشردهم.

---

(١) خلاط: قصبة أرمينية الوسطى معجم البلدان: ٢/٣٨٠.

وفي سنة تسعة عشر وثلاثمائة أرسل المقتدر عسكر القتال مرداويح فالتقوا بنواحي همدان، فانهزم عسكر الخليفة واستولى مرداويح على بلاد الجبل، وبلغت عساكره في النهب إلى حلوان ثم أرسل عسكراً فملك اصفهان.

وفي ذي الحجة منها تأكدت الوحشة بين مؤنس الخادم والمقتدر.

وفي سنة عشرين وثلاثمائة سار مؤنس الخادم إلى الموصل مغاضباً للمقتدر، فاحتاط المقتدر على أمواله، وأمر أهل الموصل بقتاله فانتصر مؤنس واجتمعت إليه العساكر بالموصل، وقصد بغداد فخرج إليه المقتدر فانكسر وقتل وحمل رأسه إلى مؤنس، وهو بالراشدية ولم يكن حاضر القتال، فلطم وبكى وكانت مدة خلافة المقتدر أربعاً وعشرين سنة وأحدى عشر شهراً، وعمره ثمانياً وثلاثين سنة. قال ابن عبدون:

واوثقت في عراها كل معتمد وأشرقت بقذاها كل مقتدر

واتفقت في أيام المقتدر عجائب منها: أنّه بعث له من مصر هدايا حتى زعموا أنّه بعث إليه تيس له ضرع يحلب منه اللبن، وورد عليه هدايا من عمان فيها طائر صيني أسود يتكلم بالهندية والفارسية أفصح من بني آدم، وورد عليه كتاب مع البريد يذكر فيه أنّ بغلة وضعت فلوه[1] والبغلة لرجل يعرف بأبي برده. فسبحان الموقظ بعبرة قلوب الغافلين، والمرشد بآياته قلوب الضالين.

فصل

القاهر بالله

وهو محمّد بن المعتضد، بويع بالخلافة بعد أخيه المقتدر، فأحضر أم المقتدر التي كانت أحسنت إليه وضربها وعلقها برجلها، وأخذ ما اعترفت به من المصاغ والثياب بعد أن حلفت أن ليس عندها غير ذلك.

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة أراد مؤنس الخادم خلع القاهر، واتفق مع بليق الحاجب وابنه أن يبايعوا أبا أحمد بن المكتفي، فظفر بهم القاهر وقتلهم، وعزل ابن مقلة عن الوزارة.

وفي سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة ظهر بنو بويه، وكان بويه من أوسط الناس بين الديلم. وكنيته أبو شجاع، ونسبه متصل إلى أزدشير بن بابك من الأكاسرة، وكان له ثلاثة أولاد شجعان في خدمة

---

(١) الفلوة: الجحش.

لمّاكان بن كالي الديلمي[١] وأسماهم عماد الدولة أبو الحسن علي ركن الدولة الحسن ومعز الدولة أبو الحسين[٢] أحمد، فلمّا طرد مرداويح لماكان بن كالي عن طبرستان. أحسن مرداويح إلى أولاد بويه وولي عماد الدولة كرج، فظهرت شجاعته وكسر عسكر صاحب اصفهان عشرة آلاف بسبعمائة فارس! وعظم في عيون الناس ونفوسهم، وأخذ اصفهان وغيرها من البلاد، واستولى على شيراز وجعل ابن مقلة يعمل الحيلة في خلع القاهر، ويوهم القواد منه حتى أنّه كان يعطي المائة دينار لمنجم يقول: لهم عليكم قطوع من القاهر، ولمعبر المنامات ليفسرها لهم بهذا النحو، فاجتمعت القواد عليه وأمسكوه وسملوا عينيه. وكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وثمانية أيام.

فصل
الراضي بالله

وهو أحمد بن المقتدر، وكنيته أبو العباس، بويع بالخلافة بعد عمي عمه القاهر، واستوزر ابن مقلة وذلك في ست من جمادي الأولى سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ولي محمّد بن طغج وهو الاخشيد مصرا فنقل إليها من دمشق، وكان قد انتقل إلى دمشق من الرملة.

وفيها أرسل القائم الفاطمي جيشاً ففتح جنوه والأندلس من يد عبدالرحمن الأموي.

وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة أرسل الراضي طلب محمّد بن رايق من واسط وسلم إليه الأمر، وبطل الوزارة واقتصر حكمه على بغداد وعملها، واستقرت البصرة بيد ابن رايق، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، واصفهان في يد أخيه ركن الدولة، والموصل وديار بكر وربيعة ومضر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الاخشيد، والمغرب وإفريقية في يد القائم الفاطمي، والاندلس في يد عبدالرحمن الأموي الملقب بالناصر، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.

---

(١) في البداية والنهاية ١١/١٩٧ (كاني)، وفي الكامل ٨/٢٧٧، وتاريخ ابن خلدون، وتجارب الامم لابن مسكويه ١/٣٦٦ (كالي).

(٢) في المخطوط (الحسن)، والصحيح ما اثبتناه.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة سار الراضي مع ابن رايق إلى واسط.

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة أشار ابن مقلة على الراضي بمسك ابن الرايق فبلغ ابن الرايق فحبس ابن مقله ثم أخرج وقطعت يده، وكان يشد القلم عليها ويكتب، ثم بلغ ابن الرايق دعاءه عليه وعلى الراضي، فقطع لسانه وحبس إلى أن مات في أسوء حال ودفن بمكانه، ثم نبشه أهله فدفنوه في موضع، ثم نبش ودفن في موضع آخر، فمن الاتفاق الغريب أنّه ولي الوزارة ثلاث مرات لثلاث خلفاء المقتدر والقاهر والراضي، وسافر ثلاث مرات، ودفن ثلاث مرات!

والصحيح أنّ صاحب الخط المليح هو أخوه أبو عبدالله الحسن.

وفي آخر هذه السنة سار بجكم[1] من واسط ودخل بغداد، وكسر ابن الرايق فهرب وخلع الراضي.

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة سار بجكم والراضي إلى الموصل، فهرب ناصر الدولة بن حمدان ثم وقع الصلح وولاه حران والرها[2] وقسرين.

وفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة استولى ابن الرايق على الشام وطرد بدر نائب الاخشيد، وبلغ العرنين يريد مصر، وجرى قتال شديد بينه وبين الاخشيد، آخره انهزم ابن الرايق إلى دمشق، ثم صار بينهما صلح واستقرت دمشق لابن الرايق ومصر للاخشيد.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة مات الراضي بالله بالاستسقاء، وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام، وعمره اثنين وثلاثين سنة، وكان شاعراً حسناً سخياً يحب الأدب، وبعده لم يأت من يشبهه من الخلفاء، وهذا آخر خليفة دوّن شعراً وأجرى النفقات وجالس الحكماء، ومن شعره:

يصفر وجهي إذ تأمله ... طرفي فيحمر وجهه خجلا
حتى كان الذي بوجنته ... من دم قلبي إليه قد نقلا

فصل
المتقي بالله

وهو إبراهيم بن المقتدر، بويع بالخلافة بعد الراضي بإشارة كاتب بجكم أبي عبدالله الكوفي،

---

(١) وهو مدبر دولته.

(٢) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. انظر معجم البلدان.

ولقّب المتقي بالله، وتصرف بجكم في الخلفاء، وأخذ فرس الخلافة والانتهاء، وصار التدبير مكان الوزراء إلى كاتب بجكم، ثم قتل بجكم بعد حكمه سنتين وثلاثة أشهر.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة استولى على الأمر أبو الحسن علي بن محمّد البريدي، ثم أخرج من بغداد واستولى على الأمر كورتكين ثم أخرج، وكان ابن الرايق قد استولى على الشام فجاء إلى بغداد واستولى عليها، ثم جاء البريدي وقتل ابن الرايق واستولى على بغداد. ثم جاء ناصر الدولة ابن حمدان إلى المتقي فخلع عليه بأمرة الأمراء، وأخذ بغداد وخلع على أخيه ولقّبه سيف الدولة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة طلب ملك الروم من المتقي منديلاً كان في كنيسة الرها زعموا أنّ المسيح عليه السلام مسح وجهه به فانتقشت صورته فيه، ووعد على ذلك بإطلاق أسرى المسلمين، فاختلفت الفقهاء في ذلك، وآخر الأمر أرسلوه إليه وجاءوا بأسارى كثيرة.

وفي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة سار المتقي من بغداد خوفاً من توزون إلى جهة ناصر الدولة ابن حمدان بالموصل، ثم كتب الى توزون ليصالحه.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة عاد المتقي إلى بغداد، وكان قد جائه الاخشيد من مصر بهدايا عظيمة، وحرص أن يسير معه إلى مصر ليكون في خدمته فأبى فأشار عليه بالمقام بالرقة وخوّفه من توزون فلم يقبل، وكان قد حلف له توزون ثم جدد له اليمين، وجاء إليه ليلتقيه فالتقاه بالسندية، ووكل به حتى أنزله في مضربه فأمسكه وسمل عينيه، وكانت خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوماً.

فصل
المستكفي بالله

وهو علي بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق بن المتوكل، بويع بالخلافة بعد عمي عمه المتقي بالله، ولقب المستكفي بالله، فرحل سيف الدولة ابن حمدان من العواصم، وأخذ حلب من يأنس المؤنسي وأخذ حمص.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مات توزون، فسار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد وملكها وبايعه المستكفي، وفي ذلك اليوم لقّب معز الدولة وضرب اسمه في الدراهم والدنانير، ورتّب معز الدولة للمستكفي كل يوم خمسة آلاف درهم، ولم يجعل له في الحكومة قدماً إلّا اسم الخلافة لا غير.

قال السيوطي في تاريخه: وفي هذه الأيام قوى أمر الشيعة في بغداد وغيرها، وكتبوا على أبواب الدور شتم معاوية ويزيد، وشتم من غصب البتول فاطمة حقّها، وشتم من منع من دفن الحسن السبط مع جدّه، وشتم من نفى أبا ذر الغفاري من المدينة، فلمّا كان زمن القادر بالله محيت الأسطر في الليل؛ فأراد بنو بويه أن يعيدوها فأشار عليهم الوزير المهلبي أن يكتبوا ألا لعنة الله على الظالمين لآل الرسول حقّهم. وصرّحوا بلعن معاوية ويزيد فقط، وأذنوا في مصر والشام وحلب بحي على خير العمل بأمر جعفر بن فلاح نائب الشامات من قبل بني بويه معز الدولة وعضد الدولة وبني عمّهم، ولم تمكن المعارضة لهم لكثرتهم وشدّتهم. قال: وكان آل علي عليه السلام في زمانهم مقهورين مقتولين مشرّدين ولم يحصل لهم الأمن والجاه إلّا من المأمون ومن أخيه المعتصم ومن أحمد الناصر لدين الله، فإنّهم آمنوهم وبرّوهم وقرّبوهم. ثم خلع معز الدولة بن بويه المستكفي بعد إهانة.

فصل
المطيع لله

وهو الفضل بن المقتدر، بويع بالخلافة بعد خلع المستكفي، وازدادت الخلافة ذلاً، وتسلّمت عمّال بني بويه العراق بأسره، وأقطع معز الدولة للخليفة ما يقوم بخرجه، فسار ناصر الدولة ابن حمدان من سامراء إلى بغداد، وجرى بينه وبين معز الدولة حروب ثم اصطلحا.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة عقد المنصور العلوي الفاطمي ولاية جزيرة صقلية للحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي، واستمر يفتح البلاد ويغزوا إلى أن مات المنصور.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ملك معز الدولة الموصل، وملك سيف الدولة حصن برزية.

وفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة احترق حصن أفامية وكان بيد المغاربة، فنازله الدوقس في ثلاثين ألفاً وحصره سبعة أشهر وأشرف على أخذه فدفعوه عنه، وأتى دمشق من جهة المغاربة وقتل الدوقس في الوقعة، وقتل من عسكره أربعة عشر ألفاً وأسر منهم خلق.

وفيها توفي عماد الدولة بن بويه بقرحة الكلا وتوالي الأسقام، وكان قد جعل ابن أخيه عضد الدولة ولي عهده على فارس، وحكمه وهو حي فاختلف العسكر عليه بعد موت عمه، فجاءه أبوه ركن الدولة من الري فزار قبر أخيه باصطخر حافياً حاسراً، وعسكره كذلك ولزم العزاء ثلاثة أيام، ثم وصل إلى ابنه وقرّر قواعده، فكان عماد الدولة أمير الأمراء، ثم صار ركن الدولة أمير الأمراء.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أعادت القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة، وكانوا قد نقلوه إلى

هجر، فكانت مدة مكثه عندهم اثنين وعشرين سنة.

وفي سنة أربعين وثلاثمائة سار الوزير أبو محمّد المهلبي إلى القرامطة، فكسرهم واستباح عسكرهم، وعاد بالأسرى منهم، ومن ذلك الوقت ذلت القرامطة وحجّ الناس ولله الحمد.

وفيها جمع سيف الدولة جيشاً عظيماً وأوغل في بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وعاد ثاني سنة سالماً غانماً. وقد أسر قسطنطين بن الدمستق واستمر عنده مكرماً إلى أن مات، لكن حمله الإبريق إلى بيت الماء وكان أمرد، بديع الحسن[١].

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة توفي المنصور الفاطمي صاحب الغرب، وبويع ولده المعز، وملك غالب المغرب، وتلقب بأمير المؤمنين لمّا بلغه ضعف الخلافة بالعراق، وبلغ صاحب الأندلس عبدالرحمن الأموي ذلك فتلقّب هو أيضاً بأمير المؤمنين، وسمّي بالناصر إلى أن مات في سنة خمسين وثلاثمائة، وولي بعده ولده الحاكم.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة بنى سيف الدولة الحدث[٢] وجمع الدمستق خلائق من الأتراك والروس والبلغار والخزر، فصافهم سيف الدولة على الحدث ونصره الله تعالى عليهم، وقتل وأسر ما لا يحصى، واستغنى خلق من الغنائم[٣].

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة غلبت الروم على طرسوس فقتلوا وسبوا وحرقوا قراها.

وفيها قصد روزبهان الديلمي العراق، فالتقاه معز الدولة بن بويه ومعه الخليفة، فانكسر روزبهان وأسر[٤].

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة سار أبو الحسن جوهر عبدالمعز الفاطمي إلى أقاصي المغرب، ولمّا جاء إلى فاس أغلق أحمد بن بكر أبوابها فلم يقدر جوهر عليها، ومضى حتى انتهى إلى البحر المحيط، ثم عاد وفتح فاس عنوة.

وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاة[٥].

وفي سنة خمسين وثلاثمائة ولي قضاء القضاة ببغداد أبو العباس عبدالله بن الحسن بن أبي

---

(١) انظر: زبدة الحلب في تاريخ حلب: ١/٢٣.

(٢) قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور من أطراف بلاد الروم.

(٣) تاريخ الاسلام للذهبي: ١/٦١، النجوم الزاهرة في ملوك مصر: ١/٣٧٨.

(٤) تاريخ الاسلام للذهبي: ٦/٦١، العبر: ١/١٤٠.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٤/٣٠، المختصر في أخبار البشر: ١/٢١٩.

خركاة: كلمة فارسية، معناها: الخيمة الكبيرة. انظر معجم الالفاظ الفارسية المعربة: ٥٣ ـ ٥٤.

الشوارب، وألزم كل سنة بمائتي ألف درهم من ضمان القضاء ثم الحسبة والشرطة، فأنصف من قال في ذلك:

مـذل الدولة بـن بـويه يـقضي   له ابن أبي الشـوارب بـالضمان
تـصرم مـلك ذا وقـضاء هـذا   وصـارت سـنة طـول الزمـان

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة قدم دمستق الروم إلى حلب بغتة، وهرب سيف الدولة بعد أن قاتل وقتل من جماعته خلق، وحاصرها مدة وهو على خيل حوش[1] حول دار سيف الدولة بعد أن نهبها، ثم جرت بين عوام حلب وشرطتها فتنة فاشتغلوا عن الأسوار، فهجم الروم إلى حلب وفتحوا الأبواب ووضعوا السيف، وسبوا بضعة عشر ألف صبي وصبية، وغنموا ما لا يوصف كثرة، وحرقوا ما عجزوا عن حمله، وعاد دمستق عنها إلى بلاده بعد أن أقام بها تسعة أيام، ولم ينهب القرى وأمرهم بالزرع ليعود.

وفي سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة قتلت الروم ملكهم.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة استولى معز الدولة ابن بـويه عـلى المـوصل ونـصيبين، وهرب منه ناصر الدولة بن حمدان ثم اتفقا وضمن منه الموصل.

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة أخذ ملك الروم المصيصة بالسيف، وأسر وقتل وكان أهلها فوق مائتي ألف إنسان، وأخذ انطاكية وطرسوس.

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وقع بين سيف الدولة بن حـمدان وبـين الروم مـفاداة، فخلص ابن فراس ابن عمه وغيره، حتى لم يدع في أيدي الروم أحداً من أسرى المسلمين، وبذل في ذلك أموالاً حتى رهن بدينه الجواهر المعدومة النضير.

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة مات معز الدولة ابن بويه وولي بعده بختيار.

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة استولى عضد الدولة ابن بويه على كرمان بعد موت صاحبها علي بن إلياس.

وفي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة سيّر المعز الفاطمي غلام والده جوهر الرومي في جيش عظيم إلى مصر فاستولى عليها، وشرع في بناء القاهرة. وخطب على المنابر باسم المعز، وقطعت خطبة العباسيين من مصر ونودي في الأذان بحيّ على خير العمل، وجهر في الصـلاة بـبسم الله الرحمن الرحيم، ثم خطب له بالشام وحلب، وبمدينة النبي ﷺ.

---

(١) هكذا في المخطوط.

وفيها دخل ملك الروم الشام بلا ممانعة أحد، وملك ثمانية عشر منبراً وأقام بالشام شهرين وعاد بالأسرى.

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ملكوا الروم انطاكية بالسيف وقصدوا حلب، فصولحوا على مال عن حلب وحمص وحماة والمعرة وكفرطاب وافامية وشيزر فرحلوا ومعهم الرهائن على ذلك وصارت البلاد سائبة.

وطمع نقفور الروم في ملك جميع الشام، ولم يكن من بيت الملك، وإنّما قتل الملك الذي كان قبله وتزوج امرأته، فأراد أن يخصي أولادها ليقطع نسلهم ويبقى الملك في نسله، فاتفقت أُمهم مع الدمستق ـ أحد الأولاد المذكورين ـ فجهزت إليه وهو بالشام سمّاً فقتله قبل عوده إلى الروم.

وفي سنة ستين وثلاثمائة وصلت القرامطة إلى دمشق وكبسوا جعفر بن فلاح نائب المعز الفاطمي خارج دمشق وقتلوه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها، ثم ملكوا الرملة، واجتمع إليهم خلائق من الاخشيدية فقصدوا مصر ونزلوا بعين شمس، وجرت بينهم وبين المغاربة وجوهر غلام المعز حرب فانتصرت القرامطة، ثم انتصرت المغاربة، وعادت القرامطة إلى الشام وكبيرهم حينئذٍ الحسن بن أحمد بن بهرام.

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة رحل المعز الفاطمي إلى مصر بأهله وأمواله، وجعل الذهب فردات طواحين وحملها على الجمال ومعه ابن هاني الشاعر الأندلسي، قتل غيلة في الطريق وتعالى في مدح المعز حتى كفّروه حين قال:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وفيها وصلت الروم إلى الجزيرة والرها ونصيبين فغنموا وقتلوا واستصرخ المسلمون بأهل بغداد، فقامت العامة وطلب بختيار ابن بويه من الخليفة المطيع مالاً لينفقه في الغزاة، فقال: أنا ليس لي غير الخطبة فإن أحببتم اعتزلت، فهدّده بختيار فباع قماشه وغيره حتى حمل إلى بختيار أربعمائة ألف درهم فصرفها بختيار في مصالح نفسه، وبطلت الغزاة وشاع أنّ الخليفة صودر حتى باع قماشه، كذا في تاريخ المؤيد، وفي تاريخ الذهبي أنّ بختيار أرسل العسكر فانتصر.

وفي سنة اثنين وستين وثلاثمائة وصل الدمستق إلى جهة ميافارقين فنهب واستهان بالمسلمين، فجهّز إليه أبو تغلب بن ناصر الدولة أخاه هبة الله فكسر الدمستق وأسره فمرض ومات محبوساً.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة سار بختيار أمير الأمراء ببغداد إلى الأهواز واستخلف سبكتكين ببغداد، فخرج عليه ونهب داره وأمر المطيع أن يخلع نفسه ففعل، وكانت خلافته تسعاً

وعشرين سنة وشهوراً.

فصل
الطائع لله

وهو عبدالكريم بن المطيع بن المقتدر، بويع بالخلافة بعد خلع والده.

وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة كانت الوقعة بين عضد الدولة وبختيار وبين الأتراك فانهزم الأتراك وقتل كثير منهم.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة توفي المعز بمصر وبويع ولده العزيز وخطب له بمكة.

وفيها كان ابتداء دولة آل سبكتكين بغزنة.

وفيها قبض عضد الدولة بن بويه على وزير أبيه أبي الفتح بن العميد وسمل عينه الواحدة وقطع أنفه، وكان قد انشرح ليلة مسكه انشراحاً عظيماً وأنشد:

دعوت المنى ودعوت العلا فلما اجابا دعوت القدح
وقلت لأيام شرخ الشباب إليّ فهذا أوان الفرح
إذا بلغ المرء اماله فليس له بعدها مقترح

وغنّت فتاة له فطرب لها وسكر بالخمر والملاهي، فقبض عليه من سحر تلك الليلة كما قيل:

الدهر يومان ذا امن وذا حذر والعيش شطران ذا صفر وذا كدر
وكل لذة عيش لا دوام لها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وفيها عاد شريف بن سيف الدولة إلى ملك حلب.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وغيره، وقتل بختيار ووزيره ابن بقية.

وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة فتح أبو الوفاء مقدم عسكر عضد الدولة ميافارقين بالأمان، ثم سار ففتح آمد، واستولى عضد الدولة على ديار بكر، وسار أبو تغلب إلى دمشق فمنعه منها قسام عامل العزيز الفاطمي صاحب مصر فسار إلى طبرية.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة سار أبو تغلب من طبرية إلى الرملة، وهناك دغفل بن مفرج الطائي، والفضل من قوّاد العزيز في جيش جهّزه العزيز إلى الشام، فقاتلوا أبا تغلب فانهزم فتبعوه وأسروه وقتله دغفل وبعث برأسه إلى العزيز بمصر.

وفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على بلاد جرجان وطبرستان، وأجلى عنها قابوس.

وفيها قبض عضد الدولة على جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان لمّا عادت من الرملة بعد قتل أخيها أبي تغلب ونادى عليها على جمل هذه قبيحة أخت أبي مغلوب وغرقها في دجلة، وهذه فعلة قبيحة.

وفي سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة توفي عضد الدولة، وولي بعده صمصام الدولة.

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة قبض شرف الدولة رزبك بن بويه على أخيه صمصام الدولة غدراً واعتقله.

وفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة رفع شرف الدولة عن العراق مظالم كثيرة.

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة أهدى الصاحب بن عباد إلى فخر الدولة علي بن حسن بن ركن الدولة بن بويه ديناراً وزنه ألف مثقال مكتوب عليه:

وأحمر يحكي الشمس شكلاً وصورةً	فأوصافه مشتقة من صفاته
فإن قلت دينار فقد صدق اسمه	وإن قيل ألف فهو بعض سماته
بديع ولم يطبع على الذهب مثله	ولا ضربت أضرابه لسراته
وصار إلى شاهانشاه انتسابه	على انه مستصغر لصفاته
عسى ان يبقى سنينا كوزنه	لتستبشر الدنيا بطول حياته

وفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة أرسل شرف الدولة محمّد الشيرازي الفراس فسمل عين أخيه صمصام الدولة في القلعة التي حبس بها.

وفيها توفي شرف الدولة بالاستسقاء، واستقر موضعه أخوه أبو نصر بهاء الدولة، وخلع عليه الطائع وقلده السلطنة.

وفيها افتتن الأتراك والديلم واقتتلوا خمسة أيام، وبهاء الدولة في داره يراسلهم في الصلح، وبعد اثنى عشرة يوماً صار بهاء الدولة مع الأتراك فأجاب الديلم إلى الصلح ومن ثم أخذت الأتراك في القوّة والديلم في الضعف.

وفي سنة ثمانين وثلاثمائة ملك أبو الذواد محمّد بن المسيب بن رافع الموصل وقتل أبا الطائفة ابن ناصر الدولة بن حمدان.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة سأل بهاء الدولة من الطائع أن يجدد عهده، فلمّا دخل عليه جاء بعض الديلم ليقبّل يد الخليفة الطائع فأمسكها وأنزله عن سريره، وأخذ إلى دار بهاء الدولة

وهو يسترجع ويستغيث وخلع. وكانت خلافته سبعة عشر سنة وثمانية أشهر، وكان من جملة الحاضرين الشريف الرضي وأنشد:

امسيت ارحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكه باقرب عاد بالضراء يبكيني

فصل

القادر بالله

وهو أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتصم، بويع بالخلافة بعد خلع الطائع، وبقي الطائع عنده مكرّماً إلى أن مات في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة ليلة الفطر.

وفي سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة تشعّب الجند على بهاء الدولة بسبب استيلاء أبو الحسن بن المعلم على الأمور فسلم ابن المعلم إلى الجند فقتلوه.

وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة استولى بغراخان على بخارى وجرى بينه وبين نوح الساماني حروب انتصر فيها، وخرج نوح مستخفياً ومرض بغراخان في بخارى فرجع إلى بلاده فمات في الطريق، وكان ديناً حسن السيرة فبادر الأمير نوح إلى بخارى واستقر في ملك أبيه.

وفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة اتفق أبو علي بن سيمجور صاحب جيش خراسان وفائق على حرب نوح، وكتب نوح إلى سبكتكين فسار إليه ومعه ابنه محمود ووافاه نوح فقصدوا ابن سيمجور وفائقاً فانهزما، وتبعهم عسكر نوح وسبكتكين يقتلون ثم استعمل على خراسان محمود بن سبكتكين.

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة عاد علي بن سيمجور إلى خراسان وقاتل محمود بن سبكتكين وأخرجه عنها، ثم سار سبكتكين وابنه محمود بالعساكر واقتتلوا مع أبي علي بطوس فهزموه ثم، أنّ أبا علي طلب الأمان من نوح فأمنه وجاءه فحبسه حتى مات في الحبس.

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة توفي الأمير نوح الساماني وولي أبنه منصور.

وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة اتفق أعيان العسكر وخلعوا منصور بن نوح وانقرضت دولة السامانيين، وكانت قد طبقت كثيراً من الأرض خراسان وبخارى وسائر بلاد العجم، وكانت حسنة السيرة والعدل، وكان ابتداء دولتهم سنة إحدى وستين ومائتين، وملك بعدهم محمود بن سبكتكين وفتح بلاد الهند، وأخذ سجستان وتلقّب ـ يمين الدولة ـ.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة قلد بهاء الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي والد الرضي والمرتضى نقابة العلويين بالعراق والمظالم وقضاء القضاة، وكتب عهده بذلك من شيراز فامتنع من تقلد القضاء وأمضى ما سواه.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتح السلطان محمود مدينة بهاطية من الهند، وهي حصينة عالية السور وراء الملتان.

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة فتح أيضاً الملتان وهرب منه ملك الهند إلى قلعته كاليجار فحصره حتى صالحه على مال، ولبس ملك الهند خلعته وشد منطقة على كوره.

وفي سنة سبع وتسعين وثلاثمائة اقتتل بهاء الدولة وابن واصل وانهزم ابن واصل وأسر، وحمل إليه، فأمر بقتله قبل إحضاره إليه، فقتل وطيف برأسه بخوزستان.

وفيها خرج على الحاكم بأمر الله الفاطمي شخص أموي يقال له أبو ركوة من ولد هشام بن عبدالملك أمير الغرب، وصار له جمع كثير وأخذ برمة[1] فجهّز له جيشاً فكسره وملك الصعيد وقوى أمره. فجمع الحاكم الجيوش من مصر والشام حتى حصله بعد قتال شديد، وطيف برأسه بعد صلبه بالقاهرة.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة أوغل السلطان محمود في بلاد الهند وغزا وفتح.

وفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قتل أبو علي بن ثمال الخفاجي، وكان الحاكم العلوي الفاطمي ولاه الرحبة، ثم صارت إلى صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب.

وفي سنة أربعمائة كان خرج على المؤيد الأموي هشام بن المنتصر الحكم بن عبدالرحمن الناصر، واجتمع عليه الناس وبايعوه بالخلافة، وقبض على المؤيد وحبسه في قرطبة، وتلقّب بالمهدي، وبعده بمدّة خرج عليه سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر المذكور في أوائل شوال من سنة أربعمائة، ثم جمع المهدي عليه وعاد إلى الخلافة وهرب سليمان. ثم اجتمع كبار الدولة وأخرجوا المؤيد من الحبس وأعادوه إلى الخلافة فقتل المهدي ثم جمع سليمان وحصر المؤيد وملك قرطبة بالسيف، وخفى أمر المؤيد فلم يظهر له خبر، وبويع سليمان بالخلافة ولقّب المستعين بالله.

وفيها أخذ الحاكم قاتله الله في دعوى التأله والدين فأمر بإنشاء دار العلم، وبقي على ذلك ثلاث سنين ثم أخذ يقتل أهل العلم، وأغلق تلك الدار، ومنع من فعل كثير من الخير، ثم ادعى ما ادعى

---

(١) وهي من كورة الغربية من أرض مصر في طريق الاسكندرية معجم البلدان: ٤٠٣/١.

وسيرته معروفة، وهو الذي يزعمون الدروز أنّه المهدي الموعود به.

وفي سنة إحدى وأربعمائة خطب للحاكم بأمر الله بالكوفة والموصل والأنبار والمدائن وغيرها.

وفي سنة اثنين وأربعمائة ملك حلب صالح بن مرداس بعد بني حمدان إلى سنة اثنين وسبعين وأربعمائة.

وفيها كتب محضر ببغداد في قدح النسب الذي تدعيه خلفاء مصر الفاطميين والقدح في عقائدهم، وأنّهم زنادقة منسوبون إلى ديصان، وكتب فيه خلق منهم: السيد المرتضى وأخوه الرضي.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة توفي السلطان بهاء الدولة بن بويه وولي ابنه سلطان الدولة.

وفي سنة أربع وأربعمائة نهبت خفاجة سواد الكوفة.

وفي سنة خمس وأربعمائة منع الحاكم بمصر النساء من الخروج من بيوتهن أبداً، ومن دخول الحمامات، وأبطل صنعة الخفاف لهن، وقتل عدّة نسوة خالفن أمره، وغرق جماعة من العجائز.

وفي سنة سبع وأربعمائة خرج على المستعين بالله المقدم ذكره شخص اسمه علي بن محمود العلوي، وتلقّب بالمتوكل على الله وهو علي بن أحمد بن أبي العيس ميمون بن أحمد بن علي بن عبدالله بن عمر بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وقتل سليمان وأباه وأخاه وأظهر موت المؤيد، وبويع بالخلافة وبقي فيها سنة وسبعة أشهر في نكد وحرب مع آخر من العلويين خرج عليه، وبويع بالخلافة، واسمه عبدالرحمن ولقبه الرضي، فوثب عليه غلمانه في الحمام فقتلوه، وبويع بعده أخوه القاسم ابن محمود ولقّب القائم، وبقي إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، ثم خرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي وتلقب المعقلي، وجرى بينهما حرب وأمسك في الآخر عمه القائم وحبسه حتى مات. ثم خرج على يحيى عبدالرحمن بن هشام ابن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر الأموي ولقّب المستظهر بالله، وهو أخو المهدي محمّد بن هشام، وبويع في رمضان وقتل في ذي الحجة، وبويع محمّد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن الأموي ولقب المستكفي، ثم خلع بعد سنة وأربعة أشهر وهرب فسمّ في الطريق ومات، ولمّاكانت سنة ثمان وأربعمائة خلع يحيى بن علي بن حمود وبويع هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر الأموي ولقب المعتمد بالله، وجرت فتن وخلاف حتى خلع هشام المذكور سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، وانقرضت الخلافة الأموية من الاغوية[1].

وفيها مات طغان خان ملك تركستان وكاشغر بعد أن غزا الترك والخطا ـ وهم زهاء ثلاثمائة ألف

---

(١) هكذا رسمها. وهو آخر ملوك بني امية.

خركاه ـ وهو مريض، قتل منهم فوق مائتي ألف رجل، وأسر نحو مائة ألف، وعاد فمات بعد قضاء إربه.

وفيها قدم سلطان الدولة بن بهاء الدولة إلى بغداد، وضرب الطبل في أوقات الصلاة الخمس، وكان جدّه يفعله في أوقات ثلاث صلوات.

وفي سنة تسع وأربعمائة غزا السلطان محمود الهند على عادته فقتل وغنم وعاد.

وفي سنة عشر وأربعمائة مات وثاب بن سابق النميري صاحب حران، وملك بعده ابنه شبيب.

وفي سنة إحدى عشر وأربعمائة فقد الحاكم بأمر الله لثلاث بقين من شوال وتحقق قتله ولكن لم يوجد إلّا ثيابه وحماره مجروحاً بحلوان، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأياماً، وعمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وكان يصدر عنه أفعال متناقضة. وبويع بعد موته بسبعة أيام ولده الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن علي وهو صغير، ودبّرت الأمور له عمّته بنت الملك إلى أن مات بعد أربع سنين.

وفي سنة ثلاثة عشرة وأربعمائة استولى علاء الدولة على همدان.

وفيها غزا السلطان محمود الهند وعاد غانماً.

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة توفي سلطان الدولة بن بويه، فاستولى أخوه قوام الدولة أبو الفوارس على مملكة فارس.

وفي سنة ستة عشر وأربعمائة غزا السلطان محمود الهند، وأوغل وفتح مدينة الصنم المسمّى بسومنات أعظم أصنام الهند كانوا يحجّون إليه ووقفه فوق عشرة آلاف ضيعة، وكان قد اجتمع في بيت الصنم من الجواهر والذهب مالا يحصى، فغنم الكل وأحضر قطعة من الصنم فجعلها أعتبة لباب جامع غزنة.

وفيها مات شرف الدولة بن بهاء الدولة.

وفي سنة سبعة عشرة وأربعمائة صادرت الأتراك الناس ببغداد وطمعوا بموت شرف الدولة وخلوا بغداد.

وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة سار جلال الدولة من البصرة إلى بغداد، استدعاه الجند بأمر الخليفة؛ لمّا حصل النهب والفتن ببغداد، فدخلها ثالث رمضان، وتلقاه الخليفة واستقر ملكاً ببغداد.

وفيها نقضت الدار التي بناها معز الدولة بن بويه ببغداد، وكان قد بذل في عمارتها ألف ألف دينار، وصرف في حكاكة سقف منها ثمانية آلاف دينار.

وفي سنة عشرين وأربعمائة استولى السلطان محمود على الري، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة لمكاتبة الجند إليه باشتغاله عن الملك بمعاشرة النساء والكتب.

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة توفي السلطان محمود بن سبكتكين، ومولده عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة، وأوصى بالملك لابنه محمّد وهو أصغر من مسعود. ثم أنّ الجند قبضوا على محمّد وحضر مسعود فاستقر في الملك وأطلق أخاه وأحسن إليه. ثم قبض على القابضين على أخيه الساعين له وهذه عاقبة الغدر والتجرئ على الملوك.

وفي سنة اثنين وعشرين وأربعمائة توفي القادر بالله وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر، وخلافته إحدى وأربعون سنة وأشهر.

فصل
القائم بأمر الله

وهو أبو جعفر عبدالله بن القادر بالله، بويع بالخلافة بعد موت والده.

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة نهب الجند دار جلال الدولة وأخرجوه من بغداد، وكتبوا إلى كاليجار يستدعونه فتأخر، وكان جلال الدولة خرج إلى عكبرا، ثم اتفقوا وعاد جلال الدولة إلى بغداد.

وفي سنة أربع وعشرين وأربعمائة بلغ السلطان مسعود عن ابن شهر يوش صاحب ساوه وقم ونواحيها، آذى حجاج خراسان كثيراً فأمر عسكره بالقبض عليه وصلبه على سور ساوه.

وفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة فتح السلطان مسعود قلعة سرستي وما جاورها من الهند، وهي حصينة قصدها أبوه مراراً فلم يقدر عليها، فطمّ مسعود خندقها بالشجر وقصب السكر وفتحها قتلاً وسبياً.

وفي سنة ست وعشرين وأربعمائة انحل أمر الخلافة والسلطنة جداً ووصلت الروم إلى ولاية حلب، فقاتلهم صاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، فهزمهم وتبعهم إلى عزاز يقتل ويأسر وكانوا ستمائة ألف.

وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة هادن المستنصر العلوي الفاطمي الروم على أن يطلقوا خمسة آلاف أسير، ويمكنوا من عمارة قمامة التي خربها جدّه الحاكم وفعلوا ذلك.

وفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ملك البساسيري كبير الأتراك ببغداد والأنبار وعدل وأحسن

وعاد إلى بغداد.

وفي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة قويت شوكة طغرلبك وأخيه داود ولدى ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق، وكان دقاق شهماً من مقدمي الأتراك، فولد له سلجوق فانتشأت وظهرت عليه إمارات النجابة، وصارت له جماعة فتغيّر عليه يبغوا ملك الترك، فهرب إلى بلاد الإسلام وأقام ببلدة وراء بخارى اسمها جند، وصار يغزوا الكفار، وتوفي بجند وعمره مائة وسبع سنين، وخلف من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى فقتل ميكائيل في الغزو شهيداً، وخلف أولاده يبغوا وطغرلبك وداود، ونزلوا على فرسخين من بخارى، فأساء أمير بخارى جوارهم فالتجؤا إلى بغراخان ملك تركستان لكن جعل طغرلبك وداود لا يجتمعان عنده خشية أن يغدر بهما، وجعل بغراخان يجتهد على اجتماعهما عنده فلم يتفق ذلك فقبض على طغرلبك، وأرسل عسكراً إلى أخيه داود فأظفره الله عليهم وهزمهم، وقصد موضع أخيه وخلّصه وأقاما بجند حتى انقضت الدولة السامانية، وملكا ملك خان بخارى فعظم أرسلان بن سلجوق ولم تزل المقادير تساعد السلجوقية حتى ملكوا خراسان، وكسروا السلطان مسعود وخطب لهم على المنابر في أواخر سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، واستولى داود على كثير من النواحي. وملك طغرلبك جرجان وطبرستان وخوارزم واصفهان فهرب منه السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين.

وفيها أعزّ السلطان مسعود ابنه مودود إلى بلخ ليرد عنها داود السلجوقي. وسار هو لغزو بلاد الهند على عادة والده فنهب أنوشتكين ـ وهو أحد قوّاد عسكره ـ بعض خزائنه وألزم أخاه محمّد بالقيام بأمر السلطنة، فقام على كره منه وبقي مسعود في جماعة من العسكر فرجع واقتتل مسعود وأخوه محمّد، فانهزم مسعود وتحصّن في رباط، فحصروه فخرج إليهم فأرسله أخوه إلى قلعة كندى، وأرسل معه أهله وأمر بإكرامه وصيانته، وكان لمحمّد ولد اسمه أحمد وكان فيه هوج فقتل عمّه مسعودا بغير إذن أبيه، فشقّ ذلك على أبيه وساءه. وملك بعد مسعود بن محمود ولده مودود، وقتل ابن عمه أحمد بن محمّد قاتل أبيه، وكل من وافقه على ذلك، ولم يبق منهم أحد وثبتت دولته.

وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة طمعت العرب في نواحي الشام، فجاء صاحب الرحبة أبو علوان بمال ابن صالح بن مرداس وهو الملقب بالمعتز إلى حلب فملكها، واستولى حسان بن مفرج الطائي على فلسطين.

وفي سنة أربع وثلاثين وأربعمائة أخذ جلال الدولة بن بويه الخراج ببغداد، وكان قبل ذلك للخليفة، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا الحسن الماوردي إليه فلم يلتفت إليه.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة توفي جلال الدولة، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ومدة ملكه لبغداد ست عشر سنة وأحد عشر شهراً، واستقر بعده في سلطنة بغداد أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه.

وفيها أسلم من الترك خمسة آلاف خركاه، ولم يتأخّر عن الإسلام سوى الخطا والتتر.

وفيها قطع المعتز ابن باديس بإفريقية خطبة خلفاء مصر، وخطب لخلفاء بغداد فأرسل المستنصر العرب إليه فقاتلوه وأخرجوه عن إفريقية.

وفيها استولى طغرلبك السلجوقي على الري، وخربها عسكره بالقتل والنهب حتى لم يبق بها إلّا نحو ثلاثة أنفس.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة خطب لأبي كاليجار ببغداد وديار بكر وغيرهما، ودخل بغداد في رمضان وزينت له.

وفي سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة حاصر طغرلبك السلجوفي اصفهان فصالحه أميرها على مال يحمله إليه وخطب له بأصفهان.

وفي سنة أربعين وأربعمائة توفي أبو كاليجار واسمه المرزبان بمدينة جناب من كرمان، وكان معه ولده أبو منصور فلاستون فعاد إلى شيراز فملكها، فلمّا وصل خبر موته إلى ولده عبدالرحيم أبي نصر فيروز ببغداد، استحلف الجند وملك بغداد، وأرسل إلى شيراز عسكراً قبض أخاه أبا منصور فلاستون وأُمّه، وخطب للملك عبدالرحيم بشيراز وأطاعه جند خوزستان.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة خلص فلاستون من الاعتقال، وجمع واستولى على بلاد فارس.

وفيها أرسل ملك الروم إلى طغرلبك هدية وطلب المعاهدة فأجابه، وعمّر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك، ودان له الناس.

وفيها توفي السلطان مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، كان مدة ملكه تسع سنين وعشرة أشهر، وملك بعده عمه عبدالرشيد وكان في حبس ابن أخيه.

وفي سنة اثنين واربعين وأربعمائة أخذ طغرلبك اصفهان بالأمان بعد حصار طويل، وطابت له فنقل إليها ماله بالري من سلاح وذخائر.

وفيها استولى أبو كامل بركة بن المقلد على أخيه قرواش وتصرّف بالمملكة، ولقّب زعيم الدولة، وتوفي بعد سنة.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة قتل عبدالرشيد بن محمود بن سبكتكين، قتله الحاجب

طغرلبك طمعاً في الملك، وتزوج بنت السلطان مسعود فقام عليه كبراء الدولة فقتلوه وأقاموا فرخ زاد بن مسعود وكان محبوساً، وتتبع عنها عبدالرشيد فقتلهم.

وفيها توفي قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل محبوساً بقلعة الجراحية.

وفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة عاد أبو منصور فلاستون وأخذ شيراز من أخيه أبي سعيد، وخطب فيها لطغرلنك ولأخيه الملك عبدالرحيم ولنفسه بعدهما.

وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك إلى آذربيجان وقصد تبريز[1]، فأطاعه صاحبها وخطب له وحمل له ما أرضاه، وكذلك فعل أصحاب تلك النواحي.

وفيها حصلت الوحشة بين البساسيري وبين القائم.

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة دخل طغرلنك بغداد وخطب له بها، وقبض على الملك عبدالرحيم وانقضت به سلطنة بني بويه من العراق.

وفيها استأذن جماعة من السنة في نهب دار البساسيري وهو غائب بواسط فأذن لهم فنهبوها، وأمر الخليفة الملك عبدالرحيم بإبعاد البساسيري ففعل.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة تزوج خليفة بغداد القائم بأمر الله بنت داود أخي طغرلبك، ورحل طغرلبك عن بغداد ليقل وطأة عساكره عن الرعية، وتوجّه إلى نصيبين ثم إلى ديار بكر.

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة عاد طغرلبك إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال، فتلقاه كبراء بغداد مثل عبدالملك ورئيس الرؤساء، وقصد الاجتماع بالخليفة فجلس الخليفة وعليه البردة على سرير عال نحو سبعة أذرع، وحضر طغرلبك في جماعة، وحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، فقبّل الأرض طغرلبك ثم يد الخليفة، ووضع له كرسي جلس عليه، ثم قال له الخليفة مع رئيس الرؤساء: إنّ الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاد، وردّ إليك مراعاة عباد الله، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك، وخلع الخليفة على طغرلبك وأعطاه العهد، فقبّل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف، فبعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك بخيولهم وسلاحهم وقماشهم.

وفي سنة خمسين وأربعمائة غاب طغرلبك عن بغداد، فدخل البساسيري في جماعة وقتل رئيس الرؤساء وأخرج الخليفة وخطب للمنتصر العلوي خليفة مصر.

---

(١) في المخطوط (سرمين)، والصحيح ما اثبتناه. انظر: المختصر في أخبار البشر: ٢٦٦/١، والكامل في التاريخ: ٢٦٣/٤.

وفي سنة أحدى وخمسين وأربعمائة عاد طغرلبك إلى بغداد، فتغيب البساسيري فأرسل في طلبه وقبض عليه عسكره فقتله، وبعث رأسه إلى الخليفة فعلّقه على باب دار الخلافة. وكان البساسيري مملوكاً تركياً من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه وكان اسمه أرسلان.

وفيها توفي داود آخر طغرلبك.

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة تزوّج طغرلبك بنت الخليفة وكان العقد في شعبان، وأدخل بها ثاني سنة ومات يوم الجمعة ثامن رمضان وكان عمره تقريباً من سبعين سنة وكان عقيماً، واستقرّت السلطنة بعده لابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فقبض على وزير عمّه عميد الملك وحبسه سنة ثم قتله، وكان عبدالملك يقع في حق الشافعي.

وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ابتدأ نظام الملك وزير ألب أرسلان في عمارة المدرسة النظامية ببغداد، وفرغت في سنة تسع وخمسين وأربعمائة، واستقر مدرسها أبو إسحاق الشيرازي، فلمّا اجتمع الفقهاء للدرس تأخر أبو إسحاق؛ لأنّه بلغه شاذ أنّ أرضها مغصوبة، فذاكر الدرس يوسف بن الصباغ صاحب الشامل مدة عشرين يوماً، ثم لم يزالوا بالشيخ أبي إسحاق حتى حضر المدرسة ودرس بها.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة ملك السلطان ألب أرسلان ديار بكر وحلب، واستمر بصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، وقاتل ملك الروم أرمانوس واستأسره ثم أطلقه، وفتح ولده ملك شاه القدس والرملة، وأخذها من نواب الخليفة المستنصر العلوي صاحب مصر.

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة قتل السلطان ألب أرسلان وكان اسمه محمداً وذاك أنّه لمّا سار إلى ما وراء النهر وعسكره مائتا ألف فارس وعقد على جيحون جسراً، ومدّ سماطه على قربه وهناك حصن على شاطئ جيحون، وقع حارسه في حرمه وغضب عليه السلطان فأحضره وأمر به أن يشد في أربع سكك ـ وكان اسمه يوسف الخوارزمي ـ فقال للسلطان: يا مخنث مثلي يقتل مثل هذه القتلة، فأخذ السلطان القوس والنشاب، وقال للمتوكل به: خلياه، ورماه بسهم فأخطأه، ولم يكن سهمه يخطئ، فوثب يوسف على السلطان بسكين كان معه وضربه فجرحه وجرح من المرافقين واحداً وقتل آخر، ثم قطع بالسيوف. فقال السلطان الب أرسلان: وهو مجروح لمّا كان بالأمس صعدت على جبل فارتجّ بي من عظم الجيش، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد عليّ، فعجزني الله بأضعف خلقه، وأنا استغفر الله من ذلك الخاطر، ولم يزل به الجرح حتى مات بعد أربعة أيام، وكان عمره أربعين سنة وشهوراً، ومدة سلطنته تسع سنين وشهوراً. واستقر في السلطنة بعده ولده ملك شاه، واستقر نظام الملك وزيراً وزاده وفوّض إليه طوس وعملها ولقبه أتابك.

وفي سنة ست وستين وأربعمائة حاصر ناصر الدولة ابن حمدان مصر وأخذها ثم قتل، ثم حكم بمصر أمير الجيوش بدر الحمال وعدل بها وقرّر أمورها وأصلح أحوال المستنصر العلوي، ثم عاد إلى سواحل الشام مكانه.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة توفي القائم بأمر الله أبو جعفر عبدالله بن عبدالقادر أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، وكان عمره ستاً وسبعين سنة وشهوراً، ومدة خلافته أربعاً وأربعين سنة وشهوراً.

فصل
المقتدي بأمر الله

وهو عبدالله بن محمّد بن القائم بأمر الله، بويع بالخلافة بعد موت جدّه القائم، ولقّب المقتدي بأمر الله، وكان أبوه مات في حياة جدّه القائم بأمر الله، وكان لقبه ذخيرة الدين، وكانت له جارية اسمها ارجوان فجاءت بهذا عبدالله المقتدي بعد وفاة أبيه بستة أشهر، وسرّ به القائم سروراً عظيماً.

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وستين وأربعمائة جمع ملك شاه نظام الملك والمنجمين ونقل النيروز من نصف الحوت إلى أوّل الحمل.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة رحل تاج الدولة تنش أخو السلطان ملك شاه إلى الشام من جهة أخيه وأخذ حلب ودمشق، وكان عسكره التركمان، وعدل وأراح الخلق من جور وأسر.

وفي سنة اثنين وسبعين وأربعمائة سار شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن مقلد بن المسيّب صاحب الموصل إلى حلب، وملكها بعد حصارها سنة، واستنزل من قلعتها سابقاً ووثاباً ولدى محمود بن نصر بن مرادس وأقرّه السلطان ملك شاه على ذلك، واستمر على ذلك إلى أن فتح سليمان بن قطلمش السلجوقي انطاكية في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فأرسل شرف الدولة يطلب الحمل من سليمان بن قطلمش فأجابه، أنّ الذي كان يحمل إليك كان كافراً وأنا مسلم، فركب إليه فاقتتلا فقتل شرف الدولة وقتل بين يديه أربعمائة من أجناد حلب، وأرسل سليمان بن قطلمش يطلب حلب فمنعوها منه، فركب إليها وقاتلهم وانهزم عسكره عنه فقتل نفسه.

وسار السلطان ملك شاه إلى حلب وملك في طريقه حران واستنقذ الرها[1] من يد الروم، وأخذ

(١) مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، انظر معجم البلدان.

قلعة جعبر من يد صاحبها سابق الدين جعبر الأعمى، وكان اسمها قبل ذلك الدوسرية، ولمّا وصل حلب دخل الأمير نصر بن علي بن منقذ صاحب شيزر تحت طاعته، ثم سلم حلب إلى أقسنقر وارتحل عنها إلى بغداد وأقام بها.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة سار تنش السلجوقي من دمشق غازياً ففتح طرسوس.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة أخذ سليمان بن قتلمش انطاكية، وكانت في أيدي النصارى مائة وعشرين سنة.

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة تواقع سليمان بن قتلمش وتنش السلجوقي فقتل سليمان، وسار تنش فنازل حلب وأخذها، وسار السلطان ملك شاه من اصفهان فقدم حلب، وخافه أخوه تنش فهرب فسلّم السلطان حلب إلى قسيم الدولة اقسنقر.

وفيها توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي صاحب الحلة، وكان فاضلاً شاعراً، واستقر مكانه ابنه صدقة ولقّب سيف الدولة.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة عقد المقتدي بأمر الله على ابنة السلطان، وأنفق أموالاً كثيرة وخلع على سائر الأمراء.

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة توفي الملك المؤيد إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة، وملك بعده ابنه مسعود زوج بنت السلطان ملك شاه، فلمّا كانت سنة اثنين وثمانين وأربعمائة سار بجيوش لا تحصى إلى ما وراء النهر وملك بخارى وسمرقند.

وفي هذه السنة وقيل سنة ثمانين وأربعمائة ملك يوسف بن تاشفين غرناطة من الأندلس، وانقرضت دولة الصنهاجية واجتمع إليه أهل الأندلس، وكسر الفرنج وقتل منهم خلقاً كثيراً، وعمل على رؤسهم تلاً وأذن عليه وسمّي أمير المؤمنين وملك غالب الغرب.

وفي سنة اثنين وثمانين وأربعمائة عمر القاضي أبو الحسن بن الخشاب منارة جامع حلب الكبير.

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة جاء السلطان ملك شاه إلى بغداد، وحضر إليه أخوه تنش من دمشق واقسنقر من حلب وغالب نوّابه من الأعمال، وعمل الميلاد واحتفل له الناس وامتدحه الشعراء، وأمر بعمارة الجامع المعروف بجامع السلطان ببغداد.

وفيها توفي أرتق بن أكسك التركماني أحد ملوك ماردين[1] بالقدس، واستقر بالقدس ولداه

---

(١) قلعة مشهورة بجبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ونصيبين. معجم البلدان.

إيلغازي وسقمان واستقرت بيدهما، إلى أن سار الأفضل بن أمير الجيوش من مصر إليها وأخذها.

وفي سنة خمس وثمانين وأربعمائة حصلت وحشة بين السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك الحسين بن علي بن إسحاق، فانصرف نظام الملك بعد الفطور عاشر رمضان إلى خيمته بنهاوند، فوثب عليه غلام السلطان ملك شاه ديلمي في صورة متعظ فقتله، ثم أدركه أصحاب نظام الملك فقتلوه.

وبعده بخمسة وثلاثين يوماً مات السلطان ملك شاه، بعد أن عاد إلى بغداد بحمّى محرقه، وكان مولده سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان حسن السيرة والشكل، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وكانت أيامه أيام عدل وأمن وعمّرت البلاد في أيامه، وكثرت الأرزاق، وبنى المصانع بطريق مكة، وكان يحب الصيد فيتصدق عن كل نسمة بدينار حتى أنّه اصطاد عشرة آلاف نسمة فتصدق بعشرة آلاف دينار، ولمّا مات أخفت زوجته تركان خاتون موته، وفرقت الأموال في الأمراء وسارت بهم إلى اصفهان، واستخلفتهم لولدها محمود، وهو ابن أربع سنين وخطب له ببغداد وغيرها، ودبّر له الأمر تاج الملك. وهرب أخوه بركيارق خوفاً من تركان خاتون، وانضم إليه النظامية فأرسل إليه عسكراً فهزمهم بركيارق وتبعهم وحصرهم باصفهان، وأخذ تاج الملك من عسكر الخاتون أسيراً وأراد الإحسان إليه فقتلته النظامية.

وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة طلب تنش السلطنة بعد أخيه ملك شاه، واتفق معه على ذلك اقسنقر صاحب حلب وصاحب انطاكية وصاحب الرها، وفتح نصيبين عنوة وملك الموصل وطلب الخطبة له ببغداد فلم يوافقه أهلها، ثم سار فاستولى على ديار بكر، وسار إلى اذربيجان، وكان بركيارق قد استولى على كثير منها، فسار إلى عمه تنش ليمنعه فخلى أقنسقر تنش ولحق بركيارق فضعف تنش لذلك وعاد إلى الشام.

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي المقتدي بأمر الله فجأة يوم السبت خامس عشر المحرم، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهر، وخلافته من سنة سبع وستين وأربعمائة.

فصل
المستظهر بالله

وهو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة والده.

وفي هذه السنة جمع تنش بن الب أرسلان على أقسنقر صاحب حلب واقتتلا على تل السلطان، وقتل اقسنقر صبراً وملك تنش حلب وحران والرها وبلاد الجزيرة وديار بكر.

وفيها توفي أمير الجيوش بدر الجمالي بمصر في ربيع الأوّل وعمره فوق الثمانين سنة، وكان هو الحاكم في أيام المستنصر العلوي، وولي بعده ولده الأفضل، وبعده في ذي الحجة توفي المستنصر العلوي أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله، وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر، وعمره سبعاً وستين سنة، وكان طويل الروح قليل الشر، لقى ضيقاً كثيراً حتى لم تبق له سوى سجادة يجلس عليها، وولي الخلافة بعده بمصر ولده أبو القاسم أحمد المستعلي بالله.

وفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة قتل تنش بن ألب أرسلان قتله ابن أخيه بركيارق، وكان لتنش ولدان أحدهما رضوان والآخر دقاق، فملك رضوان حلب ودقاق دمشق.

وفيها قتل أحمد خان صاحب سمرقند، قتله علماؤها بعد ثبوت زندقته خنقاً، وولي بعده ابن عمّه مسعود.

وفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة استولى عسكر صاحب مصر على القدس من يد إيلغازي وسقمان.

وفي سنة تسعين وأربعمائة كان مقتل أرسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه، وكان قد استولى على خراسان بعد موت أخيه، دخل عليه غلام خالياً فأنكر عليه، فأخره عن الخدمة فاعتذر إليه الغلام فلم يقبل عذره، فوثب عليه بسكين فقتله، فسار بركيارق فاستولى على خراسان، وأقيمت له الخطبة بما وراء النهر، وسلم خراسان إلى أخيه السلطان سنجر بن ملك شاه، وجعل وزيره أبا الفتح علي بن الحسين الطغرائي.

وفيها كان ابتداء دولة بيت خوارزم شاه أوّلهم محمّد خوارزم شاه بن أنوشتكين.

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة اختلفت كلمة ملوك الإسلام، فصاروا يقاتلون على الملك ويقتل بعضهم بعضاً، وكان ذلك سبباً لأن خرجت الفرنج وحاصروا انطاكية سبعة أشهر وأخذوها عنوة، وخرج إليهم المسلمون فانكسروا وتبعهم الفرنج إلى المعرة، وقتلوا وفتكوا وأقاموا بها وقتلوا فيها مائة ألف مسلم، وبعد أربعين يوماً ساروا إلى حمص فصالحهم أهلها، ثم توجهوا إلى القدس وحاصروها نيفاً وأربعين يوماً.

وفي سنة اثنين وتسعين وأربعمائة أخذوها وقتلوا ما يزيد على سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى، وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء.

وفي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة جمع صاحب ملطية كمشتكين بن الدانشمند التركماني

وأوقع بالفرنج قرب ملطية وأسر ملكهم.

وفيها دخل بركيارق بغداد في صفر، وقاتل أخاه محمّداً في رجب فانهزم بركيارق، وسار إلى الريّ وقاتل أخاه سنجر فانهزم أيضاً.

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة جمع بركيارق وصحبه الأمير إياز في خمسة آلاف فارس، وقاتل أخاه محمّداً فانهزم محمّد، وأسر مؤيد الملك بن نظام الملك وقتله بيده. فقصد محمّد خراسان واجتمع بأخيه سنجر وتحالفا وجمعا وقصدا بركيارق بالري، فسار إلى بغداد وطلب من الخليفة مالاً فحمل إليه خمسين ألف دينار، ومدّ يده في أموال الرعيّة ومرض مرضاً شديداً بحيث آيس منه. فسار إلى جهة واسط واستولى محمّد وسنجر على بلاده، ثم دخلا بغداد فشكى إليهما الخليفة سوء سيرة بركيارق وخطب لمحمّد.

وفيها ملك الفرنج سروج[1] وأرسوف[2] وقيسارية.

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة توفي خليفة مصر المستعلي بالله العلوي، وكان مدة خلافته سبع سنين وكان المدبّر لدولته الأفضل بن أمير الجيوش، وبويع بالخلافة ولده أبو علي منصور ولقّب الآمر بأحكام الله. واستمرت الفرنج عاثين في بلاد الإسلام يحاصرون البعض ويأخذون البعض، وملوك المسلمين مشتغلين بقتال بعضهم بعضاً، وحصرت الفرنج طرابلس واستمر القتال بينهم وبين المسلمين خمس سنين.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة اصطلح الأخوان محمّد وبركيارق، وقصدت الفرنج حران فاجتمع جكرمش وسقمان وتحالفا وسارا ومعهم التركمان والتقوا مع الفرنج على البليخ[3] فانهزم الفرنج وأسر ملكهم القومص.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة توفي السلطان بركيارق بالسل والبواسير بعد أن تحالف العسكر لابنه ملك شاه وعمره أربع سنين وثمانية أشهر، وجعل إياز أتابكه وزيراً، وأمرهم بالمسير إلى بغداد، ولمّا بلغ أخاه محمّداً موته قصد بغداد ونزل بالجانب الغربي، وبقي ملك شاه وإياز بالجانب الشرقي، ثم وقع الصلح وصارت السلطنة لمحمّد. فطلب يوماً إياز وزير له في الدهليز جماعة فقتلوه لمّا حضر.

---

(١) سروج: وهي بنواحي حران من بلاد الجزيرة.

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

(٣) اسم نهر بالرقة يصب في الفرات تحت الرقة يميل. معجم البلدان ١: ٢٩٣.

وفي سنة خمسمائة توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس، وكان حسن السيرة وهو باني مراكش، وملك بعده ابنه علي ولقّب أمير المسلمين أيضاً.

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ملك الفرنج مدينة طرابلس وخافت المسلمين.

وفي سنة أربع وخمسمائة ملك الفرنج حصن الأثارب بالسيف وسلموا صيدا بالأمان، وصالح رضوان صاحب حلب الفرنج على اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها مع خيل وثياب، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار.

وفيها قال ابن خلكان: ـ أو في سنة إحدى عشرة وخمسمائة ـ قصد بردويل الفرنجي صاحب القدس وعكا وغيرها، ديار مصر ووصل إلى الفرما وحرقها جميعاً، ورحل عنها وهو مريض، فهلك قبل أن يصل العريش فشقّ أصحابه بطنه ورموا كرشه هناك، ونقلوا جثته إلى القدس ودفنوها بقمامة.

وفي سنة سبع وخمسمائة حصل بين المسلمين والفرنج قتال عظيم بالقرب من طبرية ونصر الله المسلمين، وقتلوا من الفرنج ما شاء الله تعالى وعادوا إلى دمشق منصورين.

وفي سنة عشر وخمسمائة كسر طغتكين نائب دمشق الفرنج بالبقاع، فقتل وأسر وكانوا يعبثون في البقاع من عمل دمشق.

وفي سنة إحدى عشر وخمسمائة توفي السلطان محمّد بن ملك شاه السلجوقي، وكان قد قارب ملك والده ملك شاه، وكان حسن السيرة وعهد بالملك إلى ولده محمود، وخاف أهل حلب من الفرنج وسلموها إلى إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين.

وفي سنة اثنى عشر وخمسمائة توفي المستظهر بالله أحمد ابن المقتدي بأمر الله، وعمره إحدى وأربعون سنة ونصف، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر.

ومن الاتفاق الغريب أنّه لمّا توفي السلطان ألب أرسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولمّا توفي السلطان ملك شاه توفي بعده المقتدي بأمر الله، ولمّا توفي السلطان محمّد توفي بعده المستظهر بأمر الله.

فصل

المسترشد بالله

وهو أبو المنصور فضل الله بن أحمد المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله، بويع بالخلافة بعد

وفاة والده.

وفي سنة ثلاثة عشر وخمسمائة وقع بين السلطان محمود بن السلطان محمّد، وبين عمه سنجر بن ملك شاه السلجوقي، اتفاق واشتركا في السلطنة.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين إيلغازي بن أرتق، وبين الفرنج عند عفرين بحلب[١] وانتصر فيها المسلمون، ومما مدح به إيلغازي بسبب هذه الواقعة:

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل

وفيها كانت وقعة بين العرب والفرنج، انتهب فيها أمراء العرب من بني ربيعة، وقتل من الفرنج وأسر عدد كثير.

وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة كان ابتداء أمر محمّد بن تومرت، وملك عبدالمؤمن الغرب وهو محمّد بن عبدالله بن تومرت العلوي الحسيني من قبيلة المصامدة من حد السوس، رحل إلى المشرق وأتقن العلوم، وعاد مرشداً لقومه منكراً عليهم ترك الصلوات، ولمّا وصل إلى قرية اسمها ملالة[٢] بالقرب من بجاية، اتصل به عبدالمؤمن وسار معه وتلقب ابن تومرت بالمهدي، ووصل إلى مراكش وشدّد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكثر اتباعه واستحضره علي بن يوسف ابن تاشفين، وجمع عليه الفقهاء فناظرهم وقطعهم، فقال له وزيره مالك بن وهيب: هذا غرضه الملك، ألبسه كبلاً أو يسمعك طبلاً، فلم يقبل، وأمر بإخراجه من مراكش، فسار إلى أغمات[٣] واجتمع عليه الناس وتفحل أمره وبايعه عبدالمؤمن بن علي في جماعة من الناس، فأرسل إليه أمير المسلمين علي بن تاشفين جيشاً فكسره وآخر فكسره، فعظم أمره وأقبلت عليه القبائل يبايعونه على أنّه المهدي الموعود به، وسمّي الذين يتبعونه الموحدين.

قيل: أنّه قتل سبعين ألفاً كان يخافهم بالحيل، منها أنّه قال: قد أعطاني الله نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وخرج بالناس إلى جبل وجعل يقول عمّن يأمنه، هذا من أهل الجنة ويأخذه عن يمينه، وعمّن يخافه، هذا من أهل النار ويرميه من أعلى الجبل ميتاً، وبلغ جيشه الذي جهّزه أربعين ألفاً ومقدمهم عبدالمؤمن. واستمر على العظمة والعلو إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة،

---

(١) في المخطوط عمر بن حلب وما اثبتناه هو الصحيح.

(٢) ملالُة: بالفتح ثم التشديد، على ساحل بحر المغرب.

(٣) ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش.

فجهّز عبدالمؤمن فحاصر أمير المسلمين مراكش عشرين يوماً ثم انهزم سالماً، فبلغ ذلك محمّد بن تومرت فأمر الناس بنصرة عبدالمؤمن وأخبرهم أنّه يفتتح البلاد وأنّه هو أمير المسلمين، فقبلوا ذلك منه، ثم مرض ابن تومرت ومات وكان عمره إحدى وخمسين سنة، ومدة ولايته عشر سنين وعاد عبدالمؤمن إلى تينملل يؤلف قلوب الناس ثم استولى على الجبال، ثم تقاتل هو وتاشفين بن علي بن تاشفين ووقع تاشفين عن فرسه فمات، وملك عبدالمؤمن غالب بلاده ثم ملك فارس كور بالأمان في آخر سنة أربعين وخمسمائة، وفتح سلا ثم سار إلى مراكش وقد مات علي بن تاشفين، فحاصر ابن ابنه إسحاق بن تاشفين إحدى عشر شهراً ثم فتحها بالسيف، وضرب عنق إسحاق وهو صبي صغير، وبه انقضت دولة المرابطين وكانت مدة ملكهم سبعين سنة فسبحان من لا يبيد ملكه[١].

وفي سنة خمسة عشرة وخمسمائة قتل الأفضل بن أمير الجيوش بمصر، وثب عليه ثلاثة وهو راكب فقتلوه بسوق الصياقلة ثم قطعوا بالسيوف وحمل إلى الآمر بأحكام الله ـ خليفة مصر ـ من دار الأفضل أموال لا تحصى، وولي بعده أبو عبدالله البطائحي.

وفيها وقيل في التي بعدها توفي إيلغازي بن أرتق واستقر مكانه بماردين ابنه تمرتاش[٢] واستقر مكانه بحلب ابن عمه سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، واستمر بحلب إلى أن ضعف حاله وهادن الفرنج وسلم إليهم الأثارب، وبلغ ذلك ابن عمه بهرام بن أرتق فسار إلى حلب وملكها، ثم قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة في حصار منبج بسهم غريب، فعاد ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب، ثم أنّ الفرنج حاصروا مدينة صور وملكوها وخرج المسلمون منها بأموالهم، واجتمعت الفرنج وانضم إليهم دبيس بن صدقة أمير الغرب وحاصروا حلب، وضعف عنهم تمرتاش فأرسل أهل حلب إلى اقسنقر البرسقي وسار إلى كفر طاب وأخذها من الفرنج، ثم سار إلى عزاز ليأخذها فاجتمعت عليه الفرنج وكسروه، وتوجّه إلى الموصل وجعل ولده عزّ الدين في حلب، فلمّا كانت سنة عشرين وخمسمائة وثب عليه جماعة من الباطنية وهو في صلاة الجمعة فقتلوه، وكان مملوكاً تركياً شجاعاً من خيار الولاة، فحضر ولده مسعود من حلب وأخذ الموصل، ثم اجتمعت الفرنج وقصدوا دمشق ونزلوا شقحب وخرج إليهم طغتكين صاحب دمشق، وكان معه خيّالة ورجّالة كثيرون فانهزم هو والخيّالة وتبعهم الفرنج، فقصدت الرجّالة مخيّم الفرنج وقتلوا كل من وجدوه،

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٢٢٨/٦، المختصر في أخبار البشر: ٣٠٧/١.

(٢) في الكامل (تمرتاش)، وفي المختصر (تمرتاق)، وفي المخطوط تمرباس.

ونهبوا أموالهم فبلغ ذلك الفرنج فانهزموا أيضاً.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع السلطان محمود السلجوقي لاقسنقر البرسقي مدينة واسط.

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة كانت الحرب بين دبيس بن صدقة، وبين الخليفة المسترشد، فخرج الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم دبيس وعسكره.

وفيها سلم سليمان بن عبدالجبار بن أرتق حصن الأثارب إلى الفرنج لضعفه عن مقاومتهم.

وفيها ملك ابن بهرام بن أرتق حران، ثم ملك حلب. واستقر تمرتاش ابن عمه في حلب.

وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة ملك البرسقي كفرطاب من الفرنج وسار إلى عزاز، فاجتمع الفرنج لقتاله فانهزم، وقتل كثير من المسلمين.

وفيها مات سالم بن مالك بن بدران صاحب جعبر، وملكها بعده ابنه مالك.

وفي سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أعطى السلطان محمود العراق لعماد الدين زنكي بن اقسنقر، مضافاً لما بيده من ولاية واسط، وعظم أمره وأخذ نصيبين وسنجار وحران وجزيرة بن عمر، ومات مسعود بن اقسنقر البرسقي فولاه السلطان محمود الموصل أيضاً، فقصدت الفرنج حلب ومانعهم أهلها، فبلغ ذلك السلطان محمود فكتب توقيعاً لعماد الدين زنكي بالشام جميعه، فأرسل زنكي قراقوش إلى حلب فتوجّه سليمان بن عبدالجبّار بن أرتق من وقته إلى زنكي، فأصلح بينهما وركب بنفسه إلى حلب وملك قلعتها في المحرم.

وفي سنة اثنين وعشرين وخمسمائة سار السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي من خراسان، وسار إليه ابن أخيه السلطان محمود فالتقيا بالري وجلسا على سرير واحد، وصفح محمود عن دبيس بأمر عمه وأعاده إلى إمرته.

وفيها توفي صاحب دمشق طغتكين وهو من مماليك تنش بن ألب أرسلان، وكان عاقلاً خيّراً لقبه ظهير الدين، وعهد إلى ولده تاج الملوك توري.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ملك عماد الدين زنكي حماه، وقصد حصن الأثارب لشدة كانت تلحق المسلمين منها، فإنّ فرنجها كانوا يقاسمون أهل حلب على سائر البلاد الغربية حتى على طاحون عربية بباب الجنان فجمع الفرنج جموعهم والتقى الجمعان ونصر الله المسلمين، وقتل من الفرنج وأسر جمع كثير، وخرب عماد الدين زنكى الأثارب وجعلها دكّاً لا أثر لها.

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة وثبت الباطنية على خليفة مصر الآمر بأحكام الله أبي علي

منصور بن المستعلي أحمد بن المستنصر العلوي فقتلوه، وكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً، وعمره أربعاً وثلاثين سنة، وهو العاشر من الخلفاء العلويين. وولي بعده ابن عمّه حافظ عبدالمجيد أبو القاسم ابن المستنصر، واستوزر أبا أحمد الأفضل بن بدر الجمالي فاستبدّ بالأمر، وتغلّب على الحافظ إلى أن قتله سنة ست وعشرين وخمسمائة.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بن السلطان محمّد بن ملك شاه السلجوقي بهمدان، وعمره نحو سبع وعشرين سنة، وكانت ولايته اثنى عشر سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان حليماً عاقلاً واستقرّ ابنه داود في السلطنة.

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة توفي صاحب دمشق تاج الملوك توري بن طغتكين، وأوصى بالملك لولده شمس الملوك إسماعيل، وأوصى لولده شمس الدولة ببعلبك واعمالها، وقوي إسماعيل بدمشق.

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة أخذ إسماعيل من الفرنج بانياس بالسيف وقلعتها بالأمان، وأخذ حماة من عماد الدين زنكي عنوة، وخافت الفرنج منه ورحل غالبهم إلى بلادهم.

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل شمس الملوك إسماعيل بن توري، قتله جماعة من غلمانه باتفاق من والدته، وسرّ الناس بقتله لما كان عليه من الظلم، واستقر بدمشق بعده شهاب الدين أحمد بن توري. وجاء إليه عماد الدين زنكي، وحاول أخذ دمشق فلم يقدر وعاد بعد مصالحة أهلها.

وفيها خرج الخليفة المسترشد لقتال السلطان داود بن محمود السلجوقي، فهرب عنه عسكره وأسره السلطان مسعود، وسار به إلى مراغه فوصل عسكر سنجر، فركب مسعود على غفلة فدخلت الباطنية على المسترشد فقتلوه، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وخلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وأُمه أم ولد، وكان شهماً فصيحاً حسن الخط.

فصل

الراشد بالله

وهو أبو جعفر منصور بن المسترشد فضل بن المستظهر أحمد، بويع بالخلافة بعد قتل والده، وبعده بقليل قتل السلطان محمود بنيسابور صبراً.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سارت عساكر عماد الدين زنكي من حلب وحماة إلى بلاد الفرنج، وأوقعوا بهم وكسبوا منهم ما ملأ الشام قماشاً ورقيقاً.

وفيها خلع الراشد من الخلافة، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً. وبويع عمه المقتفي لأمر الله محمّد بن المستظهر.

فهو والمسترشد أبناء المستظهر أخوان وليا الخلافة، وكذلك السفّاح والمنصور أخوان وليا الخلافة، وكذلك الهادي والرشيد، وكذلك الواثق والمتوكّل. وأمّا ثلاثة أخوة ولوا الخلافة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، وكذلك الراضي والمتقي والمطيع أولاد المقتدر. وامّا أربعة ولوا الخلافة فالوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبدالملك بن مروان لا يعرف غيرهم.

فصل
المقتـفي لأمر الله

وهو محمود بن المستظهر بالله بويع بالخلافة بعد خلع ابن أخيه الراشد بالله.

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين زنكي المعرة وكفرطاب وملك حمص.

وفي سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ملك زنكي حصن المجدل من صاحب دمشق، ثم راسله مستحفظ بانياس وأطاعه، وحاصر حمص ثم رحل عنها لنزول الروم على حلب.

وفيها وصل ملك الروم إلى الشام، وحاصر بزاعا ثم ملكها بالأمان، ثم غدر بأهلها فقتل وسبى وأسر، وتنصر قاضيها ونحو أربعمائة نفس خوفاً من القتل. ثم رحل إلى حلب فنزل على قويق، وجرى بينه وبين أهل حلب قتال عظيم فقتل من الروم بطريق عظيم، فعادوا خائبين وبعد ثلاثة أيام رحلوا إلى الأثارب وملكوها، وتركوا بها سبايا بزاعا وعندهم من يحفظهم، وسار ملك الروم بجموعه نحو شيزر، فخرج أسوار نائب زنكي بحلب، وأوقع بالروم في الأثارب وقتلهم وخلص السبايا، فنازل ملك الروم شيزر ثم انصرف عنها خائباً.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة حاصر زنكي بعلبك، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً وسلمها بالأمان، فلمّا نزلوا إليه بالأمان غدرهم ـ وكان عادته الغدر ـ وصلبهم عن آخرهم.

وفيها قتل شهاب الدين صاحب دمشق، قتله ثلاثة من غلمانه غيلة على فراشه، ونجى واحد منهم وقتل اثنان، وحضر أخوه جمال الدين محمّد بن توري صاحب بعلبك منها وولي دمشق، وهذاكان السبب في طمع زنكي في بعلبك فإنّ هذاكان في شوال ومسير زنكي إلى بعلبك كان في ذي القعدة.

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة قصد عماد الدين زنكي دمشق، وحاصرها ومرض صاحبها

جمال الدين محمّد بن توري ومات، فقام ولده محيى الدين أرتق في الملك، وعجز عنها زنكي وعاد وملك في عودته شهرزور من صاحبها قبجق بن ألب أرسلان شاه التركماني وصار من جملة عسكره.

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي، وكان عسكره نحو مائة ألف، وبين قطوان ومن حشد معه من الصين والخطا والترك، وكان عسكرهم ثلاثمائة ألف فارس في صفر، وانهزم المسلمون بعد أن أبلي السلطان سنجر بلاءً حسناً.

قال ابن الأثير: ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه الوقعة ولا أكثر ممن قتل فيها، وتناقض كلام الذهبي في هذه الوقعة فقال في تاريخه الكبير: إنّ عسكر سنجر كله كان نحو مائة ألف كما قدّمناه. وقال في العبر: إنّه قتل من جيش سنجر مائة ألف أو أكثر، والله تعالى أعلم.

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة اصطلح عماد الدين زنكي مع السلطان مسعود، وفتح ديار بكر وحصونها وكلّما كان بيد الفرنج منها.

وفيها قتل داود بن السلطان محمود بن محمّد بن ملك شاه السلجوقي، قتله جماعة اغتالوه ولم يعرفوا.

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة أخذ عماد الدين زنكي الرها من الفرنج شرقي الفرات، وحاصر الفرنج بالبيرة ثم رحل عنها، فخافت الفرنج عوده فسلّموها لنجم الدين صاحب ماردين بالليل وهربوا إلى بلادهم.

وفي سنة أربعين وخمسمائة هرب علي بن دبيس بن صدقة من السلطان مسعود واستولى على الحلة.

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة حاصر عماد الدين زنكي جعبر فوثب عليه جماعة من مماليكه وهو نائم فقتلوه، وكان حسن الصورة أسمر اللون قد وخطه الشيب، قد زاد عمره على ستين سنة، وكان شديد الهيبة على عساكره، ملك الموصل وما معها من البلاد والشام كلّه خلا دمشق، ولمّا مات أخذ ولده نور الدين محمود خاتمه من اصبعه وسار إلى حلب فملكها، وسار ولده سيف الدولة غازي من شهرزور إلى الموصل فملكها، وسارا أعني نور الدين محمود وسيف الدولة غازي ولد عماد الدين زنكي إلى دمشق، مساعدين ابن محمّد بن توري بن طغتكين حين حصرها الفرنج بجموع عظيمة من الألمان والقسطنطينية، فخاف الفرنج منهما فرحلوا عن دمشق عند وصولهما حمص، وكان في بعض القتال على دمشق، قتل نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخو

السلطان صلاح الدين شهيداً، وهذا شاهنشاه هو أبو الملك المظفر عمر صاحب حماة، وأبو فرحاة صاحب بعلبك، وكان أكبر من شقيقه صلاح الدين.

وفي سنة اثنين وأربعين وخمسمائة دخل نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج، ففتح منها أرتاح[١] بالسيف.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة هزم نور الدين محمود الفرنج عند يغرا من العمق فقتل وأسر.

وفيها ملك الفرنج طرطوشه[٢] وقلاعها.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة مات سيف الدولة غازي بن زنكي بمرض حاد، وكان كريماً شجاعاً وهو أوّل من حمل على رأسه سنجق[٣] وأمر الأجناد أن يشدّوا السيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم. واستقر أخوه مودود في الموصل وبلادها.

وفيها توفي الحافظ لدين الله عبدالمجيد ابن الأمير أبو القاسم بن المستنصر العلوي صاحب مصر، وكانت خلافته عشرين سنة إلّا خمسة أشهر، وكان عمره نحو سبع وسبعين سنة، وبويع ولده الظافر بالله أبو منصور إسماعيل.

وفيها حاصر نور الدين محمود بن زنكي حارم، وأسر البرنس صاحب انطاكية وجماعة من الفرنج.

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة حاصر نور الدين قلعة أفامية، وتسلّمها من الفرنج وأحصنها بالرجال والذخائر.

وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة جمع نور الدين محمود بن زنكي عساكره وتوجّه نحو الفرنج بعد أن كسره منهم شجاع عظيم اسمه جوسلين، وأخذ سلاحه وأرسله إلى مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونيه وأقسرا، وقال: هذا سلاح زوج بنتك وسنأتيك بعده بما هو أعظم، فبذل نور الدين الوعود فيه فأمسكه التركمان لمّا خرج يتصيّد، فوعدهم بمال كثير جداً فأجابوه إلى إطلاقه إذا حضر المال، فبلغ الخبر نائب حلب فسيّر عسكراً فكبسوا التركمان وأحضروه إلى نور الدين

---

(١) أرتاح: اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.

(٢) مدينة بالاندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة معجم البلدان: ٣٠/٤.

(٣) السنجق: هو الراية التي تحمل خلف السلطان عند ركوبه، وهي من شعار الملوك القديمة، والسنجق بالفارسية: اللواء. وقال في صبح الأعشى ١٣٤/٢: السنجق باللغة التركية معناه الطعن، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح. وحامله يسمى سنجقدار.

أسيراً، فملك نور الدين سائر قلاعه، تل باشر وعين تاب وذلوك وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن الباره وكفر سور وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك، وكان فتحاً عظيماً للمسلمين.

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة مات السلطان مسعود بن محمّد بن ملك شاه بهمدان، ومولده سنة اثنين وخمسمائة وبه انقضت سعادة البيت السلجوقي، ولم يشتهر بعد ذلك لولده رئاسة ولا سمعة.

وفيها انقضت دولة آل سبكتكين، ملكوا مائتي سنة وثلاث عشرة سنة، وكانوا من أحسن الملوك سيرة بغزنة وما تابعها من بلاد العجم. وملك بعدهم الغورية أوّلهم السلطان علاء الدين الحسيني وتلقّب بالسلطان المعظم، واستعمل على غزنة غياث الدين محمدا وشهاب الدين محمدا ولدى أخيه سام، ورتّب الأمراء على طريق السلجوقية، واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وملكوا غالب بلاد الهند، ووصلوا إلى مالا وصل إليه أحد من ملوك المسلمين، وأقطع شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلي من كراسي ممالكهم، فأرسل لبيك عسكراً مقدمهم محمّد ابن بختيار فملكوا مواضع لم يصلها مسلم قبلهم حتى قاربوا الصين.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وقع بين السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي وبين الأتراك، فتنة عظيمة وقتال كبير، انتصر فيه سنجر ثم انكسر ثم أسر، ثم لمّا أطلق تزهد وترك الملك وتصوف بخانقاه مرو. واستولى الغز على بلاد المسلمين خراسان وغيرها، وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء وخرّبوا الجوامع، ثم اجتمعت المسلمون على شخص من مماليك سنجر اسمه أي به ولقّبوه المؤيد، فأزاح الغز عن بلاد المسلمين، وأظهر العدل، وانظم إليه مملوك آخر لسنجر اسمه ابداغ[١] وعظم شأنهما.

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة قتل الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبدالمجيد العلوي، قتله وزيره عباس الصنهاجي لمّا قيل له أنّه يعشق في ولدك نصرا! وقتل أخويه يوسف وجبرائيل وولى الخلافة لابنه عيسى وكان عمره خمس وستين، ولقّبه القائم بنصر الله بن الظافر بالله، ثم هرب عبّاس بعد مدة إلى الشام فقتله الفرنج في الطريق، وأسروا ابنه نصرا واستقر في الوزارة بمصر طلائع بن رزيك ولقّب الملك الصالح.

---

(١) هكذا في المخطوطة المعتمدة، وفي الكامل، ومختصر تاريخ البشر «اينانج»، وفي تاريخ ابن خلدون «ايتاخ».

وفيها بلغ نور الدين محمود بن زنكي أنّ الفرنج قاربوا أن يأخذوا دمشق، حتى أنّهم أطلقوا كل أسير بدمشق من الجواري والمماليك الذي لم يسلموا على رغم واليهم، فكاتب أهل دمشق واستمالهم وسار إليها وحاصرها، ففتح له الباب الشرقي فدخل منه، وملك المدينة وحصر صاحبها محي الدين بن محمّد بن توري بن طغتكين في القلعة، ثم لم يزل به حتى نزل إليه بالأمان وأعطاه نيابة حمص، وقبل وصوله إليها عزله عنها وأعطاه بالس، فغضب وزاح إلى بغداد وسكنها حتى مات.

وفي سنة خمسين وخمسمائة هجم الغز نيسابور بالسيف، وقيل كان معهم سنجر وله من السلطنة اسمها.

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة هرب سنجر من أسر الغز وعاد إلى دار ملكه بمرو.

وفيها توفي خوارزم شاه، وملك بعده ابنه أرسلان.

وفيها توفي الملك مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية والروم، وملك بعده ابنه قليج أرسلان.

وفيها بايع عبدالمؤمن لولده محمّد بولاية العهد، واستعمل ابنه عبدالله على بجاية، وابنه عمر على تلمسان، وابنه علياً على فارس كور، وابنه أبا سعيد على سبتة والجزيرة الخضراء، وبثّ عمّاله في الغرب.

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة في ربيع الأوّل توفي السلطان سنجر بن ملك شاه السلجوقي بالقولنج، ومولده في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. خطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة أربعين سنة، وخوطب بالملك قبلها عشرين سنة.

وفيها استولى أبو سعيد بن عبدالمؤمن على غرناطة من الأندلس، وفتح المرية من أيدي الفرنج وكانت معهم عشرين سنة[١].

وفيها ملك نور الدين محمود بن زنكي بعلبك، أخذها من ضحاك البقاعي، وكان ولاه أيّاه صاحب دمشق.

وفيها قلع المقتفي الخليفة ببغداد باب الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب تابوتاً يدفن فيه.

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة نهب ملك شاه بن محمود قم وقاشان، وسار إلى خوزستان وأخذها من صاحبها شملة التركماني.

---

(١) في الكامل، وفي المختصر في أخبار البشر: عشر سنين.

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتح عبدالمؤمن المهدية من أيدي الفرنج، وكانت معهم أثنى عشر سنة.

وفيها توفي السلطان محمّد بن محمود بن ملك شاه السلجوقي.

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة توفي القائم بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر إسماعيل خليفة مصر، وكانت خلافته ست سنين وشهرين واستقر في الخلافة العاضد لدين الله أبو محمّد عبدالله بن الأمير يوسف الحافظ لدين الله.

وفيها توفي المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمّد بن المستظهر خليفة بغداد، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، وكان حسن السيرة، وهو أوّل من استبد بالعراق [منفرداً] عن السلطان يكون معه.

فصل
المستنجد بالله

وهو يوسف بن المقتفي لأمر الله، وأمه أم ولد تدعى طاووس، بويع بالخلافة بعد وفاة والده.

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة استقر شاور خديم طلائع بن رزيك في وزارة العاضد بمصر ولقّب أمير الجيوش، فجمع عليه الضرغام ونازعه في الوزارة، وانهزم ساور إلى نور الدين بن زنكي، واستقر الضرغام في الوزارة وقتل كثيراً من أمراء مصر، وضعفت مصر بسبب ذلك، وطمع فيها الفرنج.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة عرّف شاور نور الدين محمود بن زنكي أنّ بلاد مصر غلب عليها الفرنج، ووعده إن أعاده إلى وزارة مصر، يقوم له بثلث أموالها بعد إقامة الجند، فأرسل نور الدين عساكره معه إلى مصر، وجعل مقدّمهم أسد الدين شيركوه بن شادي، فوصلوا إلى مصر وانكسر عسكر ضرغام وهرب ودخل شيركوه مصر. واستقر شاور في الوزارة، فغدر بنور الدين ولم يف له بشيء ممّا شرطه، فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج وجمعهم على شيركوه، وحاصروا بلبيس ثلاثة أشهر ثم خاف الفرنج من نور الدين ففتحوا لشيركوه وجعلوا له طريقاً إلى الرواح، فسار بمن معه من الجيوش سالمين.

وفي هذه السنة فتح نور الدين قلعة حازم بعد مصاف عظيمة مع الفرنج، وأسر البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً، وفتح بانياس، وكانت مع

الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة جهّز نور الدين محمود بن زنكي ألفي فارس إلى مصر، ومقدّمهم أسد الدين شيركوه، وخرج إليه شاور وانهزم الفرنج عنه، واستولى شيركوه على بلاد الحيرة، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها، وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، فجاء المصريّون ومعهم الفرنج وحاصروا الاسكندرية، وعاد إليهم شيركوه واتفقوا على الصلح على مال يحملوه إلى شيركوه، ورجع عنهم إلى الشام فعاد شيركوه وصلاح الدين إلى الشام سالمين، واصطلح المصريون والفرنج على أن يكون من الفرنج شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة تمكّن الفرنج من الديار المصرية، وملكوا بلبيس قهراً ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ونزلوا على القاهرة وحاصروها وأحرق شاور مصر خوفاً من أن يملكها الفرنج، وانتقلت أهلها إلى القاهرة، وبقيت النار تحرق فيها أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد خليفة مصر إلى نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وأرسل في الكتب شعور النساء.

وصالح شاور الفرنج على ألف ألف دينار وحمل منها مائة ألف دينار، وقال لهم: ارحلوا وأنا أجهّز لكم الباقي فرحلوا.

وجهّز نور الدين عساكره، وأنفق فيهم المال العظيم، وأعطى شيركوه مائة ألف دينار سوى الثياب والأسلحة والدواب، وأرسل معه عدّة أمراء منهم: ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان صلاح الدين يكره الرواح مع عمه لمّا قاساه من قضية الاسكندرية، وكان في الرواح معه سعده وانتقال الملك إليه، وقيام الدولة الأيوبية ﴿**فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾[1]، ولم يشعر نور الدين أنّ في إلزامه لصلاح الدين ذهاب الملك من يده، فلمّا قارب شيركوه مصر هرب الفرنج إلى بلادهم، ودخل شيركوه القاهرة في رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد، فخلع عليه وأجرى عليه وعلى عساكره الإقامات الوافرة، وجعل شاور كل يوم يركب إلى وطاق شيركوه ويعدهم ويمنيهم بالوفاء بما كان التزم به أولاً: ﴿**وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً**﴾[2]، وقصد أن يعزم شيركوه وامرائه ويعمل لهم ضيافة ويمسك شيركوه، ففطن بذلك صلاح الدين يوسف وخرديك وجاء شاور فلم يجد شيركوه في مخيّمه، وأخبره صلاح الدين

---

(١) سورة النساء: ١٩.

(٢) سورة النساء: ١٢٠.

يوسف أنّه توجّه لزيارة قبر الإمام الشافعي. وركبا وركب معهما خرديك قاصدين الشافعي فوثب على شاور صلاح الدين وخرديك ورمياه عن فرسه وأمسكاه وهرب أصحابه، فحضر شيركوه وحضر قاصد العاضد، فأمر بإحضار رأس شاور إليه فقتله وأرسل رأسه إليه، ودخل بعد ذلك شيركوه إلى القصر فاستقر به الخليفة وزيراً لمكان شاور، ولقّبه الملك المنصور وأمير الجيوش وسكن دار الوزارة التي كان فيها شاور، وجاءت مدائح الشعراء إلى شيركوه واستمر شهرين وخمسة أيام وجاء أجله فمات، فطلب العاضد صلاح الدين يوسف وولاه الوزارة ولقّبه الملك الناصر، فأرسل صلاح الدين يوسف إلى نور الدين يقول له: أنا نائبك بمصر فارسل إليّ أبي وأهلي، فأرسلهم إليه مكرّمين فرتّب لهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتملك ملك مصر وقتل الطواشي مؤتمن الخلافة، وقرّر مكانه الطواشي قراقوش الأسدي وتمكن من القصر، وضعف أمر الخليفة العاضد.

وفي سنة ست وستين وخمسمائة توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي بن المستظهر تاسع ربيع الآخر، وكان مولده في مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وخلافته عشر سنين وشهوراً.

فصل

المستضيء بالله

وهو أبو محمّد حسن، بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستنجد بالله، ولقّب المستضيء بالله، ولم يلي الخلافة بعد الحسن السبّط عليه السلام، من اسمه الحسن غيره.

وفي هذه السنة ولي صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر قضاة شافعية، وعزل الذين كانوا قضاة من الشيعة، وبنى مدرسة الشافعية، وعظم شأنه وأجلى كثيراً من الفرنج عن بلاد السواحل.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة بلغ نور الدين محمّد بن زنكي، أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب تمكّن من الديار المصرية غاية التمكين، فسرّه ذلك وأرسل إليه أنّك تقطع خطبة العلوية بمصر، وتخطب للمستضيء العباسي خليفة بغداد! وأكّد عليه فما أمكن صلاح الدين يوسف المخالفة وكان العاضد ضعيفاً، فأمر صلاح الدين الخطباء بذلك فخطبوا ثاني جمعة من المحرم باسم المستضيء العباسي، وانقطعت الخلافة العلوية من مصر ولم ينتطح فيها عنزان.

واشتد مرض العاضد ومات يوم عاشوراء من المحرم ولم يعلم بذلك، وتسلم صلاح الدين القصر وما فيه من الأشياء النفيسة الخارجة عن الإحصاء.

قال ابن الأثير صاحب الكامل: من ذلك حبل ياقوت وزنه سبعة عشر درهماً، أو مثقالاً، قال: أنا رأيته ووقفت على وزنه.

وانتهت الخلافة العلوية وهم أربعة عشر: المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والطاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد، ومدّة خلافتهم من حين ظهر المهدي في بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة مائتان واثنين وسبعون سنة، وضربت البشائر عدّة أيام ببغداد، وجهّزت منها خلع وأنعام لنور الدين وخطباء وأعلام سود، ومن غريب ما اتفق أنّ العاضد كان قد رأى في منامه أنّ عقرباً قد خرجت من مسجده بمصر فلدغته، وعبرت له هذه الرؤيا أنّه يناله مكروه من شخص يسكن ذلك المسجد، فطلب أهل ذلك المسجد فأحضر له شيخ صوفي يقال له نجم الدين الخويشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه وسبب سكناه بهذا المسجد، فأخبره بالصحيح فرآه العاضد أضعف من أن يناله منه مكروه فوصله بمال، وقال له: ادع لنا يا شيخ، فلمّا أراد صلاح الدين إزالة الخلافة العلوية استفتى أهل العلم في ذلك، وكان الشيخ نجم الدين هو المكثر في تلك الفتوى من الكلام، وعدد مساوئ العلوية حتى أخرجهم عن الإيمان، فتأوّل ذلك الناس ما رآه العاضد في منامه.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة ظهرت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين، فجهّز صلاح الدين أخاه نوران شاه شمس الدولة بعد موت أبيه أيوب في السنة التي قبلها إلى اليمن بعساكر عظيمة، بحيث إذا حضر نور الدين يقاتله صلاح الدين فإن انكسر هرب إلى اليمن فسير الله على أخيه فملك اليمن، واستقرت مصر لصلاح الدين. وصلب جماعة من أكابر المصريين كانوا قصدوا إعادة الخلافة العلوية، منهم: عمارة بن علي اليمني الشاعر. ولمّا كان يوم الأربعاء حادي عشر شوال توفي نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة بقلعة دمشق بعلة الخوانيق، وكان قد عزم على التوجّه إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلّا في حنكه شعرات، وكان حسن الصورة، واتسع ملكه وخطب له بالحرمين الشريفين واليمن، لمّا ملكها توران شاه بن أيوب، وكان يخطب له بمصر، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق الأرض ذكره بحسن السيرة والعدل والشجاعة، وكان على قدم عظيم من الزهد والعبادة، ويقوم كثيراً من الليل، وكان عارفاً بفقه الحنفية غير متعصب، وهو الذي بنى أسوار الشام دمشق وحلب وحماة وحمص وشيزر وبعلبك لمّا هدمت بالزلازل، وبنى المدارس الكثيرة، الحنفية والشافعية، وفيه أنشد:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما احسن المحراب في المحراب

واستقر ابنه إسماعيل مكانه، ولقّب بالملك الصالح، وخطب له بمصر والشام وضربت السكة باسمه.

وفي سنة سبعين وخمسمائة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب يستدعي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين من دمشق إلى حلب، ليكون مقامه بها مع سعد الدين كمشتكين فأجابه إلى ذلك، ولمّا استقر بحلب واستقل كمشتكين بتدبير الملك الصالح إسماعيل ـ وكان طفلاً عمره اثنى عشر سنة ـ وبلغ ذلك أهل دمشق فخافوا من كمشتكين، وكاتبوا صلاح الدين صاحب مصر فسار إليهم جريدة في سبعمائة فارس ووصل إلى دمشق فالتقاه الناس وفرحوا به، ونزل دار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وسلّمت إليه القلعة وصعد إليها واستخلف عليها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، وسار إلى حمص وملكها، ثم سار إلى حماة وملكها، وسار إلى حلب وملكها، وحاصر الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين بالقلعة فلم يقدر عليه، وبلغه أنّ الفرنج قصدوا حمص فعاد إليه وسار إلى بعلبك وملكها، واستنجد الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل، فاجتمعا وقصدا صلاح الدين واقتتلوا قرب حماة قتالاً عظيماً فانكسر الملك الصالح، وتبعهم صلاح الدين إلى حلب وحاصرهم بها، ثم صالحهم ورحل عن حلب إلى دمشق، وقطع خطبة الملك الصالح واستبدّ بالسلطنة. ثم عاد في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وأخذ بزاعة وفتح منبج وأخذ عزاز، وهرب منه سيف الدين غازي صاحب الموصل ونهب أمواله، ونزل على حلب وحاصر الملك الصالح أيضاً، فأخرجوا له بنتاً صغيرة للسلطان نور الدين محمود فقبّلها وأعطاها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد قلعة عزاز فسلّمها إليهم.

وفي سنة اثنين وسبعين وخمسمائة رحل عن حلب في العشرين من المحرم، واستمر سائراً إلى مصر، وقتل في طريقه أهل مصياف وخرّبها وأفنى الإسماعيلية، ثم صفح عمّن بقي منهم بشفاعة خاله شهاب الدين الحارمي، ولمّا وصل إلى مصر أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة ـ ودور السور سبعة آلاف وعشرون ألف ذراع، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات ـ، وأمر ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي، وعمل بالقاهرة مرستاناً.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة سار السلطان صلاح الدين إلى سواحل الشام لغزو الفرنج فوصل إلى عسقلان، وتفرّقت العساكر عنه للإغارة فلم يشعر إلّا والفرنج قد طلعت عليه، فقاتل قتالاً شديداً وتمّت الهزيمة على المسلمين، ووصل السلطان إلى مصر هارباً بمن معه، ولقوا شدّة من العطش وهلكت كثيراً من الدواب وأخذت الفرنج العساكر الذين تفرّقوا للإغارة أسرى.

قال الشيخ عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل: رأيت كتاباً بخط السلطان صلاح الدين إلى أخيه نوران شاه يذكر فيه الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر
نجونا من الموت الوحي غير مرة وما ثبتت إلّا وفي نفسها أمر

وجاء الفرنج إلى حماة وحاصروها، وكان بها شهاب الدين الحارمي نائباً، ورحلوا عنها بعد أن كادوا يأخذونها، ومات شهاب الدين الخارمي ذلك اليوم من مرض كان به، وراحت الفرنج إلى حازم وحاصروها فأرسل إليهم الملك الصالح مالاً ورحّلهم عنها.

وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة أرسل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب إلى حماة، وابن عمه محمّد بن شيركوه إلى حمص، وأمر كلاً منهما بحفظ بلاده.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة جهّز سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان عشرين ألف فارس إلى حصن رعبان، فركب إليه تقي الدين عمر بن شاهنشاه في ألف فارس فكسرهم وانهزموا، وكان تقي الدين يفتخر بها ويقول: كسرت بألف عشرين ألفاً.

وفيها في ثاني ذي القعدة توفي المستضئ بأمر الله أبو محمّد الحسن بن يوسف المستنجد بالله، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وخلافته نحو سبع سنين.

فصل
الناصر لدين الله

وهو أحمد بن المستضئ بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة والده، ولقب الإمام الناصر.

وفي سنة ست وسبعين وخمسمائة عاد السلطان صلاح الدين إلى مصر بعد أن كان سار إلى بلاد الروم مؤيّداً منصوراً.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة عزم البرنس الفرنجي صاحب الكرك على المسير الى مدينة النبي ﷺ، والاستيلاء على تلك البقاع الشريفة وجمع جموعه لذلك، فبلغ عز الدين فرخ شاه بن شاهنشاه فطلع إليه بعساكره من بعلبك، وأغار على بلاده وفرّق جيوشه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة سار السلطان صلاح الدين إلى الشام واستخلف بمصر أخاه الملك العادل أبا بكر.

ومن غريب ما اتفق أنّه لمّا خرج من القاهرة وخرج الناس يودّعونه، وأنشدت الشعراء في الوداع أشعاراً لطيفة وبينهم فقيه يعلم أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الجماعة وقال:

يودع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكّد المجلس على الحاضرين ولم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدّة، وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم سار منها واستنقذ بلاداً كثيرة من الفرنج، منها: الغور وبيروت، وعاد إلى دمشق، ثم خرج إلى بلاد الجزرية، وملك الرها والرقة والخابور جميعه ونصيبين وملك سنجار وحاصر الموصل ثم رحل عنها.

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة حاصر صلاح الدين أسد وملكها، وملك عينتاب، ونازل حلب وحاصرها، فاتفق معه صاحبها عماد الدين بن زنكي على أن يسلّمها إليه ويعتاض عنها سنجار ونصيبين والخابور، وأن يحضر إليه بعساكره كلّما طلبه، وتسلّم صلاح الدين حلب في صفر من هذه السنة.

ومن الاتفاق العجيب أنّ القاضي محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر   مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك توري أخو السلطان صلاح الدين الأصغر وكان قد طعن في ركبته، وكان السلطان في دعوة عملها عماد الدين زنكي بسبب الصلح حافلة، فجاء شخص أسرّ إلى السلطان في أذنه أنّ تاج الملوك مات، فأمر بتجهيزه سرّاً؛ ولم يعلم الحاضرين بذلك لئلا ينكد عليهم مع وجده العظيم عليه، وكان يقول بعد ذلك: ما وقعت حلب علينا رخيصة، ثم جعل ولده الملك الظاهر غازي بحلب وسار إلى دمشق، ثم توجّه إلى الغور، وأغار على بيسان وحرقها وطلب أخاه الملك العادل أبا بكر، فجاءه إلى الكرك وحاصرها مدة ثم عاد إلى دمشق، وأعطى أخاه الملك العادل أبا بكر حلب، وأعطى مصر لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وأحضر ولد الملك الظاهر غازي إلى دمشق وحاصر الكرك مرّة أخرى وعاد سالماً إلى دمشق.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة غزا صلاح الدين الكرك وقارب أخذها وأحرق نابلس وأسر كثيراً ونهب.

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة سار إلى الموصل وحاصرها ورحل عنها، وأخذ ميافارقين ثم عاد إلى الموصل أو اصطلح مع صاحبها على أن يخطب له على منابر الموصل وما بيده من البلاد، ويضرب السكة باسمه واستقر الصلح وأمنت البلاد، وعاد إلى دمشق بعد مرض أصابه في الطريق أشرف منه على الموت.

وفي سنة اثنين وثمانين وخمسمائة أحضر السلطان صلاح الدين ولده الأفضل من عند ابن عمّه تقي الدين عمر من مصر، وأقرّه بحماة وأضاف إليه منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين، وأحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل ولده العزيز عثمان معه، وجهّزهما إلى مصر نيابة عنه.

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة جمع السلطان صلاح الدين عساكره وتوجّه للغزو ونزل على الكرك، وأرسل ولده الأفضل مغيراً على عكا وبلادها فغنم شيئاً كثيراً.

ثم سار صلاح الدين إلى مدينة طبرية وفتحها بالسيف، وكانت للقومص صاحب طرابلس، فجمع سائر الفرنج وخرج لقتال صلاح الدين، فسار إليهم صلاح الدين فالتقى الجمعان فكانت وقعة حطين المشهورة، نصر الله تعالى المسلمين نصراً عظيماً، وفتح صلاح الدين سائر البلاد الساحلية والجبلة وأباد المسلمون الفرنج قتلاً وأسراً، وجلس صلاح الدين في خيمة عظيمة وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه وكان عطشاناً، وكان البرنس صاحب الكرك إلى جانبه، فأحضر صلاح الدين ماء بارداً، فسقى منه ملك الفرنج بعد ما شرب منه البرنس، فقال صلاح الدين: لم يشرب هذا الملعون بإذني ليكون له أمناً! ثم التفت إليه وقال له: يا برنس لم غدرت بالمسلمين وقصدت الحرمين الشريفين وفعلت وفعلت؟ ونهض إليه وضرب عنقه بيده، فخاف ملك الفرنج فسكنه صلاح الدين وأمره بالترحيل عن بلاد المسلمين. ثم ركب السلطان صلاح الدين وعاد إلى طبرية وفتح قلعتها وفتح عكا وسائر القلاع التي تليها، وفتح قلعة نابلس وصيدا وبيروت وعسقلان والرملة وغيرها وما يليها إلى القدس، ونازل القدس وبه من النصارى مالا يعلم عددهم إلّا الله تعالى، فوقع الحرب واشتد القتال وتفلق السور وطلب الفرنج الأمان مراراً فلم يجبهم، وقال: لا أخذها إلّا بالسيف كما أخذوها من المسلمين، ثم طلبوا الأمان فاشترط عليهم أن يعطي كل رجل بها عشرة دنانير، وكل امرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل دينارين، وكل من عجز عن الأداء كان أسيراً، فوقع الصلح على ذلك وتسلّم المسلمون القدس الشريف يوم الجمعة سابع عشر من رجب، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار، ورتّب السلطان على الأبواب من يقبض المال، وكان على رأس قبّة الصخرة صليب كبير مذهّب، فلمّا قلعه المسلمون كانت لهم ضجة عظيمة لم يسمع بمثلها، وكانت الفرنج قد عملوا بالجامع الأقصى منبراً فأزاله السلطان وأعاد الجامع إلى ما كان، وأحضر من حلب منبراً عظيماً كان صنعه نور الدين محمود لبيت المقدس فجعله به، وأقام صلاح الدين بالقدس الشريف يرتّب أموره، وأمر ببناء الربط ومدارس الشافعية، وترحل في خامس عشر من شعبان، واستمر يفتح في البلاد وينهب الفرنج.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة اجتمعت عليه العساكر فرحل بهم ونزل على حصن الأكراد،

وشنّ الغارات ثم رحل إلى طرسوس، فوجد الفرنج قد أخلوها، فسار إلى المرقب فوجدهم قد أخلوها، فسار إلى جبلة فتسلّمها، وسار إلى اللاذقية وحاصرها وتسلّم قلعتها بالأمان، وسار إلى صهيون فتسلّمها بعد أن حاصرها، ونزلوا على ما نزل عليه أهل القدس، وسار إلى الشغر، وبكاس وتسلّمهما، ثم إلى برزية فحاصرها وأخذها، ثم إلى الدربساك فأخذها، ثم إلى بغراش فحاصرها وأخذها، ثم قصد انطاكية فأرسل صاحبها، وكان عظيم ملوك الفرنج اسمه بيمند يطلب المهادنة بإطلاق كل أسير عنده فأجابه إلى ذلك وتمّ ذلك في ثمانية أشهر. ثم سار إلى حلب ثم إلى الشام، وجعل طريقه على قبر عمر بن عبدالعزيز فزاره، ودخل دمشق في شهر رمضان فأشار عليه أصحابه بتفريق العساكر ليستريحوا، فقال: إنّ العمر قصير والأجل غير مأمون، وبلغه أنّ أخاه الملك العادل فتح الكرك بالأمان وتسلّمها والشوبك، فسار إلى صفد وتسلّمها بالأمان، ثم سار إلى القدس وعمل فيه عيد الأضحى، وتوجّه إلى عكا فأقام بها حتى خرجت السنة.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة كان قد اجتمع في الغور سائر الفرنج الذين أخرجوا بالأمان فصاروا جمعاً كثيراً لا يحصى، وأرسلوا إلى بلادهم يستنجدون ملوكهم ويتوسّلون إليهم بصورة المسيح وبنسائهم، فاجتمع عدّة ملوك منهم ووصلوا إلى عكا ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة وقيل في شعبان.

ودخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة وهم على ذلك واستمروا يحاصرونها إلى سابع جمادى الآخر من السنة الآتية، فكانوا محاصرين ومحصورين من السلطان صلاح الدين فإنّه سار إليهم وقاتلهم قتالاً شديداً، فلمّا عجز المسلمون وملوا تسلّم الفرنج عكا بالأمان، وغدروا وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً وأسروا الباقي، وتوجّهوا نحو قيسارية ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف عظيم ترجحوا فيه، ثم ساروا إلى يافا وقد أخذها المسلمون فملكوها، وخرب السلطان صلاح الدين عسقلان خوفاً لئلا يحصل لها مثل عكا، وخرب حصن الرملة وكنيسته لد، ثم سار إلى القدس الشريف وقرر أموره.

وفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة عاد إلى مخيّمه بالتظرون ثامن رمضان، وتراسل الفرنج والسلطان بالصلح على أن يتزوّج الملك العادل أخو السلطان أخت ملك الإنكتار، ويكون له القدس وله عكا، فحضر القسّيسون ومنعوا ذلك إلّا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق [بينهم][1] حال. وصارت المناوشة بين المسلمين والفرنج وانتقل الفرنج من يافا إلى الرملة، وسار السلطان

(١) اضفناها لاقتضاء الحال.

صلاح الدين إلى القدس وأخذ في عمارته وتحصينه، فمرض ومات ليلة الجمعة حادي عشر رمضان، فأخفى ولده الملك المنصور محمّد وفاته وكان معه، ورحل عن حزن عظيم وعزاء شديد جلس فيه ولده الأفضل نور الدين علي أكبر أولاده، وكان قد حلف له الناس في مرض أبيه. وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه العزيز بمصر، وإلى أخيه ظاهر غازي بحلب، وإلى عمه العادل أبي بكر بالكرك، فحضروا وجلس ابنه الأفضل ثلاثة أيام بالجامع للعزاء، وانفقت أخته ست الشام أموالاً عظيمة. ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً، ولم يخلف ديناراً ولا عقاراً، وخلف سبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة. واستقر بدمشق وبلادها ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عثمان وكان أصغر من الأفضل بسنتين، وبحلب ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي وكان أصغر من العزيز، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وبحماة وسلمية والمعرة والمنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمّد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وكان الملك المظفر تقي الدين عمر قد أوغل في هذه السنة قبل وفاة صلاح الدين في ما وراء النهر، وأخذ البلاد والقلاع وحضر إليه بكتمر صاحب خلاط، وأخذ معظم البلاد هناك، واستقر ببعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب، وبحمص والرحبة شيركوه بن محمّد بن شيركوه بن شادي.

وفي سنة تسعين وخمسمائة ظهرت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ولدي السلطان صلاح الدين، وسار العزيز بعساكر مصر وحصر الأفضل بدمشق، فأرسل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور، فحضروا وأصلحوا بينهما ورجع العزيز إلى مصر وكل ملك إلى بلده، وانهمك الأفضل على المعاصي وفوّض الأمر إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبّر برأيه الفاسد، ثم تاب الملك الأفضل وواظب على الصلاة ونسخ مصحفاً بيده.

وفي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة غزا ملك الغرب يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن غزوة عظيمة في الفرنج، وقتل وأسر مالا يحصى.

وفيها قصد العزيز أيضاً دمشق ثم رجع عنها من الطريق، فخرج إليه الأفضل ومعه عمه العادل فوصلا بلبيس، وخرج القاضي الفاضل من القاهرة وأصلح بينهم، وعاد الأفضل وأقام عمه العادل عند العزيز وتزهد وقنع.

وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة فرغت التربة التي كان بناها الأفضل لأبيه السلطان صلاح الدين بالقرب من الجامع، وكانت داراً لرجل صالح فنقله من القلعة إليها، وكانت مدة لبثه ثلاث سنين.

وفيها كثرت البلوى من ضياء الدين بن الأثير الجزري واختلفت الأحوال، فبلغ ذلك الملك العادل والملك العزيز بمصر فاتفقا على أخذ دمشق، وسار إليها وحاصر الأفضل ودخلا دمشق الملك العزيز من باب الفرج، والعادل من باب توما، ونزل الأفضل من القلعة واستقر بدمشق الملك العادل، وعاد العزيز إلى مصر وضربت السكة باسم العزيز والخطبة أيضاً، وسار الأفضل إلى صرخد واستوطنها، وكتب الخليفة الإمام الناصر يشكوا من عمه أبي بكر وأخيه عثمان وأوّل الكتاب:

مولاي أن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذا بالظلم حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده ... عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلا عقد بيعته ... فالأمر بينهما والنص فيه جلي
فانظر إلى حظ هذا الأسم ... كيف لقي من الأواخر مالاقى من الأوّل

فكتب الإمام الناصر جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا ... بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن ... بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فان غدا على حسابهم ... وابشر فناصرك الإمام الناصر

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز عثمان بن الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب مصر بها، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة وشهوراً، وملكه ست سنين إلّا شهراً، وكان محسناً إلى رعيته حسن السيرة، واستقر مكانه ولده الملك المنصور محمّد وعمره تسع سنين، وجاء إليه عمه الأفضل من صرخد يدبّره، ثم قصد الأفضل بعد مدة دمشق لمّا بلغه أنّ الملك العادل توجّه منها وهو محاصر ماردين، فبلغ ذلك الملك العادل فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل وسبق العادل الأفضل إلى دمشق، ثم وصل الأفضل وجاء أخوه الظاهر صاحب حلب وعاونه على ذلك وقاربا أخذ دمشق، فوقع بينهما الخلف بسبب مملوك كان للملك الظاهر اسمه أيبك عدم فأرسل إليه العادل من المدينة يقول له: أن أخاك الأفضل أفسده وهو مغيب عن محمود بن الشكري، فقبض الظاهر على محمود فوجد الغلام عنده فتغير على أخيه الأفضل وتفرّقا عن حصار دمشق، فخرج العادل وتبع الأفضل إلى مصر فخرج إليه الأفضل وانكسر ودخل هارباً إلى القاهرة فنازلها العادل ثمانية أيام، ثم تسلّمها وصار مدبراً لابن أخيه الملك المنصور محمّد مدة يسيره، ثم عزله واستقر في السلطنة بمصر، وتوجّه الأفضل إلى صرخد حيث كان أولا. واستقر بدمشق نائباً عن العادل ولده الملك المعظم عيسى، وكاتب الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل واعتذر إليه وصالحه وجعل السكة والخطبة باسمه.

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة جاء السلطان الملك الظاهر صاحب حلب، وانـضم إليـه أخوه الأفضل وحصرا دمشق على أن تكون للأفضل، ثم يسير إلى مصر فتكون للظاهر. وبلغ ذلك العادل وتوجّه إليهما وأقام على نابلس ولم يجرأ عليهما، فلمّا قرب أخذ دمشق أوقع الله في قلب الظاهر حسد أخيه الأفضل فقال له: اجلس الليلة واجعل دمشق لي ومصر لك، فامتنع وانقلب الأمر إلّا أنّهم كانوا يقاتلون لأجل الأقصى، ثم رحل الظاهر عن دمشق وسار الأفضل إلى حمص، وكان قد سبقه أهله إليها.

وفي سنة إحدى وستمائة استولت الفرنج على قسطنطينية وأخذوها من الروم، واستمرت مع الفرنج إلى سنة ستين وستمائة فاستعادها الروم من الفرنج.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بلاد الروم.

وفي سنة أربع وستمائة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل خلاط وبلادها، ووصلت خلعة الإمام الناصر الخليفة ببغداد وتقليده للملك العادل بدمشق، فلبسها وخوطب ملك الملوك.

وفي سنة خمس وستمائة توجّه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل من دمشق إلى البلاد الشرقية واجتاز بحلب، فأكرمه الملك الظاهر وتلقّاه وخدمه بتقادم عظيمة في كل يوم، ويوم الرحيل بأضعاف أضعافها شيء يعجز عن تقويمه.

وفي سنة سبع وستمائة قصد الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحد أيوب بن الملك العادل، فاتفق أنّ ملك الكرج سكر وتقدم في عشرين فارساً، وخرجت إليه المسلمون فتقنطر به فرسه وأمسك أسيراً، فأفدى نفسه بعدة قلاع وإطلاق خمسة آلاف أسير من المسلمين ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة ثلاثين سنة وزوّج ابنته بالملك الأوحد وأطلق، ثم بعد قليل مات الملك الأوحد واستقر مكانه أخوه الأشرف، مضافاً إلى ما في يده من البلاد الشرقية، وعظم شأنه ولقّب شاهرمن.

وفيها قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه كيكاؤوس.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة سار خوارزم شاه علاء الدين حمد بن تكش لملك ساوى وقزوين وزنجان وأبهر وهمدان وأصفهان وقم وكاشان، وأطاعه أزبك بن البهلوان صاحب آذربيجان وأران.

وفيها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب واستقر مكانه بدمشق ابنه الملك المعظم عيسى.

وفي سنة ست عشرة وستمائة أرسل الملك المعظم عيسى إلى بيت المقدس فخرّب أسوارها

خوفاً من الفرنج. فهجم الفرنج على دمياط وأخذوها وأسروا منها، وجعلوا الجامع كنيسة. فبنى الملك الكامل بن العادل مدينة عند مفرق البحرين إلى دمياط وسمّاها المنصورة. وظهرت التتر في هذه السنة، وخربت كثيراً من بلاد المسلمين وأسروهم من ناحية والفرنج من ناحية، وزحف المسلمون وأصيبوا مصاباً عظيماً لم يصابوا بمثله، وكان ملك التتر جنكزخان صاحب الصين استولى على الملك بسيفه، وانتزعه من الطرخان أوّل ما دخلوا إلى بلاد العجم، وعاثوا بها وقتلوا كل من كان ببخارى، واستولى جنكزخان على ما وراء النهر، وسارت التتر إلى خوارزم شاه فانهزم منهم ومات.

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة طمعت الفرنج في أخذ البلاد المصرية، ورحلوا إلى المنصورة وطلب الملك الكامل صاحب مصر أخاه الملك المعظم عيسى من دمشق، والملك الأشرف من الشرقيات، والملك الناصر من حماة، والملك الأمجد من بعلبك، والملك المجاهد من حمص فلحقوه وهو في قتال الفرنج على المنصورة، ومعهم عسكر حلب فقوي المسلمون وضعفت الفرنج، وكذلك في كل مدينة فتحها صلاح الدين ما عدا الكرك والشوبك ودمياط فأبوا إلّا عليها وعلى ثلاثمائة ألف دينار، عوضاً عن تخريب الملك المعظم سور القدس، فعيّن جماعة من المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان في زيادته، فركب الماء تلك الأرض وحال بين الفرنج وبين دمياط وانقطعت الميرة عنهم فهلكوا جوعاً، فطلبوا الصلح الذي كانوا سألوه وأن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون وعن دمياط، وعقدوا الصلح وكان الملك الكامل قد ضجر له مدة ثلاث سنين يقاتلهم فأجابهم إلى ذلك، ووقع الصلح وأخذ منهم ملوكاً رهناء، وأعطاهم ولده الملك الصالح أيوب رهناً، وتسلّمت المسلمون دمياط في تاسع رجب.

وفي سنة إحدى وعشرين وستمائة استولى غياث الدين بن خوارزم شاه على بلاد فارس، وسكن شيراز كرسي فارس، وأزاح عنها صاحبها سعد بن دكلا.

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة جاء أخوه جلال الدين من الهند وملك عراق العجم، وأعاد شيراز إلى صاحبها سعد بن دكلا، وقويت شوكة جلال الدين وعظم أمره، وخافه الخليفة ببغداد، وأخذ تبريز وهرب صاحب أذربيجان مظفر الدين أزبك بن البهلوان، وأثبت عنده قاضي تبريز وقوع طلاق البهلوان لزوجة بنت السلطان طغرلبك آخر ملوك السلجوقية، وتزوّجها السلطان جلال الدين وعظم أمره واتسعت ممالكه.

وفيها توفي الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء حسن بن المستنجد يوسف بعد أن عمي.

فصل
الظاهر بأمر الله

وهو أبو نصر محمّد بن الناصر لدين الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الإمام الناصر لدين الله. وأبو نصر هذا هو الخامس والثلاثون من خلفاء بني العباس، تولى الخلافة سنة اثنين وعشرين وستمائة فعدل وأزال الكؤوس وأطلق الحبوس ولم تطل مدّته، وكان على ضد أبيه قصير المدّة وأبوه طويلها، محسن إلى الرعية وأبوه مسيء إليها، سنّي وأبوه شيعي، وهّاب وأبوه بخيل، مولع بالفضائل وأبوه يرمي البندق ويلعب بالحمام.

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة توفي خوارزم شاه علاء الدين محمّد بن تكش بن أرسلان هارباً من التتر، وكان قد اتسع ملكه وعظم محله، ملك من حدّ العراق إلى تركستان وغزنه وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وخراسان، وكان عالماً بالفقه والأصول. ورجع التتر حين أيّسوه فأخذوا مازندران وقتلوا أهلها، وكذلك فعلوا بالري وهمدان ومراغة وخراسان وخوارزم، وكذلك فعلوا بأكثر البلاد من قتل العلماء والصلحاء وتحريق المصاحف وتخريب الجوامع ما لم يسمع بمثله وعادوا إلى بلادهم، ثم جهّز جنكزخان إلى جلال الدين ولد خوارزم شاه المذكور اثني عشر ألف تترياً، وكان جلال الدين في غزنة ومعه ستّون ألفاً فكسر التتر ونصر الله المسلمين، ثم جهّز جنكزخان إليه جيشاً آخر أكثر من الأوّل فكسرهم المسلمون وغنموهم، فجاء هو بكل جموعه وكان قد تفرّق عن جلال الدين غالب عسكره، فاستضعف نفسه وهرب إلى الهند وتبعه عساكر جنكزخان وأدركوه على ماء عظيم ببلد السند فلم يجد بدّاً من قتالهم وتقاتلا قتالاً شديداً، وصبر الفريقان ثم تأخّر كل منهما عن الآخر، فعبر جلال الدين النهر إلى الهند وعاد جنكزخان بعساكره، واستولى على غزنة وقتل أهلها، وسارت فرقة فأخذوا بلاد القفجاق وشروان والروس.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة توفي الظاهر بأمر الله محمّد.

فصل
المستنصر بالله

وهو أبو جعفر المنصور، بويع بالخلافة بعد وفاة والده الظاهر بأمر الله، وسلك مسلك أبيه في العدل والإحسان.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة عادوا التتر إلى بلاد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت

بينهم حروب ترجّحت التتر في أكثرها.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة لم يجد الملك الكامل ابن العادل بدّاً من مهادنة الفرنج على أن يسلّمهم القدس، وتستمر أسوارها خراباً ولا يتعرضون لقبّة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، وتسلّم الفرنج القدس في ربيع الآخر.

وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة ضعفت دولة جلال الدين بن خوارزم شاه، واختلّ عقله بموت مملوك كان يحبّه حتى أنّه استصحبه ميتاً مدة طويلة كل يوم يعمل له عزاء، ويرسل إليه من الطعام، ويعود عليه بالجواب أنّه أصلح ممّا كان بالأمس. وأخذت التتر سائر بلاد العجم، وفعلوا أخس من فعلهم الأوّل، وكبسوا السلطان جلال الدين وأخذوه أسيراً ثم هرب منهم، فقتله كردي كان قد قتل أخاه حين عرفه، وأنشد كاتب إنشائه:

فساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب
ومن في كفه منهم قناة كمن في كفه منهم خضاب

وفي سنة ثلاثين وستمائة أخذ الملك العزيز صاحب حلب شيزر، وهنّاه خالد القسري بقوله:

يا ملكاً عم أهل الأرض نائله وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأت شيزرا قد بات نصرك في ارجائها ألقت العاصي على العاصي

وهو مصنف الكامل في التاريخ الذي بدوّه من هبوط آدم وانتهاؤه في سنة ثمان وعشرين وستمائة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة جاءت فرقة من التتر فكسرهم صاحب اربل فوصلوا إلى بلاد الموصل فاهتم لهم المستنصر بالله فردّوا.

وفيها استعاد الملك الكامل حران وخرب قلعة الرها.

وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة توفي الملك العزيز محمّد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعمره ثلاث وعشرون سنة وأشهر، وكان حسن السيرة في الرعية، واستقر مكانه بحلب ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وعمره نحو سبع سنين، ورجعت الأمور إلى والدة أبيه ضيفة خاتون بنت أم الملك العادل.

وفيها توفي كيقباد بن كيخسرو السلجوقي صاحب بلاد الروم، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بدمشق، وعهد بها الى أخيه الملك الصالح إسماعيل، وكانت مدة ملك الأشرف

لدمشق ثمان سنين وشهور، وعمره نحو ستين سنة، وكان كريماً جدّاً، ميمون الطلعة ولم تهزم له راية قط. وبلغ ذلك الملك الكامل فسار من مصر الى دمشق وحاصر الملك الصالح وأخذها منه، وعوّضه بعلبك والبقاع وبصرى. فمرض الكامل ومات لسبع بقين من رجب، وكان بينه وبين أخيه الأشرف نحو ستة أشهر وكان عمره نحو ستين سنة، ومدّة ملكه لمصر عشرين سنة، وكان نائباً بها قبل ذلك نحو عشرين سنة، وحسنت مصر وأحوال العلماء بها في أيامه، وكان يباحث العلماء ويدرس الطلبة ويمتحن الفضلاء بأسئلة غريبة في الفقه والنحو. واستقر بدمشق الملك الجواد يونس بن داود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وحلفوا جميعاً للملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل، فاستقر بمصر وكان نائباً عن أبيه إذ ذاك بها.

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة استقر الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل بدمشق وسلّمها إليه الملك الجواد برضاه، وتعوض عنها سنجار والرقة وعانة.

وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة كان الملك الصالح أيوب توجّه الى مصر بالعساكر ليأخذها، فسار الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص، فهجما على دمشق وأخذاها، وبلغ ذلك الملك الصالح أيوب فتفرقت عساكره عنه بالغور فقصد نابلس ونزل بها، وكان الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك قد وصل بعسكره إلى الكرك، فقصد الملك الصالح أيوب وأمسكه وأرسله الى الكرك معتقلاً عليه مع الإحسان إليه، ثم بدا له فأطلقه بعد أن كان توجّه الى القدس وحاصرها وفتحها وخرب قلعتها التي بناها الفرنج، فسارا جميعاً الى القدس وتحالفا في قبة الصخرة على أن تكون مصر للصالح أيوب، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، وتوجّها الى مصر فخرج اليهما العادل صاحب مصر، وخرج من وراءهما الصالح إسماعيل صاحب دمشق فضاقت الأرض بما رحبت على داود وأيوب، وإذا بالخبر وصل إليهما بأنّ مماليك العادل أمسكوه فسارا مسرعين إلى مصر، ودخل الملك الصالح أيوب قلعة الجبل وزيّنت له البلاد وفرح الناس به.

وفيها توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، وكان عمره نحو سبعين سنة، واستقر مكانه ولده المنصور إبراهيم.

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة سلّم الملك الصالح إسماعيل صفد وقلعة الشقيف للفرنج خوفاً من ابن أخيه الملك الصالح أيوب، وشقّ ذلك على المسلمين ومقتوه.

ورحل عن دمشق الشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام إلى مصر فولي القضاء بها، ورحل الشيخ جمال الدين أبو عمر بن الحاجب إلى الكرك، ونظم هناك للناصر مقدمته الكافية.

وفي سنة أربعين وستمائة توفي المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر محمّد بن الإمام الناصر.

فصل

المستعصم بالله

وهو عبدالله بن المستنصر بالله، بويع بالخلافة بعد وفاة والده، وهو آخر الخلفاء العباسيين وسابع ثلاثينهم.

وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة استولت التتر على غالب بلاد الروم، وأخذوا خلاط وآمد ودخل تحت طاعتهم كيخسرو السلجوقي غياث الدين.

وفيها قويت الفرنج بأرض الشام لضعف قوّة الصالح إسماعيل صاحب دمشق واعتقاده بهم على صاحب مصر، وإعطائهم عسقلان وطبرية وصفد والشقيف وتمكينهم من بيت المقدس غاية التمكين. قال القاضي جمال الدين بن واصل: مررت إذ ذاك على القدس مجتازاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا قناني الخمر على الصخرة.

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة قصدت التتر بغداد فخرجت عساكر بغداد للقائهم فانهزم التتر ليلاً.

وفي سنة خمس وأربعين وستمائة استعاد المسلمون قلعتي عسقلان وطبرية من يد الفرنج فتحاً.

وفيها توفي علاء الدين قراسنقر الساقي مملوك العادل وصارت مماليكه بالولاء للصالح أيوب، منهم سيف الدولة قلاوون ملك مصر والشام.

وفي سنة سبع وأربعين وستمائة استولت الفرنج على دمياط وهي خالية، وقد هرب منها بنو كنانة الموكلين بها، فصلبهم السلطان الملك الصالح أيوب عن آخرهم.

وفيها استضعف نفسه صاحب كرك الناصر داود، وسار إلى حلب مستجيراً بصاحبها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان معه من الجواهر ما قيمته فوق مائة ألف دينار، فأرسلها إلى الخليفة المستعصم ببغداد وديعة عنده؛ فلم ترها عينه بعد ذلك، واستخلف بالكرك ولده المعظم عيسى.

وفيها توفي الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل محمّد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ليلة الأحد رابع عشر شعبان، وكان طاهر اللسان والذيل، عالي الهمّة، عظيم الهيبة، لا يخاطب إلّا

جواباً، وكانت أكثر عساكره وأمرائه مماليكه من الترك. ورتّب جماعة من مماليكه بدهليزه لوضع القصص بين يديه، وهو الذي بنى مدينة الصالحية لأجل الصيد، وبنى الكبش بين مصر والقاهرة، وكانت له جارية اسمها شجر الدر فكتمت موته، وجمعت الأمراء وأرباب الدولة وقالت: السلطان يأمركم أن تحلفوا له ولولده توران شاه من بعده، فأجابوها إلى ذلك وحلفوا، واستمرت شجر الدر تحكم وتعلم عن السلطان إلى أن وصل توران شاه.

وفي سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة، وقاتل الفرنج بعد استطالتهم وكسرهم المسلمون وغنموهم، وبلغت عدّة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفاً، وأسر ملك الفرنج ريد إفرنس وقيّده وسجنه ببيت كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ورحل الملك المعظم من المنصورة ـ منصور ـ ونزل بفارس كور وأخذ في تهديد مماليك أبيه، فهجموا عليه وقتلوه، وأوّل ضارب له بالسيف ركن الدين بيبرس الذي صيّر سلطاناً بعد هذا، وكانت له قبّة خشب فهرب إليها فألقوا فيها النار فهرب منها، وألقى نفسه في البحر فأدركوه وأتمّوا قتله. وكانت مدة ملكه شهرين وأياماً.

واجتمعت أمراء الترك على أن يقيموا شجر الدر فقاموها، وخطبوا لها على المنابر وضربت السكة باسمها، وهي أم خليل فإنّه كان لها ولد من الملك الصالح مات صغيراً اسمه خليل. وسلم المسلمون دمياط وأطلقوا ريد إفرنس في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، وهذا ريد إفرنس هو الذي قال فيه جمال الدين ابن مطروح من أبيات:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن قؤول نصيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا ترى منهم ... غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي فصيح

وفي آخر ربيع الآخر استقرّ عز الدين أيبك الجاشنكي التركماني في سلطنة مصر، ولقّب الملك المعز، وعزلت شجر الدر وهو أوّل ملوك الترك.

وفي خامس جمادي الأوّل عزل واستقر أبابك الجيوش، واستقرت السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف ـ صاحب اليمن ـ ابن الملك الكامل محمّد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وعقدوا البيعة للخليفة المستعصم ببغداد، وخرّبوا سور دمياط، وبنوا بالقرب منها مدينة اسمها

المنشية. وفي مستهل شعبان قبض الملك الناصر صاحب حلب ودمشق على الملك الناصر داود واعتقله بحمص، وسار إلى مصر في منتصف رمضان ومعه من بني أيوب نحو العشرة وسائر عساكرهم، وخرج إليهم المصريون والتقى الجمعان بالعباسية وانكسر كل من الفريقين، وولّى هارباً حتى أنّه خطب للملك الناصر بمصر في تلك الجمعة بقلعة الجبل، ولم يقم بالقاهرة خطبه. ودخل أيبك التركماني إلى القاهرة معظماً، فإنّه هو الذي كسر الشاميين بعدما انكسرت المصريون، وتفرّقت عنه وقتل بين يديه الأمير شمس الدين لؤلؤ صبراً، وكذلك الأمير ضياء الدين بن الفيومي، وأسر الملك الصالح إسماعيل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وأخوه نصرة الدين، وأخرج يمين الدولة السامري وزير الملك الصالح إسماعيل فقتلوه وعمره نحو خمسين سنة، وظهر له من الأموال والذخائر شيء عظيم حتى قالوا: إنّ قيمة ذلك ثلاثة آلاف ألف دينار غير ما كان له من الودائع، ووجد له عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة، وكان ساعياً في هذه الشريعة وفي زوال ملك أستاذه الملك الصالح، وقيل أنّه كان لا يتدين بالسامري ولا بالإسلام، بل كان يستتر بالإسلام ويبالغ في هضم الدين على عادة من يظهر الإسلام من المباشرين ويبطن خلاف ذلك.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة خرب الترك دمياط وحملوا أهلها إلى مصر، وتزوّج المعز أيبك التركماني بأم خليل شجر الدر على صداق جملته ثلاثون ألف دينار، وكان أهل مصر في شدّة وجور، ونزل عسكر مصر فوصلوا إلى غزة، وحكموا على الساحل وجهّز الناصر عسكره إلى غزة وعاد المصريون إلى الصالحية، وأقام عسكر الناصر على تل العجول سنين وشهوراً والرسل تتردد بين الفريقين، وفي ذلك يقول سيف الدين المنشد:

يذكرنا زمان الزهد ذكرى	زمان اللهو في تل العجول
ويطلب مسلماً يروي حديثاً	صحيحاً من أحاديث الرسول

وقال لمّا قيل أنّ رسول الخليفة واصل للصلح:

قالوا الرسول أتى وقالوا إنه	ما رام يوماً عن دمشق ترفعا
ذهب الزمان وما ظفرت بمسلم	يروى الحديث عن الرسول صحيحاً

وفي سنة خمسين وستمائة وصل رسول الخليفة محي الدين إلى المعز، وقرّر معه أمر الصلح بينه وبين الناصر، وعاد فاجتمع بالناصر واستقرت غزة والقدس والساحل للمعز، ونابلس للناصر.

وفي سنة اثنين وخمسين وستمائة قوي أمر المعز أيبك التركماني بمصر، وقتل خشداشه أقطاي الجمدار، وقطع خطبة الأشرف موسى ولم يخطب بعد ذلك لبني أيوب بمصر.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة مشى نجم الدين الباذراني في الصلح بين المصريين والشاميين على أنّ للناصر الشام إلى العريش، والحد بين القاضي ـ وهو بين الورادة والعريش ـ وللمعز أيبك الديار المصرية، ورجع كل إلى بلده.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة قتل المعز أيبك التركماني بأمر زوجته شجر الدرّ أُم خليل، فإنّه كان تزوّجها ثم قصد أن يتزوّج عليها، ثم بعد قليل ماتت شجر الدرّ.

وفي سنة ست وخمسين وستمائة قصد هولاكو بن جنكزخان بغداد وملكها، وقتل الخليفة المستعصم بالله، ودخلت التتر بغداد وقتلوا ونهبوا نحو أربعين يوماً، وكان ذلك باستدعاء الوزير العلقمي لهم، وانقضى ملك بني العباس، وكان للعالم كالأعراس. وجاء من بعدهم [التتر][1] أوّلهم كان اسمه هولاكو.

وكان هذا المستعصم آخر العباسيين، وكانوا أعظم ملوك الإسلام قوّة وبأساً، وتخلّف منهم سبعة وثلاثون خليفة في العراق، وكان ابتداء دولتهم بالسفاح في سنة اثنين وثلاثين ومائة، وكانت خلافة المستعصم ستة عشر سنة تقريباً.

وروي عن علي ابن عبدالله بن العباس أنّه قال: والله لتكوننّ الخلافة في ولدي حتى يأتيهم العلج من خراسان، وحصلت له بسبب ذلك محنة، وكان العلج هو هولاكو ملك التتر، وهم ملوك ما وراء النهر ـ وهو نهر جيحون في أطراف خراسان من جهة المشرق ـ وكان لعلي بن عبدالله بن العباس من الولد محمّد وعيسى وداود وسليمان وعبدالصمد وإسماعيل وصالح وعبدالله.

وقد أتممنا أخبار الخلفاء والمشاهير من أعوانهم وما حصل في زمانهم والحمد لله وحده وصلى على محمّد وآله.

فصل
في أحكام السلاطين

فأوّلهم هولاكو ملك التتر الذي قتل الخليفة المستعصم بالله، وملك بغداد والعراق، وأخذ فرس الخلافة وفتك بالمسلمين، وكان كافراً.

وفي سنة سبع وخمسين وستمائة توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعد حكمه بها ثلاثاً وأربعين سنة، واستقر ولده الملك الصالح بالموصل، وولده علاء الدين بسنجار.

---

(١) في المخطوط (الاتراكوا).

وفيها تسلّط بالديار المصرية قطز، وخلع ابن أستاذه الملك المنصور علي، وتلقّب بالملك المظفر، وكان قد قدم على الملك المنصور الكمال بن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام يستنجده على التتر فعاد خائباً، وكان مشؤماً على الملك المنصور.

وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة استولت التتر على حلب يوم الأحد تاسع صفر، ونزل هولاكو عند حمام حمدان في ذيل القلعة، واستمر النهب والقتل بها إلى رابع عشر صفر، ثم نادى هولاكو بالأمان، وحاصر القلعة وبها الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب، ثمّ تسلّمها بالأمان يوم الاثنين حادي عشر ربيع الأوّل، وأمر هولاكو أنّ كل من سلم من المسلمين يتوجّه إلى داره ولا يعارض في ملكه، وجاءت إليه مفاتيح حماة فأمنهم وأرسل اليهم شحنة اسمه خسروشاه، يزعم أنّه من ذرية خالد بن الوليد وأحسن إليهم. وجاء الملك الأشرف موسى صاحب حمص إلى هولاكو بحلب فأكرمه وأعاده إلى حمص. وقدّم إليه محيي الدين بن الزكي فولاه قضاء دمشق، وتوجّه إليها وقرأ توقيع هولاكو ولبس خلعته وباشر القضاء. وكان الملك الناصر يوسف لمّا بلغه أخذ حلب، توجّه من دمشق نحو مصر، وصحبه الملك المنصور صاحب حماة، ووصل بعساكره إلى وطنه. واستولت التتر على دمشق وسائر الشام إلى غزة واستقرت سحابتهم، وكان التتر قد دخلوا دمشق بالأمان فلم يتعرضوا إلى أهلها، لكن القلعة عصت عليهم أياماً ثم أخذوها بالأمان في منتصف جمادي الأُولى، ونهبوا جميع ما فيها وأخربوا أسوارها.

ومن وطنه خاف الملك الناصر يوسف من سلطان مصر قطز، فجهّز العساكر مع الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، فتلقّاهم قطز وأحسن إليهم. وتوجّه الملك الناصر يوسف إلى التيه.

وأمّا هولاكو فعاد من حلب إلى بلاده ودخل على حارم فقتل أهلها عن آخرهم، وأمر بخراب أسوار حلب وأسوار قلعتها فخرّبت عن آخرها، وكذلك أسوار حمص وقلعة حماة. وكان هولاكو قد استناب على دمشق كتبغا فعرف موضع الناصر يوسف، فأرسل إليه فأمسكه وأرسله إلى هولاكو، فلمّا جاوز به حلب أنشد:

يعز علينا ان نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى

فلمّا وصل إلى هولاكو أقبل عليه ووعده بردّ ملكه إليه، ولمّا اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر سار بهم الملك المظفر قطز مملوك أيبك التركماني في أوائل رمضان، وجمع كتبغا عساكره وخرج إليه والتقى الجمعان بالغور، فانهزمت التتر وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل كتبغا وأسر ابنه، وتبعهم بيبرس البندقداري إلى أطراف البلاد، وأحسن قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقرّه عليها، وجاءه الملك الأشرف موسى صاحب حمص، وكان قد انضم إلى التتر نائباً فأقبل

عليه وأقرّه على حمص، وأحضر إليه الملك السعيد صاحب الصبيبة أسيراً فقتله لمّا كان قد اعتمده من الفسق والفجور حال ائتمانه التتر.

واستقرت البلاد كلّها للملك المظفر قطز، وولي نيابة دمشق لعلم الدين سنجر الحلبي، وحلب للملك السعيد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وتوجّه الملك المظفر قطز إلى نحو الديار المصرية، فلمّا قارب الصالحية قامت أرنب فتبعها ومعه ثلاثة أمراء، أحدهم بيبرس البندقداري، فاتفقوا على قتله، فشفع واحد منهم في شخص فأجابه قطز، فأهوى ليقبل يده فأمسكها وضربه بيبرس بالسيّف، وتحاملوا عليه ورموه عن فرسه وقتلوه، وكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً. وعادوا الى المخيم، فقال لهم نائب السلطان قطز فارس الدين اقطاي من قتله منكم؟ قال بيبرس: أنا، قال: أنت أحق بمنزلته، فجلس بيبرس في دست السلطنة، وحلف له الأمراء وتلقّب بالملك القاهر، فقيل له: أنّه لقّب غير مبارك، فتلقّب بالملك الظاهر، وأصله مملوك اشتراه أيدكين البندقداري وقدّمه لأستاذه الملك الصالح أيوب ـ صاحب مصر ـ وسار إلى القاهرة، وفتحت له القلعة وتسلّمها في سابع عشر ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة. وبلغ ذلك نائب الشام علم الدين سنجر الحلبي، وكان قد عمّر قلعة دمشق وأحبّه الناس حتى عمرت منه الشام، فطلب الناس وحلّفهم لنفسه بالسلطنة فحلفوا، وخطب له بها، وتلقّب بالملك المجاهد.

وفيها بلغ أمراء حلب قرب التتر فأمسكوا نائبهم لؤلؤ لسفاهة رأيه، وخرجوا إلى التتر وانكسروا وهربوا إلى حماة، واستولت التتر على حلب وقتلوا غالب أهلها، وخرج صاحب حماة الملك المنصور والعساكر إلى حمص.

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة لحقهم التتر، والتقى الجمعان بظاهر حمص يوم الجمعة خامس المحرم فنصر الله المسلمين، وقتلوا وأسروا من التتر ما شاء الله، وفي ثالث عشر صفر وصل علاء الدين أيدكين البندقداري أستاذ الملك الظاهر بيبرس أوّلاً إلى دمشق وأخذها بالسيف من علم الدين سنجر، وعادت إلى الملك الظاهر بيبرس، ولمّا بلغ هولاكو قتل نائبه بدمشق كتبغا وانكسار عساكره بعين جالوت وبحمص مرّة أخرى، واستحضر الملك الناصر يوسف وأخاه الظاهر غازي وقتلهما ومن معهما.

وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب، معهم شخص أسمر اللون اسمه أحمد، زعموا أنّه ابن الإمام الظاهر بأمر الله محمّد بن الإمام الناصر لدين الله العباسي، وأنّه هرب من دار الخلافة ببغداد لمّا طلبها التتر، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً عظيماً فيه القاضي عز الدين بن عبدالسلام، والقاضي تاج الدين عبدالوهاب بن خلف بن بنت الأعز، وعيّنا جماعة من

الموقعين سمعوا كلام أولئك العرب، ثم شهدوا بالاستفاضة، وثبت النسب عند القاضي تاج الدين ولقّبوه المستنصر بالله أبو القاسم أحمد، وبايعوه الظاهر بيبرس والناس بالخلافة، وعمل له بيبرس برق الخلافة وصرف على ذلك ألف ألف دينار، ولمّا خرج الظاهر إلى دمشق أخرج معه الخليفة المذكور وجهّزه من دمشق نحو بغداد أحسن جهاز، فقتله التتر قبل وصوله إلى بغداد في السنة الآتية.

وفيها ورد الخبر عن فرنج عكا أنّهم في حزن عظيم ولبس سواد ونواح، لمّا بلغهم أنّ سبع جزائر في البحر خسفت بأهلها وما فيها، فجهّز السلطان الملك الظاهر بيبرس عسكراً وأخذ منهم الشوبك.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة في ثامن المحرم بويع بالخلافة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد بالله أبي المنصور الفضل بن المستظهر العباسي بمصر.

وفيها سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى دمشق، فعمل الحيلة في إمساك الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل محمّد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ولم يزل يرسل إليه الهدايا والتحف ويطلب الفوز برؤيته ليحظى ببركته، بل تحيلاً على تحصيله، ومن جملة ما كتب إليه أنّ المملوك ينشد في قدوم مولاه:

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... باحسن من مولى تمشى إلى عبد

فلمّا وصل الملك المغيث إلى بيسان[1] خرج إليه الملك الظاهر بعساكره ولاقاه، فلمّا وصل إلى المخيّم أمسكه وجهّزه إلى مصر، وكان آخر العهد به، وقيل أنّه جهّزه إلى امرأته فقتلته جواريها بالقباقب إلى أن مات، فإنّه لمّا هرب الظاهر بيبرس من الكرك حين كان محبوساً مع المماليك البحرية ترك زوجته بالكرك فأكرهها المغيث والله أعلم.

وسار الملك الظاهر إلى الكرك فأحكم أمورها ثم عاد إلى مصر.

وفيها هدّمت كنيسة الناصرة بدمشق وهي أكبر مواطن عبادة النصارى، ومنها نجم دينهم.

وفي سنة اثنين وستين وستمائة قبض الأشكري صاحب قسطنطينية على كيكاؤوس السلجوقي صاحب بلاد الروم.

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة سار الملك الظاهر بعساكره إلى الجهاد وفتح قيسارية الروم.

---

(١) في المخطوط (نيسابور)، والصحيح ما اثبتناه. انظر: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: ٩٦/١، والمختصر في أخبار البشر: ٤٦٠/١.

وفيها أو في التي تليها هلك هولاكو بن طلو بن جنكزخان، واستقر ولده أبغا على ما كان بيد والده من المماليك.

وفي سنة أربع وستين وستمائة سار الملك الظاهر إلى دمشق بعساكره، وفتح صفد بعد حصارها وأخذها بالأمان، وقتل كل من بها وبثّ عساكره ففتحوا طرابلس وبلاد سيس وقتل في عوده إلى مصر أهل قار ونهبها، وكانوا نصارى مباطنين على المسلمين.

وفي سنة ست وستين وستمائة توجّه الملك الظاهر من مصر إلى الشام وفتح يافا، ونازل انطاكية وفتحها بالسيف، وأخذ بغراس، ودربساك، وشيح الحديد وغالب تلك النواحي.

وفي سنة سبع وستين وستمائة عاد إلى مصر خفية، وعاد إلى الشام ثم توجّه إلى الكرك، ثم توجّه إلى الحجاز فزار قبر النبي ﷺ، وحجّ وعاد إلى الكرك في سلخ ذي الحجة.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة مستهل المحرم توجّه إلى دمشق فوصل إليها بغتة، وفي يومه توجّه إلى حماة، وساعة وصوله إليها توجّه إلى حلب فلم يشعر به أهلها إلّا وهو معهم في الموكب، وعاد إلى دمشق ثم إلى القدس، ثم إلى القاهرة، فدخلها في ثالث صفر سنة ثمان وستين وستمائة.

وفي سنة تسع وستين وستمائة توجّه الملك الظاهر من مصر إلى حصن الأكراد، ثم نازل حصن عكار ففتحه بالأمان، وعمل عيد رضمان، وأنشد محيي الدين عند الظاهر:

يا مليك الأرض بشراك فقد نلت الارادة إن عكــار يـقينا هــي عكــار زيــادة

وتوجّه إلى دمشق وعاد إلى مصر.

وفي سنة سبعين وستمائة خرج إلى الشام وعزل أقوش النجمي عن نيابة دمشق، وولي مكانه أيدكين الفخري، ثم توجّه إلى حمص ثم إلى حصن الأكراد وعاد إلى دمشق، وبلغه الخبر بوصول التتر إلى عين تاب فتوجّه إلى حلب ثم عاد إلى مصر، وبعد أربعة أشهر عاد إلى الشام.

وفي سنة إحدى وسبعين وستمائة في المحرم عاد إلى مصر جريدة وأقام بالقلعة خمسة عشر يوماً ثم عاد إلى الشام، وتسلّم صهيون لوفاة صاحبها سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان، وبلغه أنّ التتر حاصروا البيرة فتوجّه إليها وهزم التتر عنها وصارت للمسلمين، وعاد إلى مصر ودخلها في خامس جمادي الآخرة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة بلغه أنّ التتر نازلوا البيرة فسار إليها، فجاءه الخبر في القطيفة أنّهم رحلوا عنها، فأتمّ السير إلى حلب ثم عاد إلى مصر، وجهّز عساكره إلى النوبة فنهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة بلغه أنّ أمراء الروم قد وفدوا إليه، فخرج من مصر ولاقاهم

إلى حلب ثم عاد إلى مصر، ثم خرج من مصر في العشرين من رمضان فوصل إلى دمشق، ثم إلى النهر الأزرق، ثم التقى مع التتر فانهزموا وقتل منهم وأسر، ومن جملة من أسر قبجق وسلار. ثم سار إلى قيسارية وأخذها وخطب له على منابرها، ثم عاد إلى العمق وأقام بها شهراً.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة خامس المحرم وصل الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس إلى دمشق. وفي السابع والعشرين من هذا المحرم انكشف القمر كسوفاً كلياً وتحدث المنجمون أنّه يموت رجل جليل القدر، فقصد الملك الظاهر أن يظهر ذلك في غيره فدعى شخصاً من بني أيوب اسمه الملك القاهر من ولد الناصر داود بن المعظم عيسى، وسقاه خمراً مسموماً ثم شرب هو في ذلك القدح عن سموم، وكان معه بقية من السمّ فماتا، ودفن الملك الظاهر بدمشق سراً وأظهر أنّه في محفة، فلمّا دخلت خزائنه قلعة الجبل أظهروا موته وبايعوا ولده الملك السعيد بركة، وكانت مدة سلطنة الظاهر سبع عشرة سنة وشهوراً.

وفي سنة سبع وسبعين وستمائة سار السعيد بركة إلى الشام ووصل دمشق، وجرّد العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، فشنّ الغارة على بلاد سيف، وغنموا وعادوا فلم يدخلوا دمشق فاستعطفهم السعيد فلم يلوا عليه، واتفقوا على خلعه واستمروا متوجّهين إلى مصر، فركب السعيد من فوره وسبقهم إلى مصر ونزل بالقلعة.

وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة خلع الملك السعيد بركة وأعطى الكرك، فسار إليها في شهر ربيع الأوّل واستقر في سلطنة مصر أخوه الأمين، ولقّبوه الملك العادل، وعمره سبع سنين وأشهر، واستقر الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي بالعساكر في المنصورة، واستمر شمس الدين سنقر في نيابة دمشق، وأقوش الشمسي في نيابة حلب، وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام يوم الأحد ثاني عشر رجب، جلس سيف الدين قلاوون الصالحي في دست السلطنة بدمشق وحلف أُمرائها، وتلقّب بالملك الكامل، ويقال له: الملك المنصور، وكان أصله من مماليك قراسنقر الساقي مملوك العادل، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب مع قلاوون، ومات الملك السعيد بركة في الكرك، فنقل إلى دمشق ودفن عند والده الظاهر، واستقر بالكرك أخوه نجم الدين، أقامته أهل الكرك ولقّبوه الملك المسعود.

وفي سنة تسع وسبعين وستمائة جهّز الملك المنصور عساكره إلى دمشق، وخرج إليهم سنقر الأشقر بعساكره، وعيسى بن مهنا فانكسروا، واستقر بدمشق مكانه الذي كان نائب قلعتها حسام الدين لاجين السلحدار، فإنّه لم يكن وافق سنقر وصاحب نائب حلب، واستقر مكانه علم الدين سنجر الباشغردي، وهرب سنقر الأشقر إلى شيزر.

وفي سنة ثمانين وستمائة قصد أبغا بن هولاكو الشام، وحشد ووصل إلى الرحبة وسيّر جيوشه إلى الشام مع أخيه منكوتمر، وخرج الملك المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره، واجتمعت إليه نواب الشام وسائر عساكر الإسلام حتى سنقر الأشقر، والتقى الجمعان بظاهر حمص الضحوة الكبرى يوم الخميس رابع عشر رجب، وكان عدّة التتر ثمانين ألف فارس غير الأتباع، فنصر الله المسلمين وأسروا وقتلوا وغنموا من التتر مالا يحصى، ووصل الخبر إلى أبغا وهو محاصر الرحبة فرحل عنها منهزماً، ومات أخوه منكوتمر بجزيرة ابن عمر، وعاد المنصور إلى مصر منصوراً.

وفي سنة إحدى وثمانين وستمائة مات أبغا بن هولاكو ببلاد همدان، وكانت مدة ملكه سبع عشر سنة وشهوراً، وملك بعده أخوه أحمد بن هولاكو، وأرسل الشيخ قطب الدين محمود الشيرازي، وكان إذ ذاك قاضياً بسيواس إلى الملك المنصور قلاوون، ومضمون رسالته أنّه مسلم ويطلب الصلح مع المسلمين ولم ينتظم ذلك.

وفي سنة اثنين وثمانين وستمائة خرج أرغون بن أبغا على عمه أحمد سلطان، لكونه أسلم وأمر التتر بالإسلام فانكسر وأسره أحمد ثم اتفقت التتر وأخرجوا أرغون من الاعتقال وركبوا على أحمد وقتلوه وملكوا أرغون، فقرّر ولديه قازان وخدابندا[١] بخراسان.

وفيها في رجب قدم السلطان الملك المنصور إلى دمشق. وجاءها في شعبان سيل عظيم خرب عمايراً كثيرة، وقلع أشجاراً غزيرة، وأخذ من الجمال والخيل مالا يحصى. ورجع السلطان الملك المنصور إلى دمشق، وجاءه المنصور صاحب حماة، ثم عاد كل منهما إلى بلده فمات صاحب حماة الملك المنصور، واستقر بعده ولده الملك المظفر محمود، وجاءه التشريف من سلطان مصر.

وفي سنة أربع وثمانين وستمائة قدم السلطان الملك المنصور قلاوون إلى دمشق وحاصر المرقب[٢] وأخذها، وعاد إلى بحيرة حمص وورد عليه الخبر بولادة ولده الملك الناصر، وعاد إلى مصر مسروراً فرحاً.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة أرسل قلاوون عسكراً، حاصر الكرك وأخذها بالأمان من خضر وسلامش ولدي الظاهر بيبرس، ثم خرج إليها فقرر أمرها وعاد إلى مصر.

وفي سنة ثمان وثمانين وستمائة توجّه المنصور قلاوون بالعسكر إلى طرابلس وحاصرها

---

(١) هو: خدابندا، والعامة تطلق عليه خربندا، واسمه بالعربية عبدالله.

(٢) المرقب: قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس [معجم البلدان: ١٠٨/٥].

وفتحها بالسيف، وغنم المسلمون ما لا يحصى. ثم هدّمها إلى الأرض وكانت لها مع الفرنج نحو مائة وخمس وثمانين سنة.

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة توفي السلطان الملك المنصور قلاوون، وكانت مدة ملكه نحو إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر، واستقر في السلطنة ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

وفي سنة تسعين وستمائة توجّه الملك الأشرف خليل إلى عكا بالعساكر المصرية والشامية وحاصرها وفتحها بالسيف، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، وهدّمت إلى الأرض ورعبت الفرنج من ذلك فأخلوا صيدا، وبيروت، وعثليث، وأنطرطوس، وصور وخربت جميعها، وخلت سواحل الشام من الفرنج.

وفيها كمل قراسنقر عمارة قلعة حلب، وكان لها ثلاث وثلاثين سنة خرابا منذ خرّبها هولاكو.

وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة سار الملك الأشرف بالعساكر الإسلامية إلى قلعة الروم وحاصرها وفتحها بالسيف، وقلعتها بالأمان على أرواحهم مع أسرهم وأخذ أموالهم، ولمّا عاد عزل قراسنقر عن حلب وأخذه معه، وولي مكانه بلبان الطباخي، وعزل علم الدين سنجر الشجاعي عن دمشق، وولي مكانه عز الدين أيبك الحموي.

وفي سنة اثنين وتسعين وستمائة توجّه الملك الأشرف من مصر إلى الشام، ونزل قريباً من حمص، فجاءه مهنا بن عيسى وأخواه محمّد وفضل ولد عيسى، فقبض على الجميع وأرسل بهم إلى قلعة الجبل ثم عاد إلى مصر.

وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة في أوائل المحرم، قتل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وكان في الصيد في تروجة فركب عليه مماليك أبيه بيدرا ولاجين الذي كان نائباً بالشام، وقراسنقر الذي كان نائباً بحلب، وكان إذ ذاك راكباً يسير في قليل من أصحابه، فضربه بيدرا ثم لاجين حتى فارق، فحمل من تروجة إلى القاهرة ودفن في تربته، واجتمعت مماليكه وتبعوا بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح، وأمّا لاجين وقراسنقر فاختفيا واتفقت الأمراء على سلطنة الملك الناصر محمّد بن الملك المنصور قلاوون، وجلس على سرير الملك في العشر الأوسط من المحرم، واستقر الأمير زين الدين المنصوري في نيابة السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعي في الوزارة، ثم ظفروا بمن كان مع قتلة الملك الأشرف من الأمراء، فأمسكوا وقطعت أيديهم وأرجلهم، وطيف بهم وهي معلقة في أعناقهم، ثم صلبوا وحصلت الشفاعة في لاجين وقراسنقر فظهرا وأمرا.

وفي سنة أربع وتسعين وستمائة جلس كتبغا في دست السلطنة وتلقّب الملك العادل، وضربت السكة وأقيمت الخطبة باسمه في مصر والشام. وجعل الملك الناصر محمّد بن قلاوون في قاعة

محجوباً، وأفرج عن أولاد عيسى بن مهنا، وقصر النيل عن الوفاء، وأعقب ذلك غلاء عظيم ووباء.

وفيها أسلم قازان ملك التتر، ونثر على الخلق الذهب وكان يوماً مشهوداً.

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة قدّمت العويراتية إلى بلاد الإسلام هاربين من قازان بن أرغون بن ابغا بن هولاكو لمّا استولى على ملك التتر، وقتل عمه بيدو بن طرغية بن هولاكو، وكانوا نحو عشرة آلاف إنسان، فأنزلهم السلطان كتبغا وأحسن إليهم حيث جاءوا مسلمين، وأعطاهم الاقطاعات وتوجّه إلى الشام. وعزل نائب دمشق أيبك الحموي، وولى مملوكه غرلو نيابة دمشق.

وفي سنة ست وتسعين وستمائة توجّه إلى القاهرة في مستهل السنة، فلمّا كان بمخيمه بالعوجا، ركب عليه لاجين وقراسنقر ومن معهما من الأمراء، فهرب كتبغا إلى دمشق وخلع نفسه من السلطنة، وأرسل يطلب الأمان من لاجين فأمنه وأعطاه صرخد وبويع لاجين بالسلطانة وتلقّب بالملك المنصور، وتوجّه بالعساكر إلى مصر فلمّا وصل أرسل سيف الدين قبجق نائباً إلى دمشق، وأرسل الملك الناصر محمّد بن قلاوون من القاعة التي كان فيها محرزا عليه إلى الكرك.

وفي سنة سبع وتسعين وستمائة جهّز لاجين عساكره إلى بلاد الأرمن وفتحها جميعاً خلا سيس.

وفي سنة ثمان وتسعين وستمائة وثب على لاجين جماعة من مماليكه الصبيان أوّل الليل وهو يلعب بالشطرنج فقتلوه، وكانت مدة ملكه سنتين وثلاثة أشهر، واتفقت الأمراء على إعادة الملك الناصر محمّد بن قلاوون إلى ملكه فأحضروه، واستقر في السلطنة وولي نيابة مصر سلار، ونيابة دمشق أقوش الأفرم.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك الناصر محمّد سلطان حماة، وعمره إحدى وأربعون وستة عشر شهراً وسبعة أيام، ومدّة سلطنته ستة عشر سنة وشهر ويوم، واستقر قراسنقر نائباً لسلطنة حماة.

وفي سنة تسع وتسعين وستمائة وصل قازان ملك التتر بجموعه إلى حلب، وخرب وأُسر وقتل وسار إلى حماة، وخرجت العساكر الإسلاميه وسلطانهم الملك الناصر، والتقى الجمعان بالقرب من حمص، ووقع قتال عظيم وانكسرت المسلمون، واستولت التتر على دمشق وتبعوا المنهزمين إلى غزة، والقدس، والكرك، وعصيت قلعة دمشق، وكان نائبها ارحواش المنصوري فقام في حفظها أتمّ قيام، وحرق كلما كان حولها دار النيابة وغيرها، وبذلت أهل دمشق لقازان مالاً عظيماً فأمنهم ورحل عنهم إلى بلاده.

وقرّر بدمشق قبجق وجرّد معه عدّة من المغل، وبلغ المصريين رحيل قازان عن دمشق فخرج السلطان بهم إلى الصالحية، وجهّز سلار وبيبرس إلى دمشق وقرّر أمورها، واستقر قراسنقر في نيابة

حلب، والأفرم في نيابة دمشق، وكتبغا المنصوري الذي كان سلطان مصر في نيابة حماة، وعاد السلطان إلى القاهرة. وأمّا الأرمن فإنّهم طمعوا واستعادوا قلاعهم وما جاورها خلا شغلان.

وفى سنة سبعمائة عادت التتر وعبروا الفرات وعاثوا في بلاد حلب، وجفلت أهل حلب وحماة نحو الشام، وخرج عسكر مصر والسلطان ووصلوا إلى العوجا، فردّت التتر إلى بلادهم، وكفى الله المؤمنين القتال. وتوجّه السلطان إلى مصر.

وفيها بسبب مجيء التتر استخرج من غالب الأغنياء بمصر والشام ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة.

وفي سنة إحدى وسبعمائة توفي الخليفة بمصر أبو العباس أحمد الحاكم بأمر الله، واستقر مكانه ولده أبو الربيع سليمان المستكفي بالله بعهد من أبيه.

وفي سنة اثنين وسبعمائة جاءت التتر بجموعهم إلى بلاد المسلمين صحبة قطلوا شاه نائب قازان، وانحازت العساكر الإسلامية الشامية إلى دمشق، وتوجّهت العساكر المصرية نحو الشام واجتمعوا بمرج الصفر، وتجاوزت التتر دمشق ونزلوا شقحب وترآءى الجمعان، وتلك الساعة وصل السلطان الملك الناصر محمّد بن قلاوون، ووقع القتال الشديد من العصر يوم السبت ثاني رمضان إلى أن دخل الليل، واستشهد جماعة من المسلمين، وانكسرت التتر وقتل منهم خلق كثير، وأحاط المسلمون بالتتر، فلمّا أصبحوا ورأوا كثرة المسلمين ولّوا على أدبارهم، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً، وغرق في الفرات غالب من هرب منهم، ونصر الله المؤمنين نصراً مؤيداً.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة مات قازان بن ارغون بن أبغا بن هولاكو كمداً بحمّى حادّة، وكانت مدّة ملكه ثمان سنين وعشرة أشهر، واستقر مكانه أخوه خربندا وتلقّب بجنبو سلطان.

وفي سنة سبع وسبعمائة أظهر السلطان الملك الناصر قصد الحجاز وتوجّه، فلمّا وصل إلى الكرك أقام بها. وجهّز نائب الكرك أقوش إلى الديار المصرية يعلم الناس أنّ السلطان كره الإقامة بمصر لتغلب بيبرس وسلار عليه، فاتفقوا على سلطنة بيبرس، وركب بإهبة السلطنة والسواد والعمامة المدورة والسيف الخليفتي، والأعيان مشاة، والصاحب حامل على رأسه التقليد من أمير المؤمنين في كيس أطلس، وأوّله أنّه من سليمان وأنّه بسم الله الرحمن الرحيم وبلغت عدّة الخلع في ذلك اليوم ألفاً ومائتي خلعة، وتلقّب بالملك المظفر، وحلف له نواب الشام جميعهم، واستقروا بالسلطان الملك الناصر في نيابة الكرك.

وفي سنة ثمان وسبعمائة خرجت جماعة من الأمراء على حمية إلى الكرك وجاءت كتب إلى بلاد الشام، وخرج السلطان الملك الناصر من الكرك وحضرت إليه نواب الشام حلب، وحماة

وغيرها، وسار السلطان بعساكره نحو مصر، فلمّا وصل غزة جاءته أمراء مصر أوّلاً فأوّلاً طائعين. وأرسل بيبرس يطلب الأمان وهرب إلى جهة الصعيد، وخرج الناس إلى ملاقاة السلطان، ودخل السلطان قلعة الجبل وكانت هذه سلطنته الثالثة في يوم الجمعة ثالث شوال، وأحضر بيبرس إلى بين يدي السلطان فأمر بحبسه وكان آخر العهد به.

وفي سنة عشر وسبعمائة استقر الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب التاريخ في نيابة السلطنة بحماة، وفرح أهل حماة بل سائر الناس بذلك فأنشد زين الدين عمر بن الوردي:

وفاز المؤيد في يومه ... بما كان يرجوه في أمسه
وكم قد شكى الحيف من دهره ... فأنصفه الدهر من نفسه

وهذا ابن الوردي هو القائل:

إذا احببت نظم الشعر فاختر ... لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسته ومكن ... قوافيه وكله إلى الطباع

وهو القائل:

إذا كرهت منزلاً فدونك التحولا ... وإن جفاك صاحب فكن به مستبدلا
لا تحملن اهانه من صاحب وإن علا ... فمن أتى فمرحباً ومن تولى فإلى

وله في أمير:

أقول لبدر سار ما بين أنجم ... أأنت أمير المصر قال أميره
فقلت إذا مات الكرام بأسرهم ... أأنت تمير الوفد قال أميره

واستمر المؤيد نائباً بحماة مدة عشرين سنة وفي كل سنة يتوجّه إلى الملك الناصر بهدايا عظيمة من الجواهر وغيرها ويبالغ الناصر في إكرامه.

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة استقر الأمير أرغون الدوادار نائب الملك الناصر بالديار المصرية، وباشر بماشرة حسنة، واستمر ستة عشر سنة. وعظمة دولة الملك الناصر، وطالت مدة نوابه بالممالك تنكز بدمشق، والطنبغا بحلب.

وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة فتح تنكز نائب دمشق الشام، ومن معه من العساكر مدينة ملطية بالأمان للمسلمين دون النصارى.

وفي سنة تسعة عشرة وسبعمائة حجّ السلطان الملك الناصر محمّد بن قلاوون، ومعه الملك المؤيد نائب حماة، فلمّا عاد إلى القاهرة ولاه سلطنة حماة ولقّبه بالملك الصالح، وأمره أن يكون على قاعدة آبائه بني أيوب، يخطب له بحماة ولا يرد عليه توقيع ولا منشور من القاهرة، وأركبه

بشعار السلطنة والغاشية والشبابة، ومشى في خدمته أرغون نائب الملك الناصر وأمراء القاهرة في يوم مشهود.

وفي سنة عشرين وسبعمائة توجّه إلى حماة يوم الخميس سابع عشري المحرم، ورسم لتنكز ونواب الممالك أن يكتبوا له يقبل الأرض ثم لقّب الملك المؤيد.

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة توجّه الأمير أرغون النائب إلى الحجاز، وتغيّر عليه السلطان في غيبته، فلمّا حضر أرسله نائباً إلى حلب وطلب الطنبغا إلى مصر.

وفي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة نهار الأربعاء تاسع صفر وصل نهر الساجور إلى حلب، فزيد به نهر قويق، ساقية بناها أرغون الدوادار، وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً، وأخرج لملاقاته ملك الأمراء وسائر الناس مشاة مكبّرين مهلّلين، ومنع أهل الذمّة عن الخروج معهم وكان قبله الأمير سودي نائب حلب قصد سوقه وشرع فيه، فقيل له: من ساقه يموت في عامه فتأخر عنه، وقيل مثل ذلك لأرغون، فقال: لا أرجع عن خير عزمت عليه، فقدر الله تعالى أنّه مرض قبل مضي أربعين يوماً ومات. وأنشد القاضي شرف الدين الحسين بن ريان:

لما أتى نهر الساجور قلت له ... كم ذا التأخر من حين إلى حين
فقال أخرني ربي ليجعلني ... من بعض معروف سيف الدين أرغون

وأنشد القاضي بدر الدين الحسن بن حبيب:

قد أضحت الشهباء تثني على ... أرغون في صبح وديجور
من نهر الساجور أجرى بها ... للناس بحراً غير مسجور

وكان عمر أرغون نحو الخمسين سنة اشتراه الملك المنصور قلاوون صغيراً لولده الناصر محمّد، وربي معه وكان فقيهاً حنفياً ورعاً.

وفي سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة توفي الملك المؤيد إسماعيل بحماة، واستقر بعده في سلطنة حماة ولده الملك الأفضل محمّد، وفيه يقول جمال الدين بن بنانة المصري:

أهلا بمقدمك السعيد وحبذا ... عيني على رغم الاعادي
مقبل طلع الهلال وعن وجهك للورا ... يتفاضلان فكنت أنت الأفضل

وفي سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ورد لؤلؤ القندشي صاحب الدواوين بالقاهرة لمصادرة أهل حلب، وفتك بالمسلمين حتى أنشد فيه ابن الوردي:

قلبي لعمرو الله معلول ... بما جرى للناس مع لؤلؤ
يا ربّ قد شرد عنا الكرا ... سيف على العالم مسلول

ومـا لهـذا السـيف مـن مـغمد سـواك يـا مـن لطـفه السـول

وفي سنة ست وثلاثين وسبعمائة عمر تنكز نائب الشام قلعة جعبر بأمر الملك الناصر.

وفي سنة سبع وثلاثين وسبعمائة توجّه الطنبغا نائب حلب ومعه عساكر مصر والشام، وحاصروا آياس وأخذوها بالأمان، وتسلّموا البلاد التي بشرقي نهر جيحان.

وفي سنة أربعين وسبعمائة توفي الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي، وكانت خلافته سبعاً وثلاثين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوماً، وبويع ولده الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بعهد من أبيه.

وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة توفي السلطان الملك الناصر محمّد بن قلاوون، وكان عمره نحو ثمان وخمسين سنة، ومدّة سلطنته نحو ثلاث وأربعين سنة، واستقر في السلطنة ولده الملك المنصور أبو بكر بعهد من أبيه.

وفي سنة اثنين وأربعين وسبعمائة توفي الملك المنصور أبو بكر بن محمّد بن قلاوون مقتولاً بقوس، واستقر أخوه الملك الأشرف كجك في حادي عشر صفر، وخلع في شعبان. واستقر في السلطنة أخوه الملك الناصر أحمد، فتوجّه ثاني سنة إلى الكرك يوم الأربعاء ثاني ذي الحجة وعصى بها.

وفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة اتفقوا على خلعه فخلعوه، واستقر في السلطنة بمصر أخوه الملك الصالح إسماعيل يوم الخميس ثاني عشر المحرم.

وفيها وردت رسل ملك الخطا أنّه قد هداه الله إلى الإسلام، ويطلب كتب علم الشريعة.

وفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة حوصرت الكرك، وقبض على الملك الناصر أحمد، وحمل إلى أخيه الملك الصالح بمصر، فكان آخر العهد به.

وفي سنة ست وأربعين وسبعمائة توفي الملك الصالح إسماعيل، قيل أنّه لمّا حوصر أخوه أحمد بالكرك، وأحضر رأسه إلى الصالح إسماعيل ارتجف ومرض ومات، واستقر في السلطنة أخوه الملك الكامل شعبان في ربيع، وفيه يقول جمال الدين ابن نباتة:

جـبين سـلطان البـديع مـبارك الطـالع البـديع
يـا بـهجة الدهـر إذ تـبدى هـلال شـعبان فـي ربـيع

وفي سنة سبع وأربعين وسبعمائة قتل الملك الكامل شعبان، وولي السلطنة أخوه الملك المظفر حاجي.

وفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة توفي الملك المظفر حاجي، وقيل قتل واستقر في السلطنة

أخوه الملك الناصر حسن.

وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي خليفة مصر الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد، وبويع أخوه المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي.

وفي سنة اثنين وخمسين وسبعمائة خلع السلطان حسن وحبس، واستقر في السلطنة أخوه الملك الصالح صالح.

وفي سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة سار نائب حلب إلى مصر طالباً الملك لنفسه، وانجر معه عساكر عظيمة منها: نائب طرابلس، ونائب حماة، ونائب صفد. فخرج إليه السلطان الملك الصالح بعساكره، فلمّا بلغه ذلك رجع من قبل دمشق إلى جهة حلب، فمنع عنها وتشتت شمله وتفرقوا أيادي، سبى واستقر نائباً بحلب عوضه الأمير أرغون الكاملي، وظفروا ثاني سنة بالنائب السابق وبعض من وافقه، وقتلوهم وجهّزت رؤسهم من حلب إلى القاهرة.

وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة خلع الملك الصالح، وأُعيد الملك الناصر حسن إلى السلطنة.

وفيها استحوذ الفرنج على صيدا.

وفيها ولي سلطنة بغداد أويس بن الشيخ حسين بن حسن بن آقبغا بن ايلكان[1].

وفي سنة تسع وخمسين وسبعمائة ولي الأمير سيف الدين منجك الناصري نيابة حلب، ثم نقل إلى دمشق، ثم طلب ثاني سنة إلى مصر ففر من غزة ولم يعلم له خبر.

وفي سنة إحدى وستين وسبعمائة توجّه نائب حلب الأمير بيدمر الخوارزمي بالعساكر الحلبية إلى غزو البلاد السبتية، وفتح أذنه وطرسوس ومصيصا وعدة قلاع وعاد مؤيداً منصوراً.

وفيها قبض على الأمير منجك من دار بالشرف الأعلى، وحمل إلى مصر وتمثل لدى السلطان وهو لابس بشتا من صوف، وقد أعتمر بمئزر صوف فعفى عنه، وأعطاه أمرية طبلخانة بالشام يأكلها طرخانا وأن يقيم حيث شاء من البلاد.

وفي سنة اثنين وستين وسبعمائة توفي السلطان الملك الناصر حسن، قتله مملوكه يلبغا الخاصكي، واستقر في السلطنة ابن أخيه الملك المنصور محمّد بن الملك المظفر حاجي.

وفي سنة ثلاث وستين وسبعمائة توفي خليفة مصر المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر، واستقر مكانه ولده المتوكل على الله أبو عبدالله محمّد.

---

(١) في المخطوط (انكلان)، والصحيح ما اثبتناه.

وفي سنة أربع وستين وسبعمائة خلع السلطان الملك المنصور محمّد بن المظفر حاجي، واستقر عوضه في السلطنة ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الملك الناصر محمّد بن قلاون.

وفي سنة سبع وستين وسبعمائة كان هجوم الفرنج إلى الاسكندرية.

وفي سنة ثمان وستين وسبعمائة عاد الأمير سيف الدين منكلي بغا إلى نيابت حلب، وأنشأ جامعه المعروف به بحلب داخل باب قنسرين.

وفي سنة تسع وستين وسبعمائة أوقع السلطان الملك الأشرف بمن أراد الغدرية من الأمراء، وغرق منهم جماعة وسمر جماعة ووسطهم ونفى باقيهم، فكان فيمن بقي برقوق وبركة وجركس الخليلي وأقبغا الماريديني.

وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة توجّه نائب حلب الأمير أشقتمر بالعساكر الحلبية لأخذ سيسي وفتحها بعد حصار شهرين، وعاد سالماً غانماً ومعه صاحبها سيسي تكفور الأرمني وجهّزه إلى مصر.

وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة توجّه السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز الشريف، فركب عليه بعض أمرائه بمباطنة طشتمر الدوادار فهرب نحو القاهرة، فلمّا وصل إليها وجد الأمير قرطاي وايبك قد ادعيا موته وأقاما ولده علياً سلطاناً ولقّب الملك المنصور، فنزل بقبة النصر وعلم به قرطاي وايبك فأرسلا إليه فوجداه قد هرب هو ويلبغا الناصري، وأمسك بقية من كان معه وقتلوا، وبعد يومين أمسك الملك الأشرف شعبان وعوقب وقتل، واستمر ولده الملك المنصور علي على سلطنته إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة بالطاعون في القاهرة، واستقر عوضعه في السلطنة أخوه الملك الصالح حاجي بن شعبان.

وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة قدم الأمير يلبغا الناصري إلى القاهرة ولاقاه الأمير الكبير إلى ظاهر البلد، وترجّل له عن فرسه وأركبه مركوباً خاصاً. ثم في اليوم الثاني من قدومه رسم لمقدمة ألف، وأجلس في الخدمة السلطانية بالأيوان رأس الأمراء فوق أمير السلاح.

وفي سنة أربع وثمانين وسبعمائة يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان المعظم خلع الملك الصالح حاجي بن شعبان، واستقر عوضه الأمير سيف الدين برقوق سلطاناً ولقّب الملك الظاهر، وكني أبا سعيد.

وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة قدم الناصري نائب حلب إلى القاهرة يوم السبت أوّل المحرم، وقبل الأرض لدى الظاهر برقوق، وكان بالأمس الناصري من جملة الأمراء الأشرفية

وبرقوق من مماليك الأستاذ، إذا ضمهما مجلس قام برقوق على رجليه بين يدي الناصري، فأصبح يقبل الأرض له ويمتثل أمره ونهيه، فسبحان من يغير ولا يتغير، ويؤتي الملك لمن يشاء وقد قيل:

إذا رأيت أمرءاً وضيعاً قد رفع الدهر من مكانه
فكن له سامعاً مطيعاً معظماً من عظيم شانه
فقد سمعنا بأن كسرى قال قديما لترجمانه
إذا زمان التساع ولى أرقص للقرد في زمانه

ثمّ أنّ الناصري توجّه إلى جهة حلب في عاشر المحرم.

وفيها أراد جماعة القيام على السلطان برقوق ونزعه من الملك، ووافقهم الخليفة المتوكل، فبلغه ذلك فأمسك الخليفة وسجنه وخلعه عن الخلافة، وفوضها لقرابته عمر بن إبراهيم بن الواثق.

وفي سنة ست وثمانين وسبعمائة توجّه الناصري نائب حلب إلى القاهرة، وخلع برقوق عليه خلعة الاستمرار وعاد إلى حلب، ثم أرسل بعض الأمراء إلى الناصري يطلب منه أبياتاً ينقشها على سنان رمح مثلث، فقد أنشد فيه فضلاء دمشق، وأنشد فيه الحلبيون، وأنشد قاضي حلب محمّد بن شحنة صاحب تاريخ روض المناظر:

انا الأسمر الخطار اسمو إلى العلا تقصر عني المرهفات وتقصر
حياض المنايا من قناتي قد جرت انابيبها تهمى دما وتهمر
وتجني ثمار النصر مني جنية فعودي لعمري ذابل وهو مثمر

وله أيضاً:

وبدر في حنين جاء يسطو بسيف اللحظ والقد الرديني
فانى تنكر القتلى وبدر اتانا وهو يخطر في حنين

وفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة طلب الناصري إلى مصر، فقبض عليه من الطريق وحبس بالاسكندرية، واستقر عوضه بحلب سودون المظفر.

وفي سنة ثمان وثمانين وسبعمائة قبض على بيدمر نائب الشام، بسبب ما نسب إليه من موافقة الفقهاء الذين أرادوا نزع الظاهر برقوق من السلطنة، واستقر عوضه في نيابة الشام الأمير اسقيمر.

وفي سنة تسع وثمانين وسبعمائة أعيد الناصري إلى نيابة حلب وأهين سودون غاية الإهانة، وتوجّه الناصري بمن معه من العساكر المصرية والشامية والحلبية إلى جهة منطاش الافضلي، والتجأ منطاش إلى القاضي برهان الدين صاحب سيواس، ووصل الناصري إلى سيواس وحاصرها مدّة وقارب أخذها. فأرسل القاضي برهان الدين يطلب الأمان، وسأل الناصري أن يتأخر عن

المدينة قليلاً ليخرج إليه ويسلمه منطاش، فاتفق الناصري مع عساكره على أن يظهروا الإجابة لذلك، ورحل من جانب النهر إلى الجانب الآخر فلم ينزل معه من الجانب الآخر من العساكر إلّا القليل، فتمّت الحيلة على الناصري وركب عليه برهان الدين ومنطاش بمن معهما من التتر في نحو عشرين ألفاً، فثبّت الناصري بمن بقي معه، وكانوا دون الألف ونصر الله الناصري وكسر برهان، فهرب هو ومنطاش إلى المدينة، وقتل الناضري منهم نحو ألف وأسر مثلهم، وعاد واستقر أمير كبيراً بحلب إلى أن قتل بها.

وفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة قتل سودون المظفري بدار العدل في صفر، وأظهر الناصري بعد ذلك الخروج على السلطان برقوق، وأرسل وراء منطاش فأحضر وتوجّه مع الناصري بمن معه من العساكر نحو مصر، وانجمع على الناصري غالب العساكر الشامية، وأخذ دمشق وقلعتها وتمروج الأمر على الملك الظاهر برقوق، فجهّز الخليفة في طلب الأمان وفرّق مماليكه واختفى قبل وصول الأمان، فدخل الناصري إلى مصر وتسلّمها وأمسك السلطان برقوق بعد تسعة أيام، وجهّزه معتقلاً عليه إلى الكرك، وعرض على الناصري السلطنة فأبى، وأعاد الملك الصالح حاجي إلى السلطنة ولقّبه الملك المنصور.

وفي شعبان من هذه السنة كانت الفتنة بين الناصري ومنطاش لمّا فهم منطاش أنّ الناصري قصده السلطنة، وركب منطاش على الناصري وأمسكه وأمسك معه جماعة من الأمراء، وأرسلهم إلى الاسكندرية محبوسين، وأرسل إلى بزلار نائب دمشق من أمسكه وقتل، وأرسل إلى الكرك من يقتل السلطان برقوق - وكان الذي أرسله من أهل الكرك وهو متعرض لاعيانهم - فقتلوه وأطلقوا السلطان برقوق، فسار إلى دمشق بفرقة يسيرة، وخرج إليه نائبها بالعساكر الشامية فكسرهم، ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق، وتوجّه إليه نائب حلب ناصراً له. واجتمع إليه من كان تفرق عنه فخرج إليه منطاش من مصر بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام.

وفي سنة اثنين وتسعين وسبعمائة التقى الجمعان بسقحب، فانتصر بعض كل من الفريقين وانكسر البعض، ولم يعلم أحد حال أحد، فولى نائب حلب هارباً نحو حلب، وولى منطاش نحو دمشق، ولم يشعر الملك الظاهر برقوق بنفسه إلّا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجي، فنزل وأمسكه وجلس على الكرسي، وجعل كل من يحضر من المفتين يجده جالساً فلا يسعه إلّا النزول وتقبيل الأرض، وفي ثاني يوم خرج منطاش والتقى الجمعان وصار تناوشاً قليلاً، ورجع كل منهما فتوجّه السلطان الملك الظاهر برقوق إلى جهة مصر، فوصل إليها فوجد مماليكه قد خرجوا من الحبس وأمسكوا خلفاء منطاش، ومنطاش مقيم بدمشق، فدخل السلطان برقوق إلى مصر

مطمئناً فرحاً وعاد إلى ملكه مؤيداً منشرحاً، وأطلق الأمرآء الذين كان حبسهم منطاش وجهّز عسكراً من مصر ومقدمهم الأمير يلبغا الناصري، وبلغ ذلك منطاش فهرب من دمشق وخرج الناصري في أثره، وحصلت وقعة عظيمة على حمص قتل فيها جماعة من الأمراء وعاد الناصري إلى دمشق، فجاءه تقليد بنيابتها وبلغ ذلك نائب حلب فأخذ في عمارة أسوارها فعمّرت أحسن عمارة، ولم تكن منذ خرّبها هولاكو عمّرت. ووصل منطاش ومن معه بعساكر عظيمة ونازلوا حلب وحاصروها في شهر رمضان، وانقلبوا خائبين وقصدوا عين تاب وكان بها الأمير ناصر الدين محمّد ابن عز الدين موسى بن شهري فدفعهم عنها، وظهرت فروسيته وشكر على ذلك، وطلبه السلطان برقوق بعد ذلك وأنعم عليه وأكرمه وولاه ملطية.

وفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة مرّ منطاش غربي حلب وتوجّه إلى حماة وأخذها، وهرب نائبها أحمد بن المهندار، وتوجّه منطاش إلى بعلبك فخرج إليه الناصري من دمشق، فخالفه منطاش في الطريق ودخل دمشق نهار الأحد مستهل رجب منها، ونزل بالميدان والقصر الابلق خارج السور، وفي اليوم الثاني عاد الناصري إلى دمشق وبقي منطاش بظاهرها، والناصري بداخلها يتناوشان القتال في كل يوم، وبلغ ذلك السلطان فخرج نحو الشام فبلغ ذلك منطاش فهرب نحو المشرق، وقدم السلطان دمشق وخرج الناصري إلى لقائه فترجّل له السلطان وعانقه وأركبه فرساً من مراكبه الخاصة، وأرسل إليه أمير كان مع منطاش اسمه نعير[١] بالطاعة، وطلب الأمان لنفسه ملتزماً بتحصيل منطاش، ثم توجّه السلطان إلى البلاد الشمالية، واستصحب معه الناصري وقدم حلب وأقام بها شهوراً، وأمسك الناصري ومن كان معه ثم عاد، وليلة عوده قتل يلبغا الناصري وجماعة من الأمراء بقلعة حلب، وأخذ معه قرامرداش وقرّر عوضه في نيابة حلب الأمير سيف الدين بطا دوادار، وفي نيابة حماة مرداس[٢] الخاصكي.

وفي سنة أربع وتسعين وسبعمائة وصل السلطان الملك الظاهر برقوق إلى مصر.

وفيها كان منطاش قد التجأ إلى نعير فأرسل السلطان وعد نعير بإعادة الإمرة إليه ومناه، حتى سلم منطاش وقتل بقلعة حلب، وأحضر رأسه إلى مصر وعلق بباب زويلة، وأرسل السلطان يوبخ نعير بأنّه خان ذمّة العرب، ولم يوله الإمرة.

---

(١) في المخطوط بعيرى وما اثبتناه من المصادر، انظر إلى تاريخ ابن الفرات: ٣٣٨، أنباء الغمر: ١/١٧٠، السلوك لمعرفة الملوك: ٢/٤٥٢.

(٢) هكذا في المخطوطة المعتمدة، وفي كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (دمرداش).

وفيها أخذ قرا يوسف بن قرا محمّد من التركمان بالشرق مدينة تبريز، وأرسل مفاتيحها إلى السلطان الملك الظاهر برقوق، فأرسل إليه تشريفه فلبسه واستقر نائباً بها.

وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة قدم إلى بلاد حلب السلطان أحمد ابن أويس هارباً من تمرلنك، وخرج إليه النائب بحلب وتلقاه وأخبره أنّ تمرلنك أخذ سائر بلاد العجم والعراق وتبريز، وأنّه أرسل قصاده إلى السلطان. فكتب السلطان إلى نائب الرحبة أن يقتل قصاده عن آخرهم ففعل! وبلغ ذلك تمرلنك فتوجّه نحو الشام، ووصل الرها وأخذها بالسيف قتلاً وسبياً ونهباً وعاد.

وفي سنة ست وتسعين وسبعمائة وصل السلطان أحمد بن أويس إلى القاهرة، فخرج السلطان برقوق إلى لقائه وأكرمه وأمر الأمراء بالمشي في خدمته.

وفيها خرج السلطان الملك الظاهر برقوق إلى جهة حلب بسبب تمرلنك، واستصحب معه السلطان أحمد بن أويس، ولمّا وصل إلى دمشق خلع عليه وجهّزه بشعار الملك، فتوجّه إلى بغداد وأخذها وضرب السكة باسم الملك الظاهر برقوق.

وفي سنة سبع وتسعين وسبعمائة عاد السلطان الملك الظاهر برقوق إلى حلب وأقام بها أربعين يوماً، ثم عاد إلى مصر فحضر إليه رسل أبي يزيد بن عثمان بهدايا وتحف في طلب تشريف من الخليفة العباسي له، بأن يكون سلطان الروم فجهّز السلطان له ذلك.

وفي سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وصل اطلمش قرابة تمرلنك أرسله قرا يوسف في الترسيم فاعتقله السلطان برقوق، وكانت هذه الحركة من أعظم طروق تمرلنك إلى بلاد الشام.

وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة طلب الأمير تنم نائب الشام إلى مصر فحضر، وخلع عليه السلطان وأضافه بلاد الزبداني وهي بين دمشق وبعلبك وعاد.

وفي سنة ثمانمائة طلب الأمير تغري بردي إلى القاهرة، فقرّره في مكان الشيخ الصفوي رأس ألف كاتب ونفى الصفوي إلى القدس.

وفيها خطب السلطان الملك الظاهر بروق على منابر ماردين.

وفي سنة إحدى وثمانمائة توفي السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بضعف حصل له، ودفن عند الشيخ الزهوري وبنى عليه تربة معظمة. واستقر عوضه في السلطنة حسب وصيته، ولده الملك الناصر فرح أبو السعادات، وعصى تنم نائب الشام، واجتمعت إليه غالب نواب الشام وأمرائها، ووافقه نائب حلب، فطمع بن عثمان سلطان الروم ونازل ملطية وحاصرها وأخذها.

وفي سنة اثنين وثمانمائة خرج الملك الناصر فرح نحو دمشق، وخرج تنم بمن معه نحو مصر والتقى الجمعان بأرض فلسطين، وانكسر تنم وأمسك هو وجماعة. ودخل السلطان دمشق وأقام

بها أياماً، وقتل تنم وجماعة من الأمراء وعاد إلى الديار المصرية منصوراً، واستقر في نيابة دمشق خال السلطان سودون، وفي نيابة حلب دمرداش الخاصكي، وفي نيابة طرابلس شيخ المحمودي، وفي نيابة حماة دقماق، وفي نيابة صفد الطبغا العثماني.

وفي سنة ثلاث وثمانمائة شاعت الأخبار بأنّ تمرلنك حين عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق، فاستبشر بذلك وأنعم على مخبره بجملة كثيرة، وكان في قلبه منه من قتله رسله بالرحبة ومن أخذ ابن عثمان سواس وملطية، وأخذ السلطان أحمد بن أويس بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر ما لا يحصى، حتى أخبر الحافظ الخوارزمي أنّ المدونون[1] من عساكره المختصة به ثمانمائة ألف، وأنّه اجتاز على سواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لأهلها أن لا يضع فيهم السيف، فلمّا تمكّن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء، وكانوا ثلاثة آلاف مسلم ثم حرقها وخرّبها ثم توجّه نحو الابلستين، فوجد أهلها قد أخلوها فأحرقها وخرّبها، ثم توجّه نحو ملطية فهرب من كان بها فأحرقها وخرّبها، ثم اجتاز على بهسنا فحاصرها ونصب عليها المناجيق، وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحاً، وقصد قلعة المسلمين بين بهسنا وحلب، وكان نائبها المعز الناصري محمّد ابن الشرقي موسى بن شهري، سبط الملك المؤيد عماد الدين، وكان قد بدع بجمائع تمرلنك وطراشته مدة إقامته على بهسنا، وقتل منهم جماعة وأرسل رؤسهم إلى حلب، وكسر يوماً ما جهّزه إليه أقبح كسر حتى رمى غالب جماعته نفوسهم في الفرات، وجهّز تمرلنك كتابه إلى المشار إليه ونصّه يقول فيه: إنني خرجت من أقصى بلاد سمرقند ولم يقف أحد أمامي وسائر ملوك الأرض حضروا إليّ، وأنت سلطت علي جمائعي ومن يشوّش عليهم ويقتل من ظفر به منهم، والآن قد مشينا عليك بعساكرنا فإن أشفقت على نفسك ورعيتك، فاحضر إلينا لترى من الرحمة والشفقة ما لا مزيد عليه، وإلّا نزلنا حولك وخرّبنا بلادك وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾[2] فاستعد لما يحيط بك إن أبيت الحضور، فأمسك المشار إليه الرسول وحبسه ولم يلتفت إلى كتاب تمرلنك، فمشى عليه أوائل عساكره فبرز إليهم المشار إليه وقاتلهم وكسرهم، وفي اليوم الثاني حضر تمرلنك ونزل على قلعة المسلمين فبرز إليه المشار إليه وقاتله قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة رأى حينها تمرلنك منه شدّة حزم فرجع عن محاربته، وأخذ في مخادعته وملاطفته وطلب منه الصلح وأن

---

(١) في مخطوطة مكتبة السيّد المرعشي (المدنون).

(٢) سورة التوبة: ٣٤.

يرسل إليه خيلاً ومالاً لأجل حرمته، فلم ينخدع له وتنازل معه إلى أن طلب منه جانباً فلم يعطه، وعاد خائباً وأخذ المشار إليه في أواخره نهباً وقتلاً وأسراً كل ذلك وباب قلعته مفتوح لم يغلقه يوماً واحداً، وأنشد فيه لسان الحال:

هـذا الأمـير الذي صحت مـناقبه ... ليث الشرى عمت الدنـيا مـفاخره

ولى تـمرلنك مكسـوراً اوائـله ... مـنه مـراراً ومـذعوراً أواخـره

قيل كان حصول تلك السعادة للمشار إليه دون غيره من أرباب الحصون لمّا كان فيه من العلم والديانة والإخلاص والصيانة.

ولمّا كان يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل من السنة المذكورة نازل تمرلنك حلب وكـان نـائبها الأمير سيف الدين دمرداش الخاصكي، وقد حضرت إليه عساكر المملكة الشامية ونوّابها ـ المقدم ذكرهم ـ فاختلفت آراؤهم بين قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار، وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام والأنفار، فلمّا رأى نائب حلب ذلك أذن لأهل حلب في إخلائها والتوجّه إلى حيث شاؤا، فلم يوافق على ذلك، وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو. وحضر قاصد تمرلنك فقتله سودون نائب دمشق قبل أن يسمع كلامه، ويوم الجمعة حصل بين الأطراف تناوش يسير. فلمّا كان يوم السبت حادي عشر ربيع الأوّل زحف تمرلنك بجيوشه وفيلته فـولى المسلمون نـحو المـدينة، وازدحموا في الأبواب ومات منهم خلق عظيم، والعدو وراءهم يقتل ويأسر، وأخذ تمرلنك حلب عنوة بالسيف وصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة، وكان أهل حلب قد جعلوا غالب أموالهم فيها، ويوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأوّل أخذ القلعة بالأمان والأيـمان التـي ليس مـعها إيمان، وفي ثاني يوم صعد إليها، وآخر النهار طلب علمائها وقضائها فحضروا إليه فأوقفهم ساعة ثم أمر بجلوسهم، وطلب من معه من أهل العلم، فقال لأميرهم عنده ـ وهو المولى عبدالجبار العلّامة الحنفي، والد من العلماء المشهورين بسمرقند ـ: قل لهم إنّي سائلكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التـي افـتتحتها ولم يـفصحوا بـالجواب فـلا يكـونوا مـثلهم ولا يجاوبني إلّا أعلمهم وأفضلهم، وليعرف ما يتكلم فإنّي خالطت العلماء ولي بهم اخـتصاص وألفة، ولي في العلم طلب قديم، وكان يتعنّت بالعلماء في الأسئلة ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم. فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي: عن مـحمّد بـن شـحنة القـاضي الحنفي هذا شيخنا ومدرّس هذه البلاد ومفتيها، سلوه وبالله المستعان. فقال له عبدالجبار: سلطاننا يقول بالأمس قتل منا ومنكم فمن الشهيد؟ قتيلنا أم قتيلكم؟ فوجم القـوم وسكـتوا وقـالوا فـي أنفسهم هذا الذي بلغنا عنه من التعنت! ففتح الله تعالى على الحنفي بجواب سريع، فقال: هـذا

سؤال سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ وأجاب عنه، وأنا مجيبٌ بما أجاب به سيدنا رسول الله ﷺ. فقال القاضي شرف الدين الأنصاري في نفسه: هذا عالمنا قد اختل عقله وهو معذور، فإنّ هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبدالجبار مثل ذلك، وألقى تمرلنك سمعه وبصره إليه، وقال له عبدالجبار ـ يسخر من كلامه ـ: كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا وكيف أجاب؟ فقال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، ومن قتل منّا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد، فقال تمرلنك: خوش[1]. وقال عبدالجبار: ما أحسن ما قلت! وانفتح باب المؤانسة، وقال تمرلنك: إنّي رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا، وعدد سائر بلاد العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر، فقال له ابن شحنة الحنفي: اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمّة ولا تقتل أحداً. فقال: والله إنّي لم أقتل أحداً قصداً وإنّما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب، ووالله لا أقتل منكم أحداً وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم، وتكررت الأسئلة منه والأجوبة منهم، فطمع كل من الفقهاء الحاضرين وجعل يبادر إلى الجواب، ويظن أنّه في المدرسة، والقاضي شرف الدين ينهاهم ويقول: بالله اسكتوا ليجاوب هذا الرجل ـ يعني ابن شحنة ـ؛ فإنّه يعرف ما يقول، وكان آخر ما سئل عنه، ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد؟ فأسر إلى القاضي شرف الدين إلى ابن شحنة أن أعرف كيف تجاوبه فإنّه شيعي؟ فلم يفرغ من سماع كلامه إلّا وقد قال القاضي: علم الدين القفصي المالكي كلاماً معناه أنّ الكل مجتهدون، فغضب تمرلنك لذلك غضباً شديداً، وقال: علي على الحق ومعاوية ظالم، ويزيد فاسق، وأنتم حلبيّون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين، فأخذ ابن شحنة في ملاطفته والاعتذار عن المالكي بأنّه أجاب بشيء وجده في كتاب لا يعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليه من البسط، وأخذ عبدالجبار يسأل من ابن شحنة ومن القاضي شرف الدين، فقال عن الأوّل: هذا عالم مليح، وعن الثاني: هذا رجل فصيح، وسألهما تمرلنك عن عمريهما، فقال الأوّل: عمري بلغ أربعاً وخمسين سنة، وقال الثاني: أنا أكبر منه بسنة، فقال تمرلنك: انتما في عمر أولادي أنا عمري اليوم بلغ خمساً وسبعين سنة، وحضرت صلاة المغرب وأقيمت الصلاة وأمّهم عبدالجبار، وصلى تمرلنك معهم ثم تفرّق العلماء.

---

(١) أي: بمعنى حسناً، وفي المخطوط (خش)، وفي كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور: ٤٩/١، (خوب خوب).

وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة، وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والأمتعة ما لا يحصى، وعوقب غالب المسلمين بأنواع العقوبة، وحبسوا بالقلعة ما بين مقيّد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه، ونزل تمرلنك من القلعة وأقام بدار النيابة، وصنع وليمة على زي المغل، ووقف سائر الملوك والنوابين في خدمته، وأدار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون في عقاب وعذاب وسبى وقتل وأسر، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب وتنبيش إلى آخر شهر ربيع الأوّل.

فطلب محمّد بن شحنة، والقاضي شرف الدين وأعاد السؤال عن علي ومعاوية. فقال الأوّل: لا شك أنّ الحق كان مع علي، وليس معاوية من الخلفاء، فإنّه جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، وقد تمّت بعلي. فقال تمرلنك: قال علي على الحق ومعاوية ظالم. فقال: قال صاحب الهداية يجوز تقليد القضاء من ولاة الجور، فإنّ كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع علي في نوبته، فسرّ لذلك وطلب الأمراء الذين عيّنهم للإقامة بحلب، وقال لهم: إنّ هذين الرجلين نزول عندكم بهذه البلد، فأحسنوا إليهما وإلى ألزامهما وأصحابهما ومن ينضم إليهما، ولا تمكنوا أحداً من أذيتهما، ورتّبوا لهما علوفة، ولا تدعوهما في القلعة، بل اجعلوا إقامتهما بالمدرسة ـ يعني السلطانية تجاه القلعة ـ ففعلوا ما أوصاهم به إلّا أنّهم لم ينزلوهما من القلعة. وقال لهما: الذي ولي الحكم منهم بحلب الأمير موسى بن حاجي طغاي إنّي أخاف عليكما، والذي فهمته من نسق تمرلنك أنّه إن أمر بسوء فعله سرعه ولا محيد عنه، وإذا أمر بخير فالأمر لمن وليه.

وفي أوّل يوم من ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد متوجّهاً نحو دمشق، وثاني يوم أرسل يطلب علماء حلب، فراحوا إليه والمسلمون في أمر مريج وقطع رؤوس فقالوا: ما الخبر؟ فقيل إنّ تمرلنك طلب من عسكره رؤوساً من المسلمين ليجعل منها قبّة، فمال إليهم شخص من علمائه، يقال له المولى عمر، فسألوه عن سبب طلبهم؟ فقال: يريد يستفتيكم في قتل نائب دمشق الذي قتل رسوله، فقال محمّد ابن شحنة: هذه رؤوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء! وهو حلف أن لا يقتل أحداً صبراً. فعاد إليه وهم ينظرون ـ وبين يديه لحم سليق في طبق يأكل منه ـ فتكلّم معه سرّاً ثم جاء إليهم شخص بشيء من ذلك اللحم، فلم يفرغ من أكله إلّا وزعجة قائمة تمرلنك صوته عال، وساق شخص هكذا وآخر هكذا، وجائهم أمير يعتذر ويقول: إنّ سلطانا لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين، وإنّما أمر بقطع رؤوس القتلى، وأن يجعل منها قبة إقامة لحرمته على جاري عادته، ففهموا عنه غير ما أراد، وأمر به وقد أطلقكم فامضوا حيث شئتم، وركب تمرلنك من

ساعته وتوجّه نحو دمشق.

فتوجّه سلطان المسلمين الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق إلى مصر، بعد أن قاتل مع تمرلنك قتالاً عظيماً، أشرف تمرلنك منه على الكسر والهزيمة وإنّما حصل من بعض أمرائه خيانة.

ودخل تمرلنك إلى دمشق ونهبها وحرقها وفعل فيها فوق ما فعل بحلب، ولم يدخل طرابلس بل أحضر له مال منها ولا جاوز فلسطين وعاد نحو حلب راجعاً طالباً بلاده فنزل شرقي حلب سابع عشر شعبان من السنة المذكورة، ولم يدخل حلب بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة وخراب المدينة ففعلوا ونزلوا من القلعة، وأخرجوا العلماء الذين بها ومن تبعهم نحو ألفي مسلم إلى ظاهر حلب إلى مكان يعرف بمشهد الحسين، قيل وضع فيه رأس الحسين عليه السلام لمّا مرّوا به إلى الشام، وحرقوا حلب.

[أقول: وأنا أحمد بن الحسن الحر مؤلف هذا الكتاب أنّ هذا المشهد المذكور موضع وضع فيه رأس الحسين عليه السلام وهم متعدين به إلى يزيد بن معاوية إلى الشام، ورحت إليه وزرته في سنة سبعين بعد الألف، وهو بظاهر حلب والله أعلم][1].

وبعد ثلاثة أيام لم يبق من التتر أحد بها، وعاد نائب حلب دمرداش الخاصكي إليها، وتراجعت الناس وتوجّه تمرلنك نحو بلاد الروم.

وفي سنة أربع وثمانمائة بلغ تمرلنك وهو بقراباغ أنّ أبا يزيد بن عثمان سلطان الروم مشى على أرزنجان[2] وأخذها، فتوجّه إليه تمرلنك عند ذلك ومشى على بلاده، وخرج إليه ابن عثمان.

وفي سنة خمس وثمانمائة التقى الجمعان بالكورى[3]، وحصل بينهما قتال عظيم انكسر فيه ابن عثمان وأمسكه تمرلنك، وبقي عنده مأسوراً إلى أن مات بأجله. واستولى تمرلنك على غالب بلاده وجهّز قصاده إلى سلطان مصر فرج بن برقوق يطلب منه الطلندي[4] الذي كان قد أمسكه قرايوسف من عدّة سنين، وجهّزه إلى الملك الظاهر برقوق واستقر من جملة أمراء مصر محجوراً عليه، فأرسله إليه مكرماً وفرح بذلك تمرلنك، وانفتحت بينه وبين سلطان مصر مودّة ومهادنة، وأرسل تمرلنك إلى سلطان مصر هدية وفيلاً.

---

(١) بين المعقوفين اضفناه من نسخة «استان رضوي».

(٢) الكلمة مشوشة، وما اثبتناه من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: ٣/٧.

(٣) لم أعثر عليها في المعاجم وكتب التواريخ، والمذكور انها انكورية، انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/٤٦. وفي معجم البلدان: أنكورية يقال لها: انقرة.

(٤) في المخطوط (الطندي)، وما اثبتناه هو الصحيح، انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر: ٣/٤٠٣.

وفي سنة ست وثمانمائة دخل السلطان أحمد بن أويس إلى حلب في زيّ فقير هارباً من قرايوسف وأخذه بغداد منه.

وفيها مشى عسكر تمرلنك على بغداد، وكبسوا بها قرايوسف ونهبوه وأخذوا بغداد، وتوجّه قرايوسف هارباً إلى الشام، فمسك وحبس حسب مرسوم الملك الناصر فرح سلطان مصر، وورد مرسوم منه بطلب السلطان أحمد بن أويس من حلب إلى دمشق وحبس بها، وذلك وفاء بما عوهد عليه تمرلنك أنّ من فرّ من بلاد المشرق يحبس ويكتب إليه في أمره.

وفي السنة المذكورة عادت رسل تمرلنك من مصر، وصحبهم حاجب مصر متوجهين إلى تمرلنك بما معهم من الهدايا والزرافة وعدّة أنعامات.

ورجع تمرلنك إلى بلاده ومرّ على أردبيل من بلاد العجم، واجتمع مع الشيخ صفي فأعجبه، وتبرّك به وأنعم عليه وشفعه في أسراء المسلمين الذين كانوا معه، وزوّج الشيخ صفي ابنته من رجل سيّد ينسب إلى موسى بن جعفر عليه السلام، فولد له منها أو من ولدها الشاه إسماعيل، وظهرت عليه آثار النجابة، واجتمع عليه جماعة فلم يزل يقود الجيوش ويدوخ الأرض ويملك الناس، بالرغبة والرهبة إلى أن حكم بلاد العجم بأسرها، وخلفها لبنيه. والسابع منهم سلطانها في عصرنا هذا الشاه سليمان ـ أيّده الله تعالى وأدام دولته العليه وحرسته العناية الربانية بمحمّد وآله خير البرية ـ وملك مصر والشام بعد فرح سلطان جماعة من أمثاله من الجراكسة نحو تسعين سنة، وملك بعدهم الأشرف الغوري وجماعة من أقاربه منهم قانصوه الغوري إلى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وملكها السلطان سليم سلطان الروم من بني عثمان، ثم السلطان سليمان، ثم واحد بعد واحد إلى السلطان محمّد الموجود الآن في بلاد الروم، والحمد لله وحده وصلى الله على محمّد وآله.

الركن الخامس

في وفاة الصحابة والتابعين من العلماء والمجتهدين غير من تقدّمت فصولهم من الأئمة الطاهرين والخلفاء من المسلمين

في سنة ثلاث من الهجرة استشهد أسد الله عم رسول الله صلى الله عليه وآله حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه في غزوة أحد، قتله وحشي غلام جبير بن مطعم. وكان حمزة موصوفاً بالكرم، ويقال له: الظلام للجزر، قال الشاعر:

ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيلة حمزة الظلام للجزر

ومن ظلمه الذي ذكره للجزر: أنّه حكي عنه أنّه كان قبل تحريم الخمر يشرب مع جماعة من أصحابه، فاحتاج أصحابه إلى لحم.

فقال بعضهم:

ألا يا حمز للشرف النواء ... وهن معقلات بالفناء
ضع السكين في اللبات منها ... فضرجهن حمزة بالدماء
وعجل من شرائحها كباباً ... ملهوجة على وهج الصلاء
وأصلح من اطايبها طعاماً ... لشريك من قديد أو شواء
فأنت أبو عمارة والمرجى ... لكشف الضر عنا والبلاء

فأخذ سيفه وخرج إلى ناقة كانت لعلي بن أبي طالب عليه السلام فعقرها وأشوى منها لأصحابه، فغضب علي عليه السلام من عمّه حمزة، فكان فعل حمزة الذي فعله سبب تحريم الخمر، وقيل: كان سعد بن أبي وقاص يشرب مع جماعة، فضرب أحدهم فكسر أنفه، فكان ذلك سبب تحريم الخمر والله أعلم.

وقدمنا ذكر قتل حمزة في فصل النبي صلى الله عليه وآله.

وفي سنة ثلاث أيضاً استشهد حبيب بن عدي الأنصاري الأوسي، شهد بدراً وأسر يوم الرجيع في السرية التي خرج فيها مرثد بن أبي مرثد، وعاصم بن أبي الأفلح، وكانوا سبعة نفر قتل منهم خمسة، وأسر اثنان زيد بن الدثنة وحبيب، فانطلق بهما المشركون إلى مكة، ثم خرجوا بحبيباً حتى إذا جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا! قالوا: دونك فافعل، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: والله لولا أن تظنّوا بي إنّما طوّلت الصلاة جزعاً من القتل لأكثرت من الصلاة ـ وهو أوّل من صلى ركعتين قبل القتل من المسلمين ـ، ثم قال: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم مدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قال:

لست أبالي حين اقتل مسلما ... على أي جنب كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وان يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

ثم قام إليه عقبة وقد رفعوه على خشبة فقتله، وبقى مصلوباً على قارعة الطريق.

قال الشاعر:

وأشرفت بحبيب فوق قارعة ... وألحقت طلحة الفياض بالعفر

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أيّكم ينزل حبيباً عن خشبته وله الجنة؟ فقال الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله والمقداد معي، فخرجا حتى أتيا التنعيم ليلاً، وإذا حول الخشبة أربعون من المشركين يحرسونه، فطرداهم عنه ثم أنزلاه فإذا هو رطب لم يتغير منه شيء، وكان ذلك بعد قتله بأربعين يوماً، ويداه على جراحاته وهي تسيل دماً، الريح ريح المسك، واللون لون الدم، فحمله الزبير على فرسه، ثم أخبر الكفار قريشاً بذلك، فركب منهم يتبعون فارساً فلمّا لحقوهما قذف الزبير حبيباً فابتلعته الأرض فسمّي بليع الأرض، فلمّا أدركوهما، قال لهم الزبير: أنا الزبير بن العوام وهذا المقداد بن عمرو، فمن شاء فليتقدم فرجع الكفار ولم يقدموا عليهما لشجاعتهما.

قيل وفي سنة سبع توفي حاتم الطائي المشهور بالكرم ومن شعره:

إذا ما عرفت اليأس ألفيته الغنى ... إذا عرفته النفس والطمع الفقر

وفي سنة ثمان استشهد جعفر بن أبي طالب عليه السلام في غزوة مؤتة، وهو ذو الجناحين وذو الهجرتين؛ لأنّه هاجر إلى أرض الحبشة وإلى المدينة، ويكنّى بأبي عبدالله وبذي الجناحين؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر عنه أنّه أعطي في الجنة جناحين يطير بهما حيث شاء، عوضاً عن يديه المقطوعتين في غزوة مؤتة، لمّا جهّز رسول الله صلى الله عليه وآله عسكر مؤتة، وأمر عليه زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فأميركم جعفر، فإن قتل فأميركم عبدالله بن رواحة، فإن قتل فسيفتح الله على يد رجل

من المسلمين وأشار بيده إلى خالد بن الوليد، فلمّا التقوا مع الروم بمؤتة وقتل زيد بن حارثة، أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ الراية بشماله فقاتل حتى قطعت شماله، فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل. ووجد في مقدمه أربعة وخمسون ضربة بالسيف، كما قال الشاعر:

ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيلة حمزة الظلام للجزر

وقدّمنا ذكر قتل جعفر في فصل رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي سنة اثني عشر في ذي الحجة توفي صهر النبي صلى الله عليه وآله أبو العاص بن الربيع، وهو ابن أخت خديجة رضي الله عنها.

وفي سنة ثلاثة عشر توفي أمير مكة عتاب بن أسيد شاباً.

وفي سنة أربعة عشر أستشهد أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي والد المختار، وكان من سادة الصحابة.

وفي سنة خمسة عشر توفي أبو قحافة والد أبي بكر، وعمره سبع وتسعون سنة.

وفيها استشهد ابن أم مكتوم الأعمى المؤذن بالقادسية، واسمه عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي.

وفيها توفي سيد الخزرج سعد بن عبادة الأنصاري بحوران، بال في بخش فمات لوقته[1].

فيقال أنّ الجنّ أصابته، وأنّه سمع قائل لا يرى شخصه يقول:

نحن قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عبادة ... رميناه بسهم فلم يخط فؤاده

وفي كتاب معاوية إلى قيس بن سعد: قد كان أبوك وتر قوسه، ورمى غرضه، وأكثر الحز، وأخطأ المفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، حتى قتل بحوران طريداً.

وفي سنة ثمانية عشر توفي أبو عبيدة بن الجراح الفهري، أحد العشرة بالطاعون واسمه عامر، ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في فهر، وكانت وفاته بالشام وهو عاملها، فاستخلف عمر مكانه معاذ ابن جبل فمات أيضاً بالطاعون، فاستخلف عمر عمرو بن العاص.

وفي سنه تسع عشرة توفي يزيد بن أبي سفيان أخو معاوية، وأصيب صفوان بن المعطل الذكواني بأرمينية.

وفي سنة عشرين توفي أسيد بن خضير، وزينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، وبلال بن

---

(١) العبر: ٣/١.

حمامة ـ مولى أبي بكر ـ اشتراه في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم، وحمامة اسم أُمّه وهو من مولدي الحبشة، مات بالشام ودفن بالباب الصغير.

وفي سنة إحدى وعشرين توفي خالد بن الوليد، ودفن بحمص وقيل بالمدينة الشريفة ـ شرّفها الله ـ وكان بطلاً مشهوراً في الجاهلية والإسلام، وله وقائع عظيمة، وكان يقول: لقد شاهدت كذا وكذا وقعة، ولم يكن في جسدي موضع شبر إلّا وفيه أثر طعنة أو ضربة، وها أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان.

وفي سنة اثنين وعشرين توفي أبي بن كعب بن قيس، من ولد مالك بن النجار وكان يكنّى أبا المنذر، وهو أوّل من كتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي خلافة عمر توفي سلمان الفارسي، وكان [من] أهل شيراز من أبناء الدهاقين، وخدم جماعة من الرهبان، وصحب رسول الله صلى الله عليه وآله، واستعمله عمر على المدائن فتوفي بها.

وفي سنة خمس وعشرين توفي أبو ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة بالربذة، كان أخرجه إليها عثمان لمّا شكى منه معاوية وهو بالشام، أنّه كان ينكر عليه كنز الذهب والفضة ويتلوا ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾[1].

وفي سنة إحدى وثلاثين توفي أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، وفي عبدمناف يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب.

وفيها توفي الحكم بن أبي العاص بن أُميّة، والد مروان وابن عم أبي سفيان وعم عثمان، أسلم يوم الفتح، وكان يفشي سر رسول الله صلى الله عليه وآله ويحاكيه، فطرده إلى الطائف وسبّه، فلم يزل طريداً إلى خلافة عثمان فردّه.

وفي سنة اثنين وثلاثين توفي عبدالله بن مسعود، ينسب إلى معد بن عدنان أسلم بمكة قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وجاء في بعض الروايات أنّه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة عند أهل السنة، وصاحب هذه الرواية يسقط أبا عبيدة بن الجراح.

وفيها توفي العباس بن عبدالمطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أسن من رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث سنين، ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

وفيها قال بعضهم: توفي أبو الدرداء، وأنّه كان حكيم هذه الأُمّة، وأنّه قال: لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً: الظمأ في الهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون من

---

(١) سورة التوبة: ٣٤.

خير الكلام كما ينتقى طيب التمر، ولي قضاء دمشق وتوفي بها، وتقدم في خبر الأصبغ بن نباتة أنّه كان عند معاوية أيام صفين.

وفيها توفي عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحرث بن زهرة بن كلاب، وفي كلاب يجتمع مع رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ في عمود النسب، وهو أحد العشرة.

وفي سنة أربع وثلاثين توفي المقداد بن الأسود، والأسود كان قد تبنّاه، فلمّا ذهب الناس لأبائهم كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿**أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ**﴾[1] سمّي المقداد بن عمرو، وكان عمره نحواً سبعين سنة.

وفي سنة خمس وثلاثين توفي معاوية بن ربيعة حليف بن عدي.

وفي أيام عثمان هلك ثعلبة بن حاطب، وكان قد أتى رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ، وقال: ادع الله أن يرزقني مالاً! فقال: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه. فقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقّه، فدعا له. فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود، فضاقت بها المدينة فنزل واديا، وانقطع عن الجمعة والجماعة، فسأل عنه رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، فقال: يا ويح ثعلبة، فبعث مصدقين لأخذ الصدقات، فمرّا بثعلبة فأقرّاه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه الأجزية؟ فارجعا حتى أرى رأيي، فنزل في حقّه قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ**﴾[2] الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة إلى رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ. فقال: إنّ الله منعني أن أقبل منك، فجعل يحثوا التراب على رأسه، وقبض رسول الله فجاء بها إلى أبي بكر فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر فلم يقبلها، وهلك في زمان عثمان.

قال النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «للتقوى أربعة أركان الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وقيل لعلي عَلَيْهِالسَّلَامُ: ما ثبات الإيمان؟ قال: «الورع»، قيل: فما زواله؟ قال: «الطمع».

وفي سنة ست وثلاثين قتل طلحة بن عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وفي مرة يجتمع مع رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ في عمود النسب. قتله مروان بن الحكم يوم الجمل، وكلاهما من أصحاب عائشة. قيل: أنّه كان ينسبه إلى أنّ عثمان قتل باختياره. ولمّا مرّ به علي عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت أكره أن أرى قريشاً صرعى، والله أنت كما قال الشاعر:

---

(١) سورة الأحزاب: ٥.

(٢) سورة التوبة: ٧٥.

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وكان يقال له: طلحة الفياض. قال الشاعر:

. . . .   وألحقت طلحة الفياض بالعفر

ويقال له: طلحة الخير.

قال الشاعر:

طلحة الخير المرتضيه رفيقاً   واحداً يوم فرَّت الرُّفقاء

وهو أحد العشرة. وأمّا طلحة الذي يقول فيه الشاعر:

رحم الله أعظما دفنوها   بسجستان طلحة الطلحات

فإنّه من خزاعة وهو طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي، وهو أحد أجواد العرب في الإسلام، إلّا أنّ أباه قتل أيضاً يوم الجمل وكان مع عائشة.

وفيها قتل الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزّى بن قصي، وفي قصي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب، وأُمه صفية بنت عبدالمطلب، وكان يدعى حواري رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ روي أنّه قال: الزبير بن عمتي وحواري من أمتي. وإلى ذلك أشار البوصيري بقوله:

وحواريك الزبير أبو القوم   الذي شرفت به اسماء

يعني زوجته أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة، قتله عمرو بن جرموز بموضع يقال له وادي السباع عند انصرافه من وقعت الجمل قبل الوقعة، لمّا ذكّره علي عليه السلام قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: يا زبير أنّك لتقاتلن علياً وأنت ظالم له، فقال الزبير: ذكّرتني ما نسيت! ولو ذكرت ذلك لما خرجت؛ ولكن كيف أرجع وقد التقت الأبطال وحلقتا البطان[1]، هذا والله العار الذي لا يغسله الدهر. قال: يا زبير أرجع بالعار قبل أن ترجع بالعار والنار، فرجع الزبير.

فقال له ابنه عبدالله: ما يردّك؟ قال شيء لو علمته لكسرك، فقال: بل رأيت عيون بني هاشم تحت المغافر فراعتك، وعلمت أنّ سيوفهم حداد تحملها فتية أنجاد. فغضب وقال: مثلي يقرع بهذا، ثم نزع سنان رمحه وحمل على جيش علي، فقال علي عليه السلام لأصحابه: افرجوا له فإنّه قد أغضب وإنّه ينصرف عنكم، فقالوا: إذاً والله لا نبالي بعد رجوعه بجمعهم، وما كنّا نتّقي سواه، ثم انصرف الزبير حتى أتى ابن جرموز فنزل به.

فقال له: يا أبا عبدالله أنشأت حرباً ظالماً أم مظلوماً ثم أنصرفت؟ أتائب أم عاجز؟ فسكت عنه

---

(١) في الصحاح: الطان للقتب الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير. ويقال: التقت حلقتا البطان للأمر اذا اشتد.

الزبير، ثم قال له: يا أبا عبدالله حدثني عن خصال أسألك عنها! قال: هاتها، قال: خذلك عثمان، وبيعتك علياً، وإخراجك أم المؤمنين، وصلاتك خلف ابنك، ورجوعك عن هذا الحرب؟ فقال الزبير: أمّا خذلي عثمان فأمر قدّم الله فيه الخطيئة وأخّر فيه التوبة، وأمّا بيعتي عليّاً فإنّي لم أجد من ذلك بداً، إذ بايعه المهاجرون والأنصار. وأما إخراجي عائشة أردت أمراً وأراد الله غيره، وصلاتي خلف ابني فإنّما قدّمته أم المؤمنين، ورجوعي عن هذا الحرب فظن بي كل شيء إلّا الجبن.

فانصرف عنه ابن جرموز وهو يقول: والهفي على ابن صفية، أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله، قتلني الله إن لم أقتله، ثم جاءه فوجده نائماً بوادي السباع فقتله.

وفي ذلك تقول زوجته عاتكة بنت عمرو بن نفيل ترثيه:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم اللقاء وكان غير مسدد

يا عمروا! لو نبهته لوجدته لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد

ثكلتك امك إذ قتلت لمسلماً حلت عليك عقوبة المتعمد

فلمّا رجع ابن جرموز برأس الزبير وسلبه. قال له رجل من قومه من بني تميم: فضحت والله اليمن أوّلها وآخرها بقتلك الزبير رأس المهاجرين، وفارس رسول الله صلى الله عليه وآله وحواريه، وابن عمته، والله لو قتلته في حرب لعزّ ذلك علينا ولفشا عارك فينا، فكيف في جوارك وفي حرمتك؟ والله لا يزيدنك علي إذا جئته برأسه إلّا أن يبشرك بالنار! فغضب ابن جرموز، وقال: والله ما أخاف فيه قصاصاً ولا أرهب فيه قرشياً، ثم أنّه أتى علياً برأس الزبير فلم يأذن له، وقال لحاجبه بشره بالنار فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «بشروا قاتل ابن صفية بالنار».

وفي ذلك يقول ابن جرموز:

أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أحسبها زلفة

فبشر بالنار قبل العيان فبئس بشارة ذي التحفة

ثمّ أنّ ابن جرموز خرج مع أهل النهروان على علي عليه السلام فقتل معهم.

وحكي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عمه عبدالله بن الزبير قال: دعاني أبي يوم الجمل فقمت عن يمينه، فقال: إنّه لا يقتل اليوم إلّا ظالم أو مظلوم، وما أراني إلّا سأقتل مظلوماً، وإنّ أكبر همّي ديني، فبع مالي ثم اقض عنّي ديني؟ فإنّ فضل شيء فثلثه لولدك، قال: فلمّا قتل نضرت في دينه فإذا هو ألف ألف ومائة ألف درهم، فبعت له ضيعة بالغابة بألف ألف وستمائة ألف درهم، ثم لم أزل أقضي ديونه، فلمّا لم يبق عليه دين أخذت ثلث ما بقي لولدي، وقسمت ما بقى من ثمن ضياعه على نسائه وورائه من أولاده، فكان له أربع نسوة فحصل لكل واحدة منهن من ربع الثمن

ألف ألف درهم، وكان جميع ذلك ألف ألف وتسعمائة ألف درهم، ويقال: أنّه كان يدخل على الزبير في كل يوم ألف دينار.

وفي سنة سبع وثلاثين قتل أبو اليقضان عمّار بن ياسر العبسي المدحجي بصفين، وهو من أصحاب علي عليه السلام، وكانت الراية بيده يومئذٍ، وكان عمره تسعين سنة، قال الشاعر:

ولا رعت لأبي اليقضان صحبته ... ولم تزوده إلّا الضيح في الغمر

وكان عمّار قد عطش ودعا بشربة ماء فأتي بضيح[1] من لبن فشربه، ثم قال: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّ اللبن آخر شرابي من الدنيا، فقتل يومئذٍ وأتى رجلان برأسه إلى معاوية، يمسك هذا بشعر رأسه وهذا بلحيته، وكل منهما يدّعي أنّه قتله، والرجلان أبو عادية الفزاري، ويزيد بن مانع السكيكي، فقال لهما عمرو بن العاص: إنّما تتخاصمان في النار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: تقتل عمّار الفئة الباغية. فقال له معاوية: قبّحك الله من شيخ ما تزل تزلق في كلامك، أنحن قتلناه؟ إنّما قتله من جاء به، وألقاه تحت أسيافنا، ثم التفت إلى أهل الشام، فقال: نحن الفئة الباغية التي تبغي دم عثمان.

وفي قتله يقول الحجاج بن عروة الأنصاري:

قال النبي تقتلك شرذمة ... سطت لحومهم بالبغي فجار

فاليوم يعلم أهل الشام أنهم ... أصحاب ذاك وفيهم شبت النار

روي أنّ قريشاً أكرهوا عمّاراً وأبويه ياسراً وسميّة على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئ بحربة في قلبها، وقالوا: إنّك أسلمت من فعل الرجال، فقتلت وقتلوا ياسراً. وهما أوّل قتيلين قتلا في الإسلام، وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا مكرهاً. فقيل يا رسول الله إنّ عماراً كفر! فقال: كلا إنّ عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمّار رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي، فجعل رسول الله يمسح عينيه، وقال: مالك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت. فأنزل الله فيه: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[2]، أي لم تتغير عقيدته.

وفي سنة ثمان وثلاثين توفي مالك الأشتر، أرسله علي عليه السلام إلى مصر ينجد به محمّد بن أبي بكر، فسقوه عسلاً مسموماً في الطريق فمات.

وفيها قتل محمّد بن أبي بكر قتله معاوية بن خديج، وأحرقه في جوف حمار.

وفي سنة ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعد بن سهم بن عمرو بن

---

(١) الضيح: اللبن الممزوج بالماء.

(٢) سورة النحل: ١٠٦.

هصيص بن كعب، وفي كعب يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب، أسلم سنة ثمانية، وبرز للحرب في صفين فحمل عليه أمير المؤمنين بسيفه، وقال: خذها يابن النابغة وأنا علي، فسقط عن فرسه وأبدى عورته، فقال له: أنت طليق دبرك أيام عمرك. وذكر الناس عند معاوية شجاعة علي، فقال معاوية: ما منّا أحد إلّا وقد قتل علي أباه أو أخاه أو ولده، فإذا اجتمعت عليه أدركتم ثاركم منه، فضحك الوليد بن عقبة بن أبي معيط من قوله وأنشأ يقول:

يقول لكم معاوية بن حرب ... أما فيكم لواتركم طلوب
يشد على أبي حسن علي ... بأسمر لا تهجنه الكعوب
فيهتك مجمع اللبات منه ... ونقع القوم مطرد يثوب
فقلت له أتلعب يا ابن هند ... كأنك وسطنا رجل غريب
أتأمرنا بحية بطن واد ... اذا نهشت فليس لها طبيب
وما لاقاه في الهيجا لاق ... فأخطأ نفسه الأجل القريب
سوى عمرو وقته خصيتاه ... نجا ولقلبه منها وجيب
وما ضبع تدب ببطن واد ... أتيح لقتلها أسد مهيب
بأضعف حيلة منا إذا ما ... لقيناه وذا منا عجيب
كأن القوم لما عاينوه ... خلال النقع ليس لها قلوب
وقد نادى معاوية ابن حرب ... فأسمعه ولكن لا يجيب

ثم قال الوليد: إن لم تصدّقوني فاسألوا الشيخ عمرو بن العاص ليخبركم عن نجدته وصولته.

فقال معاوية: يا عمرو ما هذه الفضيحة التي فضحت بها نفسك!؟ فقال عمرو لمعاوية: يا أبا عبدالرحمن من يتعرض لبلاء نفسه لا طاقة لي بعلي، ولا لك ولا للوليد ولا لأحد من جموعنا، وإن لم تصدّقني فجرب وقد دعاك مراراً إلى البراز ولا تبرز إليه. وأنشأ عمرو:

يذكرني الوليد شجا علي ... وصدر المرء يملؤه الوعيد
متى تذكر شاهده قريش ... يطر من خوفه القلب الشديد
فاما في اللقاء فأين منه ... معاوية بن حرب والوليد
وعيرني الوليد لقاء ليث ... إذا ما زأر هابته الأسود
لقيت ولست أجهله علياً ... وقد بلت من العرق اللبود
فاطعنه ويطعنني خلاسا ... وماذا بعد طعنته مزيد
فرمها منه يا ابن أبي معيط ... فأنت الفارس البطل النجيد

واقسم لو سمعت نداء علي لطار القلب وانتفخ الوريد
ولو لاقيته شقت جيوب عليك ولطمت فيها خدود

فقال معاوية: يا عمرو لو عرفت علياً ما اقتحمت عليه، وأنشأ معاوية يقول:

ألا لله من هفوات عمرو يعاتبني على تركي برازي
فقد لاقى أبا حسن عليا فآب الوائلي مآب خازي
ولو لم يبد عورته لأودى به ليث يذلل كل نازي
له كف كأن براحتيها منايا القوم تخطف خطف بازي
فان تكن المنية احرزته فقد غنى بها أهل الحجازي

فغضب عمرو وقال: هل هو إلّا رجل لقيه ابن عمه فصرعه؟ أترى السماء قاطرة لذلك دما؟ وأنشأ يقول:

معاوي ان ثكلت عن البراز لك الويلات فانظر في المخازي
معاوي ما اجترمت إليك ذنبا وما أنا بالذي حدثت همازي
وما ذنبي وكم نادى علي وكبش القوم يعدو للبراز
فلو بارزته بارزت ليثا جديد الضرع اشجع ذا ابتراز
أضبع في العجاجة يابن هند وعند الباه كالتيس الحجازي

وفي تلك المدّة توفي طويس ويكنّى بأبي نعيم، وكان يضرب لشؤمه المثل؛ لأنّه ولد في اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وفطم في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر، وبلغ الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر، وتزوّج في اليوم الذي قتل فيه عثمان، وولد له ولد في اليوم الذي قتل فيه علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أوّل من غنّى في الإسلام الغناء الرقيق والصوت الذي غنّا به:

قد برأني الشوق حتى كدت من شوقي أموت

وفي سنة أربع وأربعين توفي أبو موسى الأشعري، واسمه عبدالله بن قيس.

وقد جرت مناظرة بينه وبين عمرو بن العاص فى القدر، فقال: هل أجد أحداً أخاصم إليه ربّي؟ فقال أبو موسى: أنا ذلك المتحاكم إليه، قال عمرو: أيقدّر عليّ شيئاً ثم يعذبني عليه؟ قال: نعم، فقال عمرو: ولم؟ قال: لأنّه لا يظلمك، فسكت عمرو ولم يحر جواباً.

وفيها توفّيت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة النبي عليه السلام.

وفي سنة خمس وأربعين توفي عبدالرحمن بن خالد بن الوليد، قال السلطان عماد الدين: بسمّ دسّه إليه معاوية مع نصراني.

وفي سنة خمسين توفي المغيرة بن شعبة، كان عمر قد ولاه البصرة، وكان عليته[1]، يقابلها علية فيها أربعة رجال أبو بكرة مولى رسول الله ﷺ وأخوته لأمّه، زياد بن أبيه، ونافع بن كلدة، وشبل بن معبد، فرفعت الريح الكرة عن علية المغيرة فنظره الرجال الأربعة وهو على أم جميل بنت الأرقم ابن عامر بن صعصعة، فكتبوا إلى عمر بذلك فعزل المغيرة وولي البصرة أبا موسى الأشعري، وشهد أبو بكرة ونافع وشبل على المغيرة بالزنا، ولم يفصح زياد بن أبيه بالشهادة، وكان عمر قد قال قبل أن يتكلم زياد، أرى رجلاً أن لا يفضح الله به رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال زياد: رأيته جالساً بين رجلي المرأة، ورأيت رجلين مرفوعين كأذني حمار، ورأيت نفساً تعلوا، واستاً تنبوا عن ذكر، ولا أعرف ما وراء ذلك. فقال عمر: هل رأيت الميل في المكحلة؟ قال: لا، قال فهل تعرف المرأة؟ قال لا ؛ ولكن أشبهها فجلد عمر الثلاثة الذين شهدوا حد القذف.

وفيها توفي عبدالرحمن بن سمرة، وكعب بن مالك، وصفية بنت حي الخيبرية ـ أُم المؤمنين ـ قال لها رسول الله ﷺ ـ لمّا قال لها نسائه: أنت يهودية بنت يهودي ـ: هلا قلتي لهن أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمّد؟.

وفي سنة إحدى وخمسين توفي سعيد بن زيد بن الخطاب أحد العشرة، وهو ابن أخي عمر بن الخطاب، ويجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب.

وفيها توفي أبو أيوب الأنصاري على باب القسطنطينية.

وفي سنة اثنين وخمسين توفي عمران بن الحصين، وكعب بن عجرة، ومعاوية بن خديج.

وفي سنة ثلاث وخمسين توفي حكيم بن حرام، وكان أحد الأجواد باع داراً لمعاوية بستين ألفاً وتصدّق بثمنها، وأعتق مائة نسمة فى الجاهلية، ومائة فى الإسلام، وقال لابن الزبير: كم ترك أبوك عليه من الدين؟ قال: ألف ألف درهم. قال: عليّ نصفها.

وفي سنة خمس وخمسين توفي سعد بن أبي وقاص بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وفي كلاب يجتمع مع رسول الله ﷺ وهو أحد العشرة، وابن عمّ آمنة أم رسول الله ﷺ. قالت له أُمّه لمّا أسلم: يا سعد ما هذا الدين الذي أحدثت؟ لتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت؟ فتعير بي فيقال لك: يا قاتل أُمّه، فقال: لا تفعلي يا أماه إنّي! لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً ولليلتان لا تأكل ولا تشرب، فقال: والله يا أماه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا؛ فكلي واشربي، وإن شئت فلا تأكلي، فلمّا رأت ذلك أكلت، فأنزل الله فيه:

---

(١) هى بضم العين وكسرها: الغرفة، والجمع العلالي.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[١]، على ما ذكر في مجمع البيان.

وفي سنة سبع وخمسين توفيت عائشة. وقال الواقدي في التي بعدها.

في كشف الغمّة عن سفيان الثوري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ما ذكرت عائشة مسيرها يوم الجمل إلّا ابتل خمارها بالبكاء، وتقول: يا فضيحتا يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وعن أبي سفيان بن العلاء قال: قالت عائشة: إذا مرّ ابن عمر فأرونيه، فلمّا مرّ قيل لها: هذا ابن عمر. فقالت: يا أبا عبدالرحمن ما منعك أن تنهاني عن سيري؟ فقال: قد رأيت رجلاً قد غلب عليك وظننت أن لا تخالفينه، فقالت: أمّا أنّك لو نهيتني ما خرجت.

وقالت: إذا ذكرت يوم الجمل انقصم منّي هاهنا وتشير بيدها إلى خلفها.

وسألت عن قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[٢]، فقالت: أمّا السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد له رسول الله بالجنّة، وأمّا المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأمّا الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم.

ولا شك أنّ الناس على ثلاثة أقسام: فريق في الجنّة، وفريق في السعير، وآخرون مرجون لأمر الله، إمّا يعذبهم، وإمّا يتوب عليهم.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لاَتُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣]، أي اتقوا ذنباً يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد.

روي أنّ طلحة قال يوم البصرة: والله ما نزلت هذه الآية إلّا فينا، وروي مثل ذلك عن علي وابن عباس.

وفي سنة ثمان وخمسين توفي عبيدالله بن العباس، الذي خذل الحسن وسار إلى معاوية.

وفيها توفي أبو هريرة ينسب إلى خزاعة، وأصح أسمائه عمرو بن عامر في قول المزيد صاحب حماة، والأصح من نحو ثلاثين قولاً أنّه عبدالرحمن بن صخر.

وفي خلافة معاوية توفي عقيل بن أبي طالب، بعدما عمي، شهد بدراً مع المشركين مكرها،

---

(١) سورة العنكبوت: ٨.

(٢) سورة فاطر: ٣٢.

(٣) سورة الأنفال: ٢٥.

وأسر يومئذٍ وفداه العباس، ثم أسلم قبل الحديبية، وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر، وكان أسنّ من جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أسنّ من علي بعشر سنين، وكان طالب أسنّ من عقيل بعشر سنين، قيل ومات طالب كافراً، وكان عقيل من أنسب قريش وأعلمهم بأيامها.

وفي سنة ثلاث وستين قتل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب، وربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب في وقعة الحرة بالمدينة لمّا غزاها جيش يزيد بن معاوية.

وفي سنة أربع وستين توفي عبدالله بن عمرو بن العاص، ولم يكن بينه وبين أبيه في السنّ سوى إحدى عشر سنة، وأسلم قبل أبيه.

وفي سنة ست وستين قام المختار بالكوفة، وقتل الشمر، وخولى بن يزيد الاصبحي، وعمر بن سعد وابنه حفصاً، وعبيدالله بن زياد.

وفي سنة سبع وستين قتل المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي وسبعة آلاف من أصحابه بالكوفة، قتلهم مصعب بن الزبير، وكان المختار يكنّى بأبي إسحاق، وكان يدعو مرّة لابن الحنفية وأخرى لابن الزبير، وادعا أنّه يأتيه الوحي من السماء.

حكى أبو حاتم قال: حدثنا أبو عبيدة، قال: أخذ سراقة بن مرداس البارقي يوم جبانة السبيع[1] أسيراً إلى المختار. فقال للمختار: امنن عليّ اليوم يا خير معدن وخير من أبى وصلى وسجد، فعفى عنه وخلى سبيله، ثم خرج مع ابن الأشعث فأخذ وأُتي به إلى المختار أسيراً، فقال له: ألم أعف عنك وأمنن عليك؟ أما والله لأقتلنّك، فقال له: والله لا تفعل إن شاء الله، قال: ولم؟ قال: لأنّ أبي حدّثني أنّك تفتح الشام حتّى تهدم دمشق حجراً حجراً، وأنا معك ثم أنشأ يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنّا ... حملنا حملة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً ... وكان خروجنا بطراً وحينا
نراهم في صفهم قليلاً ... وهم مثل الدبى لمّا التقينا
فاسجح ان قدرت فلو قدرنا ... لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبة مني فاني ... سأشكر إن جعلت النقد دينا

فخلى سبيله ثم أنّه خرج مع ابن الأشعث ثانياً فأسر وأتي به إلى المختار، فقال له: الحمد لله الذي أمكنني منك يا عدوّ الله هذه ثالثة. فقال سراقة: أما والله ما هؤلاء الذين أخذوني، فأين هم

---

(١) جبانة السبيع: محلة في الكوفة، وكانت فيها وقعة المختار.

لا أراهم؟ فإنّا لمّا التقينا رأيت قوماً عليهم ثياب بيض، وتحتهم خيل بلق تطير بين السماء والأرض، فقال المختار: خلوا سبيله ليخبر الناس بما رأى ثم عاد إلى قتاله وقال:

ألا مـن مـخبر المـختار عـني ... بـان البـلق دهـماً مـضمرات
أرى عـينيّ بـما لم لا تـرأياه ... كـلانا عـالم بـالنزهات
كفرت بوحيكم وجعلت نـذرا ... عـليّ قـتالكم حتى المـمات

وفيه قال رسول الله ﷺ: يخرج من ثقيف كذّاب ورميز، فالكذاب هو المختار، والرمزي هو الحجاج، وتقدّم قتله وقتل من تقدّمه في فصل عبدالملك بن مروان.

وفي سنة ثمان وستين توفي ربّاني الأمة وجه القرآن وبحر الحديث الفقيه المفسر عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، وصلى عليه محمّد بن الحنفية، وقال: اليوم مات ربّاني هذه الأُمة.

وقد روي عن ابن عباس أنّه أمسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسنّ منهما! فقال له: اسكت يا جاهل لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلّا ذوو الفضل. وعنه أنّه قال: أعطى الله عزّ وجلّ بني عبدالمطلب سبعاً: الصباحة والفصاحة والسماحة والشجاعة والحلم والعلم وحب النساء.

وقال حسان بن ثابت في مدح ابن عباس:

إذا قـال لم يـترك مـقالاً لقـائل ... بـملتقطات لا تـرى بـينها فـضلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع ... لذي أربة في القول جدا ولا هـزلا

قال تميم بن عدي اليربوعي: خرجت مع العباس في سفر فنزلنا منزلاً وطلبنا [طعاماً، فلم يجدوا في ذلك المنزل ما يكفيهم؛ لأنه كان مرّ به زياد بن أبي سفيان، أو عبيدالله بن زياد في جمع عظيم ، فأتوا على ما فيه، فقال عبيدالله لوكيله: اذهب في هذه البرية، فلعلك أن تجد راعياً، أو تجد أخبية فيها لبن أو طعام فمضى القيم، ومعه غلمان عبيد الله، فدفعوا إلى عجوز في خباء، فقالوا: هل عندك من طعام نبتاعه منك؟ قالت: أمّا الطعام أبيعه فلا، ولكن عندي ما بي إليه حاجة لي ولبني، قالوا: وأين بنوك؟ قالت: في رعي لهم، وهذا أوان أوبتهم، قالوا: فما أعددت لك ولهم؟ قالت: خبزة، وهي تحت ملتها أنتظر بها أن يجيئوا، قالوا: فما هو غير ذلك؟ قالت: لا قالوا: فجودي لنا بنصفها، قالت: أمّا النصف فلا أجود به، ولكن إن أردتم الكل فشأنكم بها، قالوا: فلم تمنعين النصف، وتجودين بالكل؟ قالت: لأنّ إعطاء الشطر نقيصة، وإعطاء الكل فضيلة، أمنع ما يضعني، وأمنح ما يرفعني، فأخذوا الملة[1]، ولم تسألهم من هم، ولا من أين جاءوا؟ فلمّا أتوا بها عبيد الله،

---

(١) الملة: الخبزة نفسها والملى كربى: الخبزة المنضجة (تاج العروس).

وأخبروه بقصّة العجوز، عجب وقال: أرجعوا إليها، فاحملوها إلي الساعة، فرجعوا وقالوا: انطلقي نحو صاحبنا فإنّه يريدك، قالت: ومن هو صاحبكم؟ الله أصحبه السلامة؟ قالوا: عبيدالله بن العباس، قالت: ما أعرف هذا الإسم، فمن بعد العباس؟ قالوا: العباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله، قالت: هذا وأبيكم الشرف العالي ذروته، الرفيع عماده، هو أبو هذا عم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: نعم قالت: عمّ قريب، أم عمّ بعيد؟ قالوا: عم هو صنو أبيه، وهو عصبته، قالت: ويريد ماذا؟ قالوا: يريد مكافأتك وبرّك قالت: علام؟ قالوا: على ما كان منك، قالت: أوه، لقد أفسد الهاشمي بعض ما أثل له ابن عمه، والله لو كان ما فعلت معروفاً ما أخذت بذنبه، فكيف وإنّما هو شيء يجب على الخلق أن يشارك بعضهم فيه بعضاً؟ قالوا: فانطلقي؛ فإنّه يحب أن يراك، قالت: قد تقدّم منكم وعيد، ما أجد نفسي تسخو بالحركة معه، قالوا: فأنت بالخيار إن بذل لك شيء بين أخذه وتركه، قالت: لا حاجة لي بشيء من هذا إذ كان هذا أوّله، قالوا: فلابدّ من أن تنطلقي إليه، قالت: فإنّي ما أنهض على كره إلّا لواحدة، قالوا: وما هي؟ قالت: أرى وجها هو جناح رسول الله صلى الله عليه وآله، وعضو من أعضائه ثم قامت، فحملوها على دابة من دوابّه، فلمّا صارت إليه سلّمت عليه، فردّ عليها السلام، وقرّب مجلسها، وقال لها: ممن أنت؟ قالت: أنا من كلب، قال لها: فكيف حالك؟ قالت: أجد القائت وأستمريه، وأهجع أكثر الليل، وأرى قرة العين من ولد بار، وكنة رضية، فلم يبق من الدنيا شيء إلّا وقد وجدته أخذته، وإنّما أنتظر أن يأخذني، قال: ما أعجب أمرك كله، قالت: قفني على أوّل عجبه قال: بذلك لنا ما كان في حوائك فرفعت رأسها إلى القيم، فقالت: هذا ما قلت لك، قال عبيد الله: وما قالت لك؟ فأخبره، فازداد تعجباً، وقال: خبّريني، فما ادخرت لبنيك إذا انصرفوا؟ قالت: ما قال حاتم طيئ:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

فازداد منها عبيدالله تعجباً، وقال: أرأيت لو انصرف بنوك وهم جياع، ولا شيء عندك، ما كنت تصنعين بهم؟ قالت: يا هذا، لقد عظمت هذه الخبزة عندك وفي عينيك حتى أن صرت لتكثر فيها مقالك، وتشغل بذكرها بالك، اله عن هذا وما أشبه؛ فإنّه يفسد النفس، ويؤثر في الحس فازداد تعجباً، ثم قال لغلامه: انطلق إلى فتيانها، فإذا أقبل بنوها فجئني بهم، فقالت العجوز: أما إنّهم لا يأتونك إلا بشريطة، قال: وما هي؟ قالت: لا تذكر لهم ما ذكرته لي؛ فإنّهم شباب أحداث، تحرجهم الكلمة، ولا آمن بوادرهم إليك، وأنت في هذا البيت الرفيع، والشرف العالي، فإذا نحن من أشر العرب جواراً فازداد عبيدالله تعجباً، وقال لها: سأفعل ما أمرت به، فقالت العجوز للغلام: انطلق، فاقعد بحذاء الخباء الذي رأيتني في ظلّه، فإذا أقبل ثلاثة: أحدهم دائم الطرف نحو الأرض، قليل الحركة، كثير السكون، فذاك الذي إذا خاصم أفصح، وإذا طلب أنجح، والآخر دائم النظر، كثير

الحذر، له أبهة قد كملت من حسبه، وأثرت في نسبه، فذاك الذي إذا قال فعل، وإذا ظلم قتل، والآخر كأنه شعلة نار، وكأنّه يطلب الخلق بثأر، فذاك الموت المائت، هو والله والموت قسيمان، فاقرأ عليهم سلامي، وقل لهم: تقول لكم والدتكم: لا يحدثن أحد منكم أمراً حتى تأتوها فانطلق الغلام، فلمّا جاء الفتية آخرهم، فما قعد قائمهم، ولا شد جمعهم حتى تقدموا سراعاً، فلمّا دنوا من عبيد الله، ورأوا أمّهم، سلّموا، فأدناهم عبيدالله من مجلسه، وقال: إنّي لم أبعث إليكم، ولا إلى أمكم لما تكرهون، قالوا: فما بعد هذا؟ قال: أحب أن أصلح من أمركم، وألمّ من شعثكم قالوا: إنّ هذا قل ما يكون إلّا عن سؤال، أو مكافأة لفعل قديم، قال: ما هو لشيء من ذلك، ولكن جاورتكم في هذه الليلة، وخطر ببالي أن أضع بعض مالي فيما يحب الله عز وجل، قالوا: يا هذا، إنّ الذي يحب الله لا يجب لنا، إذ كنا في خفض من العيش، وكفاف من الرزق، فإن كنت هذا أردت فوجهه نحو من يستحقه، وإن كنت أردت النوال مبتدئاً لم يتقدمه سؤال، فمعروفك مشكور، وبرك مقبول فأمر لهم عبيدالله بعشرة آلاف درهم، وعشرين ناقة، وحوّل أثقاله إلى البغال والدواب، وقال: ما ظننت أنّ في العرب والعجم من يشبه هذه العجوز، وهؤلاء الفتيان، فقالت العجوز لفتيانها: ليقل كل واحد منكم بيتا من الشعر في هذا الشريف، ولعلي أن أعينكم، فقال الكبير:

شهدت عليك بطيب الكلام وطيب الفعال وطيب الخبر

وقال الأوسط:

تبرعت بالجود قبل السؤال فعال كريم عظيم الخطر

وقال الأصغر:

وحق لمن كان ذا فعله بأن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز:

فعمرك الله من ماجد ووقيت شر الردى فالحذر][1]

وكانت وفاته بالطائف، ومولده في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، ومناقبه كثيرة جداً.

وفي سنة تسع وستين توفي أبو الأسود الدؤلي، أخذ النحو عن علي بن أبي طالب عليه السلام. قال أبو الأسود: دخلت على علي بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّي تأمّلت كلام الناس فوجدته قد فسد مخالطة هذه الحمراء ـ يعني الأعاجم ـ، فأردت أن

---

(١) بين المعقوفين غير واضح في المخطوط، والذي اضفناه من كتاب مكارم الأخلاق للخرائطي مع تفاوت بسيط بينه وبين المخطوط.

أصنع لهم شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه، ثم ألقى الرقعة وفيها مكتوب الكلام كله ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف، فالإسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ به، والحرف ما جاء لمعنى، وقال لي: انح هذا النحو وأضيف إليه ما وقع إليك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر ـ وأراد بذلك الأسم المبهم ـ. قال أبو الأسود: وكان ما وقع لي إنّ وأخواتها ما خلا لكن، فلمّا عرضتها عليه، قال لي: وأين لكن؟ فقلت: ما جئتها منها، قال: هي منها فالحقها، ثم قال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوت! فلذلك سمّي النحو نحواً.

وروي أنّه قدم المدينة أعرابي في خلافة عمر، فأقرأه رجل سورة براءة. فقال: إنّ الله بريئ من المشركين ورسوله ـ بالجر ـ. فقال الأعرابي: أو بريئ الله من رسوله، إن يكن الله بريئ من رسوله، فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، وقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله؟ فقصّ عليه القصة، فقال: ليس هكذا يا أعرابى إنّ الله بريئ من المشركين ورسوله بالرفع. فقال الأعرابي: وأنا أبرأ ممن بريئ الله ورسوله منه، فكان هذا سبب وضع النحو. ومن شعر أبي الأسود ما ذكره ابن هشام في شرح شذور الذهب:

يـا أيـها الرجـل المـعلم غـيره ... هـلا لنـفسك كـان ذا التـعليم
تـصف الدواء لذي السـقام وذي ... الضنى، كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تـلقح بـالرشاد عـقولنا ... تـنهى وأنت عـن الرشـاد عـقيم
أبـدأ بـنفسك فـانهها عن غـيها ... فـان أنـتهت عـنه فأنت حكـيم
فـهناك نسمع مـا تـقول ونـقتدي ... بـالقول مـنك ويـنفع التـعليم
لا تـنه عـن خـلق وتأتـي مـثله ... عـار عـليك إذا فـعلت عـظيم

وفي سنة سبعين غدر عبدالملك بن مروان بعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق وذبحه، وكان قد وثب في التي قبلها على دمشق وأراد الخلافة لنفسه، وكان من فصحاء قريش. دخل على معاوية بعد موت أبيه فاستنطقه، فقال: إنّ أوّل مركب صعب، وإنّ مع النوم غداً، فقال له: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال: إنّ أبي أوصاني ولم يوصي بي، قال: فبأي شيء أوصاك؟ قال: أن لا تفقد منه أصحابه غير شخصه. فقال معاوية: هذا عمرو الأشدق ـ فسمّوه بذلك ـ وقيل سمّي بذلك لميل كان في شدقه، وكان يقال له لطيم الشيطان.

قال الشاعر:

ولم تـدع لأبـي الذبـان قـائمة ... ليس اللطيم لها عمرو بـمنتصر

وفي سنة إحدى وسبعين سار عبدالملك إلى العراق، وقتل إبراهيم بن مالك الأشتر، ومصعب

ابن الزبير. وجهّز الحجاج إلى مكة، فقتل عبدالله بن الزبير، وقدمنا ذلك في فصل عبدالملك.

وفي سنة ثلاث وسبعين توفي عبدالله بن عمر بن الخطاب، وعمره سبع وثمانون سنة، وهو شقيق حفصة، أُمهما زينب بنت مظعون، أُخت عثمان بن مظعون، قال جابر بن عبدالله: ما منّا أحد أدرك الدنيا إلّا مالت به، ومال بها إلّا عبدالله بن عمر. وقال نافع عن بن عمر: عرضت على رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر وأنا ابن عشرة فردّني، وعرضت عليه يوم أُحد وأنا ابن ثلاث عشرة فردّني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني.

وفي سنة ثمان وسبعين توفي عبدالرحمن بن غنم الأشعري، وكانت له جلالة وقدر، وهو الذي غلب أبا هريرة وأبا الدرداء بحمص، إذ انصرفا من علي عليه السلام رسولين من معاوية، وكان مما قال لهما: عجباً منكما؛ كيف جاز عليكما ماجئتما به؟ تدعوان علياً أن يجعلها شورى، وقد علمتما أنّه قد بايعه المهاجرون والأنصار وأهل الحجاز والعراق، وأنّ من رضيه خير ممن كرهه، ومن بايعه خير ممن لم يبايعه، وأي مدخل لمعاوية في الشورى، وهو من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة، وهو وأبوه رؤوس الأحزاب. قال: فندما على مسيرهما وتابا منه بين يديه، وهذا من كتاب الكمال في أسماء الرجال[1].

ويؤيد خبر الاصبغ أنّ أبا الدرداء كان أيام صفين.

وفي سنة ثمانين توفي عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وأُمه أسماء بنت عميس، ولد بأرض الحبشة وهو أوّل مولود ولد بها في الإسلام، وكان سخيّاً جواداً حليماً يسمى بحر الجود، ويقال لم يكن في الإسلام أسخى منه.

وفي سنة مائة توفي أبو الطفيل عامر بن واثلة وهو آخر من رأى النبي صلى الله عليه وآله وكان من شيعة علي عليه السلام، نزل الكوفة وتوفي بمكة وقيل سنة عشر ومائة.

قيل كانوا الصحابة مائة ألف وأربعة عشر ألفاً على القول المعتمد عند أهل الحديث، ومدحهم البوصيري بقوله:

وبأصحابك الذين هم بعـ ـدك فينا الهداة والأوصياء

أحسنوا بعدك الصحابة في الديـ ـن وكل لما تولى ازاء

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة اتقياء

زهدوا في الدنيا فما عرف الميـ ـل إليها منهم ولا الرغباء

(١) تهذيب الكمال: ٣٤٢/١٧، الاستيعاب: ٢٥٧/١.

أرخصوا في الوغى نفوس ملوك ... حاربوها أسلابها إغلاء
كلهم في أحكامه ذو اجتهاد ... وصواب وكلهم أكفاء
رضي الله عنهم ورضوا عنـ ... ـه فأنى يخطوا إليهم خطاء
جاء قوم من بعد قوم بحق ... وعلى المنهج الحنيفي جاؤا
ما لموسى ولا لعيسى حواريـ ... ـيون في فضلهم ولا نقباء

فصل
التابعين من العلماء والسلاطين

وفي سنة إحدى وثمانين توفي محمّد بن الحنفية رضي الله عنه بالمدينة، ودفن بالبقيع، وقيل: بالطائف. وكان هارباً من ابن الزبير، وزعم قوم أنّه دخل جبل رضوي[1]، وأنّه القائم المنتظر وقالوا فيه:

ألا قل للوصى فدتك نفسي ... أطلت بذلك الجبل المقاما

وفي سنة أربع وتسعين توفي سعيد بن المسيب، وكان من كبار التابعين وفقهائهم.

وفي سنة خمس وتسعين قتل الحجاج ـ قاتله الله ـ سعيد بن جبير، وكان من كبار العلماء. أرسله إليه خالد القسري أمير مكة بأمر الوليد بن عبدالملك. قال أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد بن جبير، وما على وجه الأرض أحد إلّا وهو محتاج إلى علمه.

وفيها هلك الحجاج وعمره أربع وخمسون سنة أو خمس وخمسون ـ قلعه الله ـ في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، وكانت مدة ولايته العراق نحو عشرين سنة، وكان اخنى رقيق الصوت. قتل مائة ألف وعشرين ألفاً من المسلمين.

فأُعطي قصة فيها اتق الله ولا تجور على عباد الله، فقرأها وصعد المنبر. فقال: أيّها الناس إنّ الله سلّطني عليكم بأعمالكم الرديئة، فإن أنا متّ فلا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال الخسيسة، فإنّ لله تعالى خلق أمثالي كثيراً، وإذا لم أكن أنا كان من هو شرّ منّي، ثم أنشد:

وما من يد إلّا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلّا سيبلى بظالم

وأمر صاحب حرسه أن يضرب عنق من لقيه يمشي بعد العشاء، فطاف ليلة فوجد أربعة شباب

---

(١) رضوي: بفتح أوله وسكون الثانية. جبل بالمدينة، وهو من ينبع على مسيرة يوم ومن المدينة على سبع مراحل، ميمانه طريق مكة ومياسره طريق البريراء [معجم البلدان].

يمشون، عليهم أثر الشرب فأحاط بهم الغلمان، وقال لهم صاحب الحرس: من أنتم حتى خالفتم الأمير وخرجتم في هذا الوقت؟ فقال أحدهم منشد:

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه، وقال: لعلّه من أقارب أمير المؤمنين، ثم سأل الثاني فأنشد:

أنا ابن الدي لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره قيام له من حولها وقعود

فأمسك عنه، وقال: لعلّه ابن أشرف العرب، ثم سأل الثالث فأنشد:

أنا ابن الذي يعلوا الرقاب بسيفه ويضرب أعناق الرجال القشاعم
وما ذاك من دخل ولا هو ثائر ولكنه حاوي الغناء والمكارم

فأمسك عنه، وقال: لعلّه ابن حاكم العرب، ثم سأل الرابع فأنشد:

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفك رجلاه منهما اذا الخيل في الكريهة ملت

فأمسك عنه، وقال: لعلّه ابن أشجع العرب. فلمّا أصبح رفعهم إلى الحجاج، فكشف عن أمرهم، فإذا الأوّل ابن حجام، والثاني ابن فوال، والثالث ابن السياف، والرابع ابن حائك، فعجب الحجاج لبلاغتهم وأطلقهم. ثم قال لجلسائه: علّموا أولادكم الأدب فوالله لولاه لضربت أعناقهم وأنشد:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا!! ليس الفتى من يقول كان أبي

وفي أيام الحجاج توفي القاضي شريح الكندي، قال ابن خلكان: إنّه كان أعلم الناس بالقضاء ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل، وكان مزاحاً، دخل عليه عدي ابن أرطاة، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: اسمع منّي، قال: قل، قال: إنّي رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: وتزوّجت عندكم، قال: استمتع بالرفاء والبنين، قال: وأردت أن أرحلها، قال الرجل: أحق بأهله، قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك، قال: فاحكم الآن بيننا، قال: فعلت. قال: فعلى من حكمت؟! قال: على بن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك. ولاه عمر قضاء الكوفة واستمر إلى أيام الحجاج.

وفي سنة اثنين ومائة قتل يزيد بن المهلب وقومه، قتلهم مسلمة بن عبدالملك بأمر أخيه يزيد ابن عبدالملك، وقدمنا ذكرهم في فصل يزيد بن عبدالملك.

وفي سنة ثلاث ومائة توفي عطاء بن يسار ومجاهد بن جبير.

وفي سنة ست ومائة توفي أبو عبدالرحمن طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني، من أبناء الفرس. قال ابن خلكان: إنّه أحد الأعلام التابعين سمع ابن عباس، وأبا هريرة، وكان فقيهاً جليل القدر والذكر، كتب إلى عمر بن عبدالعزيز عند ولايته، إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الجنّة، فقال عمر: كفى بها موعظة. وتوفي حاجاً بمكة وحمل في سريره عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وسقطت قلنسوته وتمزق رداؤه من خلفه. وقيل: اسمه ذكوان، ولقّبه طاووس؛ لأنه كان طاووس القراء. استدعى المنصور عبدالله بن طاووس ومالك ابن أنس، فقال لعبد الله حدثني عن أبيك، فقال: حدثني أبي أنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة، رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك المنصور ساعة، وضم مالك ثيابه خوفاً أن يصيبه من دمه... ثم قال المنصور لمالك: ناولني تلك الدواة فلم يفعل، فقال: لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها، فقال: قوما عنّي، فقالا: ذلك ما كنّا نبغي وقاما عنه.

وفي سنة عشر ومائة توفي الحسن البصري، وكان مولده في خلافة عمر، وكان ابن أبي العوجاء من تلامذته، فانحرف عن التوحيد فقيل له لم تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟ فقال: إنّ صاحبي كان مخلطاً يقول: طوراً بالقدر، وطوراً بالجبر، وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه.

وفيها توفي محمّد بن سيرين صاحب كتاب تفسير المنامات، وسيرين كان عبدا لأنس بن مالك.

عن الصادق عليه السلام إنّ عشر ليالي من كل شهر إن رأى منام فيها يكون صادق وهي ليلة السادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والخامس عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والثلاث والعشرون، والسابع والعشرون، والثامن والعشرون. وعشر ليالي ما لها تعبير وهي: ليلة أول من الشهر، والعاشر، والثالث عشر، والحادي والعشرون، والثالث والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون، والسادس والعشرون، والتاسع والعشرون، والثلاثون. وست ليالي يكون تعبيرها إلى شهر آخر أو سنة أخرى، وهي: ليلة الرابع، والخامس، والحادي عشر، والثاني عشر، والسادس عشر، والسابع عشر. وأربع ليالي يكون تعبيرها العكس بمعنى إن رأى فرحاً يكون غمّاً، وإن رأى غمّاً يكون فرحاً، وهي ليلة الثاني، والثالث، والرابع.

وفي سنة اثنين وعشرين ومائة قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وصلب بالكوفة، وقدّمنا ذكره في فصل هشام بن عبدالملك.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومائة ظهر يحيى بن زيد بخراسان، فحدث عمير بن متوكل الثقفي البلخي عن أبيه متوكل بن هارون، قال: لقيت يحيى بن زيد وهو متوجّه إلى خراسان، فسلمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من الحاج، فسألني عن أهله وبني عمه بالمدينة، وأخفى السؤال عن جعفر بن محمّد عليه السلام، فأخبرته بخبره وخبرهم وحزنهم على أبيه زيد، فقال لي: قد كان عمي محمّد بن علي أشار على أبي بترك الخروج، وعرّفه إن هو خرج وفارق المدينة بما يكون إليه مصيره، فهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمّد؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري؟ قلت: نعم، قال: بم ذكرني خبرني؟ قلت: جعلت فداك ما أحب أن استقبلك بما سمعته منه، فقال: أبا الموت تخوفني، هات ما سمعته! فقلت: سمُعته يقول إنّك تقتل وتصلب كما قتل أبوك وصلب، فتغيّر وجهه، وقال: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. فقتل يحيى سنة خمس وعشرين ومائة، وصلب بخراسان إلى أن خرجَ أبو مسلم الخراساني، فأنزله وصلى عليه ودفنه، ثم خرج بعده جماعة من آل أبي طالب قدّمنا ذكرهم في فصول الخلفاء، وسأذكرهم واحداً بعد واحدٍ في ركن الحوادث في الدنيا والدين إن شاء الله ربّ العالمين.

وفي سنة أربع وعشرين ومائة توفي محمّد بن مسلم الزهري من كبار التابعين، وكان إذا جلس في بيته وضعَ كتبه حوله ولا يلتفت إلى أحد، فقالت له زوجته: والله إنّ هذه الكتب لأشد علي من ثلاث ضرائر.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة توفي نصر بن سيار، وواصل بن عطاء، ومالك بن دينار، وإبراهيم ابن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس المعروف بالإمام.

وفي سنة اثنين وثلاثين ومائة قتل أبو مسلمة الخلال بأمر السفاح، وكان يريد أن يجعل الخلافة في آل أبي طالب، وكان يسمى وزير آل محمّد.

وفي سنة سبع وثلاثين ومائة قتل أبو مسلم الخراساني، وكان يسمى أمين آل محمّد، وقدّمت ذكره في فصل المنصور.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة قتل محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأخوه إبراهيم، وقدّمنا ذلك في فصل المنصور.

وفي سنة خمسين ومائة توفي أبو حنيفة في شهر رجب ببغداد مسجوناً على قبول القضاء ودفن بها، وكان مولده سنة ثمانين وقيل سنة إحدى وتسعين، واسمه النعمان بن ثابت من أهل بابل أو كابل، أدرك أربعة من الصحابة: أنس بن مالك، وعبدالله بن أبي أوفى، وسعد الساعدي، وأبا الطفيل عامر بن واثلة. وروى عنهم وعن غيرهم، وتلمذ لجعفر بن محمّد عليه السلام.

قالوا: وكان عالماً عاملاً زاهداً ورعاً، حسن الوجه والمنطق محجاجاً، قيل: صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة، وختم القرآن في الموضع الذي مات فيه سبعة آلاف مرة، قال جعفر بن الربيع: قرأت على أبي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتاً منه، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادي، وسمعت له دوياً وجهارة في الكلام، وكان إماماً في القياس، قال علي بن عاصم: دخلت على أبي حنيفة وعنده حجّام يأخذ من شعره، فقال للحجّام: تتبع مواضع البياض؟ قال: لا؛ فإنّه يكثر. قال: فتتبع مواضع السواد لعله يكثر. قال: وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك، وقال: لو ترك أبو حنيفة قياسه لتركه مع الحجّام، واستدل منكروا القياس بقوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ**﴾[1]، قالوا: إنّه تعالى أوجب ردّ المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس، وأجيب بأنّ ردّ المختلف إلى المنصوص عليه إنّما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس.

قالوا: ويؤيد ذلك الأمر بعد الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول، فإنّه يدل على أنّ الأحكام ثلاثة: مثبت بالكتاب، ومثبت بالسنة، ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس.

وفيها توفي محمّد بن إسحاق ـ صاحب المغازي ـ كان ثقة، فطعن فيه مالك بن أنس، ولذلك لم يرو عنه البخاري، ولم يخرج عنه مسلم إلّا حديثاً واحداً في الترجمة.

وفيها توفي مقاتل بن سليمان البلخي.

وفي سنة ستين ومائة توفي داود الطائي الزاهد، وسفيان الثوري وهما من أصحاب أبي حنيفة.

وفيها توفي عبدالرحمن بن عبدالله المسعودي، والخليل بن أحمد البصري، وإبراهيم بن أدهم ابن منصور البلخي الزاهد المشهور من بكر بن وائل، كان سلطاناً بما وراء النهر، فترك السلطنة وأقبل على الدروشة والعبادة والسياحة إلى أن مات.

قيل له مالنا ندعوا الله فلا يستجيب لنا؟ فقال: لأنّكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

وكان الخليل بن أحمد من الزهاد في الدنيا والمعرضين عنها. وجّه إليه سليمان بن علي من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كل فما عندي غيره،

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان، فقال الرسول: فما أبلغه؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال
سخي بنفسي أني لا أرى أحداً ... يموت هزلا ولا يبقى على حال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال

وهو أوّل من استخرج علم العروض، فدخل عليه ولده في تلك الحالة وهو يقطع العروض، فخرج إلى الناس فقال: إنّ أبي قد جنّ، فدخل الناس عليه فرءوه يقطع العروض، فأخبروه بما قال ابنه فقال له:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وكان يقول:

وقبلك داوىٰ الطبيب المريض ... فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لداعي الفناء ... فإن الذي هو آتٍ قريب

وكان يقول: إن لم تكن هذه الطائفة ـ يعني أهل العلم ـ أولياء الله فليس لله ولي. وأولياء الله الذين يتلونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، وهم الذين أدّوا فرائض الله، وأخذوا سنن رسول الله، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل الدنيا، ورغبوا فيما عند الله لا خوف عليهم من لحوق مكروه ولا هم يحزنون بفوات مأمول.

وفي سنة إحدى وسبعين ومائة أو في التي بعدها توفي عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي، وعمره اثنين وخمسين سنة، ومدّة ملكه بالأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة، وكان طويلاً أصهب أعور خفيف العارضين، اجتمع إليه من سلم من بني أمية.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة توفي محمّد بن سليمان بن علي بن عم المنصور، وكان الرشيد يبالغ في تعظيمه، ولمّا مات احتوى الرشيد على خزائنه وكانت ألف ألف درهم.

وفيها توفي نوح الجامع ابن مريم سمّي الجامع؛ لأنّه أخذ الفقه عن أبي حنيفة وابن أبي ليلى، والحديث عن حجاج بن أرطاة، والمغازي عن محمّد بن إسحاق، والتفسير عن مقاتل. فولي القضاء، ولمّا أراد أن يزوّج ابنته استشار جاراً له مجوسي، فقال له: سبحان الله الناس يستفتونك، وأنت تستفتيني! فقال: لا بل أن تشور عليّ، فقال: إنّ رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار النسب، ورئيسكم محمّد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة توفي مالك بن أنس بن مالك الصحابي بن أبي عامر بن عمرو بن الحرث من ولد ذي الاصبح، أخي الحرث بن عوف من ولد يعرب بن قحطان، وكان مولده سنة خمس وسبعين، ودفن بالبقيع، وكان طويلاً أشقر، وهو صاحب المذهب المالكي.

وفي سنة ثمانين ومائة توفي هشام بن عبدالرحمن الأموي بالأندلس، وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر، ومدّة ملكه سبع سنين وسبعة أشهر.

وفيها توفي سيبويه النحوي بقرية يقال لها: البيضاء من قرى شيراز، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، كان أعلم الناس بالنحو، وبرز على شيخه الخليل بن أحمد، وقيل توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، وقال أبو الفرج الجوزي: توفي سيبويه سنة أربع وتسعين ومائة، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، بمدينة ساوه. وذكر خطيب بغداد أنّه كان حسن الوجه، وجنتاه كأنّهما تفاحتان، وجرى له مع الكسائي تحيته المشهور، في قوله كنت أظن أنّ لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور، فإذا هو هي. فقال الكسائي: فإذا هو إياها. وانتصر الخليفة للكسائي، فغضب سيبويه، وسافر من العراق إلى شيراز، وتوفي وتمثل عند الموت:

يــؤمل دنــيا لتــبقى له ... فمات المؤمل قبل الأمل

ووضع رأسه في حجر أخيه فأغمي عليه، فدمعت عين أخيه، فأفاق فرآه يبكي فقال:

أخــيين كــنا فــرق الدهــر بــيننا ... إلى الغاية القصوى ومن يأمن الدهرا!

وفي سنة إحدى وثمانين ومائة توفي الكسائي المقرئ النحوي أحد القرّاء السبعة بالري.

وفيها وقيل في التي بعدها توفي أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم من ولد سعيد بن بجير الصحابي الأنصاري، واسم أمه حبتة. قال ابن خلكان: كان القاضي أبو يوسف من أهل الكوفة، وهو صاحب أبي حنيفة، فكان فقيهاً عالماً حافظاً، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة، وخالفه في مواضع كثيرة. قال أبو يوسف: توفي أبي وخلّفني صغيراً في حجر أمّي، فأسلمتني إلى قصار[1] أخدمه، فكنت أدع القصار وامر إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعتني بي لمّا يرى من حرصي على التعلّم، فلمّا كثر ذلك على أمي، وطال عليها هربي. قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك! هذا صبي يتيم لا شيء له، وإنّما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه. فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت

(١) القصار: بالفتح والتشديد وزان فعال: من يدق الثوب ويبيضه.

شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ثم لزمته فنفّعني الله تعالى بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلمّا كان في بعض الأيام قدم إلى هارون الرشيد فالوذجة، فقال لي: يا يعقوب كل منها؟ فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها. فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه فالوذجة بدهن الفستق. فضحكت، فقال لي: مما ضحكك؟ فأخبرته، فقال: لعمري إنّ العلم ينفع دينا ودنيا، وترحّم على أبي حنيفة، وقال: كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه.

وفيها توفي عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، الفقيه الحنفي الحافظ الزاهد، أحد الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام، وله ثلاث وستون سنة.

قال العباس بن مصعب المروزي: كانت أم عبدالله بن المبارك خوارزمية، وأبوه عبداً تركياً لرجل من التجار من همدان من بني حنظلة، وكان عبدالله إذا قدم همدان يخضع لولده ويعظمهم.

وقال محمّد بن عيسى: الأئمة أربعة: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وابن المبارك.

وقال محمّد بن محرز الهروي: عن الحسن بن عيسى، اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك مثل المفضل بن موسى، ومخلد بن حسين، ومحمّد بن النضر. فقالوا: تعالوا حتى نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير؛ فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والشعر، والفصاحة، والزهد، والورع، والإنصاف، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والشدّة في بدنه، وترك الكلام فيما لا يعنيه، وقلّة الخلاف على أصحابه، وكان كثيراً مما يتمثل به:

وإذا صاحبت فاصحب صاحباً ... ذا حياء وعفاف وكرم
قوله للشيء لا إن قلت لا ... وإذا قلت نعم قال نعم

وقال عبدالله بن معاوية بن عبدالله الجمحي: سمعت ابن المبارك ينشد:

أيها الطالب علما ... ائت حماد بن زيد
فخذ العلم بحلم ... ثم قيده بقيد
ودع البدعة من ... آثار عمرو بن عبيد

وقال الحسن بن عيسى: قال عبدالله بن المبارك:

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت خاليا مستريحاً
وإذا ما هممت بالزور والبا ... طل فاجعل مكانه تسبيحاً
فاغتنام السكوت أفضل للمرء ... وإن كان في الكلام فصيحاً

وقال إبراهيم بن عبدالله بن الجنيد: عن يحيى بن معين، كان عبدالله بن المبارك كيّساً مستثبتاً ثقة، وكان عالماً صحيح الحديث، وكانت كتبه التي حدّث بها عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً.

وقال محمود بن والان: سمعت عمار بن الحسن يمدح ابن المبارك:

إذا سار عبدالله من مرو ليلة فقد سار عنها نورها وجمالها

إذا ذكر الاخيار في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها

وقال عمر بن مدرك: عن القسم بن عبدالرحمن، حدّثنا أشعث بن شعبة المصيصي، قال: قدم هارون الرشيد الرقة، فاحتفل الناس خلف عبدالله بن المبارك، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلمّا رأت الناس، قالت ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة، يقال له عبدالله بن المبارك. فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلّا بشرط وأعوان!

وفي سنة سبع وثمانين ومائة أوقع الرشيد بالبرامكة، وقدمنا ذلك في فصل الرشيد.

وفيها توفي المفضل بن عياض الطالقاني الزاهد المشهور أحد رجال الطريقة، كان في أوّل أمره شاطراً يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس، وكان سبب توبته على ما ذكر ابن خلكان، أنّه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تالياً يتلوا: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[1]، قال يا ربّ قد آن، فرجع وآواه الليل إلى خرابة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإنّ فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضل وآمنهم وكان من كبار السادات.

قال ابن خلكان: حدّث سفيان عيينة، قال: دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه، ودخل الفضل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، أيهما أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له: يا حسن الوجه، أنت الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثم أعطى كل رجل منّا بدرة، فكل قبلها إلّا الفضيل، فقال له الرشيد: إن لم تستحل أخذها فأعطيها ذي دين أو اشبع بها جائعاً أو اكس بها عرياناً فاستعفاه منها، فلمّا خرجنا قلت: يا أبا علي أخطأت ألا أخذتها وصرفتها في أبواب البر! فأخذ بلحيتي ثم قال لي: يا أبا محمّد أنت فقيه البلد والمنظور إليه، وتغلط مثل هذا الغلط، لو طابت لأولئك لطابت لي.

---

(١) سورة الحديد: ١٦.

وفي سنة أربع وتسعين ومائة قتل شقيق البلخي الزاهد في غزاة كولان[١] من بلاد الترك.

دخل يوماً على هارون الرشيد، فقال له: أنت شقيق الزاهد؟ قال: أنا شقيق ولست بزاهد، فقال له: أوصني، فقال: إنّ الله تعالى أجلسك مكان الصديق، وأنّه يطلب منك مثل صدقه، وأعطاك موضع الفاروق، وأنّه يطلب منك الفرق بين الحق والباطل مثله، وأجلسك مكان علي بن أبي طالب، وأنّه يطلب منك العدل والعلم والإنصاف والخشوع كما طلب منه. وأعطاك ثلاثة أشياء: بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الخلق من اعتداء بعضهم على بعض بهذه الثلاثة، فمن جاءك محتاج فلا تمنه من بيت المال، ومن خالف أمر ربه فأدّبه بهذا السوط، ومن قتل نفساً بغير حق[٢] فاقتله بهذا السيف بإذن ولي المقتول، فإن لم تفعل ما أمرك به فأنت تكون الزعيم لأهل النار المتقدم إلى دار البوار. وهو صاحب القصة التي ذكرناها مع الكاظم عليه السلام.

وفي سنة خمس وتسعين ومائة توفي أبو نؤاس الحسن بن هاني الشاعر المشهور، قيل له: لماذا لم تمدح علي بن موسى الرضا عليه السلام؟ فقال:

قيل لي أنت أوحد الناس طرا ... في فنون من الكلام النبيه

لك من جوهر الكلام بديع ... يثمر الدر في يدي مجتنيه

فعلى ما تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمعن فيه

قلت لا أهتدي لمدح إمام ... كان جبرئيل خادماً لأبيه

ثم نظر إلى الرضا عليه السلام ذات يوم وقد خرج من عند المأمون على بغلة له، فدنا منه وسلّم عليه، وقال: يا ابن رسول الله قلت فيك أبياتاً وأحب أن تسمعها منّي، فقال: هاتها، فأنشأ يقول:

مطهرون نقيات ثيابهم ... تجري الصلاة عليهم اينما ذكروا

الله لما برا خلقا وأتقنه ... صفاكم واصطفاكم أيها البشر

من لم يكن علويا حين تنسبه ... فما له في قديم الدهر مفتخر

فأنتم الملأ الأعلى وعندكم ... علم الكتاب وما جاءت به السور

فقال له: قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد يا غلام، هل معك من نفقتنا شيء؟ فقال: ثلاثمائة دينار. فقال: أعطها أيّاه، فلمّا وصل إلى منزله. قال: لعله استقلّها يا غلام سق إليه البغلة.

قال الشافعي: دخلنا على أبي نؤاس وهو يجود بنفسه. فقلت له: ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال:

---

(١) كولان: ضبطه ياقوت بضم الكاف، وقال: بلدة طيبة في حدود بلاد الترك من ناحية بما وراء النهر.

(٢) في المخطوط «نفس»، وما اثبتناه من التبر المسبوك في نصيحة الملوك.

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ورأى على قبره مكتوب:

يا كثير الذنب عفو الله عن ذنبك أكبر

وفي سنة ثلاث ومائتين يوم الجمعة سلخ رجب توفي إمام الشوافعة محمّد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، وفي عبد مناف يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله في عمود النسب. وعمره أربع وخمسون سنة، ودفن بمصر، وكان مولده بغزة سنة خمسين ومائة، قيل ولد في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة.

أخذ الحديث عن مالك بن أنس، والعلم عن محمّد بن الحسن الشيباني وأثنى عليه. قال الشافعي: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، والموطأ وأنا ابن عشر سنين، وقدمت على مالك وأنا ابن خمس عشرة سنة، ورأيت علي بن أبي طالب عليه السلام في منامي وصافحني وجعل خاتمه في أصبعي، ففسرت المصافحة بالأمان من العذاب ووضع الخاتم أنّه سيبلغ إسمي في الآفاق ما يبلغ إسمه، وكان حسن الشعر ومن شعره:

كيف الوصول إلى سعادة ودونها قلل الجبال ودنهن حتوف

الرجل حافية ومالي مركب والكف صفر والطريق مخوف

رعت الأسود بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ومنه:

عمدة الدين عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية

أتق الله وازهدن ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية

ومنه:

خذوا بدمي هذا الغزال فإنه رماني بسهمي مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه إنني أنا عبده وفي مذهبي لا يقتل الحر بالعبد

ومنه:

قارب ان دخلت على اناس واجلس موضع الرجل الأقل

فان رفعوك كان الفضل منهم وان وضعوك قل هذا محلي

ومنه:

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمـــرء مــا دام ذا عــين يــقلبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
يســـر مـــقلته مــا ضــرّ مــهجته لا مــرحــباً بســرور جاء بـالضرر

ومنه:

ولولا خشـــية الرحـــمن عــندي جــعلت النـاس كـلهم عــبيدي
ولولا الشـــعر بـــالعلماء يـزري لكــنت اليــوم أشــعر مـن لبـيدي

وقيل منه:

مــا دمت حــياً فـدار النـاس كـلهم فـــإنما أنت فـــي دار المـــداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى عـــمّا قـــليل نـديما للـندامــات

وفيها توفي النضر بن شميل بن خرشة البصري النحوي، خرج من البصرة مسافراً ومعه من أعيانها ثلاثة آلاف رجل يودعونه، فقال: والله لوجدت كل يوم كيلجة باقلاً ما رحلت عنكم، فلم يكن أحد منهم يتكلّف ذلك ويردّه، وصار إلى مرو وصحب المأمون وحظي عنده وصار ذا مال عظيم. ومما أفاده أنّ السداد بفتح السين القصد في الدين وبكسرها البلغة من العيش، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم هذا العربي يقول:

أضــاعوني وأي فـتى أضـاعوا ليـــوم كــريهة وســداد ثـغر

فأمر له المأمون على هذه بخمسين ألف درهم، وهو من أصحاب الخليل ابن أحمد.

وفيها توفيت زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الدوانيقي زوجة هارون الرشيد. قال السيوطي: لم يوجد عباسيّة اكتنفتها الخلافة سواها؛ لأنّ جدها المنصور، وزوجها الرشيد، وابنها الأمين، وكان لها أموال وضياع لا تحصى، وأنفقت مالاً عظيماً في سبيل الله، فمن ذلك ما أنفقت على إيصال ماء عين مشاش إلى مكة المعظمة، وهي العين التي على طريق الطائف، وكان إنفاقها على العين إلى أن أوصلتها مكة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، ومهّدت لها على الطريق في مسافة اثني عشر فرسخاً، ولها في طريق العراق من الكوفة إلى المدينة آثار عظيمة لا يمكن حصر ما أخرجت على ذلك الطريق، وأمّا آثارها الملوكية، فإنّها أوّل من اتخذت في الإسلام الآلات من الذهب والفضة مكللة بالجواهر، وهي أوّل من اتخذت القباب من الفضة والأبنوس[1] ملبسة بالوشي والديباج، وهي أوّل من اتخذت الخفاف المرصّعة بالجواهر، وأوّل من اتخذت الشموع من العنبر والكافور. ولمّا ولي ابنها الخلافة رفع منازل الخدام المرد مثل كافور وغيره، فلمّا رأت حبّه

(١) الابنوس: شجر عظيم صلب العود أسوده.

لهم وشغفه بهم اتخذت له الجواري المقدودات، وعممتهنّ وجعلت لهنّ الطرر والأصداغ والقراطق والمناطق، ولم يكن النساء يستعملن السوالف، فبانت قدودهن، وبرزت أعجازهن، ودقّت خصورهن، وبعثت بهنّ إليه، فاستحسنهنّ وأبرزهنّ لأهل مجلسه، فسمّاهنّ الناس الغلاميات. ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما كان.

وفي سنة أربع ومائتين توفي هشام بن محمّد السائب الكلبي، أحد علماء الأدب. قال محمّد بن أبي السري، قال لي هشام بن الكلبي، حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت ما لم ينسه أحد، كان لي عمّ يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتاً وحلفت أنّي لا أخرج حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام، ونظرت يوماً في المرآة فقبضت على لحيتي لأخذ ما دون القبضة، فأخذت ما فوق القبضة.

وفي سنة ست ومائتين توفي الحكم بن هشام الأموي ملك الأندلس، وعمره اثنتان وخمسون سنة، ومدّة ملكه ست وعشرون سنة.

وفيها توفي قطرب تلميذ سيبويه، سمّاه سيبويه قطرب لأنّه كان يبكر بليل إلى الاشتغال عليه، واسمه محمّد بن المستنير البصري، كان أحد العلماء باللغة والنحو، وكان يذهب إلى مذهب المعتزلة.

وفي سنة سبع ومائتين توفي الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله، وكان معلماً لأولاد المأمون، لقّب بالفراء لأنّه كان يفري الكلام، ولم يكن فراء في الفراء. قال سلمة بن عاصم: إنّي لأعجب من الفراء كيف كان يعظم الكسائي وهو أعلم بالنحو منه.

وقال الفراء: أموت وفي نفسي من حتى؛ لأنّها تخفض وترفع وتنصب. ومن شعره في بعض الأمراء

يا أميرا على جريب من الأرض	له تسعة من الحجاب
جالساً في الخراب يحجب فيه	ما سمعنا بحاجب في خراب
لن تراني لك العيون بباب	ليس مثلي يطيق رد الجواب

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين توفي الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة الذي زاد بحر العروض، والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما، أخذ النحو عن سيبويه، وكان يقول: ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلّا عرضه عليّ.

وفي سنة خمس عشرة ومائتين وقيل في التي بعدها توفي أبو سعيد الأصمعي، واسمه عبدالملك بن قريب. قال محمّد بن أبي العتاهية: لمّا بلغ أبي موت الأصمعي خرج ورثاه فقال:

لهفي لفقد الأصمعي لقد مضى حميدا له في كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته فلمّا انقضت أيامه أفل النجم

قال الأصمعي: دخلت البصرة وأنا أريد بادية بني سعيد، وكان على البصرة يومئذٍ خالد بن عبدالله، فدخلت عليه يوماً فرأيت قوماً متعلقين بشاب ذي جمال وكمال وأدب ظاهر، ووجه زاهر، وعليه سكينة ووقار، فقدّموه إلى خالد فسأل عن قصّته، فقالوا: هذا لصّ أصبناه البارحة في منزلنا، فنظر خالد إلى الفتى فأعجبه حسن هيئته ولطافته، فقال لهم: خلّوا عنه، ثم أدناه وسأله عن قصّته فقال:

إنّ القول ما قالوه والأمر ما ذكروه، فقال له: ما حملك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة؟ فقال: حملني الشراة فى الدنيا، وكذا قضى الله تعالى. فقال له: ثكلتك أمك، أما كان لك في كمال عقلك وحسن أدبك زاجر عن السرقة؟ فقال: دع عنك هذا أيّها الأمير، وانفذ ما أمرك الله به، فذاك بما كسبت يداي، وما ربك بظلام للعبيد، فسكت خالد مفكراً فى أمره ساعة، ثم أدناه منه. وقال له: إنّ اعترافك بالسرقة على رؤوس الملأ قد رابني، وما أظنك سارقاً، وأنّ لك قصّة غير السرّقة فأخبرني بها. فقال الفتى: أيّها الأمير لا يقع في نفسك شيء غير ما أعترفت به، وليس لي قصّة أشرحها لك إلّا أنّي دخلت دار هؤلاء القوم فسرقت منها مالاً فأدركوني وأخذوه منّي وحملوني إليك. فأمر بحبسه وأمر منادياً ينادي من أحبّ أن ينظر إلى عقوبة الشاب فلان اللص فليحضر من الغداة، فلمّا استقر الفتى فى الحبس ووضع في رجليه الحديد تنفس الصداء وأنشد:

هددني خالد بقطع يدي إذ لم أبح عنده بقصتها
فقلت: هيهات أن أبوح بما تضمن القلب من محبتها
قطع يدي بالذي اعترفت به أشهى إلى القلب من فضيحتها

فسمعه المتوكلون به وأخبروا بذلك خالد، فلمّا جنّ عليه الليل أمر بإحضاره، فلمّا أحضر أمر له بطعام فأكل وتحادثا ساعة، ثم قال له: قد علمت أنّ لك قصّة غير السرقة، فإذا أحضر الناس غداً وسألتك عن السرقة فانكرها أو أذكر فيها شبهة تدرأ عنك القطع، ثم أمر به فأعيد إلى الحبس، فلمّا أصبح الناس لم يبق بالبصرة رجل ولا إمرأة إلّا حضروا ليروا عقوبة ذلك الفتى. وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة، ثم دعا بالقضاة والفقهاء وأمر بإحضار الفتى، فأقبل يحجل فى قيوده، فما بقي أحد من الناس إلّا بكى عليه. ثم قال له خالد: إنّ هؤلاء القوم يزعمون أنّك دخلت دارهم وسرقت مالهم؟ قال: صدقوا. فقال: لعلك سرقت دون النصاب؟ قال: بل سرقت نصاباً كاملاً. قال: لعلك

أخذته من غير حرز؟ قال: بل أخذته من حرز. قال: فلعلك شريك القوم في شيء منه؟ قال: بل هو جميعه لهم ولا حق لي فيه. فغضب خالد وضربه على وجهه بالسوط، وقال: يريد العبد أن يعطي منّا ويأبى الله إلّا ما يشاء، ثم دعا بالجزار ليقطع يده، فحضر وأخرج السكين ومدّ يده فأشرف عليها بالسكين. فبادرت جارية من صف النساء فصرخت ورمت نفسها عليه، وأسفرت عن وجه أضوأ من البدر إذا استدار، فارتفع للناس ضجّة عظيمة كاد أن يقع منها فتنة، ثم نادت بأعلى صوتها ناشدتك الله أيّها الأمير لا تعجل عليه بالعقوبة حتى تقرأ هذه الرقعة، ثم دفعت إليه رقعة ففضها خالد وإذا فيها مكتوب:

أخالد هذا مستهام متيم ... رمته سهام عن قسي الحمالق

فأصباه سهم اللحظ مني فقلبه ... حليف الجوى من دأبه غير فائق

أقر بما لا يعتريه لأنه ... رأى ذاك خيراً من فضيحة عاشق

فمهلا على الصب الكئيب لأنه ... كريم السجايا في الورى غير سارق

فأنت الذي لا يرتجى اليوم غيره ... لدفع ملمات الخطوب الطوارق

فلمّا قرأ خالد الأبيات تنحّى عن الناس، وأحضر الجارية وسألها عن القصّة، فأخبرته أنّ هذا الفتى عاشق لها وهي له كذلك، وأنّه زارها وأراد أن يعلمها بمكانه، فرمى حجراً في الدار فسمع أبوها وأخوتها صوت الحجر، فصعدوا وهو في الحجرة، فلمّا أحس بهم جمع أثاث البيت كارة وحملها على قفاه، فأخذوه وقالوا: هذا لصّ وأتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصرّ على ذلك حتى لا يفضحني بين أخوتي، وقد هان عليه قطع يده لكي يسترني، كل ذلك لغزارة مروّته وكرمه. فقال خالد: إنّه لخليق به ذلك، ثم دعا به وقبّل بين عينيه وأمر بإحضار الجارية ووالدها، فقال له: يا شيخ إنّا كنّا قد عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بقطع اليد، إلّا أنّ الله سبحانه قد عصمني من ذلك، وقد أمرت له بعشرة آلاف دينار لبذل يده، حفظاً لعرضك وعرض ابنتك وصيانته لكما، وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه، فقال له الشيخ: قد أذنت لك أيّها الأمير، فأمر خالد بإحضار المال ثم خطب وقال للفتى: زوجتك هذه الجارية بعشرة آلاف دينار، فقال الفتى: قبلت التزويج.

وأمر بحمل المال إلى دار الفتى، وانصرف الناس مسرورين فلم يبق أحد في أسواق البصرة إلّا نثر عليهم اللوز والسكر.

قال الأصمعي فما رأيت أعجب من ذلك اليوم أوّله بكاء وآخره سرور[1].

---

(١) اعلام الناس بما وقع للبرامكة: ١٣/١.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين توفي محمّد بن زياد الكوفي المعروف بابن الأعرابي ولد في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة.

قال محمّد بن الفضل الشعراني: كان للناس رؤساء، كان سفيان الثوري رأساً في الحديث، وأبو حنيفة رأساً في القياس، والكسائي رأساً في القرآن، فلم يبق الآن رأس في فن من الفنون أكثر من ابن الأعرابي فإنّه رأس في كلام العرب.

والأعرابي منسوب إلى الأعراب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدوياً وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً، ويقال: رجل أعجم وأعجمي أيضاً إذا كان في لسانه عجمة وإن كان من العرب، ورجل عجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً، هكذا ذكر محمّد بن عزيز السجستاني في كتابه المسمّى بغريب القرآن.

وفيها توفي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر، وهو شامي الأصل كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء فأخذ عنهم وتعلم، وكان فهما فطناً وكان يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر وأجاد. وسار شعره وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله إليه وهو بسرّ من رأى، فعمل أبو تمام قصائد عدّة، وأجازه المعتصم وقدّمه على شعراء وقته، وقدم إلى بغداد فجالس بها الأدباء وعاشر العلماء، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس، وولي الموصل وأقام بها أقل من سنتين، ومات في أيام الواثق فرثاه الحسن بن وهب:

فجمع القريض بخاتم الشعراء وغدير روضتها حبيب الطائي
ماتا معا فتجاورا في حفرة وكذاك كانا قبل في الأحيائي

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين توفي أبو زكريا يحيى بن معين من كبار المحدثين متوجّها إلى الحج بمدينة النبي صلى الله عليه وآله، وغسل على الأعواد التي غسل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله، وله من العمر خمس وسبعون سنة، وكذلك قال ابن خلكان: وإنّ أباه كان كاتباً لعبد الله بن مالك، وقيل: أنّه كان على خراج الري فمات، وخلف لابنه يحيى المذكور ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم، فانفق المال جميعه على الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسها. وسئل كم كتبت من الحديث؟ فقال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث، وخلف من الكتب ما يعجز عن حصرها. وروي عنه الحديث كبار الأئمة؛ منهم أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، وأبو داود السجستاني وغيرهم من الحفّاظ. وكان بينه وبين أحمد بن حنبل من الصحبة والألفة والاشتراك في الاشتغال بعلوم الحديث، ما هو مشهور لا حاجة إلى الإطالة فيه. وقال ابن الرومي: ما سمعت أحداً قط يقول الحق في المشايخ غير يحيى بن معين، وغيره كان يتحامل بالقول. وقال

يحيى بن معين: ما رأيت على رجل قط خطأ إلّا سترته، وأحببت أن أبين له خطأه فيما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلّا تركته، وكان يقول: كتبنا عن الكذابين[١] وسجرنا[٢] به التنور وأخرجنا به خبزاً نضيجاً وكان ينشد:

المال يذهب حله وحرامه ... طرأ ويبقى في غد آثامه

ليس التقي بمتق لإلهه ... حتى يطيب شرابه وطعامه

ويطيب ما يحوي وتكسب كفه ... ويكون في حسن الحديث كلامه

نطق النبيّ لنا به عن ربه ... فعلى النبي صلاته وسلامه

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين توفي عبدالسلام بن رغبان المعروف بديك الجن، وكان شيعياً، ومن أحسن شعره:

وقم وأنت فأحثث كأسها غير صاغر ... ولا تسق إلّا خمرها وعقارها

مشعشعة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده فأدارها

وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين توفي حاتم الأصم الزاهد، ولم يكن أصم وإنّما كانت امرأة تسأله فخرج منها صوت فخجلت، فقال: أرفعي صوتك! فزال خجلها، وغلب عليه هذا الإسم.

وحكي أنّ رجلاً دخل حماماً فخرج منه صوت، والصانع يخدمه فظنّه طروشاً إذ كتم عليه، فقال له: ما بقى من سمعك؟ قال: ما أسمع به الكلام والرعد في الغمام، والمضراط في الحمام.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائتين توفي عبدالرحمن بن الحكم الأموي ملك الأندلس، وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وخلف خمسة وأربعين ابناً، وملك بعده ولده محمّد.

وفي سنة أربعين ومائتين توفي أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي كان حنفياً. فلمّا قدم الشافعي العراق واختلف إليه نقل أقواله القديمة وترك مذهبه الأوّل.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين توفي أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس إمام الحنابلة، وله سبع وسبعون سنة، ينسب إلى معد بن عدنان. قال الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل، وكان أحمد بن حنبل يثني على الشافعي، فقال عبدالله بن أحمد بن حنبل لأبيه: يا أبة أي رجل كان الشافعي؟ فإنّي سمعتك تكثر من الدعاء

---

(١) في المخطوط «الكتابين»، وما أثبتناه هو الصحيح انظر تاريخ بغداد ١٨٤/١٤، تاريخ دمشق ٢٥/٦٥.

(٢) السجر: تهيج النار.

له، فقال: يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، هل لهذين من خلف، وعنهما من عوض؟ وهكذا ينبغي أن تكون العلماء يثني بعضهم على بعض.

وفي سنة اثنين وأربعين ومائتين توفي القاضي يحيى بن أكتم، قيل كان عالماً وهو الذي ردّ المأمون عن القول بحل المتعة مستدلاً بقوله تعالى: **﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾**[1]، قال: والمتعة لا زوجة ولا ملك يمين، يعني أنّها لو كانت زوجة لورثت. وكان يحيى ذميم الخلق يرمي بمحبة الغلمان حتى قيل فيه:

وكنا نرجى أن نرى العدل ظاهرا ... فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ... وقاض قضاة المسلمين يلوط

وكان قاضي القضاة ومدبّر المملكة، وكانت الوزراء لا تعمل شيئاً إلّا بعد مطابقته، وقال له المأمون يوماً: يا يحيى من الذي يقول:

قاضٍ يرى الحد في الزنا ولا ... يرى على من يلوط من بأس؟

فقال له: الذي يقول:

شاهدنا يرتشي وحاكمنا ... يلوط والرأس شر من رأس
ولا أرى الجور ينقضي وعلى ... الأمّة وال من آل عبّاس

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين توفي ذو النون المصري، الزاهد المشهور وأصله من الحبشة.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين توفي دعبل بن علي الشاعر. قال دعبل: مررت بي صبية لم أرَ قط أحسن منها، تتثنى في مشيتها فقلت متعرضاً:

دموع عيني بها انبساط ... ونوم عيني به انقباض

فأجابت مسرعة:

وذا قليل لمن دهته ... بلحظها الأعين المراض

فادهشتني فقلت:

فهل لمولاتي عطف قلب ... وللذي في الحشى إنقراض

فأجابت مسرعة:

ان كنت تهوى الوداد منا ... فالود ما بيننا قراض

---

(١) سورة المعارج: ٢٩ ـ ٣١.

قال: فما دخل في أذني قط كلام أحلى منه فقلت:

أترى الزمان يسرنا بتلاق ونعيم مشتاق إلى مشتاق

فأجابت مسرعة:

ما للزمان وللتحكم بيننا أنت الزمان فسرنا بتلاق

قال: فمضيت بها إلى دار مسلم، فدفع إليّ منديلاً، وقال: اذهب فبعه، وخذ لنا ما نحتاج إليه؛ فمضيت مسرعاً. ورجعت فوجدت مسلماً قد خلا بها. فلمّا رآني، قال: عرفك الله يا أبا علي جميل ما صنعت. ولقاك ثوابه، وجعله أحسن حسنة لك، فغاظني وفكرت فيما أعمل به، فقال: بحياتي يا أبا علي من الذي يقول:

بت في درعها وبات رفيقي جنب القلب طاهر الأعطاف

فقلت:

من له في حر أمّه ألف قرن قد أنافت على علو مناف!

وجعلت أشهر وأبث عليه، فقال لي: يا أحمق منزلي دخلت، ومنديلي بعت، ودراهمي أنفقت، على من تحرد يا قوّاد؟ فقلت له: مهما كذبت عليّ فيه فما كذبت عليّ في الحمق والقيادة فإنّه صحيح.

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين توفي علي بن الجهم الشاعر، وأبو إبراهيم أحمد بن الأغلب صاحب أفريقية.

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين توفي الجاحظ عمرو بن بحر. قال: ذكرت للمتوكل لأعلم أولاده، فلمّا أحضرني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف وصرفني، ولمّا جاوز السبعين أنشد بحضرة المبرد:

أترجوا أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وكان موته بوقوع مجلدات العلم عليه وهو ضعيف.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين توفي أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل البخاري الجعفي، صاحب الصحيح المعروف بصحيح البخاري في الحديث، وكان مولده سنة أربع وتسعين ومائة، رمي بأنّه يقول بخلق الأفعال للعباد، وبخلق القرآن، فأنكر ذلك وارتحل عن بخارى ونزل عند أقاربه بقرية من قرى سمرقند، واسمها خرتنك ومات بها.

وفي سنة سبع وخمسين ومائتين توفي أبو الفضل الرياش، من كبار أهل اللغة ومن شعره:

شفاء العمى حسن السؤال وإنما يطيل العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلاً عما عناك فإنما خلقت أخا عقل لتسأل بالعقل

وفي سنة ستين ومائتين توفي مالك بن طرف باني الرحبة، والحسن بن علي الصباغ الزعفراني من أصحاب الشافعي، والحسن بن إسحاق العبادي الطبيب، وهو الذي نقل كتب الحكمة اليونانية إلى العربية، وعرّب كتاب أقليدس والمجسطي(١).

وفي سنة إحدى وستين ومائتين توفي أبو زيد البسطامي واسمه طيفور بن عيسى، وكان يقول: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تفتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الشريعة.

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين توفي مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح المعروف بصحيح مسلم في الحديث.

وفي سنة خمس وستين ومائتين توفي يعقوب الصفّار، وكان يعمل الصفر أوّل عمره، ثم خرج فأخذ بلاد كثيرة ووجد على قبره مكتوب:

ملكت خراسان وأكناف فارس وما كنت عن ملك العراق بآيس
سلام على الدنيا وطيب نسيمها كان لم يكن يعقوب فيها بجالس

وفي سنة سبعين ومائتين توفي أحمد بن طولون أمير مصر، وخلف عشرة آلاف ألف دينار، وأربعة عشر ألف مملوك، وكانت إمارته نحو ست وعشرين سنة، وكان حازماً عاقلاً بنى جامعه المعروف بين مصر والقاهرة، وعنده مشهد الست نفيسة ابنت الحسين بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، ومشهد به قبر فاطمة بنت محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقبر آمنة بنت الباقر، ومشهد به رقية بنت علي بن أبي طالب، ومشهد به قبر آسية إمرأة فرعون.

وفيها توفي القاضي بكار بن قتيبة.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين توفي محمّد بن عبدالرحمن بن الحكم الأموي صاحب الأندلس، وعمره نحو خمس وستون سنة، ولملكه أربع وثلاثون سنة وأحد عشر شهراً، وخلف ثلاثاً وثلاثين ذكراً.

وفي سنة ست وسبعين ومائتين توفي ابن مخلد صاحب المسند الكبير والتفسير الكبير. قال ابن حزم: إنّه لم يؤلف في الإسلام مثل تفسيره.

---

(١) المجسطي: موسوعة فلكية برهانية، ألفها بطليموس.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين توفي أبو عبادة البختري الشاعر بمنبج أو بحلب واسمه الوليد ابن عبيد، وكان مولده سنة ست ومائتين ومن شعره:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز في غسق الدجا أوائل ورد كن بالأمس نوما

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين توفي أبو العباس محمّد بن عبدالله بن يزيد المبرد. شيخ أهل النحو والعربية الذي قيل فيه:

وأنت الذي لا يبلغ الوصف مدحه وان أطنب المداح في كل مطنب
رأيتك والفتح بن خاقان ركباً وأنت عديل الفتح في كل مركب
وكان أمير المؤمنين إذا دنا إليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت علما لا يحيط بكنهه علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
تروح إليك الناس حتى كانهم ببابك في أعلى منى والمحصب

ومولده سنة عشر ومائتين[1].

وفي سنة تسعين ومائتين توفي أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد المعروف بثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة. قال أبو بكر بن مجاهد: كنت عند أبي العباس ثعلب، فقال لي: يا أبا بكر اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة، فانصرفت من عنده تلك الليلة فرأيت النبي صلى الله عليه وآله في المنام، فقال لي: أقرأ أبا العباس عنّي السلام وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين توفي أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي برحبة مالك بن طوق. قال السلطان عماد الدين: له عدّة كتب صنّفها في الكفر والإلحاد، وسمّاها قصب الذهب، وكتاب اللامع، وكتاب الفريد، وكتاب الزمرد. وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وقال ابن خلكان: كانت وفاته سنة خمس وأربعين ومائتين.

وفي سنة خمس وتسعين ومائتين توفي المنذر بن محمّد بن عبدالرحمن ابن الحكم الأموي بالأندلس، وبويع أخوه عبدالله بن محمّد.

وفي سنة ثمان وتسعين ومائتين توفي أبا القاسم الجنيد بن محمّد الجنيد، وكان فقيهاً صوفياً

---

(١) الانساب للسمعاني ٥٣/١، مختصر تاريخ دمشق ١٧٧/٧.

أخذ الفقه على أبي ثور، والتصوّف عن سري السقطي.

وفي سنة ثلاثمائة توفي عبدالله الأموي صاحب الأندلس أخو المنذر، وعمره اثنتان وأربعون سنة، وولايته خمس سنين وإحدى عشر شهراً، وولي بعده ابن ابنه عبدالرحمن.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة قتل أحمد بن إسماعيل الساماني صاحب خراسان، ذبحه غلمانه ليلاً، وهو على سريره في الصيد وهربوا فحمل ودفن ببخارى.

وفيها قتل كبير القرامطة أبو سعيد بن بهرام الجنابي، قتله خادم له صقلبي في الحمام، واستدعى من كبرائهم أربعاً، واحداً بعد واحد على لسان أستاده وقتلهم فعلموا به فقتلوه.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة توفي أبو عبدالرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي بمكة ودفن بين الصفا والمروة.

وفي سنة أربع وثلاثمائة توفي الناصر العلوي صاحب طبرستان.

وفي سنة تسع وثلاثمائة قتل حسين بن منصور الحلاج، ذكر أنّه كان يخرج فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس، ويمدّ يده في الهواء ويعيدها وفيها دراهم، وعليها مكتوب قل هو الله أحد، يسمّيها دراهم القدرة، ويخبر الناس بما صنعوا في بيوتهم ويتكلم بما في ضمائرهم، وفتن به خلق كثير واختلفوا فيه اختلاف النصارى في المسيح، وكان يصوم الدهر ويفطر على ماء وثلاث عضات من قرص. قدم من خراسان إلى العراق، وسار إلى مكة وجاور بها سنة، ثم عاد إلى بغداد، فالتمس حامد الوزير من المقتدر أن يسلمه إليه، وجدّ الوزير في قتله واستنطقه عدّة مجالس بحضرة العلماء، آخرها أنّه قرأ كتابه يتضمن إنّ من لم يمكنه الحج إذا أفرد من داره بيتاً نظيفاً، ولم يدخله أحد فطاف حوله أيام الحج، وفعل ما يفعله الحاج، ثم جمع ثلاثين يتيماً وأطعمهم أجود الطعام في ذلك البيت وكساهم، وأعطى كل واحد منهم سبعة دراهم كان كمن حج. فقال له القاضي أبو عمرو: من أين لك هذا؟ فقال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. فقال القاضي: كذبت يا حلال الدم قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا. فطالبه الوزير بكتابة بخطه أنّه حلال الدم أياماً ويمتنع ثم أجابه، وكتب بإباحة دمه ووافقه جماعة من العلماء. فقال الحلاج: ما يحل لكم دمي وديني الإسلام ومذهبي السنة؟ ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي. فأرسل الوزير الفتاوى إلى المقتدر، فأرسل أذنه في قتله فضرب بالسوط، ثم قطعت يده ورجله، ثم قتل وحرق بالنار، ونصب رأسه ببغداد. وقد ترجمه الذهبي في عدّة أماكن من كتبه، وكذلك الخطيب وغيره ترجمه، وأنّه كان ساحراً مشعوذاً حلولاً.

وفي سنة عشر وثلاثمائة توفي أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري ببغداد، ومولده سنة أربع

وعشرين ومائتين، وكان من المجتهدين، وله مصنفات منها: التاريخ المشهور من أوّل الزمان إلى آخر سنة اثنين وثلاثمائة، ونقلت منه في هذا الكتاب خبر المنصور وطوافه ليلاً لمّا نزل دار الندوة، وله التفسير المعروف، ونقلت منه في تفسيري. ورموه الحنابلة بعد موته بالرفض؛ لكونه صنّف كتاباً فيه اختلاف العلماء، ولم يذكر فيه مذهب أحمد بن حنبل، وقال: لم يكن أحمد فقيهاً إنّما كان محدّثاً.

قال ابن خزيمة: ما أعلم أحداً على وجه الأرض أعلم من محمّد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة. ذكر ذلك الذهبي في المعتبر.

وفيها توفي أبو بكر بن محمّد بن السري بن سهل المعروف بالسراج، لقبه إلى عمل السروج، أخذ النحو عن المبرد.

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة توفي نضر بن أحمد البصري الشاعر المعروف بالخبزأرزي[1]، وكان أمّياً وله الأشعار الفائقة منها:

خليلي هـل أبـصرتما أو سـمعتما ... بأحسن من مولى تمشى إلى عـبد
أتى زائراً مـن غـير وعـدٍ وقـال لي ... أجلك عـن تـعليق قـلبك بـالوعد
فما زال نـجم السـعد بـيني وبـينه ... يـدور بأفـلاك السـعادة والسـعد
فطوراً عـلى تـقبيل نـرجس نـاضر ... وطـوراً عـلى تـقبيل تـفاحة الخـد

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة توفي أبو هاشم الجبائي المعتزلي، وأبو بكر بن محمّد بن الحسن بن الحسين بن دريد، ومولده لمضي سنة ثلاث وعشرين ومائتين، ابتلى في كبره مع كثرة فضله بحب الخمر والعيدان، حكي عنه أنّه قال لأصحابه: أنّي رأيت البارحة في المنام آتياً أتاني فقال لي: لم لا تقول في الخمر شيئاً؟ فقلت: وهل ترك أبو نؤاس فيها لأحد قولاً، قال: نعم أنت أشعر منه حيث تقول:

وحـمراء قـبل المـزج صـفراء بـعده ... أتت بـين ثـوبي نـرجس وشـقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا ... عـليها مـزاجـا فـاكـتست لون عـاشق

(١) الخبز أرزي: أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر البصري الشاعر المشهور، كان امياً لا يتهجى ولا يكتب، وكان يخبز خبز الارز بمربد البصرة في دكان، وينشد أشعاره والناس يزدحمون عليه ويتطرفون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وأمره، وذكره الخطيب في تاريخه وقال: نزل بغداد وأقام بها دهراً طويلاً، وقرأ عليه ديوانه وروى عنه مقطعات. الكنى والالقاب: ٢/٢٠٤.

فقلت له: من أنت؟ فقال: شيطانك، وذكر أنّ سائلاً جاء إلى ابن دريد فلم يكن عنده غير دن نبيذ فوهبه له، فجاء غلامه وأنكر عليه. فقال: أيش أعمل لم يكن عندي غيره، ثم قال: **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**[١]، فما تمّ اليوم حتى أهدي له عشرة دنان، فقال: تصدّقنا بواحد وأخذنا عشرة: **﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**[٢].

وفيها توفي بمصر أبو جعفر أحمد بن محمّد بن سلامة الأزدي كان شافعياً، فغضب من شيخه المزني وانتقل إلى مذهب أبي حنيفة، وانتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر.

وفي سنة اثنين وعشرون وثلاثمائة توفي المهدي عبدالله الفاطمي، أوّل الفاطميين بالمهدية التي بناها ببلاد الغرب على جانب البحر، وجعلها داراً لملكه. وكانت ولايته أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعمره ثلاثاً وستين سنة، واستقر بعده ولده القائم أبو القاسم بعد أن اختفى سنة.

وفيها قتل محمّد بن علي الشلمغاني ـ وشلمغان قرية بنواحي واسط ـ كان أحدث مذهباً مداره على الحلول والتناسخ، فأمسكه الوزير ابن مقلة، وأفتت العلماء بإباحة دمه، فقتل وصلب وأحرق بالنار، وكان مذهبه الخبيث ترك العبادات كلّها، وإباحة الفروج من ذوي الأرحام، وأنّه لابدّ الفاضل أن ينكح المفضول ليولج فيه النور، وأنّه من امتنع من ذلك عاد في الدور الثاني انثى.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة توفي الشيخ الجليل ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني صاحب الكافي في الحديث، وعلي بن بابويه القمّي والد الصدوق.

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة توفي أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري من ولد أبي موسى الأشعري ودفن ببغداد، ثم طمس قبره خوفاً من أن تنبشه الحنابلة، فإنّهم كانوا يعتقدون كفره ويبيحون دمه. وسبب ظهور مذهبه وترجيحه عند الجمهور، أنّه ناظر أبا علي الجبائي ـ وكان زوج أمه ـ في وجوب الأصلح على الله تعالى، فأثبته الجبائي على قواعد مذهبه. فقال له أبو الحسن: يا عمّ ما تقول في ثلاث صبية اخترم الله أحدهم قبل البلوغ وبقي الآخران، فكفر واحد، وأسلم واحد، ما العلة في اخترام الصغير؟ فقال: لأنّه علم أنّه لو بلغ كفر، فقال الأشعري: ها قد بلغ أحدهم فكفر، فقال الجبائي: إنّما أحياه الله ليعرضه على أعلى المراتب! يريد البلوغ والتكليف، فإنّها أعلى المرتبة الإنسانية فقال الأشعري: فلم لا أحيى الذي اخترمه لذلك؟ فقال الجبائي: وسوست، فقال: لا؛ ولكن وقف حمار الشيخ ـ يعني انقطع في البحث ـ.

---

(١) سورة آل عمران: ٩٢.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٠.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة توفي نصر بن أحمد الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً، وكان حليماً كريماً، وولي بعده ابنه نوح.

وفي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة توفي أبو ظاهر القرمطي، رئيس القرامطة بالجدري.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة توفي القائم بأمر الله، أبو القاسم محمّد بن المهدي عبدالله الفاطمي صاحب المغرب، وكان قد خرج عليه خارجي اسمه أبو يزيد، وأخذ غالب بلاده وحصره في المهدية فأخفى موته، وقام بالأمر بعده ولده إسماعيل ولقب بالمنصور بالله، وقاتل أبا يزيد الخارجي وطرده.

وفيها توفي الأخشيد بدمشق وملكها سيف الدولة، وولي مصر ولده الأخشيد أبو القاسم محمود، وكان صغيراً وكان الحاكم عبده كافور الطواشي الأسود فسار إلى دمشق وطرد سيف الدولة عنها.

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة توفي أبو بكر الصولي، وكان عالماً بفنون الأدب والأخبار، وله شعر في المدح والغزل وغير ذلك وله:

أحببت من أجله من كان يشبهه ... وكل شيء من المعشوق معشوق

حتى حكيت بجسمي ما بمقلته ... كأن جسمي من جفنيه مسروق

وكان نديماً لجماعة من الخلفاء وبه يضرب المثل في لعب الشطرنج، وليس بواضعه وإنّما وضعه صصة بن داهر الهندي[1].

وفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة توفي عماد الدولة ابن بويه، ودفن باصطخر، توفي بقرحة الكلا وتولي الاسقام قال الشاعر:

ما أنعم الله على عبده ... بنعمة أوفى من العافية

وكل من عوفي في جسمه ... فإنه في عيشة راضية

والمال حلو حسن جيد ... على الفتى لكنه عارية

ما أحسن الدنيا ولكنها ... مع حسنها غدارة فانية

وأسعد العالم بالمال من ... أداه للاخرة الباقية

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة توفي المنصور الفاطمي صاحب الغرب، وكان شجاعاً

(١) في المخطوط «صعصة بن داهب الهندي»، والصحيح ما اثبتناه. انظر وفيات الاعيان ٣٥٧/٤، تاريخ الإسلام ٢٣٠/٢، خلاصة الأثر في أعيان القرن ٤٩٣/١.

فصيحاً يؤلف الخطبة لوقتها، وكانت خلافته سبع سنين وستة عشر يوماً، وعمره تسعاً وثلاثين سنة، فبويع ولده المعز لدين الله أبو تميم، ولقّب بأمير المؤمنين لمّا بلغه ضعف الخلافة بالعراق.

وفي سنة خمسين وثلاثمائة تقنطر بعبدالملك بن نوح الساماني فرسه فمات، فأميتت خراسان بعده ووليها ابنه منصور.

وفي سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة توفي الوزير المهلبي أبو محمّد، وكانت وزارته ثلاثة عشر سنة وثلاثة أشهر.

وفي سنة أربع وخمسين وثلاثمائة قتل المتنبي وابنه، قتلهما بنو ضبة في السفر، واسمه أحمد ابن الحسن بن الحسن بن عبدالصمد الكندي، فإنّه ولد سنة ثلاث وثلاثمائة بمحلة بالكوفة اسمها كندة، وأما نسبه فجعفي، وكان أبوه سقاء بالكوفة ولذلك أنشد فيه بعض حساده:

أي فضل لشاعر يطلب الفضل ... من الناس بكرة وعشيا
كان حيناً يبيع بالكوفة الماء ... وحيناً يبيع ماء المحيا

وكان شعره إلى النهاية ورزق فيه السعادة ومنه:

وما منزل اللذات عندي بمنزل ... إذا لم أبجل عنده وأكرم
سجية نفس ما تزال مليحةً ... من الضيم مرميًّاً بها كل مخرم
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهُّم
وعادى محبيه بقولِ عداته ... وأصبح في ليلٍ من الشك مظلمِ
أصادق نفس المرء من قبل جسمه ... وأعرفها في فعله والتكلم
وأحلمُ عن حلي وأعلم أنه ... متى أجزهَ حلما على الجهل يندم

ومنه:

بأبي من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
وافترقنا حولاً فلمّا التقينا ... كان تسليمه علي وداعا

وكان إماماً في اللغة سأله أبو علي الفارسي يوماً، كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟ فقال في الحال: حجلى وظربى[1]، قال أبو علي: فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالي فلم أجد لها ثالثاً.

كان أدعى النبوة في برية اليمامة، وتبعه خلق من كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ نائب

---

(١) في المخطوط وضيزى، وما اثبتناه هو الصحيح. انظر لسان الميزان: ٦٦/١، الوافي بالوفيات ٣٣٤/٢، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ٣٧/١.

الأخشيدية بحمص، فأمر بحبسه زماناً ثم استتابه، فلحق بسيف الدولة ابن حمدان، ثم اتصل بكافور الأخشيدي بمصر، ثم هجاه ولحق بعضد الدولة بن بويه بفارس، ثم رجع قاصد الكوفة فقتل بالنعمانية من سواد بغداد.

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة توفي معزالدولة ابن بويه، وكانت مدة إمرته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وكان مقطوع اليد قطعت بحرب في كرمان، وهو الذي أنشأ السعاة ببغداد.

وفيها توفي كافور الأخشيدي.

وفيها توفي سيف الدولة ابن حمدان، وهو أوّل من استعمل بحلب، أخذها من أحمد بن سعيد الكلابي، وكان شعره حسناً فمنه ما أنشده لأخيه ناصر الدولة:

وهبت لك العليا وكنت أهلها ... وقلت فما بيني وبين أخي فرق
وما كان لي عنها ملال وإنما ... تجاوزت عن حقي فتم لك الحق
اما كنت ترضى أن أكون مصلياً ... إذاكنت أرضى أن يكون لك السبق

ومنه:

والله ما قصرت في طلب العلا ... ما بين مطلع شمسها والمغرب
لي همة لو وافقت سعداً لها ... لوضعت رجلي فوق أعلى كوكب

وكان كريماً شجاعاً، قدم إليه أبو فرج الأصفهاني كتاب الأغاني، وكان قد جمعه في خمسين سنة، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه.

وفيها توفي أبو فرج المذكور واسمه علي بن الحسن بن محمّد بن أحمد بن الهيثم بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالله بن مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس، ومع هذاكان متشيعاً.

وفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة قتل أبو فراس بن حمدان بصدد.

فقال بعضهم:

وعلمني الصد من بعده ... عن النوم مصرعه في صدد
فسقى لها إذ حوت شخصه ... وبعداً لها حيث فيها ابتعد

ولمّا بلغ أمه قتله قلعت عينها جزعاً عليه.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة توفي المعز الفاطمي بمصر، وعمره خمس وأربعون سنة، وكان يعمل بأقوال المنجمين، وبويع ولده العزيز، وخطب له بمكة.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة توفي الحكم بن عبدالرحمن الأموي، وكانت إمرته خمسة

عشرة سنة وكسراً، وعمره ثلاثاً وستين سنة وكسراً، وبويع ولده هشام، ولقّب المؤيد، وكان عمره عشر سنين. وحجبه أبو عامر القحطاني واشتغل بالأمور، وتلقب بالمنصور، وبلغ معاني الأمور حتى مات.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وغيره، وقتل بختيار ووزيره ابن بقيه، وصلب بختيار فرثاه أبو الحسن الأنباري بقصيدته المشهورة التي منها:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
مددت يديك نحوهم افتقاراً ... كمدهماً إليهم في الهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن ان ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الاكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتشغل عندك النيران ليلا ... كما قد كنت أيام الحياة

وفيها توفي قاضي القضاة بالسندية ـ قرية على نهر عيسى من بغداد ـ وهو أبو قريعة محمّد بن عبدالرحمن، وكان من عجائب الدنيا في سرعة الأجوبة الهزلية، منها: أن الوزير المهلبي أعزى العباس بن المعلى الكاتب على سؤاله هزلاً، فكتب إليه ما يقول القاضي الفاضل وفّقه الله تعالى في يهودي زنا بنصرانية فولدت ولداً جسمه للبشر ووجهه للبقر؟ فكتب الجواب بديهاً هذا من أعدل الشهود على اليهود أنّهم شربوا العجل في صدورهم فخرج من إيورهم، وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل، ويصلب على رأس النصرانية الساق مع الرجل، ويسحبا على الأرض وينادي عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام. ومن الأجوبة الهزيلة أنّه عرض عمران الليث في عسكره يوماً، فعرض له رجل على فرس مهزولة فقال: لعن الله هؤلاء، يأخذون الدراهم فيسمّنون بها نساءهم، فقال الرجل: والله لو نظرت امرأتي لرأيتها أهزل من فرسي، فضحك منه وأمر له بجائزة. وقال: أصلح بها فرسك وامرأتك.

وفي سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة توفي عضد الدولة بن بويه، ودفن بمشهد علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانت ولايته العراق خمس سنين ونصف، عمره سبعاً وأربعين سنة، وهو الذي بنى على مدينة النبي صلى الله عليه وآله سوراً، وكان آخر كلامه ما أغنى عنّي ماليه، هلك عني سلطانيه، قيل أنّه أنشد أبياتاً فلازمه الصرع بعدها إلى أن مات وهي:

ليس شرب الكأس إلّا في المطر ... وغناءٍ من جوارٍ في السحر

غانيات سالبات للنهى بارعات ... في تضاعيف الوتر
عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الافلاك غلاب القدر

وولي بعده صمصام الدولة.

وفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة توفي مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة حسن بن بويه بالخوانيق.

وفي سنة أربع وسبعين وثلاثمائة توفي الخطيب أبو يحيى عبدالرحمن بن محمّد بن إسماعيل ابن نباتة بميافارقين، وكان إماماً في الأدب لم يلحق في الخطب، قيل: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، وقال له: مرحباً بخطيب الخطباء، وأدناه وتفل في فيه فلم تزل رائحة المسك توجد في فمه إلى أن مات بعد أيام، وله ديوان في الخطب مشهور وله شعر منه:

رأيت في جلق غزالا ... تحار في وصفه العيون
فقلت ما الاسم قال موسى ... قلت هنا تحلق الذقون

ومنه:

حضرت صلاة العصر خلف مبلغ ... بهي المحيا يعشق الجمع شكله
فاقسم من خديه والثغر بالضحا ... وبالصبح ما أبصرت في العصر مثله

ومنه:

مرآتك العقل كل وقت ... تريك من نفسك الخطايا
فلا تحكم هواك فيها ... ان الهوى يصدئ المرايا

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة توفي أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، الفقيه المحدث صاحب كتاب من لا يحضره الفقيه في الحديث:

إذا اختار كل الناس في الدين مذهباً ... وصوبه رأياً وحققه فعلا
فأني أرى علم الحديث وأهله ... أحق اتباعاً بل أسدهم سبلا

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة توفي الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بالري، ونقل إلى أصفهان ودفن بها، وكان أوحد زمانه علماً وتدبراً وكرماً، وهو أوّل من لقّب بالصاحب لصحبته ابن العميد، ومولده سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وحكي أنّه لمّا رجع من بغداد دخل على الأُستاذ أبي الفضل بن العميد، فقال له: كيف وجدت بغداد؟ فقال: بغداد في البلاد كالأُستاد في العباد، وأنشده:

أفاضل الدنيا وأن برزوا ... لم يبلغوا غاية أستاذها
أما ترى أمصارها جمة ... ولا يرى مصراً كبغدادها

ومن شعره:

تعرفت بالعدل في مذهبي ودان لحسن جدالي العراق
وكلفت في الحب ما لم أطق فقلت بتكليف ما لا يطاق

ومنه:

كنت دهراً أقول بالاستطاعة وأرى الجبر ضلت وشناعة
فعدمت استطاعتي في هوى ظبي فسمعاً للمجبرين وطاعة

وفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة توفي العزيز الفاطمي، وعمره اثنتان وأربعون سنة، وخلافته إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف، وبويع ولده أبو علي منصور الحاكم بأمر الله وعمره إحدى عشر سنة، ودبره خادم أبيه ارجوان الخصي الأبيض، فلمّا كبر الحاكم استقل بالأمور وقتل ارجوان. كما حكي أنّ أعرابياً ربّى جرو ذئب، وجعل يغذوه لبن شاة له حتى كبر فحركته الطباع الدنية والشهوة الذئبية إلى أن افترس الشاة، فأنشد الأعرابي:

عقرت شويهتي وفجعت قومي بشاتهم وأنت لها ربيب
غذيت بدرِّها ونشأت معها فمن أنبأك أنّ أباك ذئب
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع فيها الأديب

وفيها توفي أبو طالب محمّد بن علي بن عطية المكي صاحب قوت القلوب، وكان رحل إلى بغداد واختلط كلامه حتى قال يوماً: ليس على المخلوقين أضر من الخالق فمنع من الكلام إلى أن مات.

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة توفي الأمير نوح الساماني، واختلف ملكهم.

وفي سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قتل صمصام الدولة بن بويه.

وفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة توفي ابن الحجاج الشاعر السفيه الشيعي، وكان قد تولى حسبة بغداد، صلى على بنت سكر لمّا ماتت، فقال: مكان الدعاء:

مسبلة الفرجين غير عفيفة لها عند طي الركبتين شخير
ولو فتشوا في جنب حائط قبرها لما وجدوا إلّا خصى وأيور
ولو نيك قبراً في الورا نكت قبرها ولو كان فيه منكر ونكير

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة توفي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح في اللغة بنيسابور، وقيل: في [ماسد][1] ووفاته غير هذا والله أعلم.

---

(١) هكذا رسمها.

وقال ابن الانباري في كتاب نزهة الألباء في طبقات الأدباء أنّ الجوهري اعتراه وسوسة فصعد إلى سطح الجامع القديم بنيسابور، وقال: أيّها الناس إنّي عملت في الدنيا شيئاً ثم انقلب علي، فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه، وضمّ إلى جنبيه مصراعي باب وشدّهما بخيط، وصعد مكاناً عالياً وزعم أنّه يطير فوقع فمات. وبعده صنف مجد الدين في اللغة القاموس وقيل فيه:

مذ مد مجد الدين بحر علومه ... من بعض أبحر علم القاموسا
فغدا صحاح الجوهري كأنه ... سحر المدائن حين ألقا موسى

وفيها توفي بديع الزمان الهمداني أبو الفضل أحمد بن الحسن الهمداني صاحب المقامات، ومن شعره قصيدته التي رثا بها الحسين عليه السلام:

يا لمة ضرب الزما ... ن على معرسها خيامه
لله درك من خزا ... مي روضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها ... للدين أشراط القيامة
بمضرج بدم النبوة ... ضارب بيدي الإمامة
متقسم بظبي السيوف ... مجرع منها حمامه
نصب ابن هند رأسه ... فوق الورى نصب العلامة

وفي سنة إحدى وأربعمائة توفي أبو الفتح البستي الشاعر ومن شعره:

الحسن حسنان حسن ظاهر علن ... وباطن وهو في الاخلاق الشيم
فان جمعتهما كنت الحقيق بان ... تحيي سعيداً وتعطى أشرف القسم

ومنه:

لا تاسفن على مال يفوت إذا ... عوضت عنه وان اجبته أدباً
فكل مال أفاد المرء تجربة ... وزاد في العقل لم يذهب وان ذهبا

ومنه:

من شاء عيشاً رضياً يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدباً ... ولينظرن إلى من تحته مالاً

ومنه:

أوصيك في نظم الكلام بخمسة ... إن كنت للموصي الشفيق مطيعا
لا تفعلن سبب الكلام ووقته ... والكيف والكم والمكان جميعا

ومنه:

إذا كنت ذا عقل صحيح فلا يكن ... عشيرك إلّا كل من كان ذا عقل

فذو الجهل إن عاشرته أو صحبته يصدك عن عقل ويغريك بالجهل

ومنه:

إذا أصحبت الملوك فالبس من النقايا أجل ملبس
وأدخل إذا ما دخلت أعمى وأخرج إذا ما خرجت أخرس

وفي سنة ثلاث وأربعمائة توفي بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة بن بويه الديلمي صاحب العراق وفارس، وعمره اثنتان وأربعون سنة، وكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين سنة، مات بعلّة الصرع، وولي بعده ابنه سلطان الدولة فبقي في الملك اثنى عشر عاماً.

وفي سنة ست وأربعمائة توفي السيّد الرضي محمّد بن الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى ابن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهما السلام، ومن شعره:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلّا مدمع الباك
هبّت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرّقاد عرفناها بريّاك
ثم انثنينا إذا ما هزنا طربٌ على الرحيل تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح يوم اللقاء وكان الفضل للحاك
كان طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من اسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرّك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
وعد لعينيك عندي ما سمحت به يا قرب ما كذبت عيني عيناك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت من الغمامِ وحيّاها و حياكِ
ان يلتقي كلُّ ذي دين وماطله منا ويجتمع المشكوُّ والشاكي
لما غدا السرب يعطو بين أرجلنا ما كان منه غريم القلب إلّاكِ
هامت بك العين لم تتبع سواك هوىً من أعلم العين أن القلب يهواكِ
حتى دنا النفر ما أحييت من كمدٍ قتلى هواكِ، ولا فاديت أسراكِ
يا حبذا نفحة مرّت بفيكِ لنا ونطقة غمست فيها ثناياكِ
وحبذا وقفة والركب معتقل على ثرىً وخدتْ فيه مطاياكِ
لو كانت اللمة السوداء من عُدَدي يوم الغيم لما أفلتٍّ أشراكي

وكان مولده سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ببغداد، وهو مؤلف نهج البلاغة.

وفي سنة ثمان وأربعمائة توفي محمّد بن عبدالرحمن الأموي، وبويع هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر الأموي وخلع بعد سنين، وانقرضت الخلافة الأموية.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة فقد الحاكم بأمر الله الفاطمي ثلاث بقين من شوال وتحقق قتله، ولكن لم يوجد إلّا ثيابه وحماره مجروحاً بحلوان، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأياماً، وعمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وكان يصدر عنه أفعال متناقضة، وبويع ولده الظاهر لإعزاز دين الله.

وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة توفي الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان صاحب الإرشاد، شيخ الطوسي والمرتضى والرضي.

وفيها توفي القاضي عبدالجبار المعتزلي.

وفي سنة خمس عشر وأربعمائة قبض أسد الدين صالح بن مرداس بحلب القاضي أبا أُسامة ودفنه حيّاً في القلعة فقال بعضهم:

وأدَ القضاة أسد من	واد البيان عما وغيا
أدفنت قاضي المسلمين	بقلعة الشهباء حياً

وفيها توفي سلطان الدولة بن بويه.

وفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، توفي السلطان محمود بن سبكتكين، ومولده عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة، وكان ملكه فسيحاً، ملك أصفهان والري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم والمدائن وكرمان وسجستان والسند وغزنة، وأطاعه البر والبحر، وكان كثير الصدقة، تصدّق في رمضان مرّة بألف ألف درهم، وكان محبّباً إلى العلماء، وصنّفوا له التصانيف الكثيرة، وكان يكتب خطاطاً حسناً.

وفي سنة سبع وعشرين وأربعمائة توفي الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله، وعمره ثلاث وستون سنة، وخلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر، وكان له مصر والشام وأفريقية، وكان جميل السيرة، وبويع ولده أبو تميم ولقّب المستنصر بالله.

وفيها وقيل في سبع وثلاثين وأربعمائة توفي أبو إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم الثعلبي قال الثعالبي، كان واحد زمانه في علم التفسير، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء وهو صحيح ل.

وفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة توفي مهيار الديلمي الشاعر، وكان مجوسيّاً فأسلم، وصحب

الشريف الرضي. فقال له ابن برهان: يا مهيار انتقلت بإسلامك من زاوية إلى زاوية في النار؛ فإنّك كنت مجوسياً ثم صرت سباباً لأصحاب رسول الله ﷺ، ومن شعره:

في الظباء الغادين أمسى غزال قال عنه ما لا يقول الخيال
طارق يزعم الفراق عتاباً ويرينا أن الملال دلال
لم يزل يخدع البصيرة حتى سرنا ما يقول وهو محال
لا عدمت الأعلام كم نولتني من منيع صعبٍ عليه النوال
لم تنغص وعداً بمطل، ولم توجب له منةً علي الوصال
فلليلي الطويل شكري، ودين العشق أن تكره الليالي الطوال
كنت منه أيام مرتع لذاتي خصيب وما عيشي زلال

وفيها توفي الرئيس أبو علي الحسن بن عبدالله بن سينا البخاري، وكان والده من أهل بلخ، ختم القرآن وهو ابن عشر سنين، وحل [احكم] اقليدس والمحبطي، وأتقن الطب في ثمان سنين، وعمره ثمانياً وخمسين سنة. ومن شعره:

غاية الحزن والسرور انقضاء ما لحي من بعد ميت بقاء
غير ان الأموات مرو ما بقوا غصصاً لا تسيغها الأحياء
نتمنى وفي المنى يذهب العمر فنغدوا بما نسر نساء
صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
كم لقينا من شر دنياً فلا كانت ولا كان أخذها والعطاء
جودها راجع إليها فمهما يهب الصبح يسترد المساء
قبح الله لذة لأذانا نالها الأمهات والآباء
نحن لولا الوجود لم ندر ما الفوت فإيجادنا علينا بلاء
يدرك الموت كل حي ولو اخفته في حصنها الجوزاء
كم ملوك وكم وجوه وكم اطواد حلم امسى
موت ذا العالم المؤيد بالمنطق وذا السارح البهيم سواء
لا غوي بموته تضحك الأرض لا للتقي تبكي السماء

ومنه:

أسمع جميع وصيتي واعمل بها فالطب مجموع ينظم كلامي
أقلل جماعك ما استطعت فانه ماء الحياة يصب في الارحام
واجعل غداءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام

وقد كفّره الغزالي في كتابه المسمّى بالمنقذ من الضلال، ومن الناس من يقول أنّه كان متمسكاً بالشرائع، وكان حنفي المذهب. وقد قال ابن خلكان: إنّه لمّا آيس من العافية ترك المداواة واغتسل، وتاب، وتصدّق بما معه على الفقراء، وردّ المظالم على من عرفه، وأعتق مماليكه، وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة، ثم مات بهمدان يوم الجمعة من رمضان.

وفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة توفي السيّد المرتضى علم الهدى أخو الرضي، وقدمنا نسبه عند وفاة أخيه، وشهرته وتصانيفه تغني عن تعريفه. وولي النقابة بعده ابن أخيه عدنان ابن الرضي، ينقل عن الشهيد في كتاب الأربعين أنّ الوزير أبا سعيد محمّد بن الحسن بن عبدالرحيم مرض سنة عشرين وأربعمائة فرأى في منامه أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقول: قل لعلم الهدى يقرأ عليك حتى تبرأ، فقال: يا أمير المؤمنين من علم الهدى؟ فقال: علي بن الحسين الموسوي، فكتب إليه بذلك، فقال المرتضى رضي الله عنه: الله الله في أمري، فإنّ قبولي لهذا اللقب شناعة عليّ، فقال الوزير: والله ما أكتب إليه إلّا ما أمرني أمير المؤمنين عليه السلام، فعلم القادر بالله فكتب إلى المرتضى تقبل يا علي ما لقّبك جدّك، فقبل وسمع الناس بذلك فصار لقباً له.

ومن شعره:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى	أكابد هماً ضره ليس ينجلي
أكل شريف قد علا بجدوده	حرام عليه الرزق غير محلل
فقالت نعم يابن الحسين رميتكم	بسهم عنادي حين طلقني علي

وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة توفي يوسف المنازي، وكان من أعيان الفضلاء والشعراء اجتاز مرّة بوادي بزاعا[1] فأنشد:

وقانا لفحة الرمضاء واد	وقاه مضاعف النبت العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً	ألذ من المدامة للنديم

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة دخل طغرلبك بن داود بن سلجوق بغداد وخطب له بها، وقبض على الملك عبدالرحيم وانقضت به سلطنة بني بويه من العراق، فأوّلهم معز الدولة أحمد ابن بويه ثم ابنه بختيار ثم ابن عمه عضد الدولة ثم ركن الدولة حسن بن بويه ثم ابنه صمصام الدولة ابن عضد الدولة ثم أخوه شرف الدولة ثم أخوه بهاء الدولة ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة ثم أخوه شرف الدولة بن بهاء الدولة ثم أخوه جلال الدولة ثم ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان

---

(١) بزاعا: بضم الباء وهي قرية كبيرة ما بين حلب ومنبج في نصف الطريق.

ابن سلطان الدولة ثم ابنه الملك عبدالرحيم.

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة توفي أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري الأعمى، ومولده سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، عمى في صغره من الجدري، وهو ابن ثلاث سنين، وقيل: ولد أعمى، وكان عالماً لغوياً شاعراً عربياً، دخل بغداد واستفاد من علمائها، وأقام بها سنة ونصف، ولم يتلمذ لأحد أصلاً ثم عاد إلى المعرة، ولزم بيته وترك أكل اللحم خمساً وأربعين سنة على مذهب الهنود، وترك البيض واللبن وحرم أتلاف الحيوان، وله مصنّفات وكان فاسد الإعتقاد يظهر الكفر، ويزعم أنّ له باطناً وأنّه مسلم في الباطن وأشعاره الدالة على الكفر كثيرة منها:

أتى عيسى فبطل شرع موسى … وجاء محمّد بصلاة خمس

وقالوا لا نبي بعد هذا … فضل القوم بعد غد وامس

ومهما عشت في دنياك هذا … فما يخليك من قمر وشمس

إذا قلت المحال رفعت صوتي … وان قلت الصحيح أطلت همسي

تاه النصارى والخيفة ما اهتدوا … ويهود حرى والمجوس

مظللة قسم الورى قسمين هذا عاقل … لا دين فيه ودين لا عقل له

ومن شعره أيضاً:

غير مجد في ملتي واعتقادي … نوح باك ولا ترنم شادي

وشبيهة صوت المنعى إذا قيس … بصوت البشير في كل نادي

صاح هذي قبورنا تملئ الأرض … فأين القبور من عهد عادي

خفف الوطء ما أظن أديم الأ … رض إلّا من هذه الأجسادي

وقبيح بنا وإن قدم العهد … هوان الآباء والأجدادي

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة توفي أمير مكة سكر العلوي الحسيني وله شعر حسن منه:

قوض خيامك عن أرض تضام بها … وجانب الذل إن الذل مجتنب

وارحل إذا كان في الأوطان منقصة … فالمندل الرطب في أوطانه حطب

وفي سنة ستين وأربعمائة توفي الشيخ أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي صاحب التهذيب والاستبصار في الحديث، ودفن بالنجف الأشرف.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة توفي أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن غالب ابن زيدون الأندلسي القرطبي، وزير المعتضد بن عباد صاحب اشبيليه، وله الأشعار الفائقة ومنها:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع … سراً إذا ذاعت الأسرار لم يذع

يـا بـايعاً حـظه مـني ولو بـذلت　　　لي الحـياة بـحظي مـنه لم أبـع
يكـفيك أنك لو حـملت قـلبي مـا　　　لم تسـطعه قـلوب النـاس يسـتطع
به احتمل واستطل صبرا وعزّ أهـن　　　وولّ أقـبل وقـل أسـمع ومـر أطـع

ومن قصائده المشهورة قصيدته النونية منها:

تكـاد حـين تـناجيكم ضـمائرنا　　　يـقضي عـلينا الاسـى لولا تأسـينا

وفيها توفي يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبدالبر صاحب التصانيف المشهورة، وجدّ في كتابه بهجة المجالس أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه أنّه دخل الجنة، ورأى فيها غدقاً أعجبه، فقال: لمن هذا؟ قيل: لأبي جهل، فقال: ما لأبي جهل وللجنة، والله لا يدخلها أبداً، فلمّا جاء عكرمة ابن أبي جهل مسلماً فرح به وأعطاه الغدق.

ومنه أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه كان كلباً أبقع يلغ في دمه، فكان شمر بن ذي جوشن قاتل الحسين بعد خمسين سنة.

ومنه أنّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: رأيت كأنّي وأنت في درجة، فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال يا رسول الله: يقبضك الله إلى رحمته، وأعيش بعدك سنتين ونصفاً.

ومنه أنّ شخصاً من أهل الشام قصّ على عمر بن الخطاب مناماً، فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، ومع كل واحد طائفة من النجوم، فقال: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية الممحوة، والله لا وليت لي عملاً، فقتل المذكور بصفين، وكان مع معاوية.

ومنه أنّ عائشة رأت كأن ثلاثة أقمار سقطت في حجرها، فقال أبوها: يدفن في بيتك ثلاثة من خيار أهل الأرض، فلمّا دفن رسول الله ﷺ، قال: هذا أحد أقمارك ومن شعره:

لا تكـثرن تأمـلا　　　واحبس عليك عنان طرفك
فـلربما أرسـلته　　　فـرماك فـي مـيدان حـتفك

وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة توفي الشريف العباسي أبو جعفر مسعود بن عبدالعزيز المعروف بالبياضي، وله أشعار حسنة منها:

كيف تروي عشب أشواقي　　　ولي قـلب مـطير
إن يكـن فـي العشق حـر　　　فأنـا العـبد الأسـير
أو عـلى الحسـن زكـاة　　　فأنـا العـبد الأسـير
أو عـلى الحسـن زكـاة　　　فأنـا العـبد الفـقير

ومنها:

يا من ليست لعبده ثوب الضنا　　　حتى خفيت بـه عـن العـوادي

وأنست بالسهر الطويل فأنست أجفان عيني كيف كان رقادي
إن كان يوسف بالجمال مقطع الأيدي فأنت مقطع الاكبادي

وفي سنة تسع وستين وأربعمائة توفي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ[١]، وكان يخدم السلطان فرأى يوماً قطاً ينقل الطعام إلى قط أعمى، فاستعفى من خدمة السلطان ولازم الاشتغال منقطعاً إلى أن مات بسقوطه من جامع عمرو بن العاص.

وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة توفي الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مدرس المدرسة النظامية ببغداد، ومن شعره:

سألت الناس عن خل وفي فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حر فإن الحر في الدنيا قليل

وفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية مسجوناً بأغمات[٢]، وله أشعار مشهورة وأخبار حسنة مذكورة. ومن شعره حين جاءت بناته يوم عيد وهو في السجن.

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فحال العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الاطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهيّاً ومأموراً
من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالاحلام مغروراً

وفي هذه السنة ترك الغزالي درس المدرسة النظامية ببغداد ولبس الخشن وتوجّه إلى الحجاز، ثم عاد إلى بغداد وسار إلى خراسان، وبقي إلى سنة أربع وخمسمائة وتوفي، واسمه زين الدين الطوسي ومولده سنة خمسين وأربعمائة.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الشاعر محمّد بن أحمد الابيوردي ومن شعره:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني أعز وأحوال الزمان تهون
وظل يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكون

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة توفي أبو محمّد القاسم بن محمّد الحريري مصنف المقامات، وكان أشار عليه بتصنيفها انوشروان بن خالد وزير السلطان محمود السلجوقي، وكان

---

(١) في المخطوط (نايب شاذ)، والصحيح ما اثبتناه انظر: الكامل في التاريخ ٣١١/٤، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤٤١/١.

(٢) أغمات: ناحية في بلاد البربر المصامدة من أرض المغرب قرب مراكش بينهما مسافة يوم.

الحريري ينسب إلى ربيعة الفرس، وهو بصري المولد ولد سنة ست وأربعين وأربعمائة. وكان فصيحاً له شعر منه:

لا تبك إلفاً نأى ولا داراً ... ودر مع الدهر كيف ما دارا
واتخذ الناس كلها سكنا ... ومثل الأرض كلها دارا
واصبر على جور من تعاشره ... وداره فاللبيب من دارا

ومنه:

لا تعجلن بقضية مبتوتة ... في مدح من لم تبله أو خدشه
وقف القضية فيه حتى تبتلي ... وصفيه في حالي رضاه وبطشه

ومنه:

لا تزر من تحب في كل شهر ... غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ... ثم لا تنظر العيون إليه

وفي مقامته التي تعرف بالفقيه، إنّ أبا زيد جمع الأعراب، وجعل يقول لهم: سلوني عن المعضلات واستوضحوا من المشكلات؟ فوالذي في السماء وعلم آدم الأسماء إنّي لفقيه العرب العربا، وأعلم ما تحت أجربا. فاعترضه الحارث بن همام، وقال له: عهدي بك سفيها فمتى صرت فقيهاً، سبحان من نقلك عن مذهب إبليس إلى مذهب ابن إدريس، فضل يجول ثم أنشأ يقول:

لبست لكل زمان لبوساً ... ولابست صرفيه نعمى وبوسى
وعاشرت كل جليس بما ... يلائمه لأروق الجليسا
فعند الرواة أُدير الكلام ... وبين السقاة أُدير الكؤوسا
وطورا بوعظي أسيل الدموع ... وطورا بلهوي أسر النفوسا
على انني من زمانٍ خصصت ... بكيد ولا كيد فرعون موسى
ويُدني إليّ البعيد البغيض ... ويبعد عني القريب الأنيسا
ولولا خساسة اخلاقه ... لما كان حظي منه خسيساً

وفي هذه السنة قتل الشيخ مؤيد الدين الحسين بن علي بن محمّد الطغرائي، من ولد أبي الأسود الدؤلي من أهل أصفهان، كان يخدم السلطان ملك شاه بن الب أرسلان السلجوقي، واستوزره السلطان مسعود، فلمّا انهزم مسعود من أخيه محمود أمسك الطغرائي وقتله صبراً. وقال: لمّا قتله ثبت عندي فساد عقيدته، وكان قد جاوز عمره ستين سنة، وكان مولعاً بالكيمياء ومن شعره الحسن قصيدته المشهورة بلامية العجم أوّلها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

فيم الإقامة بالزوراء لا وطني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناءٍ عن الأهل صفر الكف منفرد ... كالسيف عرّي متناه عن الخلل

فلا صديق إليه مشتكى حزني ... ولا أنيسٌ إليه منتهى جذلي

طال اغترابي حتى حنّ راحلتي ... ورحلها وقرى العسّالة الذبل

وضج من لغبٍ نضوي وعج لما ... ألقى ركابي ولج الركب في عذلي

أريد بسطة كفٍ أستعين بها ... على قضاء حقوقٍ للعلى قبلي

والدهر يعكس آمالي ويقنعني ... من الغنيمة بعد الكدّ بالقفل

وذي شطاطٍ كصدر الرمح معتقلٍ ... بمثله غير هيّابٍ ولا وكل

حلو الفكاهة مرّ الجدّ قد مزجت ... بشدة البأس منه رقّة الغزل

طردت سرح الكرى عن ورد مقلته ... والليل أغرى سوام النوم بالمقل

والركب ميلٌ على الأكوار من طربٍ ... صاحٍ وآخر من خمر الكرى ثمل

فقلت: أدعوك للجلّى لتنصرني ... وأنتَ تخذلني في الفادح الجلل

تنام عيني وعين النجم ساهرةٌ ... وتستحيل وصبغ الليل لم يحل

فهل تعين على غيٍّ هممت به ... والغي يزجر أحياناً عن الفشل

إني أريد طروق الحي من إضمٍ ... وقد حماه رماةٌ الحي من ثعل

يحمون بالبيض والسمر الّلدان به ... سود الغدائر حمر الحلي والحلل

فسر بنا في ذمام الليل معتسفاً ... بنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل

فالحبّ حيث العدى والأسد رابضةٌ ... حول الكناس لها غابٌ من الأسل

ونؤم ناشئةً بالجزع قد سقيت ... نصالها بمياه الغنج والكحل

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ... ما بالكرائم من جبن ومن بخل

تبيت نار الهوى منهن في كبد ... حرّى ونار القرى منهم على القلل

يقتلن أنضاء حبٍّ لا حراك بهم ... وينحرون كرام الخيل والإبل

يُشفى لديغ العوالي في بيُوتهمُ ... بِنَهلةٍ من غدير الخمر والعسلِ[1]

لعل إلمامةً بالجزع ثانيةٌ ... يدِبُّ منها نسيمُ البُرْءِ في علل

لا أكرهُ الطعنة النجلاء قد شفِعت ... برشقةٍ من نبال الأعين النُّجلِ

---

(١) غدير الخمر والعسل: فم المحبوب.

ولا أهـاب الصفاح البيض تُسعدني ... باللمح من خلل الأستار والكللِ
ولا اخـل بـغزلان اغـازلها ... ولو دهتني أسود الغيل بالغيل
حبُّ السلامةِ يثني هم صاحبهِ ... عن المعالي ويغري المرء بالكسلِ
فإن جنحتَ إليه فاتخذ نفقاً ... في الأرض أو سلماً في الجوِّ فاعتزلِ
ودع غمار العُلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنعْ منهن بالبللِ
رضى الذليلُ بخفض العيشِ مسكنةٌ ... والعِزُّ فوق رسيم الأينق الذّلُلِ
فادرأ بها في نحور البيد جافِلةً ... معارضات مثاني اللُّجم بالجدلِ
إن العلا حدثتني وهي صادقةٌ ... فيما تُحدثُ أن العز في النقلِ
لو كان في شرف المأوى بلوغَ منىً ... لم تبرح الشمسُ يوماً دارة الحملِ
أهبتُ بالحظِ لو ناديتُ مستمعاً ... والحظُ عني بالجهالِ في شُغلِ
لعله إن بدا فضلي ونَقْصهمُ ... لِعينه نام عنهم أو تنبه لي
أعللُ النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فُسحة الأملِ
لم أرتض العيشَ والأيام مقبلةٌ ... فكيف أرضى وقد ولت على عجلِ
غالى بنفسي عِرْفاني بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدْرِ مبتذَلِ
وعادة النصل أن يزهى بجوهرهِ ... وليس يعملُ إلا في يديْ بطلِ
ما كنتُ أوثرُ أن يمتد بي زمني ... حتى أرى دولة الأوغاد والسفلِ
تقدمتني أناسٌ كان شوطُهمُ ... وراءَ خطوي لو أمشي على مهلِ
هذا جزاء امرىءٍ أقرانهُ درجوا ... من قبلهِ فتمنى فسحةَ الأجَلِ
وإن علاني من دوني فلا عَجبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمسِ عن زُحلِ
فاصبر لها غير محتالٍ ولا ضَجِرٍ ... في حادث الدهر ما يُغني عن الحِيلِ
أعدى عدوك من وثقتْ به ... فحاذر الناس واصحبهم على دخلِ
وإنما رُجل الدنيا وواحدها ... من لا يعولُ في الدنيا على رجلِ
وحُسن ظنك بالأيام معجزَةٌ ... فَظنَّ شراً وكن منها على وجَلِ
غاض الوفاءُ وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخُلفِ بين القوْل والعملِ
وشان صدقكَ عند الناس كذبهم ... وهلْ يُطابق مِعْوجٌ بمعتدلِ
إن كان ينجع شيءٌ في ثباتهمُ ... على العهود فسبق السيف للعذلِ
يا وارداً سُؤر عيش كلُّه كدرٌ ... أنفقت صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لجَّ البحر تركبهُ ... وأنت تكفيك منهُ مصة الوشلِ

مُلكُ القناعةِ لا يُخشى عليه ولا يُحتاجُ فيه إلى الأنصار والخَولِ
أقنع تجل ولا تطمع تذل ولا تعجل تزل ولا تغتر بالامل
ترجو البقاء بدارٍ لاثبات بها فهل سمعت بظلٍ غير منتقلِ
ويا خبيراً على الإسرار مطلعاً اصمتْ ففي الصمت منجاةٌ من الزلل
قد رشحوك لأمرٍ لو فطنتَ له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة توفي أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الغزي أحد الفضلاء، ويضرب به المثل في صفة الشعر، ومن شعره:

ان يكرهوا نظم العريض فعذرهم باد كحاشية الرداء المعلم
هم محرمون عن المناقب والعلى والشعر طيب لا يحل المحرم

ومنه:

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث مغلق
لم يبق في الدنيا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب انه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويسرق

خرج من مرو إلى بلخ فتوفى في الطريق، وحمل إلى بلخ ودفن بها، وعمره نيف وتسعون سنة.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة توفي العلّامة الكبير نجم الدين أبو حفص عمر بن محمّد بن أحمد بن إسماعيل بن محمّد بن لقمان النسفي، المترجم بمفتي الانس والجن، صاحب التيسير في التفسير، وكتاب القند في تاريخ سمرقند. قال السمعاني: كان مبرزا متفننا صنف في كل نوع من العلم، ونظم الجامع الصغير لمحمّد بن الحسن، وصنف قريباً من مائة مصنف. قال: وكتب إليّ بالاجازة. وقال: شيوخي خمسمائة وخمسون رجلاً، ثم ذكر ما يقتضي انه لم يكن مبرزاً في علم الحديث كما هو في غيره من العلوم. وأنشد له شعر:

كم ساكت أبلغ من ناطق وراجل أفرس من فارس
ولاحق يسبق عرباً مضوا بفضل دين، وهو من فارس

وكان مولده سنة إحدى وستين وأربعمائة.

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ومولده في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة. وزمخشر قرية من قرى خوارزم، وفضائله وتصانيفه أشهر من أن تذكر، قال: إنّه صنّف الكشاف بمكة في مقدار خلافة أبي بكر ذكر هذا في الكشاف. ويقال له: جار الله الزمخشري، قدم إلى بغداد للحج فجاءه الشريف الشجري مهنياً له بقدومه، فلمّا جالسه أنشده الشريف:

كـانت مسـاءلة الركبان تـخبرني عن أحـمد بـن داود طـيب الخـبر
حتى التـقينا فـلا والله مـا سـمعت أذني باحسن مما قـد رأي بـصري

ومن شعر الزمخشري:

يكـثر الشك والخـلاف وكـل يـدعي الفـوز بـالصراط السوي
فـاعتصامي بـلا إله سـواه ثـم حـبّي لأحـمد وعـلي
فـاز كـلب بـحب أصـحاب كـهف كـيف اشـقى بـحب آل النـبيّ

وفي سنة أربع واربعين وخمسمائة توفي ناصح الدين الارجاني ـ وارجان من اعمال تستر ـ وكان قاضياً بتستر، واسمه أحمد بن محمّد بن الحسين، وله أشعار حسنة منها:

ولما بلوت الناس أطلب عـندهم أخـاً ثـقة عـند اشـتداد الشـدائـد
تـطلعت فـي حـالي رخـاء وشـدة وناديت في الأحياء هل من مساعد
فـلم أر فـيما سـاءني غـير شـامت ولم أر فـيما سـرني غـير حـاسد
تـمتعتما يـا نـاظري بـنظرة وأوردتـما قـلبي أمـر المـوارد
أعـيني كـفا عـن فـؤادي فـانه من البغي سعي اثنين في قتل واحد

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة توفي السلطان مسعود بن محمّد بن ملك شاه، وبه انقضت سعادة البيت السلجوقي.

فأولهم طغرلبك بن داود بن سلجوق، ثم ابن أخيه ألب ارسلان، ثم ملك شاه بن ألب ارسلان، ثم تركنادوق بن ملك شاه، ثم محمّد بن ملك شاه، ثم محمود بن محمّد بن ملك شاه، ثم داود بن محمود، ثم لم يبق بعد مسعود إلّا سنجر بن ملك شاه، فترك الملك وتصوف بخانقاه مرو وبقي منهم جماعة في الروم.

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة توفي السلطان علاء الدين الحسن بن الحسن الغوري، وكان عادلاً حسن السيرة، ملك موضعه ابن أخيه غياث الدين محمّد.

وفيها قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير مصر، أرسلت إليه عمة العاضد خليفة مصر من ضربه وهو داخل القصر بالسكاكين، ولم يمت في ساعته، وحمل إلى بيته، وأرسل يعتب العاضد فاعتذر إليه وحلف، وأرسل عمته إليه فقتلها. وسأل تولية ابنه فلمّا مات استقر في الوزارة ابنه لقب الملك العادل، وكان لطلائع المذكور شعر منه:

أبـى الله إلّا ان يـدين لنـا الدهـر ويخدمنا فـي مـلكه العـز والنـصر
عـلمنا بأن المـال تـفنى ألوفـه ويبقى لنا من بـعده الأجـر والذكـر
خلطنا النـدى بـالبأس حـتى كأنـنا سحاب لديه الرعد والبرق والقطر

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبدالمؤمن سلطان الغرب بمدينة سلا، وكانت مدة ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، وكان كثيراً لسفك الدماء كشيخه ابن تومرت العلوي يقتل على الذنب اليسير، وكان خشن البأس، وجمع الناس في الغرب على مذهب مالك ابن انس في الفقه، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول، وكان من وجده وقت الصلاة غير مصلي قتله.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفي جمال الدين أبو جعفر محمّد بن علي بن أبي المنصور الاصفهاني وزير قطب الدين مودود زنكي صاحب الموصل، وكان مقبوضا عليه في مخدومه مدة سنة، وكان قد تعاهد مع أسد الدين شيركوه انه من مات منهما قبل الآخر ينقله إلى مدينة النبي صلى الله عليه وآله ويدفنه فيها، فاكترى له شيركوه وجعل معه قراء يقرءون القرآن عند شيله وحطه، وينادون في كل بلدة ينزلون بها بالصلاة عليه، ولمّا أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادي فتثنى رماله ... عليه وبالنادي فتثنى أرامله
أناعيه ان النفوس منوطة ... بقولك فانظر ما الذي أنت قائله
بفيك الثرى لم تدر من حل بالثرى ... جهلت وقد يستصغر المرء جاهله

وطيف به حول الكعبة، ودفن في رباط بالمدينة كان بناه لنفسه، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وآله نحو خمسة عشر ذراعاً، وهذا جمال الدين هو الذي جدد مسجد الخيف بمنى، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة، وغرم جملة طائلة لصاحب مكة وللمقتفي العباسي حتى مكناه من ذلك، وبنى المسجد الذي على جبل عرفات وعمل الدرج إليه، وعمل بعرفات مصانع الماء، وبنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وآله، وبنى على دجلة جسراً عند جزيرة ابن عمر بالحجر والحديد والرصاص والكلس، وقبض قبل ان يفرغ منه، وبنى الربط وغيرها.

وفي سنة ستين وخمسمائة توفي أبو الحسن هبة الله بن صاعد بن هبة الله المعروف بأمين الدولة، وكان نصرانياً قد ناهز المائة، وكانت له فضيلة زائدة في النسب والأدب، وكان قسيس النصارى وشيخهم، وكان فضلاء عصره يتعجبون منه كيف حرم الإسلام مع فضله وفهمه، والله يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بحكمه، وكان له رفيق في الحكمة يهودي من عالي الهمة وهو الحكيم المشهور بابن ملكان واسمه هبة الله، وكان رفيعاً متكبراً يكنى بأبي البركات، فأنشد فيه أمين الدولة النصراني المذكور:

لنا صديق يهودي حماقته ... إذا تكلم يبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة ... كأنه بعد لم يخرج من التيه

وله تصانيف حسنة، منها: كتاب اقراباذين وهو معتمد عليه عند الأطباء.

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة توفي أسد الدين شيركوه، وكان شيركوه وأيوب ابني شادي. قال ابن الأثير: أصلهما من الأكراد الروادية. قصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية وجعلهما بتكريت يحفظان قلعتها، فقتل شيركوه إنساناً بتكريت، وكان أصغر من أيوب فأخرجهما بهروز من تكريت، فلحقا بخدمة عماد الدين زنكي، ولما مات زنكي خدما ابنه نور الدين، فوجه أسد الدين وابن أخيه صلاح الدين. يوسف بن أيوب إلى مصر لينجد العاضد خليفة مصر على الفرنج، فولى العاضدية أسد الدين على وزارته فتوفي بمصر، وطلب العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه الملك الناصر. قال ابن الأثير: رأيت كثيراً ممن ابتدأ بالملك وينتقل الملك إلى غير عقبه، معاوية تغلب على الملك فانتقل الملك إلى بني مروان، وملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، وكذلك السامانية أوّل من استبدل بالملك منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل، وابتدأ بالملك عماد الدولة بن بويه، فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغرلبك السلجوقي، فانتقل الملك إلى عقب أخيه داود ثم شيركوه، فانتقل الملك إلى ابن أخيه صلاح الدين.

وفيها توفي محمّد بن محمّد بن ظفر صاحب سلوان المطاع، مولده بصقلية ومنشأه بها. ثم سكن حماة ومات بها فقيراً.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة يوم عاشوراء من المحرم توفي العاضد آخر الخلفاء العلوية الفاطمية بمصر، وانقضت به خلافتهم وهم أربعة عشر: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، والطاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والطاهر، والفائز، والعاضد، ومدة خلافتهم مائتان واثنين وسبعون سنة.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة من أكابر المصريين كانوا قصدوا إعادة الخلافة العلوية، منهم: عمارة بن علي اليمني الشاعر صاحب الرثاة العظيمة في العلوية التي منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت في عذل
خدعت مازنك الأعلى فانفك ... لا ينفك ما بين أمر الشين والخجل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة ... على فجيعتها في أكرم الدول
بالله زر ساحة القصرين وابك معي ... عليهما إلّا على صفين والجمل
ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة ... في سلالة أمير المؤمنين علي

مـررت بـالقصر والاركـان خـالية مـن الوفـود وكـانت قـبلة القـبل

وله فيهم أيضاً:

غـصبت أمـية أرث آل مـحمد سـفها وشـنت غـارة الشـنئآن

وغدت تخالف في الخلافة أهلها وتـقابل البـرهان بـالبهتان

وأتـى زيـاد فـي القـبيح زيـادة تركت يزيد بن يـزيد فـي الطـغيان

وتـنقلوا فـي رتـبة نـبوية لم يـبنها لهـم أبـو سـفيان

ولـه:

إذا لم يسـالمك الزمـان فحارب ويـاعد إذا لم تـنتفع بـالأقارب

إذا كان رأس المال عمرك فـاحترز عليه من التضييع فـي غـير واجب

وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة توفي الحصيص الشاعر سعد بن محمّد بن سعد، ومن شعره الحسن:

لا تلمني في شقائي بالعلى رغد العيش لربات الحجال

سـيف جـزار بـه ذو ثقة فهو بالطبع غنى عن صقال

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة توفي محمّد بن عبدالله الكاتب الشهير بـابن التعاويذي الشاعر المعروف، وله أشعار حسنة، منها وقد صودر مع جماعة من الدواوين ببغداد من جملة قصيدة:

يا قاصداً بغداد حد عـن بـلدة للـجور فـيها زجـرة وعـتاب

والنـاس قـد قـامت قيامتهم فلا أنساب بينهم ولا أحسـاب

شهدوا مـعادهم فـعاد مـصدقاً مـن كـان قـبل بـبعثه يـرتاب

حشر وميزان وعـرض جـرائـد وصـحائف مـنشورة وحسـاب

ما فاتهم من كل مـا وعـدوا بـه فـي الحشـر إلّا راحـم وهـاب

وفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة ليلة الجمعة حادي عشر رمضان تـوفي السـلطان صـلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، سلطان مصر والشام، صاحب الغزوات العظام في القدس. ونقل إلى دمشق ودفن بالقرب من الجامع، ولم يخلف في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً، ولم يخلف ديناراً ولا عقاراً، ولم يكن له فرس يركبه إلّا وهو موهوب أو موعود به، واوهب في مدة حصاره لعكا اثنى عشر ألف فرس، ولم يؤخر صلاة عن وقتها، ولا صلى إلّا في جماعة، ولا يفضل يوماً على يوم، وكان حسن الخلق كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، طاهر المجلس واللسان، كثير البر والاحسان.

قال العماد الكاتب حسين: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفوته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وفجع الناس بواحده وسلطانه، وزرئ الإسلام بمشيد أركانه، وكان مولده بتكريت في سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، ومدة تملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة، والديار المصرية قريباً من أربع وعشرين، وخلف سبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة بقيت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل بمصر.

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة توفي محمّد بن عبدالملك بن زهير الطبيب الأندلسي وهو الذي قيل فيه:

قل للوباء أنت وابن زهر — جزتما الحد في النكاية
ترفقا بالورى قليلاً — في واحد منكما كفاية

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفي العماد، والكاتب الحسين بن محمّد بن عبدالله بن حماد الاصفهاني، وله تصانيف وشعر منه:

إذا زرعت جميلاً فاسقه غدقاً — من المكارم كي ينموا لك الثمر
ولا تشبه بمن فالذي نقلوا — فعادة المن ان تؤذي به الشجر

وفي سنة خمس وستمائة توفي غياث الدين محمود آخر الملوك الغورية، وكانت دولته آخر الدول، وكان شجاعاً كريماً.

وفي سنة ست وستمائة توفي فخر الدين محمّد بن عمر خطيب الري ابن الحسين بن الحسن ابن علي التيمي البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الفقيه الشافعي.

قال ابن الأثير: بلغني ان مولده سنة ثلاث واربعين وخمسمائة، وكان يعظ الناس بالعربي والعجمي، وكانت له اليد الطولى في العلوم خلا العربية، وسافر في البلاد وصحب الملوك، وجرت بسببه فتنة عظيمة، فان غياث الدين الغوري كان قد بالغ في اكرام فخر الدين الرازي، وبنى له المدرسة بهراة، فعظم ذلك على أهلها الكرامية الذين مذهبهم التجسيم والتشبيه، فاتفق ان العلماء الكرامية من الحنفية والشافعية حضروا عند غياث الدين للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي، والقاضي عبدالمجيد بن القدوة وهو أكبر الكرامية وأعلمهم وأزهدهم، فتكلم الرازي فاعرض عنه ابن القدوة وطال الكلام، وقام غياث الدين فاستطال الرازي على ابن القدوة وشتمه، فغضب لذلك الملك ضياء الدين ابن عم غياث الدين، وذم فخر الدين وشتمه ونسبه إلى الزندقة والفلسفة عند غياث الدين فلم يصغ إليه، فلمّا كان الغد وعظ الناس من الغدوة بالجامع، فحمد الله واثنى عليه

وذكر النبي فصلى عليه، وقال: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]، أيّها الناس لا نقول إلّا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وأما علم أرسطوا أو كفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله؟ وبكى فبكت الكرامية واستعانوا وثار الناس من كل جانب وامتلأ الناس فتنة وبلغ ذلك السلطان غياث الدين، فسكّن الفتنة وأوعد الناس باخراج فخر الدين، فخرج ثم أمره بالعود إلى هراة فعاد اليها، ثم عاد إلى خراسان وحظي عند السلطان خوارزم شاه بن محمّد بن تكش وله نظم حسن منه:

نهاية اقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من حبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال

وفيها توفي مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمّد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير، أخو عز الدين علي المؤرخ صاحب الكامل في التاريخ، ومولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وكان فقيهاً أصولياً لغوياً نحوياً محدثاً، وهو صاحب النهاية في علم اللغة المعروفة بنهاية ابن الأثير.

وفي سنة ثمان وستمائة توفي القاضي البرسي، المشهور بهبة الله بن جعفر بن سنا الملك، وله من الأشعار الحسنة منها:

لا الغصن يحكيك ولا الجوذر	حسنك مما كثر وأكثر
يا باسماً أهدى لنا ثغره	عقداً ولكن كله جوهر
قال لي اللاحي أما تستمع	فقلت يا لاحي أما تبصر

ومنها:

عاشر من الناس من ترجى مودته	فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة	بغير فاء وإخوان بلا ألف

وفي سنة إحدى عشرة وستمائة توفي الوجيه وهو المبارك بن الأزهر سعيد بن الدهان النحوي الضرير، وكان فاضلاً كان حنبلياً فصار حنفياً ثم صار شافعياً. فقال فيه أبو البركات زيد التكريتي

---

(١) سورة آل عمران: ٥٣.

شعراً:

ألا مبلغ عني الوجيه برسالة وان كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان من بعد أحمد وفارقته إذ عوزتك المشاكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا ولكن تهوى الذي هو حاصل
فعمّا قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفي سنة ثلاثة عشرة وستمائة توفي العلّامة أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي الحنفي، كتب إليه أبو شجاع الدهان الفرضي:

يا زيد زادك ربي من مواهبه نعمى يقصر عن إدراكها الأمل
لا غير الله حالا قد حباك بها ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو أنت أحق العالمين به أليس باسمك فيه يضرب المثل؟

وفي سنة أربع عشرة وستمائة توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بعقبة أفيق[1] مغازياً، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، ومدة ملكه لمصر نحو تسعة عشر سنة، وكان عاقلاً حليماً صبوراً مكاراً. خلف ستة عشر ولداً ذكوراً غير البنات، لم يسر أحد من الملوك بأولاده ما سر هو بهم، ولم يكن أحد منهم حاضر عند موته، لكن حضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى، وكان بنابلس وكتم موته وأخذه في محفة وعاد به إلى دمشق ودفنه بها، ويعرف قبره بالعادلية قرب القبر المعروف بالظاهرية قرب الجامع، واحتوى على ماكان مع أبيه من الجواهر والخيول والسلاح، وخلف أهل دمشق لنفسه، وكتب بموت أبيه إلى أخوته، وكان في خزانته سبعمائة ألف دينار، ومما مدح به قصيدة لابن عيسى مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى
العادل الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرف منبرا
ما في أبي بكر لمعتقد الهوى شك بريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وكنّه في الفضل ما بين الثريا والثرى
لا تسمعن حديث ملك غيره يروى فكل الصيد في جوف الفرا

---

(١) في المخطوط (وبق) وهو تصحيف، صوابه ما أثبتناه من تاريخ أبي الفداء، وكان موته عند قرية عاليق وهي عند عقبة أفيق.

أفيق: بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة وقاف قرية من حوران في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق، والعامة تقول فيق. معجم البلدان: ١/١٥٨.

أولاده فـــي كـــل أرض مـــنهم ملك يجر إلى الأعادي عسكرا

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة أرسل أمير مكة قتادة بن إدريس العلوي الحسيني، عسكراً مع أخيه ومع ابنه الحسن بن قتادة لاخذ مدينة النبي صلى الله عليه وآله، فوثب الحسن في اثناء الطريق على عمه فقتله، وعاد إلى مكة فخنق اباه قتادة، وأرسل إلى أخ له بالينبع فاحضره إليه وقتله، وكان عمر قتادة حين خنقه ولده نحو تسعين سنة، وكان له شعر حسن منه ما أجاب به حين عوتب على امتناعه عن الحضور إلى أمير الحاج العراقي:

ولي كـف ضـرغام أفوز ببطشها وأشـري بـها بـين الورى وأبـيع

تـضل مـلوك الأرض تـلثم ظـهرها وفـي وسـطها للمجد بـين ربـيع

أأجعلها تـحت الرهـان ابـتغي بـها خـلاصاً لهـا انـي إذا الرفـيع

ومـا أنـا إلّا المسك فـي كـل بـلدة يـضوع وامـا عـندكم فـيضيع

فانتزع ثاني سنة الملك مسعود صاحب اليمن مكة شرفها الله تعالى من الحسن بن قتادة.

وفي سنة اثنين وعشرين وستمائة توفي الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة. وعمره سبع وخمسون سنة، وكان حسن الفضائل والأخلاق قليل الحظ.

وأنشد في سوء حظه:

يـا مـن يسـود شـعره بـخضابه لعساه فـي أهـل الشـبيبة يـحصل

هـا فـاختضب بسـواد حـظي مـرة ولك الأمـان بأنـها لا تـنصل

وله أيضاً:

أي صـديق سألت عـنه ففي ذل وتحت الخمول في الوطن

وأي صـديق سألت حـالته سـمعت مـا لا تـحبه أذنـي

وهو الذي كتب إلى الإمام الناصر يشكوا إليه من عمه أبي بكر وأخيه عثمان:

مـولاي إن أبـا بكـر وصـاحبه عثمان قد أخذا بالظلم حق عـلي

وهـو الذي كـان قـد ولاه والده عـليهما فـاستقام الأمـر حـين ولي

فـخالفاه وحـلا عـقد بـيعته فـالأمر بـينهما والنـص فـيه جـلي

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقي مـن الأواخـر مـا لاقـى مـن الأول

وقدمنا القصة في فصل الناصر.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة في ذي القعدة منها توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة دمشق وعمره تسع وأربعون سنة، ومدة ملكه لدمشق تسع سنين

وشهور، وكان فاضلاً نحوياً مطرح التكليف، وكان حنفياً متعصباً لمذهبه دون أهل بيته، اشتغل على جمال الدين الحضرمي الحنفي، واستقر مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة توفي سيف الدين الأسدي، وهو علي بن محمّد بن سالم الثعلبي، وكان حنبلياً ثم صار شافعياً، وشرع في العلوم وتعصب عليه الفقهاء بمصر حين أخذ تدريس الشافعي. وكتبوا محضرا بانحلال عقيدته، وكتب عليه بعض الفقهاء حين ارادوا شهادته عليه فيه:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم اعداء له وخصوم

فسار إلى حماة وأقام بها ثم عاد إلى دمشق فتوفى بها، ومولده في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

وفيها توفي شرف الدين عمر بن علي بن راشد الشهير بابن الفارض الحموي الأصل، المصري المربى، ونسبه من بني سعد قبيلة حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ. قال الذهبي: هو قدوة أهل الوحدة، وحامل لواء الشعر. ومن شعره:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهلُ ... فما أختاره مضنى بـه وله عقلُ
وعش خالياً فالحب راحتُهُ عنىً ... وأوله سُقمٌ وآخره قتلُ
ولكن لدي الموت فيه صبابة ... حياةٌ لمن أهوى علي بها الفضل
نصحتك علما بالهوى والذي أرى ... مُخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيى سعيداً فمت به ... شهيداً وإلّا فالغرام له أهلُ
فمن لم يمت في حُبه لم يعش به ... ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا ... وخل سبيل الناسكين وإن جلو
وقل لقتيل الحب وفيت حقهُ ... وللمدعي هيهات ما الكحَلُ الكحْلُ
تعرض قومٌ للغرام واعرضوا ... بجانبهم عن صحبتى فيه واعتلوا
رضوا بالأماني وابتلو بحظوظهم ... وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم ... وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا
عن مذهبي لمّا استحبّوا العمى على ... الهدى حسداً من عند أنفُسِهم ضَلّوا
أحبَّة قلبي والمحبَّة شافعي ... لديكمْ، إذا شئتُمْ بها اتّصل الحبل
عسَى عَطفة منكُمْ عَليّ بنَظرَة ... فقدْ تعبتْ بيني وبينكمُ الرُّسل
أحبَّايَ أنتمْ أحسنَ الدّهر أمْ أسا ... فكونوا كما شئتمْ أنا ذلكَ الخلُّ

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة توفي الشيخ العلّامة كمال الدين موسى بن يونس بن محمّد بن منعة بن مالك إمام وقته في مذهب الشافعي وغيره. كان نحل كتب المذاهب كلها، والمجسطي واقليدس والتوراة والانجيل، وكتاب سيبويه. وقرأ عليه الشيخ أثير الدين الابهري.

وفي سنة ست واربعين وستمائة توفي الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر ابن يونس المعروف بابن الحاجب صاحب الكافية في النحو. كان رحل من دمشق إلى الكرك، وتعلم هناك الكافية للملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان والده حاجباً للأمير عز الدين موسك الصالحي الكردي، وكانت وفاته بالاسكندرية، وكان عمره خمساً واربعين سنة.

وفي سنة خمسين وستمائة توفي فخر القضاة نصر الله بن هبة الله بن محمّد بن عبدالباقي بن بصاقة الغفاري الحنفي الشاعر المفلق، كان بديع النظم والنثر خصيصاً بالمعظم عيسى وبابنه الناصر داود، ولد بقوص سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وتوفي بدمشق. ومن شعره:

على ورد خديه وآس عذاره ... يليق بمن يهواه خليع عذاره

وأبذل جهدي في مداراة قلبه ... ولولا الهوى يقتادني لم أداره

أرى جنة في خده غير أنني ... أرى جل ناري شب من جلناره

كغصن النقا في لينه واعتداله ... وريم الفلا في جيده ونفاره

سكرت بكأس من رحيق رضابه ... ولم أدر أن الموت عقبى خماره

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة قتل المعز أيبك التركماني سلطان مصر، بأمر زوجته شجر الدر أُم خليل، فإنّه كان تزوجها ثم قصد أن يتزوج عليها، وكان فاضلاً ومن نظمه:

عانقته فسكرت من طيب الشذا ... غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا

نشوان ما شرب المدام وإنما ... أضحى بخمر رضابه متنبذا

جاء العذول يلومني من بعدما ... أخذ الغرام علي فيه مأخذا

لا أرعوي لا أنثني لا أنتهي ... عن حبه فليهذ فيه من هذا

إن عشت عشت على الغرام وإن أمت ... وجداً به وصبابة يا حبذا

وفي سنة ست وخمسين وستمائة قصد هولاكو بغداد وملكها، وقتل الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين. وعدتهم سبع وثلاثون خليفة.

وفيها توفي الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وعمره نحو ثلاث وخمسين سنة، واتفقت له غريبة وهي انه أمسكه الملك المغيث صاحب الكرك

خوفاً منه حين كان بالتيه مع العربان، وحمله إلى الشويك ليدفن بها في مطمورة، وكان واقفاً والمطمورة تحفر، وإذا برسول الخليفة المستعصم جاء يطلبه ليكون في مقدمة العسكر لقتال التتر، ففرج الله عنه قبل اتمام المطمورة، فلمّا وصل إلى دمشق جاء الخبر باستيلاء التتر على بغداد فتركه الرسول وانصرف. فسار الناصر داود إلى البويضا شرقي دمشق ومات بالطاعون، وخرج إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب واسف عليه، ونقله إلى دمشق ودفنه بالصالحية عند والده الملك المعظم عيسى، وله أشعار فائقة منها:

عيون عن السحر المبين تبين ... لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهي سود فرندها ... ذبول فتور والجفون جفون
إذا ما أبصرت قلباً خلياً من الهوى ... تقول له كن مغرماً فيكون

ومنها:

طرفي وقلبي قاتل وشهيد ... ودمي على خديك منه شهود
يا أيها الرشأ الذي لحظاته ... كم دونهن صوارم ونهود
والذ ما لاقيت فيك منيتي ... وأوّل ما بالنفس فيك أجود
وأنا وحبك لست أضمر سلوة ... عن صبوتي ودع الفؤاد يبيد
من لي بطيفك بعد ما منع الكرى ... عن ناظري البعد والتسهيد
ومن العجائب أن قلبك لم يلن ... لي والحديد ألانه داود

ومنها ما قاله في الحبس لما أعتقل عليه بحمص:

إلهي الهي أنت أعلى وأعْلَمُ ... بحقُوق ما تُبدى الصدورُ وتكْتمُ
وأنت الذى تُرْجى لكلّ عظيمة ... وتخشى وأنت الحاكمُ المُتحَكّم
أبث جنايات العشيرة معْلنّا ... إلى مّن بمكنون السرائر يَعْلَمُ
أتيتهُمْ مُستصرخاً متجرما ... كما يفعلُ المستصرخ المتجرم
فلما أيسْنَا نصَرهَم ونوالَهم ... رمونا بإفك القول وهو مُرَجَّمُ
وقطع مني ما أمرت بوصله ... وإحلال أبعاد القرابة يحرم
مليكي أتعلوني الملوك بقهرها ... وأنت ملاذي منهم وهم هم

وفيها توفي الصالح بهاء الدين زهير بن محمّد بن علي بن يحيى المهلبي، كاتب انشاء الملك الصالح أيوب، ومولده بوادي نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، ودفن بالقرافة الصغرى ومن شعره في وزن أخترعه:

هــو يـامن لعبت بـه الشـمول مـــا ألطـف هــذه الشــمائل
هـــا عـــبدك واقـــفا ذليـلا بـــالباب يـمد كـف سـائل
مـن وصــلك بـالقليل يـرضى والطـــل مـن الحـبيب وابـل

ومنه:

بـروحي مــن أسـميها بسـمي فــينظرني النـحاة بـعين مـقت
يــرون بـأنني قـد قـلت لحـناً وكـيف وإنـني كـزهير وقـتي
ولكــن غــادة مـلكت جـهاتي فـلم الحـن إذا مـا قـلت ستي

وفيها توفي سيف الدين علي بن سابق الدين المعروف بابن المشد، وكان أميراً كبيراً من أمراء الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام. ومن شعره الحسن:

بـاكـؤكوس المـدام واشـرب واستجل وجه الحبيب واطرب
مـــن يـد سـاق له رضـاب كـالشهد لكـن جـناه أعـذب
ولا تـــخف للـــمهموم داء فــــهو دواء له مـــجرب

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة قتل الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام، قتله هولاكو صبراً، وكان عمره اثنين وثلاثين سنة، وكان قد اتسع ملكه ملك حلب ودمشق وغالب بلاد الشام، ولولا هروبه من وطنه لملك مصر، وكان يذبح في بطنجه كل يوم أربعين رأس غنم، وكان حليماً إلى الغاية لا يقيم على أحد حداً حتى أنقطعت الطرقات في أيامه، وكان إذا قدم إليه مستحق القتل يقول الحي خير من الميت ويطلقه، وكان يحفظ كثيراً من الشعر ومن شعره:

فــوالله لو قــطعت قـلبي تأسـفاً وجرعتني كاسات دمعي دماً صرفاً
لمـــا زادنـــي إلّا هــوى ومـحبة ولا اتخذت روحي سواك لها إلفا

وفي سنة ستين وستمائة توفي كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة الحنفي المعروف بابن العديم، أصله من قرية من بلاد الحفة[1]، رأس بتقدمه عند الناصر يوسف المقدم ذكره، وله تاريخ مختصر بحلب، وكان له مملوك قد فضل، ومن لطيف ما وقع منه متمثلاً حين امتدح بالعلم والعقل معترضا بالشكوى من أستاذه:

وما تنفع الآداب والعلم والحجى وصـاحبها عـند الكمال يـموت

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة هلك هولاكو ابن طلو ابن جنكزخان واستقر ولده ابغا على ما

(١) الحفة: بالفتح، والتشديد: كورة في غرب حلب.

كان بيد والده من الممالك وهي مملكة خراسان وكرسيها نيسابور، وعراق العجم وكرسيها اصفهان، وعراق العرب وكرسيها بغداد، ومملكة آذربيجان وكرسيها تبريز، ومملكة خوزستان وكرسيها تستر، ومملكة فارس وكرسيها شيراز، وديار بكر وكرسيها الموصل، وبلاد الروم وكرسيها قونية، وما بين هذه الممالك من البلاد الكثيرة.

وفي سنة اثنين وسبعين وستمائة توفي ببغداد العلّامة نصير الدين محمّد بن محمّد بن حسن الطوسي ومولده حادي عشر جمادي الأُولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

وفي سنة ست وسبعين وستمائة توفي الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام بدمشق، ودفن بها وقبره قرب الجامع الأعظم يعرف بالظاهرية، واصله مملوك قبجاقي أسمر اللون أزرق العينين، عرض على الملك المنصور صاحب حماة فما أعجبه، فاشتراه أيدكين البندقداري الصالحي وهو محبوس بقلعة حماة في جامعها، وبعد ان فرج الله عنه قدمه لأستاذه الملك الصالح أيوب صاحب مصر.

وفيها توفي محي الدين يحيى بن شرف بن مرا بن النووي ومن شعره:

تواضع إذا ما كان قدرك عاليا ... فان اتضاع المرء من شيم العقل

فان نبي الله خاطب نملة ... شفاهاً وربّ العرش اوحى إلى النحل

وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة توفي الملك السعيد بركة فى الكرك فنقل إلى دمشق، ودفن عند والده الملك الظاهر.

وفي سنة ثمانين وستمائة اتهم أبغا بن هولاكو علاء الدين عطا ملك بن محمّد الجويني صاحب الديوان ببغداد بمواطاة المسلمين وأخذ أمواله وقتله، وكان من الفضلاء العظام ومن شعره في تركيه:

أبادية الأعراب عني فإنني ... بحاضرة الأتراك نيطت علائقي

وأهلك يا نجل العيون فإنني ... جننت بهذا الناظر المتضايق

وفي سنة إحدى وثمانين وستمائة توفي القاضي العلّامة شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلكان البرمكي، ومولده على ما ذكره هو في تاريخه يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة أربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين. ومن شعره:

يا سادتي إني قنعت وحقكم ... في حبكم منكم بأيسر مطلب

إن لم تجودوا بالوصال تعطفا ... وقصدتم هجري وفرط تجنبي

لا تحرموا عيني القريحة أن ترى ... يوم الخميس جمالكم في الموكب

وفي سنة اثنين وثمانين وستمائة توفي الملك المنصور محمّد بن الملك المظفر بن المنصور عمر بن شاهنشاه بن أيوب في شوال، وعمره إحدى وخمسون سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوماً، وكانت مدة سلطنته إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام. وكان حليماً قدم مرة الملك الظاهر بيبرس إلى حماة فرفع إليه الحميون قصصا بالشكوى على المنصور، فجمعها الظاهر وأرسلها إليه، فخاف الحميون من ذلك فاحضر المنصور ناراً وأحرق القصص ولم يعلم هو ولا أحد ما فيها بحيث لا يتغير خاطره على أحد منهم.

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة توفي الملك المنصور قلاوون سلطان مصر والشام.

وفي عصر السبعمائة توفي الشيخ الجليل الكامل النبيل المحقق المدقق الورع المصلي جعفر ابن سعيد الحلي صاحب شرائع الإسلام، ومن شعره ما كتبه لأبيه:

ليهنك أني كل يوم إلى العلى	أقدم رجلا لا تزل بها النعل
وغير بعيد أن تراني مقدما	على الناس حتى قيل ليس له مثل
تطاوعني بكر المعاني وعونها	وتنقاد لي حتى كأني لها بعل
ويشهد لي بالفضل كل مبرز	ولا فاضل إلا ولي فوقه فضل

فكتب إليه في الجواب ان اصبت في شعرك فقد اخطأت في مدح نفسك.

وفي سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة توفي الملك المؤيد إسماعيل بن الملك الأفضل علي بن المظفر محمود بن المنصور محمّد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب، كان من أعيان الأمراء، وكان عالماً أديباً، له اليد الطولى في الرياضي والهندسة والهيئة، وله عدة مؤلفات في أنواع العلوم منها: الحاوي الصغير، وكتاب نوادر العلم، وتقويم البلدان، وكتاب الموازين، وكتاب التاريخ المسمى بالمختصر في أخبار البشر. وله أشعار رائقة منها:

اقرأ على طيب الحياة	سلام صب ذاب حزنا
واعلم بذاك أحبة	بخل الزمان بهم وضنا
لو كان يشرى قربهم	بالمال والأرواح جدنا
متجرع كأس الفراق	يبيت للأشجان رهنا
حتى قضى وجدا ولم	يقضى له ما قد تمنى

ومنها:

أكرم به طرفا يفوت به القضا	إن رمته في مطلب أو مهرب
مثل الغزالة ما بدت في مشرق	إلا بدت أنوارها في المغرب

ومنها:

كم من دم حللت وما ندمت تقول ما تشتهي فلا عدمت

لو أمكن الشمس عند رؤيتها لثم مواطئ أقدامها لثمت

وكانت وفاته بحماة ودفن بها.

وفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة توفي الحافظ أبو الفتح بن سيد الناس بالقاهرة في منتصف شعبان.

وفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وقيل في التي قبلها توفي الأمير تنكز الناصري نائب الشام بعد حضوره إلى القاهرة ـ مقبوضاً عليه ـ وارساله إلى ثغر الاسكندرية والاعتقال عليه. وكان عفيفاً صارماً أنشأ بدمشق جامعه المعروف بجامع تنكز، وأنواعاً من المعروف، وطالت مدته ثلاثين سنة. وأنشد في ذلك القاضي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي:

ألا هل لبيلات تقضت على الحمى تعود بوعد للسرور منجز

ليالٍ إذا رام المبالغ وصفها يشبهها حسناً بأيام تنكز

وفيها توفي الملك الناصر محمّد بن قلاوون سلطان مصر والشام. قال القاضي بدر الدين الحسن ابن حبيب في تاريخه عنه انه جلس على سرير الملك ثلاث مرات، وظفر بما لا يعد من التهاني والمسرات.

وفي سنة اثنين واربعين وسبعمائة توفي الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف المزي وهو القائل:

إن عاد يوماً رجل مسلم أخاه في الليل وزاره

فهو جدير عند أهل النهي بأن يحط إليه أوزاره

وفي سنة خمسين وسبعمائة توفي الحاج الارقطاي الناصرى، باشر نيابة حمص ثم صفد ثم طرابلس ثم حلب ثم مصر ثم حلب ثم ولي دمشق فتوجه إليها، فمات بعين مباركة وحمل إلى حلب، ودفن بقرية سودي وكان يحب حلب. وأنشد فيه:

قالوا أرقطاي مات قلت فهل في الموت بعد الحياة من عجب

ما مات من فرحة بنقلته بل مات من حزنه على حلب

وكان عمره نحو سبعين سنة.

وفيها توفي صفي الدين عبدالعزيز الحلي الشاعر ببغداد ومن شعره:

سوابقنا والنقع والسمر والظبا وأحسابنا والحلم والبأس والبر

هبوب الصبا والليل والبرق والقضا وشمس الضحى والطود والنار والبحر

ومنه:

وظبي بقفر فوق طرف مفوق لقوس رمى في النقع وحشا بأسهم
كبدر بأفق فوق برق بكفه هلال رمى من الليل جنا بأنجم

ومنه:

صاحب إذا ما صحبت ذا أدبٍ مهذبٍ زان خَلَقه الخُلقُ
ولا تصاحب من خلائقه نقص فان الطباع تسترق

ومنه:

إذا شئت ان تختر لنفسك صاحباً فمن قبل ان تصفى له الود فاغضبه
فان كان في حال الغضب منصفا وإلّا فقد جربته فتجنبه

ومنه:

تحمل من صديقك كل ذنب وعد خطأه من نمط الصواب
ولا تعتب على ذنب حبيباً فكم هجر تولد من عتاب

ومنه:

في الطب من شاء يملك حفظ صحة في جسمه
طول الحياة ممرها ودوامها فليجعلن غداءه من أربع
لا تقبل التغيير في أقسامها من لحم ساعته وخبز نهاره
وطعام ليلته وقهوة عامها

ومنه في الأيام:

توق سبعة أيام قد طردت من كل شهر هلالي مناحسها
فثالث الشهر مذموم وخامسه وثالث العشرة الوسطى وسادسها
ثم اخش حادي عشريه فخشيته حزم ورابعها يخشى وخامسها

وقال غيره:

توق من الأيام سبعا كواملا فلا تبتغي فيهن سعي ولا سفر
ثلاث وخمس ثم ثالث عشر وسادس عشر هكذا جاء في الخبر
وحادي عشريه الذي شاع ذكره ورابع والعشرين والخمس في الأثر

وفي سنة اثنين وستين وسبعمائة توفي جمال الدين الزيلعي، مخرج أحاديث الكشاف

وأحاديث الهداية.

وفي سنة أربع وستين وسبعمائة توفي صلاح الدين أبو الصفا خليل بن الأمير عز الدين أيبك بن عبدالله الألبكي الصفدي الفاضل المشهور، جامع اشتات المنظوم والمنثور، باشر كتابت الانشاء بمصر والشام، وولي كتابة السير بحلب مدة لطيفه. ومن شعره:

بسهم ألحاظه رماني وذبت من صده وبينه

إن مت مالي سواه خصم فإنه قاتلي بعينه

ومنه:

ان الدهر أعطاك المنى من ولاية فلا تتخذها حرفة لمعاش

ولا تفتحن باب الهديا وعدها مطار فراش لا مطارف راش

ومنه:

متى تصنع المعروف ترق إلى العلا وتلق سعودا في ازدياد صعود

وان تغرس الاحسان تجني الثمار من مغار سعود لا مغارس عود

ومنه:

إذا عز أمرٌ فاستشر فيه صاحباً وان كنت ذا رأي تشير على الصحب

فإني رأيت العين تجهل نفسها وتدرك ما قد حل في موضع الشهب

وفي سنة ثمان وستين وسبعمائة توفي جمال الدين أبو بكر محمّد بن محمّد بن الحسن بن نباتة المصري الفارقي بالقاهرة، ومن شعره:

يا غائبين تعللنا لغيبتهم بطيب لهو ولا والله لم نطب

ذكرت والكأس في كفي لياليكم فالكأس في راحة والقلب في تعب

ومنه:

لا تقعدن بمجلس في صدره إلّا إذا ما كان ذلك منزلك

واترك لمن هو فوق قدرك موضعا فلقد احطك رتبة من انزلك

وإذا جلست فخل فوقك فسيحة ان جاء صاحبها وإلّا فهي لك

وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة توفي شيخ الحنفية في الديار الحلبية، العلّامة كمال الدين أبو الفضل محمّد، والد محمّد بن شحنة الحلبي صاحب تاريخ روض المناظر في علم الاوائل والآواخر، وكان جامعاً بين العلم والعمل على قول ولده في تاريخه المذكور. ومما رثى به بعد موته:

ذهب الفقه والتقى بالكمال مذ دهتنا به صروف الليالي
أعلم العصر في عفاف في زهد أوحد الدهر في جواب السؤال
يا أبا الفضل يا أخا العلم يابن الشحنة القوم يا محط الرجال
عطلت بعدك الفتاوى وامسى فقه نعمان في يدي الرجال
ماله ملجأ يثور إليه غير أولادك الكرام الفعال

وفي سنة ثمان وثمانين وسبعمائة توفي شهاب الدين عبداللطيف النحوي المشهور، ومن شعره:

إذا شئت ان تصحب صديقاً من الورى فلا تصفه وداً إلى ان تجربه
ولا تكتفي تجريبه فرد مرة إلى ان ترى أحواله حين تغضبه

وفي سنة تسع وثمانين وسبعمائة توفي الشهيد الأوّل محمّد بن مكي العاملي صاحب الدروس واللمعة وغيرهما بدمشق مقتولا محروقاً، وهو أحد فقهاء الإماميّة. واحسنهم المحقق جعفر بن سعيد الحلي صاحب شرائع الإسلام، ولم يأت بعده أحسن من العلّامة صاحب القواعد، وبعده الشهيد المذكور، وبعده الشهيد الثاني الشيخ زين الدين شارح الشرائع واللمعة.

أولئك أخواني فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقلت فيهم:

خذ العلم عن أهل الفصاحة والفكرى ولا تلتفت لا قوال زيد ولا عمرو
وان صح عن آل النبي رواية فاعمل بها ما لم تخالف للذكر
فكل حديث خالف الذكر باطل ولو كان من يرويه مثل أبي بكر
يعرف بالصديق في كل بلدة ويمدحه قوم مدا العمر في الدهر
عليك بأقوال المحقق فانه فقيه بليغ كامل الفضل والقدر
ومن بعده علامة الأمّة الذي له الذكر والتصنيف نادرة الدهر
ومن بعده ذاك الشهيد الذي مضى بنار الغضا يشبه عبيدة في بدر
ومن بعد زين الدين ما تم عالم لنا في بلاد يشرح الفقه في مصر

وكان تأليفه لشرح الشرائع في نيف وستين وتسعمائة.

الركن السادس

في الحوادث في الدنيا والدين
من هبوط آدم إلى هذا الحين

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وفرض عليهم الفرائض.

ومنها الصلاة ومن شرطها الطهارة، وهي: وضوء وغسل وتيمم. فالوضوء يجب للصلاة، والطواف الواجبين، ومس كتابة القرآن إن وجب.

ويجب الغسل بالجنابة والحيض والإستحاضة والنفاس ومس الأموات من الناس بعد بردهم بالموت وقبل الغسل. وغسل الأموات وكل الاغسال لابدّ معها من الوضوء إلّا الجنابة.

ويجب التيمم لما يجب له الطهارتان، وانما يجب عند فقد الماء أو تعذر إستعماله.

والواجبات من الصلاة تسع اليومية، وهي: الظهر والعصر والعشاء، وكل واحدة أربع ركعات في الحضر، ونصفها في السفر، والمغرب ثلاث فيهما، والصبح ركعتان فيهما.

وتجب الجمعة والعيدان والكسوف والزلزلة والآيات والطواف والأموات والمنذور وشبهه.

ومنها: الزكاة وتجب في تسعة لا غير في الأبل من خمسة إلى خمسة وعشرين في كل خمس شاة.

وفي ست وعشرين بنت مخاض، وهي التي دخلت في الثانية، أي أمها ماخض بمعنى حائل أو حامل.

وفي ست وثلاثين بنت لبون، وهي التي دخلت في الثالثة، أي أمها ذات لبن.

وفي ست وأربعين حقة، وهي التي دخلت في الرابعة فاستحقت الفحل، وفي إحدى وستين جذعة، وهي التي دخلت في الخامسة.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

وفي ست وسبعين بنتاً لبون، وفي إحدى وتسعين حقتان إلى مائة وإحدى وعشرين، ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين بنت لبون.

وفي البقر نصابان ثلاثون وفيه تبيع أو تبيعة، وهما ما دخلا في الثانية، وتبع قرنه اذنه أو اُمّه في المرعى.

ثم أربعون وفيه سنة، وهي التي دخلت في الثالثة.

وفي الغنم خمسة نصب: أربعون وفيه شاة. ثم مائة وإحدى وعشرون وفيه شاتان. ثم مائتان وواحدة وفيه ثلاث شياة. ثم ثلاثمائة وواحدة ففيه أربع على رأي. ثم اربعمائة ففي كل مائة شاة.

وفي الذهب عشرون مثقالاً وفيه نصف مثقال، ثم أربعة وفيه قيراطان. وفي الفضة مائتان درهم وفيه خمسة دراهم، ثم أربعون وفيه درهم.

وفي الغلات الأربع، وهي: الحنطة والشعير والتمر والزبيب، إذا ملكت بالزراعة وبلغت النصاب، وهو خمسة أوسق في كل واحد. والوسق ستون صاعاً، والصاع تسعة أرطال بالعراقي، يكون ألفاً ومائة وسبعين درهماً وستة بالمدني وهو أربعة أمداد، والمد رطلان وربع، فيكون النصاب ألفين وسبعمائة رطل بالعراقي، وهو مائة وثلاثون درهماً، وفيه العشر إن سقي سيحا أو بعلا أو عذبا، ونصف العشر إن سقي بالغرب والدوالي.

ومنها الخمس، ويجب في غنائم دار الحرب، والمعادن والكنز إذا بلغت قيمتهما عشرين ديناراً، وفي الغوص إذا بلغ ديناراً. وفي أرباح التجارات، إذا فضل منها عن مؤنة السنة. وفي أرض الذمي إذا اشتراها من مسلم وفي الحرام إذا اختلط بالحلال ولا يتميز.

ومنها الصوم ويجب في رمضان، والكفارات وبدل الهدي والنذر وشبهه، والاعتكاف الواجب وقضاء الواجب.

ومنها: الحج فالواجب منه باصل الشرع مرة واحدة على الفور، وإذا حصلت الاستطاعة وهي حجة الإسلام وغيرها، يجب بالنذر وشبهه وبالاستيجار والإفساد، فهذه بعد المعرفة.

والاقرار بالمعاد أفضل الفرائض التي فرضها الله على العباد، فمنهم من قبلها وقام بها، ومنهم من اختلف في بعض شروطها، ومنهم من انكرها وأبى قبولها كما أبى ابليس ان يسجد لآدم، وقال: أنا خير منه، وفعل ما فعل بآدم وحواء فأخرجهما من الجنة وهي أوّل الحوادث وأعظمها عليهما. ومن الحوادث قتل قابيل هابيل قال تعالى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[1]، من حيث انه هتك حرمة الدماء،

---

(١) سورة المائدة: ٣٢.

وسن القتل، وجرى الناس عليه أو من حيث ان قتل الواحد والجمع سواء في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم.

ومنها: اغراق قوم نوح حين دعا ربه **﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾**[1]، وهلك جميع العالم ولم يبق إلّا نوح وبنيه، لقوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾**[2].

ومنها: اهلاك قوم هود بالريح العقيم.

روي عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: أوحى الله عزّ وجل إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم منهم، فخرجت بغيركيل على مقدار منخر ثور، فكادت الأرض أن تخسف من شرقها إلى غربها، فقال الخزان: يا ربّ ومن يطيقها؟ فاوحى الله إليها إن أرجعي فأخرجي على قدر خرق الخاتم، فاهلكوا بها. وبها ينسف الله الجبال يوم القيامة، فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيا عوجاً ولا امتا.

ومنها: إهلاك ثمود قوم صالح لما عقروا الناقة، واقتسموا لحمها وولى فصيلها هارباً حتى صعد جبلاً، ثم رغا رغاءً تقطع منه قلوب القوم، فقال لهم صالح: **﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾**[3]، فلمّا كانت ليلة اليوم الرابع اتاهم جبرائيل نصف الليل، فصاح بهم صيحة أحرقت أسماعهم، وفلقت قلوبهم، وصدعت أكبادهم، فماتوا أجمعين، فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ومنها آية الخليل لما قال: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[4]، فأخذ طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة، وذبحها ونتف ريشها وقطعها وفرقها على أربعة جبال أو سبعة أو عشرة، ومسك رؤوسها ثم دعاهن تعالين باذن الله، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثاً، ثم أقبلن فانضمن إلى رؤوسهن.

ومنها اهلاك نمرود وجنوده بالبعوض حين رام الصعود إلى السماء، وأخذ التابوت وأربعة من النسور، فاجاعها أياماً وعلق فوقها لحما وربط التابوت إليها، فطارت بالتابوت وهو وزيره فيه، إلى

---

(١) سورة القمر: ١٠ ـ ١٣.

(٢) سورة الصافات: ٧٧.

(٣) سورة هود: ٦٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٠.

أن بلغت حيث شاء الله، وظن انه بلغ السماء ففتح باباً من أعلاه، فرأى بعد السماء منه كبعدها حين كان على الأرض، وفتح باباً من أسفله فرأى الأرض قد غابت عنه فهاله الأمر، فحول الخشبة التي علق فيها اللحم من فوق إلى تحت، فأخذت النسور تطلب اللحم لجوعها، وكادت الجبال ان تزول من شدة هوي النسور والتابوت، وهو قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ**﴾[1].

فلمّا عجز نمرود عن محاجة إبراهيم وعن الصعود إلى السماء، ركب في سبعمائة فارس وقال لإبراهيم: إن كان لربك ملكاً فليرسل عسكراً ليحارب معي وليأخذ الملك مني، فناجى إبراهيم ربه وقال: إلهي ان نمرود ركب في جنوده وينتظر عسكرك، فارسل إليه جنوداً من أضعف خلقك، فأمر الله تعالى جند البعوض ان تخرج من البحر، فخرجت حتى ملأت وجه الأرض وجو السماء، وسلطها عليهم فأكلت لحومهم وشربت دمائهم حتى لم تبق منهم أحداً.

ومنها: إهلاك قوم لوط روي أنّ جبرائيل عليه السلام ضرب بجناحه في طرف القرية فقلعها من تخوم الأرضين السابعة، ثم رفعها في الجو حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصراخ ديوكهم، ثم قلبها عليهم وهو قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾[2].

ومنها: إهلاك قوم شعيب مرة بالرجفة والصيحة، ومرة بعذاب يوم الظلة.

قال ابن عباس: أرسل الله عليهم حراً شديداً، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة، فتنادوا عليكم بها فخرجوا إلى البرية، فلمّا اجتمعوا تحت السحابة الهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد.

ومنها: لما غار النيل على عهد فرعون، فأتاه أهل مملكته فقالوا له: أجر لنا النيل؟ فقال: إني لم أرض عنكم، فذهبوا ثم أتوه، فقالوا له: تموت البهائم ونهلك، وإن لم تجر لنا النيل لنتخذن إلهاً غيرك، فخرج بهم وتنحى عنهم وألصق خده بالأرض، وقال: اللّهم إني خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى سيده، وإني أعلم أنه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك فأجره، فجرى النيل. فعرض له جبرائيل، فقال له: أيها الملك أعني على عبد لي، قال: فما قصته؟ قال: ملكته على عبيدي، وخولته مفاتيحي فعاداني وأحب من عاداني، وعادى من أحببت. قال: بئس العبد عبدك، لو كان لي لغرقته في بحر القلزم. قال: أكتب لي بذلك كتاباً وأختمه؟ ففعل ودفعه إليه. فلمّا كان يوم البحر أتاه بالكتاب. فقال له: خذ هذا ما حكمت به على نفسك.

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٦.

(٢) سورة الحجر: ٧٤.

ومنها: رجعة بني إسرائيل لما أختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا، روي أنّه تعالى أمره ان يأتيه في سبعين من بني اسرائيل، فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان؟ فتشاجروا، فقال: إن لمن قعد أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وذهب مع الباقين فلمّا دنوا من الجبل غشيته غمام، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً لله فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فاقبلوا إليه فقالوا: **﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾**(١)، فأخذتهم الرجفة، أي: الصاعقة، أو رجفة الجبل فصعقوا منها، ثم أحياهم الله له ما قال: **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾**(٢)، أي: ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية.

ومنها: نتق الجبل فوقهم كانه ظله أي غمامه وظنوا انه واقع بهم **﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾**(٣) قال لهم موسى عليه السلام: هذا كتاب الله ـ يعني التوراة ـ تقبلونه بما فيه؟ ففيه بيان ما حرم عليكم وأحل لكم. فقالوا: اتلو علينا ما فيها، فان كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها وإلّا فلا، فاوحى الله إلى الجبل فاقتلع وارتفع حتى كان بين رؤسهم وبين السماء، فقال لهم موسى ألا ترون ما يقول ربي، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لارمينكم بهذا الجبل فاجابوا إلى قبولها.

ومنها عبادتهم العجل الذي اتخذه السامري لهم من الحلي وألقى التراب الذي قبضه من أثر جبرائيل في فمه، فاحياه الله وقالوا هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا عليه يعبدونه فـ: **﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**(٤)، فجاء موسى من الميقات بعد أربعين يوماً وقال لهم: **﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾**(٥) فاغتسلوا ولبسوا اكفانهم، وجاء هارون باثنى عشر ألف ممن لم يعبد العجل ومعهم الشفار المرهفة(٦)، وكانوا يقتلونهم، فلمّا قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين.

ومنها: بغي قارون على قومه، ومنعه الزكاة وافترائه على موسى بهتاناً، فغضب موسى عليه السلام فدعا الله عليه فخسف به وبداره الأرض.

---

(١) سورة البقرة: ٥٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٥.

(٣) سورة البقرة: ٦٣.

(٤) سورة طه: ٩٠ ـ ٩١.

(٥) سورة البقرة: ٥٤.

(٦) الشفار جمع الشفرة: السكين العظيمة العريضة. سيف مرهف: محدد مرقق الحد.

ومنها: بقرة بني إسرائيل وذبحها، وسبب ذلك انه كان فيهم اخوان فقيران، وكان لهما عم غني يقال له عاميل، فاجمعا على قتله لأجل ميراثه فقتلاه بين قريتين، وطلبا من القريتين ديته فوقعت الخصومة بين أهل القريتين، فاتوا إلى موسى وقالوا له ادع لنا ربك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[١] فذبحوها وضرب موسى القتيل بلسان البقرة فاحياه الله، وقال قتلني ابنا أخي.

ومنها: اهلاك العوج بن عناق وعمره أربعة آلاف سنة وخمسمائة سنة، وكان طويل القامة حتى ان ماء الطوفان في وقت نوح عليه السلام لم يتجاوز ركبته، ويقال: إنّه كان يأخذ السمكة ويشويها في عين الشمس، وإذا غضب على أهل بلد بال عليهم ففرقوا في بوله. فلمّا دخل موسى في التيه قصد إليه العوج ليهلكه، وقلع صخرة طولها فرسخا في فرسخ وحملها على رأسه ليلقيها على موسى وقومه، فارسل الله هدهداً بحديدة الماس فنقر بها الصخرة فوقعت في عنقه، ولم يقدر على ازالتها، فجاء موسى عليه السلام وضربه بعصاه فقتله.

ومنها انزال المن والسلوى على بني إسرائيل لما ابتلاهم الله بالتيه، إذ قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٢] حين أمرهم بحرب العمالقة، وبقوا تائهين في التيه أربعين سنة وندموا. فالطف الله لهم بالغمام لما شكوا حرّ الشمس، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأخرج لهم من حجر اثنى عشر عيناً، وأنزل لهم عمود من نور يضئ عليهم في الليل، وإذا ولد فيهم مولود يكون له ثوب من جلد يطول بطوله. فلمّا توفي موسى وهارون في التيه، خرج بهم يوشع بن نون ونزل على قرية الجبارين، وصوت حولها بالقرون[٣] فانهدمت أسوارها وأخذها بالسيف.

ومنها: أمر الخضر، وحياة الحوت، وذهابه في الماء، وشربه من ذلك الماء، وطول عمره، وكان لا يجلس على خشبة يابسة ولا على أرض بيضاء إلّا ظهرت خضراء، وانما سمي خضرا لذلك، وكان اسمه الياس بن ملكان بن عامر بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

ومنها: أمر سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾[٤] إلى الأرض التي باركنا فيها ـ وهي أرض الشام ـ لانها كانت مأواه، وكان يسكن بعلبك ويبنى له في بيت المقدّس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها، وكان يخرج إلى مجلسه فتعكف عليه الطير، وتقوم له الانس والجن حتى يجلس على سريره، ويجتمع مع جنوده ثم تحمله الريح إلى حيث أراد.

---

(١) سورة البقرة: ٦٧.

(٢) سورة المائدة: ٢٤.

(٣) يعني الأبواق.

(٤) سورة ص: ٣٦.

ومنها: التقام الحوت ليونس بن متي عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

ومنها: قتل يحيى بن زكريا ولم يزل دمه يغلي مدة من الزمان حتى قتل ملك بابل من بني إسرائيل الوفاً فهدأ باذن الله.

ومنها: انزال المائدة على عيسى وقومه، وانشقاق القمر لمحمّد صلى الله عليه وآله، وعلى جميع الأنبياء.

ومنها: انه كان سبعة حكام في وقت سبعة من الأنبياء، القربان كان حاكم آدم عليه السلام فمتى أحترق قربانه علم انه محق ومن لم يحترق قربانه علم انه مبطل.

والسفينة كانت حاكم نوح عليه السلام، من وضع يده عليها فلم تتحرك علم انه محق، ومن تحركت علم انه مبطل.

والنار كانت حاكم إبراهيم عليه السلام، من وضع يده عليها فلم تحترق علم انه محق، ومن احترقت علم انه مبطل.

والصاع كان حاكم يوسف عليه السلام من وضع يده عليه فمسكت الصاع علم انه محق، ومن صاح علم انه مبطل.

والسلسلة كانت حاكم داود عليه السلام، من وصلتها يده علم انه محق، ومن لم تصل علم انه مبطل.

والحفرة كانت حاكم سليمان عليه السلام، من وضع رجله فيها فلم تأخذها الحفرة علم انه محق، ومن اخذتها علم انه مبطل.

وقلم من حديد كان حاكم زكريا عليه السلام، كانوا يكتبون اسم الخصم على القلم ويلقونه في الماء، فاذا جرى القلم على الماء علم انه محق، وإذا رسب علم انه مبطل.

فلمّا بلغت النبوة إلى محمّد صلى الله عليه وآله قال البينة للمدعي، واليمين على المنكر. كيلا يهتك ستر من كان كاذباً من أمته رحمة من الله لهم.

ومنها: انه كان ببابل سبع مدائن في كل مدينة عجيبة، كان في الأُولى قاضيان جالسان على الماء، يأتي الخصمان فيمشي المحق على الماء ويجلس معهما، ويغرق المبطل.

وفي الثانية: تمثال إذا امتنع عن الملك بعض الرعية وخرجوا عن طاعته خرق عليهم الأنهار بالتمثال، فلا يطيقون سد الماء حتى يعتدلوا ويسد بالتمثال.

وفي الثالثة: حوض إذا أراد الملك ان يجمعهم لطاعته، أتى كل واحد بما أحب من شراب، فصبه في ذلك الحوض، فاختلطت الاشربة، فكل من شرب كان شرابه الذي جاء به.

---

(١) سورة الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤.

وفي الرابعة: طبل إذا أرادوا ان يعرفوا حال الغائب عن أهله ضربوه، فان كان حيّاً صوت وإلّا لم يسمع له صوت.

وفي الخامسة: مرآة إذا أرادوا ان يعرفوا حال الغائب نظروا فيها فوجوده على الحالة التي هو فيها كانهم يشاهدونه.

وفي السادسة: اوزة من نحاس إذا دخل المدينة غريب صاحت صوتاً يسمعه كل أهل المدينة.

وفي السابعة: شجرة عظيمة لا تضل إلّا ساقها، فإذا جلس تحتها واحد اظلته، فإذا جاء آخر زاد الظل بمقداره وهكذا إلى الألف، فإذا زادوا واحدا جلس الجميع في الشمس.

ومنها: ما ذكره صاحب كتاب سير الملوك: إن في بلاد المغرب أمّة من بني آدم، كلهم نساء لا يعيش في أرضم ذكر، وانهن يدخلن في ماء هناك فيحملن وتلد كل امرأة انثى، ولا يولد لهم ذكر.

ومنها: ما ذكره صاحب كتاب تحفة الألباب: إن في بلاد السودان أمّة لا رؤوس لهم، ولهم أعين في مناكبهم، وأفواه في صدورهم، وهم أمم يتناسلون.

ومنها ما ذكره الشافعي قال: دخلت بلاد اليمن فرأيت إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن امرأة، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان، بأربع أيدي، ورأسين ووجهين، وهما يتقاتلان، ويتلاطمان، ويصطلحان، ويأكلان، ويشربان، ثم غبت عنهما سنين فرجعت، فقال لي احدهما أحسن الله عزاءك في بعض جسدي، توفي وربط من اسفله بحبل وثيق حتى ذبل ثم قطع، فعهدت بالجسد الآخر ذاهباً في السوق.

ومنها: ما روي في الفقيه عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر البزنطي، عن أبي جميلة، قال: رأيت بفارس امرأة لها رأسان وصدران في حقو واحد، تغار هذه على هذه، وهذه على هذه.

ومنها: ما قدمناه انه بعث إلى المقتدر من مصر هدايا فيها تيس له ضرع يحلب منه اللبن، وورد عليه هدايا من عمان فيها طائر صيني أسود يتكلم بالهندية والفارسية أفصح من بني آدم.

وأخبر ان بغلة ولدت فلوه[1].

ومنها: انه اهدى إلى نوح بن منصور الساماني فرس له قرنان، وثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما، وإذا بعد الصقهما بالجنب.

ودجاجة برأسين، ودجاجة بأربعة أرجل.

ومنها: انه سقط بأرض خوزستان من الجو جسم كقطعة حديد قدر خمسين مناً مثل حبات

---

(١) الفلو، بكسر الفاء وسكون اللام: المهر الصغير. والانثى فلوة.

الجاورس[١] المنضم، فارادوا كسرها فلم يعمل فيها الحديد.

ومنها: ما حكي الجاحظ انه نشأت سحابة بأيذج ـ وهي مدينة بين اصفهان وخوزستان ـ ثم دفعت باشد مطر حتى استسلموا الغرق، ثم دفعت بالضفادع والشبابيط العظام السمان ـ والشبوط نوع من السمك ـ فأكلوا وملحوا وادخروا منها شيئاً كثيراً.

ومنها: ان رجلاً أراد ان يسافر وزوجته حامل فتوضأ وصلى ركعتين ورفع يديه إلى السماء وقال: إلهي أودعت الولد الذي في بطن زوجتي عندك فرده إليّ سالماً إذا رجعت، ثم خرج إلى السفر ومكث فيه تسعة أشهر ثم رجع، فوجد زوجته قد ماتت بعد فراقه لها بأيام قلائل، فذهب إلى زيارة قبرها فعانقه وبكى كثيراً، فسمع صوت صبي من قبرها، فكشفه فرأى زوجته قد بليت أجسادها، وتفسخت أعضاؤها، وما بقي سوى ثديها، والصبي يرضع منه، فرفعه وقال: إلهي مننت عليّ برد ولدي، فلو رددت زوجتي لعظمت منتك عليّ؟ فسمع هاتفاً يقول أودعت ولدك عند الله فردّه إليك، فلو أودعت زوجتك لردّها إليك.

ومنها: ما ذكره ابن خلكان: أنّ مروان بن محمّد لمّا حاصر تدمر فظفر بها، وهدم سورها أفضى إلى جرن[٢] طويل فلم يشك أنّ تحته كنزاً فنبشوه، فإذا امرأة مسجاة على قفاها على سرير من حجر، عظيمة الخلقة، شعرها من رأسها إلى رجليها، وطولها سبعة أذرع، وطول قدمها طول عظم ساقها، وعليها سبعون حلة منسوجة بالذهب، وعند رأسها صحيفة من نحاس، مكتوب عليها بالحميرية. فاحضر من قرأه فإذا فيه: أنا تدمر بنت أذينة بن السميدع بن هرم العماليقي، من دخل علي بيتي هذا فأزعجني منه حتى يراني، أدخل الله عليه المهانة والذل والصغار، فعظم عليه وندم واسترجع، وما كان بين ذلك وبين قتله واستباحة حريمه إلّا القليل.

ومنها: ما ذكره صاحب كتاب تحفة العجائب، في كتابه قال: حدثني رجل من اصفهان أنّه ركبته ديون ونفقة عيال عجز عنها، فركب البحر مع تجّار، قال: فتلاطمت بنا الأمواج حتى حصلنا في الدردور[٣] ببحر فارس المشهور، فاجتمع التجار إلى المعلم، وقالوا له: هل تعرف لنا حيلة؟ فقال: يا قوم إنّ هذا دردور لا يخرج منه مركب إلّا ما شاء الله، فإن سمح أحدكم بنفسه لأصحابه وأنا أبذل

---

(١) الجاورس: حب يشبه الذرة وهو أصغر منها، وقيل: نوع من الدخن (المصباح المنير: ٩٧).

(٢) الجرن: بضم الجيم وسكون الراء، هو البيدر وهو الموضع الذي يجمع فيه التمر والطعام ويداس فيه الطعام.

(٣) دردور: موضع في سواحل بحر عمان مضيق بين جبلين يسلكه الصغار من السفن معجم البلدان للحموي: ٢/٤٥٠.

جهدي ولعل الله يخلصنا، فقلت: يا قوم نحن كلنا في معرض الهلاك، وأنا رجل سئمت من الشقاء، وكنت أتمنى الموت فاحلفوا لي أنّكم تقضون ديوني وتحسنون إلى أولادي، وأنا أفديكم بنفسي، فحلفوا لي أيماناً مغلظة على ما شرطت عليهم، فقلت للمعلم: بماذا تأمرني؟ قال: أن تقف على هذه الجزيرة ـ وكان هناك جزيرة مسيرة ستة أيام بلياليها ـ، ولا تفتر عن الضرب بهذا الدهل، وأعطوْني من الماء والزاد ما يكفيني أياماً، فوقفت طرف الجزيرة وشرعت في ضرب الدهل، فرأيت الماء تحرك وجرى المركب حتى غاب عن بصري، وذلك أنّهم أخذوا أمواتاً من مراكب هناك وربطوها بحبال وألقوها في البحر، وربطوا الحبال في المركب فالتقمتها دواب البحر، فلمّا ضرب الدهل هربت على جهة واحدة والحبال في أفواهها فجرت المركب.

قال: فجعلت أتردّد في الجزيرة فإذا أنا بشجرة عظيمة وعليها سطح غليظ فصعدتها، فلمّا كان آخر النهار أحسست بهدير شديد، فإذا طائر عظيم جاء ووقع على سطح تلك الشجرة، فاختبئت منه مخافة أن يصطادني إلى أن بدأ ضوء الصباح فنفض جناحيه وطار، فلمّا كانت الليلة الثانية عاد ووقع على عشّه وكنت آيساً من حياتي، ورضيت بالهلاك ودنوت منه فلم يتعرض لي بشيء وطار مصبحاً، فلمّا كان الليلة الثالثة قعدت من غير دهشة إلى أن نفض جناحيه عند الفجر، فتمسّكت في رجله فطار بي أسرع طيران إلى أن ارتفع النهار، فنظرت نحو الأرض فلم أرى إلّا لجّة ماء، فكدت أترك رجله من شدّة ما نالني من الوجع، فحملت نفسي على الصبر إلى أن رأيت الأرض والقرى والعمارات، فدنى من الأرض وتركني على صبرة تبن في بيدر، والناس ينظرون إليّ، وغاب عنّي واجتمع الناس عليّ وحملوني إلى رأيسهم وأحضروا رجلاً يفهم كلامي، وقالوا: من أنت؟ فأخبرتهم بحديثي كلّه، فتعجبوا منه وتبرّكوا بيّ، وأمر لي الرئيس بمال، وأقمت عندهم أياماً، فمشيت نحو البحر يوماً للتفرج وإذا أنا بمركب أصحابي قد وصل، فلمّا رأوني أسرعوا إليّ مسائلين عن حالي، فقلت لهم: إنّي بذلت نفسي لله فأنقذني بطريق عجيب، وجعلني آية للناس ورزقني المال وأوصلني إلى القصد قبلكم.

ومن الحوادث دعوى الربوبية: وأوّل من تجبّر وادعاها النمرود، وقال: أنا أحي وأميت، وقصد السماء فلم يقدر على الصعود. ثم ادعاها فرعون، وقال: أنا ربّكم الأعلى، وقال لموسى: لأن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. ثم ادعاها دقيانوس الملك، ومنه هربت الفتية إلى الكهف.

ومنها دعوى النبوة: وادعاها في دولة الفرس زرادشت صاحب كتاب المجوس. ثم ادعاها فيهم ماني الزنديق، وقال: بإله النور وإله الظلمة، وتبعه خلق كثير. ثم ادعاها فيهم مزدل الزنديق، وأمر

الناس بالتساوي في الأموال والاشتراك في النساء واطاعه قباد، وعظم ذلك على الناس وبقي إلى ان قتله انوشيروان. ثم ادعاها في العرب الأسود العنسي واسمه عيهلة بن كعب ولقبه ذو الخمار؛ لانه كان يقول يأتيني ذو خمار، وكان يشعبذ ويري الجهال الأعاجيب، وسلب عقولهم بمنطقه، وكان قد أسلم ثم ارتد، وكاتبه أهل نجران وسار منها إلى صنعاء فملكها واستفحل أمره، وكان حليفه في مدحج عمرو بن معدي كرب الزبيدي فبعث رسول الله ﷺ إلى الانبار ان يستعينوا على قتله برجال من حمير وهمدان.

فاجتمعوا بقيس بن يغوث فوافقهم هو وامرأة الأسود العنسي على قتله، فانه كان قتل أباها، فنقبوا عليه البيت ودخل إليه رجل اسمه فيروز فقتله واحتز رأسه، فخار فقامت الحرس. فقالت لهم زوجته ان الوحى نزل عليه فسكتوا، فلمّا أصبح الصباح اذن المؤذن ان محمّداً رسول الله، وان عيهلة كذاب، فاعلم الله نبيّه بذلك وهو في مرضه، فأخبر الناس بقتل الأسود ساعة قُتل قبل موت النبي ﷺ بيوم وليلة، وكان أول ظهور الأسود في ذي الحجة سنة عشر.

ثم ادعاها مسيلمة الكذاب في عهد رسول الله ﷺ، وبقي إلى عهد أبي بكر فجهز إليه أبو بكر جيشاً وأمر عليهم خالد بن الوليد، وجرى قتال شديد ثم قتل مسيلمة، قتله وحشي قاتل حمزة بالحربة التي قتل بها حمزة.

وفي أيام أبي بكر ادعت سجاح بنت الحرث بن سويد التميمية النبوة، وأطاعها بنو تميم وأخوالها من تغلب، وكانت قد قصدت مسيلمة وباتت عنده ثلاث ليال يزني بها، ولم تزل في أخوالها بني تغلب حتى أتت معاوية عاما بويع فيه فاسلمت.

وفي سنة إحدى وستين ومائة ظهر عطاء المقنع الساحر الملعون وادعى النبوّة، واستغوى خلائق وأرى الناس قمراً ثانياً في السماء، يرى من مسيرة شهرين. ثم ادعى الربوبية فقتل في أيام المهدي بقلعة بناها بما وراء النهر.

وفي أيام الرشيد رجل ادعى النبوة فطلبه الرشيد، وقال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: نبي كريم، قال: فأي شيء من دلائلك؟ قال: سل عما شئت؟ قال: أريد ان تجعل هذه المماليك المرد بلحاء؟ فقال: لا يحل لي ان أغير هذا الشكل الحسن، وانما أجعل هؤلاء أصحاب لحاء مردا في ساعة واحدة، فضحك الرشيد وعفى عنه. وفي أيام المأمون ادعى رجل النبوة وله خبر معه تقدم في فصله. وادعاها آخر في أيامه فطالبوه بمعجزة، فقال: أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب فقالوا رضينا، فأخرج حصاة كانت معه وطرحها في الماء فذابت، فقالوا هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة ودعها تذوب، فقال: لستم أضل من فرعون ولا أنا أعظم معجزة من موسى، إذ لم يقل فرعون

لموسى لم أرض بما فعلته بعصاك حتى اعطيك عصى من عندي تجعلها ثعباناً، فضحك المأمون وأجازه.

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين ظهر رجل بسامراء يقال له: محمود بن فرج وادعى النبوة وانه ذو القرنين، وتبعه سبعة وعشرون رجلاً، فاتى به إلى المتوكل فأمر أصحابه ان يصفعوه، فصفعه كل واحد منهم عشر صفعات وضربه حتى مات وحبس أصحابه.

وفي أيام المطيع لله ادعى المتنبي الشاعر النبوة في برية اليمامة، وتبعه خلق من كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ نائب الاخشيدية بحمص فاسره وحبسه زماناً ثم استتابه.

وذكر المفيد من جملة علامات قيام القائم المهدي عليه السلام خروج ستين كذاباً كلهم يدعي النبوة، وخروج اثنى عشر من آل أبي طالب كلهم يدعي الإمامة لنفسه، وساذكرهم واحداً بعد واحد هنا، وذكرتهم بالتفصيل في أوقاتهم التي ظهروا فيها.

فأقول: ومن الحوادث دعوى الإمامة قيل ادعاها محمّد بن الحنفية رضي الله عنه بعد قتل أخيه الحسين عليه السلام، وقال جماعة بإمامته ورجع عن ذلك، وقال بإمامة ابن أخيه علي بن الحسين عليه السلام، وقيل لم يرجع وأوصى بها إلى ولده أبي هاشم، واعطاها أبو هاشم إلى محمّد بن علي بن عبدالله ابن العباس على ما تقدم في فصل السفاح.

وادعاها زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وظهر بالكوفة في أيام هشام بن عبدالملك بن مروان سنة اثنين وعشرين ومائة، فقتل وصلب بالكوفة.

وادعاها ابنه يحيى بن زيد وظهر بخراسان في أيام الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان، فقتل وصلب بخراسان.

وادعاها محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وظهر بالمدينة في أيام المنصور سنة خمس وأربعين ومائة، فقتل بالمدينة وحمل رأسه إلى المنصور بالكوفة.

وادعاها إبراهيم أخو محمّد بن عبدالله، وظهر بالبصرة سنة خمس وأربعين ومائة، وسار بمائة ألف إلى المنصور فجهز إليه المنصور الجيوش فقتلوه في سواد الكوفة، وحمل رأسه إلى المنصور.

وادعاها الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وظهر بالمدينة في أيام الهادي بن المهدي بن المنصور سنة تسع وستين ومائة، وقوي أمره وأخذ مكة فقاتله من كان حاجاً من العباسيين فقتل الحسين بفخ، وحمل رأسه ورؤوس جماعة من أهل بيته إلى الهادي.

وادعاها يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وظهر بالديلم في أيام الرشيد سنة ست وسبعين ومائة، واشتدت شوكته فجهز الرشيد إليه الفضل بن يحيى البرمكي

في جيش عظيم فصالحه واحضره إلى الرشيد فأكرمه، ثم أمسكه وحبسه ومات في الحبس.

وادعاها محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام المعروف بابن طباطبا، وظهر بالكوفة في أيام المأمون، وقيل كان يدعوا إلى الرضا من آل محمّد عليهم السلام والعمل بالكتاب والسنة، وقوي أمره ثم مات.

وقام مكانه محمّد بن محمّد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وقتل ونهب ومات.

وادعاها عبدالله الأفطح بن جعفر الصادق عليه السلام، وقال جماعة بإمامته ثم مات.

وقال جماعة بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد موته.

وادعاها إبراهيم المجاب بن موسى الكاظم عليه السلام وظهر في أيام المأمون بالجزيرة واستولى عليها، وكان يسمى بالجزّار لكثرة من قتل وسبى، ثم مات ودفن في مشهد الحسين عليه السلام.

وادعاها زيد النار بن موسى الكاظم عليه السلام وظهر في أيام المأمون بالبصرة، وفتك وحرق وأحضر إلى المأمون، فقال له: يا زيد حرقت دورنا قبل دور بني أُميّة؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إذا خرجت مرة أخرى، أحرق دور بني أميّة قبل دوركم، فقال له: أوهبت دمك لأئخيك الرضا.

وادعاها عمر بن يحيى بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وظهر بالكوفة أيام المستعين سنة خمسين ومائتين وكثر جمعه، ثم قتل وحمل رأسه إلى المستعين.

وادعاها الحسين بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وظهر بطبرستان في أيام المستعين، وكثر جمعه وملك طبرستان وجرجان ومات بعد سنين.

وادعاها محمّد بن عبدالله بن تومرت العلوي الحسيني، فظهر في أيام المسترشد بالله سنة أربع عشرة وخمسمائة، وعظم أمره وأقبلت عليه القبائل يبايعونه على أنّه المهدي الموعود به، قيل أنّه قتل سبعين ألفاً بالحيلة ومات بعد عشر سنين.

وادعاها أربعة عشر رجل من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام، وتخلفوا بالمغرب مائتين واثنين وسبعين سنة وهم الفاطميون.

وفي سنة ثمان عشرة وقيل في التي قبلها حصل بالمدينة قحط عظيم، وبالحجاز أيضاً، فارسل عمر إلى سائر الامصار يستعينهم، فجاء أبو عبيدة من الشام بأربعة آلاف راحلة من الزاد، ولمّا اشتد القحط استسقى المسلمون وعمر بالعباس، فسقوا وجعل الناس يتمسحون باذيال العباس.

وفيها: كان طاعون عمواس[1] بالشام مات فيه أبو عبيدة بن الجراح الفهري أحد العشرة، واستخلف عمر مكانه بالشام معاذ بن جبل فمات أيضاً بالطاعون، واستخلف عمر مكانه عمرو بن العاص، ومكث الطاعون شهراً، ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً، وكان في البصرة مثله.

وفي سنة تسع وعشرين عزل عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط عن الكوفة، بسبب أنّه شرب الخمر وصلى بالمسلمين الصبح أربعاً، ثم التفت فقال: هل أزيدكم؟ فقال عبدالله بن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم.

وذكر المسعودي أنّ معاوية صلى بأهل الشام عند مسيرهم إلى صفين صلاة الجمعة يوم الأربعاء.

وفي سنة ثلاثين نسخ عثمان المصاحف لمّا بلغه ما وقع من الاختلاف في القرآن.

وفي سنة أربعين قتل اللعين عدو الرحمن بن ملجم، وأحرق بالنار وغضب عليه الجبار، ووكّل به طائر يقتله فى كل يوم قتلة، على ما روي في مناقب الخوارزمي، وشرح طوق الحمامة.

وفي سنة تسع وستين كان الطاعون الخارق بالبصرة، كان ثلاثة أيام مات في كل يوم سبعون ألفاً، وأصبح الناس في اليوم الرابع ولم يبق منهم إلّا اليسير.

وفي سنة تسع وسبعين أصاب أهل الشام طاعون كادوا يفنون لشدته.

وفي سنة سبع وأربعين ومائة تناثرت النجوم.

وفي سنة خمس وسبعين ومائة وقيل سنة سبع وسبعين ومائة هاجت الفتنة والأهواء بين القيسية واليمانية ورأس القيسية أبي الهيذام، وقتل بينهم خلق كثير.

وفي سنة ثمانين ومائة كانت الزلزلة التي وقعت فيها منارة الاسكندرية.

وفي سنة خمس وثمانين ومائة وقعت في المسجد الحرام صاعقة قتلت رجلين.

وفي سنة اثنين ومائتين في ذي الحجة كانت بخراسان زلازل عظيمة أقامت سبعين يوماً، وهلك فيها خلق عظيم وبلاد كثيرة.

وفي سنة سبع عشرة ومائتين كان الحريق العظيم بالبصرة حتى أتى على أكثرها.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كانت زلزلة بدمشق عظيمة دامت ثلاث ساعات، مات فيها تحت الردم خلق، وامتدت إلى انطاكية، فقيل مات من أهلها عشرون ألفاً، وامتدت إلى الموصل، فقيل مات من أهلها خمسون ألفاً.

---

(١) عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس [معجم البلدان: ١٥٧/٤].

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين أمر المتوكل بهدم قبر الحسين عليه السلام فهدم، وطيف بالماء فحار الماء حول القبر ـ فسمي الحائر ـ، وكان كثير البغض في علي بن أبي طالب عليه السلام، ومنع القول بخلق القرآن.

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين تحركت القرامطة بسواد الكوفة، استزل عقلهم شخص اسمه كرميته[1] ثم خفّفوه فقالوا: قرمط، أحدث لهم ديناً ودعاهم إليه، وغيّر الصلاة والأذان والصيام، وأباح الخمر، ورفع غسل الجنابة.

وفي سنة ثمان وثمانين ومائتين كان وباء مفرط بآذربيجان، حتى فقدت الأكفان وكفّنوا في اللبود[2].

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين أخذت القرامطة حجاج العراق وقتلوهم عن آخرهم، وبلغت عدّة القتلى عشرين ألفاً.

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة دخل أبو ظاهر القرمطي يوم التروية إلى مكة، ونهب الحجاج وقتلهم حتى في المسجد الحرام، ودخل الكعبة وقلع الحجر الأسود ونقله إلى هجر، ومكث الحجر عندهم في هجر اثنين وعشرين سنة، وقتل أمير مكة وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط ومات، وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا، وقسّم كسوة البيت بين أصحابه.

وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بسبب تفسير قوله تعالى: **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾**[3] ودخلت فيها الحنابلة والعامّة، وقتل فيها قتلى كثيرة، من ذلك أنّ الحنابلة قالوا ـ وكبيرهم المروزي ـ: معنى الآية أنّ الله تعالى يقعد النبي صلى الله عليه وآله على العرش، وقال غيرهم: إنّما هي الشفاعة، وهو قول أكثر أهل التأويل.

وفي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة كان غلاء عظيم ببغداد.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة كان بالشام غلاء عظيم لم يسمع بمثله، وأكلت الحمر والقطاط والصبيان.

---

(١) في المخطوط (كريب)، وما اثبتناه هو الصحيح انظر: الكامل في التاريخ ٣٤١/٣، المختصر في أخبار البشر ١٨٥/١.

(٢) اللبود: جمع اللبد ـ بالكسر ـ: البساط من صوف وما يجعل على ظهر الفرس.

(٣) سورة الإسراء: ٧٩.

وفي سنة ست وأربعين وثلاثمائة نقص البحر ثمانين باعاً فظهر فيه جزائر وجبال.

وفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة انقطع القطر وغلاء السعر في كثير من البلاد.

وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة أخذ السيل جامع مصر واثقالهم ليلاً وهم في العود.

وفي سنة خمسين وثلاثمائة ولي قضاء بغداد ابن أبي الشوارب وألزم كل سنة بمائتي ألف درهم، فقيل في ذلك:

مــدل الدولة بــن بــويه يــقضي ... له ابــن أبــي الشــوارب بــالضمان

تــصرم مــلك ذا وقــضاء هــذا ... وصــارت ســنة طــول الزمــان

وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ذكر ابن الأثير أنّه خرج من البحر طائر وصاح بصوت عال قد قرب، ثلاث مرات ثم غاص في البحر، فعل ذلك ثلاث مرات وغاب ولم يعد.

وفي سنة اثنين وأربعمائة أمر فخر الملك والي العراق بعمل المأتم يوم عاشوراء.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة نشأت بأفريقية سحابة شديدة الرعد والبرق وأمطرت حجارة كبيرة وأهلكت كل من أصابته.

وفي سنة ثمان عشرة وأربعمائة وقع بالعراق برد[1] كبار، وزن كل بردة رطل ورطلان بالبغدادي وأصغره كالبيضة.

وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة كان بالعراق غلاء عظيم حتى أكلت الميتة وخلت الأسواق.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وقعت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد.

وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وقعت أيضاً فتنة بين السنة والشيعة ببغداد، وأحرق فيها ضريح موسى الكاظم عليه السلام، وقبر زبيدة أم الأمين وقبور ملوك بني بويه، وقتل مدرّس الحنفية أبو سعيد السردي قتلته الشيعة وأحرقوا دور الفقهاء. وظهر كوكب له ذؤابة على نوره على نور الشمس، وسار سيراً بطيئاً ثم انقض.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة زلزلت خوزستان زلزلة عظيمة أنفرج لها جبل كبير قريب من أرجان.

ومن العجائب وقوع زلزلة بقيت شهراً أو أكثر وقد شوهد ذلك بنيسابور والري، وشوهد في هذه الزلزلة سطح أنشق حتى كانت ترى الكواكب من جوانبه، ثم عاد إلى محله ولم يظهر عليه أثر الشق.

وفيها افتتن السنة والشيعة ببغداد وكتبت الشيعة على مساجدهم محمّد وعلي خير البشر ثم

---

(١) والبرد: هي سحاب كالجمود سمي بذلك لشدة برده. لسان العرب: ٨٤/٣.

كتبوا على أبواب الدور شتم معاوية ويزيد.

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة وقعت أيضاً فتنة بين الشافعية والحنابلة ببغداد، أنكروا على الشافعية الجهر بالبسملة، والقنوت في الصبح، والترجيع في الأذان.

وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة اتفقت غريبة وهو أنّه شاع ببغداد والعراق وكثير من البلدان، أنّ جماعة من الأتراك خرجوا للصيد فرأوا في البرية خيماً سوداء، وسمعوا فيها لطماً شديداً وعويلاً طويلاً، وقائلاً يقول: مات سيدوك ملك الجن، وأي بلد لم يلطم أهله قطع أصله، فخرج جماعة من النساء وسفلة الرجال إلى المقابر ولطموا.

قال ابن الأثير: ولقد جرى وأنا بالموصل وغيرها بتلك البلاد في سنة ستمائة مثل هذا، وهو أنّ الناس أصابهم وجع في حلوقهم، فشاع أنّ امرأة من الجن يقال لها: أم عنقود مات ابنها عنقود، وكل من لا يعزّيها يصيبه هذا المرض، فجعل النساء وأوباش الناس يلطمون ويقولون: يا أم عنقود اعذرينا، [قد مات عنقود] ما درينا[1].

قال صاحب روض المناظر: بلغني أنّه جرى نظير ذلك بمصر وهو أنّه في أوّل الدولة الظاهرية، أصاب الناس وجع في حلوقهم، فجعلوا يطبخون العصيدة ويلقونها في النيل، ويقولون يا أم حلقوم اعذري نائحات حلقوم وما درينا.

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة كان الغلاء والوباء بغالب البلاد خصوصاً حلب، ولم يكن ذلك بالروم، فسبحان من دقت حكمته عن الأفهام.

وفي الحديث «خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلّا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم القطر»[2].

وفي سنة ستين وأربعمائة كانت بمصر وفلسطين زلزلة عظيمة طلع فيها الماء إلى رؤوس الآبار، وهلك بالروم خلق كثير، وزال البحر عن مكانه مسيرة يوم، حتى نزل الناس إلى أرضه يلتقطون فعاد عليهم وأهلك خلق كثيراً.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة وقعت فتنه عظيمة بين المغاربة والمشارقة بدمشق، فأحرقت دار جوار الجامع الأموي، فاتصلت النار بالجامع وعظمت فدثرت محاسنه، وزالت تلك

---

(١) الكامل في التاريخ: ٢٩١/٤، وما بين المعقوفين اضفناه من المصدر.

(٢) بحار الأنوار: ٣٧٠/٧٠، المعجم الكبير للطبراني: ٢٥٧/٩.

الأعمال النفيسة.

وفي سنة اثنين وستين وأربعمائة حصل بمصر غلاء شديد حتى أكلت الناس بعضهم بعضاً، وأنفق خليفة مصر المستنصر العلوي ثمانين ألف قطعة بلور، ومثلها ديباج، وعشرين ألف سيف محلى.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة جمع ملك شاه السلجوقي بنظام الملك والمنجمين ونقل النيروز من نصف الحوت إلى أوّل الحمل.

وفي سنة سبعين وأربعمائة كانت ضجّة كبيرة ببغداد بسبب الاعتقاد، ووقع النهب في البلد فركب العسكر وقتلوا جماعة حتى سكنت.

وفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة هبت ريح عظيمة سوداء كالليل ببغداد وقت العصر، وتتابع الرعد والبرق، ووقعت عدّة صواعق وبقي النهار ليلاً بهما، وسقط رمل بدل المطر، وظنّ الناس أنّها الساعة، فدام ذلك إلى المغرب، وشاهد ذلك أبو بكر الطرسوسي وذكره في أماليه، وقاله الذهبي في تاريخه الصغير.

وفي سنة ثلاثة عشر وخمسمائة ظهر قبر الخليل وولديه إسحاق ويعقوب عليهم السلام في الخليل، بالقرب من بيت المقدس، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم، وعندهم في المغارة قناديل من ذهب وفضة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة توالت الزلازل بالشام لا سيّما حلب، خرج أهلها إلى الصحراء من رابع صفر إلى تاسع عشره.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة كان الغلاء العظيم بالمغرب ثم عمّ الغلاء المشارق والمغارب.

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة أخذت العرب الحجاج بين الحرمين فلم يسلم منهم إلّا القليل.

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة جاءت زلازل عظيمة بالشام خربت بها شيزر وحماة وحمص وحصن الأكراد وطرابلس وانطاكية، ووقعت القلاع والأسواق، وهلكت تحت الهدم ما لا يحصى. قال السلطان عماد الدين: كان بمدينة حماة آنذاك كتّاب فسقط على جميع الصبيان وكان الفقيه غائباً، فقال الفقيه: مات كل من في الكتاب، ولم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له. وكان صاحب شيزر قد ختن ولداً له، وجمع في داره بني منقذ كلهم، فلمّا جاءت الزلزلة وقع البيت عليهم أجمعين، ولم ينج منهم أحد إلّا شخص خرج إلى الباب فضربته فرس فقتلته.

وفيها قلع المقتفي الخليفة ببغداد باب الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب تابوتاً يدفن فيه.

وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة كان بمصر غلاء شديد، وبالشام زلزلة عظيمة، قال الذهبي: وما ظنّ الناس إلّا أنّها القيامة، جاءت دفعتين دامت الواحدة مقدار ساعة وأزيد، وقيل أنّ صفد لم يسلم بها سوى رجل، ونابلس لم يبق بها حائط، ومات بمصر تحت الردم خلق.

وذكر أيضاً أنّ في هذه السنة كان بمصر وباء عظيم، بحيث قال: ولقد كان ببلد أربعمائة نول للحياكة فلم يبق منها نافخ نار[1].

وفي سنة ستمائة كانت زلازل عظيمة عمّت مصر والشام وبلاد الروم وقبرص والعراق، وخرّب فيها مدينة صور.

وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة ظهرت نار في أرض عدن مدّة تظهر بالليل ويرتفع لها دخان بالنهار.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة ظهرت نار عند مدينة النبي ﷺ لها بالليل ضوء عظيم يظهر من بعد، ووافق ذلك أنّ الخدّام بالحرم الشريف غفلوا ليلة فاشتعلت النار في المسجد، وأحرقت سقوفه وبعض المنبر، فتألم المسلمون لذلك.

وفي سنة تسع وخمسين وستمائة ورد الخبر عن فرنج عكا أنّهم في حزن عظيم ولبس سواد ونواح، لمّا بلغهم أنّ سبع جزائر في البحر خسفت بأهلها.

وفي سنة ثلاث وستين وستمائة جدّد بمصر قضاة من المذاهب الأربعة، وكان المشير بذلك الأمير جمال الدين بن غدي العزيزي، فاستحسن ذلك الملك الظاهر بيبرس ثم فعل ذلك بالممالك الشامية.

وفي سنة اثنتين وسبعمائة كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام، هلك فيها خلق كثير، وخربت من أسوار حمص ستاً وأربعين بدنة وبعض أسوار حماة.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة وقع في الخيل موت حتى كادت أن تنعدم الخيل بالجملة.

وفي سنة خمس وسبعمائة كانت فتنة الشيخ تقي الدين بن تيمية، وادعي عليه أنّه نقل أنّ الاستواء على العرش هو الجلوس، وأنّ الله عزّ وجلّ يتكلّم بصوت وحرف. وعقد له بدمشق ثلاثة مجالس، ثم طلب إلى مصر وعقد له مجلس. وأودع السجن في رجب هو وأخوه بضعة عشر يوماً،

---

(١) تاريخ الإسلام: ٤٢٠٤/١.

ثم أخرج إلى حبس الاسكندرية وبقي فيه إلى سنة تسع وسبعمائة فأفرج عنه وأخرج.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة كان ببلاد الشرق غلاء عظيم حتى بيعت الأولاد، وأكلت الميتة. نعوذ بالله من زوال النعمة.

وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وقع بالقاهرة حريق عظيم وتوالى الحريق، ونسب ذلك إلى النصارى فأمسك منهم خمسة عشر فأقروا، فأحرقوا منهم خمسة وهرب عشرة.

وفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة أرسل القان الكبير نحو مائة ألف فارس ليسيروا أمامه ثم يتبعهم فيأخذ العراق، ثم يسير إلى الشام فبعث الله تعالى عليهم ريحاً سوداء ثم صارت زرقاء تشتعل ناراً، فيسقط الفارس وفرسه ميتين عند هبوبها، وتمادى هبوبها عليهم يومين فهلكوا، ولم يرجع إليه منهم إلّا نحو عشرة آلاف.

وفي سنة أربع وأربعين وسبعمائة قال صاحب روض المناظر: كانت الزلزلة العظيمة بمصر والشام، وخرجت الناس إلى الصحاري وتواترت بعدها زلازل مدّة، وأنشد في ذلك:

زلزلت الأرض بزلزالها ... وقال كل من عليها مالها
فقلت إذ فروا لصحراها ... قد أخرجت أرضكم اثقالها

وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة كان الفناء الكبير بمصر والشام وغالب البلاد إلى معرّة النعمان، وأنشد فيه ابن اليزدي:

رأى المعرة عيناً زانها حور ... لكن حاجبها بالجور مقرون
ماذا الذي يصنع الطاعون في بلد ... في كل يوم له بالظلم طاعون

وفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وقع حريق عظيم بخط البندقانيين[1] بالقاهرة، واستمرت النار عماله يومين وليلتين والأمراء وقوف لطفئه.

وفي سنة أربع وخمسين وسبعمائة أبطل أمير القاهرة مفسدة عظيمة منها وهي أنّ النصارى كان عندهم صندوق فيه أصبع بعض من هلك من عبادهم يسمونه الشهيد، وكانوا في كل سنة يلقونه في البحر، ويزعمون أنّ النيل ما يزيد إلّا بإلقائه، وكان يجري بسببه من الفساد مالا يعبر عنه، فألهمه الله تعالى أن احرق الصندوق بما فيه. فاتفق أنّ النيل زاد في ذلك العام زيادة حسنة لم يعهد مثلها.

---

(١) خط البندقانيين هذا الخط كان قديماً إصطبل الجميزة، أحد إصطبلات الخلفاء الفاطميين. فلما زالت الدولة اختط وصارت فيه مساكن وسوق، من جملته عدّة دكاكين لعمل قسيّ البندق، فعرف الخط بالبندقانيين. والبندق آلة يرمى بها الصيد تاج العروس: ٢٩٩/٦ ـ بندق.

وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة كانت قراءة العهد الذي بين المسلمين وأهل الذمة وألزموا بما فيه، وحصلت للإسلام وأهله نصرة عظيمة بذلك ولله الحمد والمنّة.

وفي سنة سبع وخمسين وسبعمائة وقع حريق بدمشق ظاهر باب الفرج، ونودي أن لا يستخدم أحد من أهل الذمة في جهة من الجهات، وأن لا يمكنوا أن يكونوا صيارف، ثم وقع حريق آخر بدمشق داخل باب الصغير، ووقع بها في العشرين من تموز مطر عظيم بحيث اجتمعت منه غدران[1].

وفي سنة تسع وستين وسبعمائة زاد نهر حلب زيادة عظيمة لم يبلغ مثلها، وأصبحت منه بيوت لا أثر لها، وقلع كثيراً من الأشجار. وأنشد فيه القاضي بدر الدين الحسين بن عمر بن حبيب.

لما طما نهر فويق ولم يأت بسيب بل بسيل غزير
قالت له الأشجار من حوله مهلا فقد ردت علينا كثير

وفي سنة اثنين وسبعين وسبعمائة ظهر في السماء نور عظيم اتضحت به الطرق، وقارب ضوء النهار إلى الثلث الأخير من الليل.

وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان سلطان مصر والشام، أن يكون للأشراف علامة خضراء في رؤسهم تعظيماً لهم واحتراماً، فأنشد أبو عبدالله المغربي محمّد بن جابر الهواري الأندلسي نزيل حلب شيخ الفضل والأدب في ذلك.

جعلوا لابناء الرسول علامة ان العلّامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم تغني الشريف عن الطراز الأخضر.

وقال بعضهم:

شرفت الأشراف من سلطاننا الأشرف بالخضر من الصنفات
عزاً وابداً لا بما قد ألبسوا أسلافهم في عالي الجنات

وفي سنة أربع وثمانين وسبعمائة وقع الطاعون بدمشق في المحرم وتزايد في صفر.

وفيها وقع الغلاء بمصر.

وفي سنة ست وثمانمائة كانت فتن كثيرة، ومشى عسكر تمرلنك على بغداد وأخذوها.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بحلب وبلاد كثيرة وخربت منها أماكن كثيرة، وتبع ذلك زلازل عديدة أخف منها، فاجتمعت الزلازل والفتن حتى قالوا: إنّما تكثر الزلازل والفتن بين يدي الساعة، والظاهر

(١) بالضم جمع الغدير: النهر: قطعة من الماء يتركها السيل.

أنّ الأمر قد قرب والدنيا على فراغ. فالزلازل يخوف الله بها أهل المعاصي، وتؤذن بزلزلة القيامة تنشأ من بعض الأرض كما تنشأ الرعدة للمحرم بإذن الله تعالى. وذهبت الحكماء إلى أنّها بسبب تصاعد الأبخرة، ولهذا يسمع لها صوت في الجو قبل اضطراب الأرض.

وقال كعب الأحبار: لا تتزلزل الأرض إلّا لأحد أمور ثلاثة: أمّا لأن الله يطلع عليها فتزلزل فزعاً، وأمّا أن يعمل عليها الخطايا فتزلزل غضباً للرب عزّ وجلّ، وأمّا لأنّ الحوت الذي عليه الأرضون يتحرك بعضه والله تعالى أعلم.

وفي سنة سبعين بعد الألف توجّهت من جبل عامل إلى زيارة الأئمةعليهم السلام، وأقمت بمشهد الرضا اثنى عشر يوماً، ورجعت إلى دمشق الشام، ومضيت إلى الحج وزويت إلى دمشق، فلاقاني إليها أخي الشيخ محمّد ـ وفقه الله ـ وتوجّه منها إلى الزيارة في سنة اثنين وسبعين وألف، وأخذ تدريساً في الحضرة الرضوية، وكان ذلك سبباً لخروجنا من البلاد الشامية وكنت كارهاً لذلك.

ومن مذهبي حب الديار وأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

ومضيت أنا إلى الجبل فرأيت به الفتن العظيمة بين الشيعة والدروز، وآخرها ركوب أمير الدروز أحمد بن معن في سبعة آلاف على الشيعة، فثبت له منهم قرب آلاف فحاربوه وهزموه وقتلوا من عسكره قرب مائة وخمسين أو أكثر، وقتل منهم رجل واحد من كبارهم، ورجع أحمد بن معن على بلدنا مشغر، ونزل في منزلي وهو أحسن المنازل بها في ذلك الوقت، ولمّا جلس للطعام قلت له:

كفى حزناً أني أروح وأغتدي ... ومالي من مال أصون به عرضي

وأكثر ما ألقي الصديق بمرحباً ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

فضحك وقال: عادة الفقيه يتم الضيافة ببيت من الشعر.

وفي سنة ثمان وسبعين وألف توجّهت أنا وأخي الشيخ علي من بلادنا بعيالنا وعيال أخينا وتركنا أملاكنا وجئنا إلى المشهد المقدس الرضوي واستوطناه.

وفي سنة أربع وثمانين وألف في شهر ربيع الأوّل كانت زلزلة عظيمة بخراسان، وقعت منها قبة الرضاعليه السلام ومنارتي المسجد وأكثر البيوت والجدران، وأهلكت جماعة من الناس كثيرة كانت بعد العصر، وتبعها زلازل كثيرة في مدّة طويلة أخف منها، وخرج أكثر الناس إلى الصحاري فأعاد الشاه سليمان قبة الرضاعليه السلام على الأساس القديم، ورمّم ما استهدم من الحضرة والمسجد، وبذل في ذلك مال عظيم، وزاد الذهب في الهلال والقبّة ابتغاء لوجه ربّه.

وفي سنة سبع وثمانين وألف أخذت الأعراب حجاج العجم في طريق الحسا وفقد منهم أكثرهم، وكان فيمن فقد أخي الأصغر الشيخ علي رحمه الله، وفيمن سلم أخي الأكبر الشيخ محمّد

وفقه الله.

وفي سنة تسع وثمانين وألف قتل في المسجد الحرام جماعة من الشيعة على تهمة باطلة، وكان أخي الشيخ زين العابدين بمكة مجاوراً، فخرج إلى اليمن فتوفى بصنعاء اليمن رحمه الله.

وفي سنة إحدى وتسعين وألف في شهر ذي الحجة طلع نجم له ذؤابة طويلة وبقي مدّة.

فصل

الخاتمة المشتملة على ما هو كالعيان مما يكون في آخر الزمان وجاءت به الأخبار واشتهر كالشمس في رابعة النهار

روى أبو جعفر محمّد بن بابويه في كمال الدين بإسناده عن النزال بن سبرة قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام فحمد الله واثنى عليه وصلى على محمّد وآله ثم قال: سلوني أيّها الناس من قبل أن تفقدوني ـ ثلاثاً ـ.

فقام إليه صعصعة بن صوحان، فقال: يا أمير المؤمنين متى يخرج الدجال؟

فقال له: أقعد فقد سمع الله كلامك وعلم ما أردت، والله ما المسؤول عنه بأعلم من السائل، ولكن لذلك علامات وهيئات يتبع بعضها بعضاً كحذو النعل بالنعل، وإن شئت أنبأتك بها؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين.

فقال علي عليه السلام: احفظ فإنّ علامة ذلك إذا أمات الناس الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلوا الكذب، وأكلوا الربا، وأخذوا الرشا، وشيّدوا البنيان، وباعوا الدين بالدنيا، واستعملوا السفهاء، وشاوروا النساء، وقطعوا الأرحام، واتبعوا الأهواء، واستخفوا بالدماء، وكان العلم ضعيفاً والظلم فخراً، وكانت الأمراء فجرة، والوزراء ظلمة، والعرفاء خونة، والقرّاء فسقة، وظهرت شهادات الزور، واستعلن الفجور وقول البهتان والإثم والطغيان، وحليت المصاحف، وزخرفت المساجد، وطولت المناراة، وأكرم الأشرار، وازدحمت الصفوف، واختلفت القلوب، ونقضت العهود، واقترب الموعود، وشاركت النساء أزواجهن في التجارة حرصاً على الدنيا، وعلت أصوات الفساق واستمع منهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، واتقي الفاجر مخافة شرّه، وصدق الكاذب، واؤتمن الخائن، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها، وركب ذوات الفروج السروج، وتشبّهت

النساء بالرجال والرجال بالنساء، وشهد الشاهد من غير أن يستشهد، وشهد الآخر قضاء الذمام بغير حق عرفه، وتفقه لغير الدين، وآثروا عمل الدنيا على الآخرة، ولبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب، وقلوبهم أنتن من الجيف وأمر من الصبر، فعند ذلك الوحا الوحا[1] العجل العجل، خير المساكن يومئذٍ بيت المقدس، ليأتين على الناس زمان يتمنى أحدهم أنّه من سكانه.

فقام إليه الأصبغ بن نباتة فقال: يا أمير المؤمنين من الدجال؟

فقال عليه السلام: ألا إنّ الدجال صايد بن الصيد، الشقي من صدّقه، والسعيد من كذّبه، يخرج من بلدة يقال لها أصبهان، من قرية تعرف باليهودية، عينه اليمنى ممسوحة، والأخرى في جبهته تضئ كأنّها كوكب الصبح، فيها علقة كأنّها ممزوجة بالدم، بين عينيه مكتوب: كافر، يقرأه كل كاتب وأمّي، يخوض البحار وتسير معه الشمس، بين يديه جبل من دخان، وخلفه جبل أبيض، يرى الناس أنّه طعام، يخرج في قحط شديد، تحته حمار أقمر، خطوة حماره ميل، تطوى له الأرض منهلاً منهلاً، لا يمرّ بماء إلّا غار إلى يوم القيامة، ينادي بأعلى صوته، يسمع ما بين الخافقين من الجن والإنس والشياطين، يقول: إلى أوليائي أنا الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى، أنا ربكم الأعلى. وكذب عدو الله، إنّه أعور، يطعم الطعام ويمشي في الأسواق، وإنّ ربكم عزّ وجلّ ليس بأعور ولا يطعم ولا يمشي ولا يزول، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً، ألا وإنّ أكثر أشياعه يومئذ أولاد الزنا وأصحاب الطيالسة الخضر، يقتله الله عزّ وجلّ بالشام على عقبة تعرف بعقبة أفيق لثلاث ساعات من يوم الجمعة، على يدي من يصلي المسيح عيسى بن مريم خلفه، ألا إنّ بعد ذلك الطامة الكبرى، فقلنا: وما ذلك يا أمير المؤمنين عليه السلام؟ قال: خروج دابة الأرض من عند الصفا، معها خاتم سليمان، وعصا موسى عليه السلام، تضع الخاتم على وجه كل مؤمن فيطبع فيه هذا مؤمن حقاً، وتضعه على وجه كل كافر فيكتب فيه هذا كافر حقاً، حتى أنّ المؤمن لينادي: الويل لك يا كافر، وإنّ الكافر ينادي طوبى لك يا مؤمن، وددت أنّي اليوم مثلك فأفوز فوزاً عظيماً. ثم ترفع الدابة رأسها فيراها من بين الخافقين بإذن الله عزّ وجلّ، وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها، فعند ذلك ترفع التوبة فلا توبة تقبل ولا عمل يرفع، و﴿**لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً**﴾[2]، ثم قال عليه السلام: لا تسألوني عمّا يكون بعد ذلك؛ فإنّه عهد إليّ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا أخبر به غير عترتي.

---

(١) الوحا الوحا يعني السرعة السرعة، البدار البدار.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٨.

فقال النزال بن سبرة لصعصعة بن صوحان: ما عنى أمير المؤمنين بهذا القول؟

قال صعصعة: يا بن سبرة إنّ الذي يصلي خلفه عيسى بن مريم عليه السلام هو الثاني عشر من العترة، التاسع من ولد الحسين بن علي عليه السلام، وهو شمس الطالعة من مغربها، يظهر عند الركن والمقام يطهر الأرض، ويضع ميزان العدل فلا يظلم أحد أحداً[1].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا اتخذ الفئ دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعقّ أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة [فاسقهم]، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها، فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً، وآيات كنظام قطع سلكه[2].

وقال عبدالله بن عمر: قال لي النبي صلى الله عليه وآله كيف بك يابن عمر إذا وقعت في حالة من الناس، مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - قلت: فبم تأمرني يا رسول الله! قال: عليك بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، وإيّاك وعوامهم[3].

وقال الكسائي في كتاب الملكوت: إنّ أوّل ما يخرج من أصحاب الفتن رجل اسمه أصهب من بلاد الجزيرة، ثم يخرج الجرهمي من بلاد الشام، ويخرج القحطاني من أرض اليمن، ولكل واحد منهم شوكة وجور عظيم، ثم يخرج عليهم السفياني في دمشق ـ واسمه معاوية بن عنبسة ربعة ـ محدود دقيق الوجه، طويل الأنف، في عينيه كسر يظهر في أوّل أمره الزهد والكرم، ويجتمع عليه العلماء، ويسير بجيش عظيم إلى العراق، ويقاتله القحطاني أولاً وينكسر ويهرب، ثم يفرق جيوشه أثلاثاً، ويجهز الثلث إلى الكعبة، والثلث إلى خراسان، والثلث إلى الروم، ويظهر الكفر والفجور، وقتل الصالحين.

وعن علي عليه السلام: أنّ السفياني رجل من ولد أبي سفيان بن حرب، وأنّه يجيء من قبل المغرب، وسبب خروجه أنّه يصيح يوماً فيجد على صخرة عند بابه قد ركز الشيطان له ثلاثمائة علماً من الألوان المختلفة بالاسكندرية، ويدخل مصر والشام ويقتل ما شاء الله، ثم يخرج إلى بغداد والكوفة وتصاب إحدى عينيه، ثم يخرج إلى بلاد خراسان، ويقع بينه وبين أهل مرو قتال شديد

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٥٢٥.

(٢) نيل الأوطار للشوكاني: ٣٦٢/٨.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١٦٢/٢، الزوائد ٢٨٢/٧.

على جبل طبرك[1] فينهزم ويرجع إلى اصطخر فيقاتله رجل يقال له: الحارث يقدم عساكره رجل، يقال له شعيب بن صالح، فيهرب منه السفياني ويتبعه إلى الريّ ويشتد الحرب، ثم يقال للسفياني أنّ بالمدينة علوياً قد استولى عليها وعلى مكة، فيجهز إليه ثلاثين ألفاً مقدمهم رجل يقال له ناجية فيسمع العلوي بخبرهم فينصرف إلى مكة، فيتبعونه من المدينة حتى إذا وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة فيتوجّه إليه بنفسه، فيعرض له رجل في الطريق فيقتله، فيجتمع الناس كلهم ويبايعون العلوي وهو المهدي عليه السلام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من أهل المدينة من خيار أهل الأرض، فيهزم ثلث المسلمين فلا يتوب الله عليهم، ويقتل ثلثهم وهم أفضل الشهداء عند الله، وينتصر الثلث الثالثة ويفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم إذ صاح فيهم الشيطان أنّ المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيرجعون وذلك باطل. فإذا جاءوا الشام خرج، وبينما هم يسوون الصفوف لقتاله إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم عليه السلام، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الثلج في الماء أو الملح»[2].

وفي مجمع البيان عن حذيفة بن اليماني أنّ النبي صلى الله عليه وآله، ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب، فبينما هم كذلك يخرج عليهم السفياني من الوادي اليابس حتى ينزل دمشق، فيبعث جيشين جيش إلى المشرق وآخر إلى المدينة، فينزل جيش المشرق بأرض بابل من مدينة بغداد، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفضحون أكثر من مائة امرأة، ويقتلون ثلاثمائة كبش من بني العباس. ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام، فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش فيقتلوهم فلا يفلت منهم مخبر، ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم، ويحل الجيش الثاني بالمدينة فينهبونها ثلاثة أيام بلياليها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذاكانوا بالبيداء بعث الله جبرائيل عليه السلام فيضرب برجله الأرض، فيخسف الله بهم ولا يفلت منهم إلّا رجلان من جهينة، وعند جهينة الخبر. وذلك قوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾**[3][4].

(١) قرب مدينة الري على يمين القاصد إلى خراسان. (معجم البلدان).

(٢) ابن حبان: ٢٨٦/٨.

(٣) سورة سبأ: ٥١.

(٤) تفسير مجمع البيان: ٢٢٨/٨.

وفي كشف الغمة عن جابر الجعفي عن أبي جعفرعليه السلام، قال: «الزم الأرض ولا تحرك يداً ولا رجلاً حتى ترى علامات أذكرها لك، وما أراك تدرك ذلك، اختلاف بني العباس، ومناد ينادي من السماء، وخسف قرية من قرى الشام ـ تسمى الجابية ـ ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة، واختلاف كثير عند ذلك في كل أرض حتى تخرب الشام، وسبب خرابها اجتماع ثلاث رايات فيها راية الأصهب، وراية الأبقع، وراية السفياني.

وعن سيف بن عميرة قال: كنت عند أبي جعفر المنصور، فقال لي ابتداء: يا سيف بن عميرة، لا بدّ من مناد ينادي من السماء باسم رجل من ولد أبي طالب، فقلت: جعلت فداك يا أمير المؤمنين تروي هذا؟ فقال: إي والذي نفسي بيده لسماع أذني له، فقلت: إنّ هذا الحديث ما سمعته قبل وقتي هذا! فقال: يا سيف، إنّه لحق، فإذا كان فنحن أوّل من يجيبه، أما إنّ النداء إلى رجل من بني عمنا، فقلت: إلى رجل من ولد فاطمة؟ فقال: نعم يا سيف، لولا أنني سمعت أبا جعفر محمد بن علي يحدث به، وحدثني به أهل الأرض كلهم ما قبلته منهم، ولكنه محمد بن علي ـ يعني الباقر ـ[1].

وعن بكر بن محمّد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: خروج الثلاثة السفياني والخراساني واليماني في سنة واحدة، في شهر واحد، في يوم واحد، وليس فيها راية أهدى من راية اليماني؛ لأنه يدعوا إلى الحق.

وعن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: لا يكون ما تمدون أعينكم إليه حتى تميزوا وتمحضوا، فلا يبقى منكم إلّا القليل ثم قرأ: **﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾**[2]، ثم قال: إنّ من علامات الفرج حدثاً يكون بين المسجدين، ويقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشاً من العرب.

وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لا يخرج القائم عليه السلام إلّا في الأوتار من السنين سنة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع، وينادى باسمه في ليلة ثلاث وعشرين من رمضان، ويقوم يوم عاشوراء، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام، فكأنّي به في يوم السبت العاشر من المحرم قائماً بين الركن والمقام، جبرائيل قابض على يده ينادي البيعة لله، فتصير إليه شيعته من

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٩/٢٥٥، بطريق آخر عن إسماعيل بن الصباح، والغيبة للطوسي: ٤٣٣/٤٢٣، بطريق آخر عن أحمد بن إدريس ، ونقله العلامة المجلسي في البحار ٥٢: ٢٨٨/٢٥، عقد الدرر: ١٩٥ الباب السابع.

(٢) سورة العنكبوت: ١ و٢.

أطراف الأرض، تطوى لهم طيّاً حتى يبايعونه، فيملأ اللهُ به الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويملك سبع سنين.

وقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاث خسوف خسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[١].

قال حذيفة: فقلت يا رسول الله أيكون بعد هذا السيف بقية؟ قال: نعم، تكون امارة على أقذاء وهدنة على دخن، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم ينشأ دعاة الضلالة، فإن كان لله خليفة في الأرض جلد ظهرك وأخذ مالك فأطعه، وإلّا فمت وأنت عاض على جذل[٢] شجرة، قلت: ثم ماذا؟ قال: يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع في ناره وجب أجره وحط وزره، ومن وقع في نهره وجب وزره وحط أجره، قلت: ثم ماذا؟ قال: ينتج المهر فلا يركب حتى تقوم الساعة[٣].

واختلف في الدجال، فروى أبو داود في الملاحم من حديث نافع عن ابن عمر، أنّه كان يقول: والله ما أشكّ أنّ المسيح الدجال بن صياد[٤].

وروي أيضاً من حديث جابر بإسناد صحيح، أنّ ابن صياد فقد يوم الحرة.

وقال أبو بكر: مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يمكث أبو الدجال ثلاثين عاماً لا يولد لهما، ثم يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه. ثم نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وآله أبويه، فقال: أبوه طوال ضرب اللحم[٥]، كأنّ أنفه منقار، وأمة امرأة فرضاخية[٦] طويلة الثديين[٧]، فقال أبو بكرة: فسمعنا بمولود في اليهود بالمدينة، فذهبت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه، فإذا نعت رسول الله صلى الله عليه وآله فيهما. فقلنا: هل لكما ولد؟ فقالا: مكثنا ثلاثين عاماً لا يولد لنا ولد، ثم ولد لنا غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة، تنام عيناه ولا ينام قلبه. قال: فخرجنا

---

(١) صحيح مسلم: ١٧٩/٨.

(٢) في المخطوط (جذع).

(٣) بحار الأنوار: ٤٣/٢٨، مسند أحمد: ٤٠٣/٥، باختلاف يسير.

(٤) الملاحم ابن المنادي: ص٤٦.

(٥) ضرب اللحم: خفيف اللحم المستدق كما في النهاية.

(٦) الفرضاخية: الضخمة العظيمة.

(٧) في المخطوط (يدين)، وما اثبتناه من المصدر.

من عندهما فإذا هو منجدل في الشمس في قطيفة وله همهمة، وكشف عن رأسه، وقال: ما قلتما؟ قلنا: وهل سمعت ما قلنا؟ قال: نعم، تنام عيناي ولا ينام قلبي[١].

وعن جابر إن امرأة من اليهود ولدت غلاماً ممسوحة عينه، طالعة نابه[٢]، فأشفق رسول الله ﷺ أن يكون الدجال، فوجده تحت قطيفة يهمهم فآذنته أمه، فقالت: يا عبدالله هذا أبو القاسم، فخرج من القطيفة. فقال رسول الله ﷺ: مالها قاتلها الله لو تركته لبين...

فقال عمر: إئذن لي يا رسول الله فأقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن يكن هو فلست صاحبه، إنّما صاحبه عيسى بن مريم، وإن لم يكن هو فليس لك أن تقتل رجلاً من أهل العهد[٣].

وفي حديث أورده ابن بابويه في كمال الدين، عن أبي عمر، أنّ رسول الله ﷺ أتى باب دار في المدينة فطرق الباب فخرجت إليه امرأة، فقالت: ما تريد يا أبا القاسم؟ فقال: يا أم عبدالله استأذني لي على عبدالله، فقالت: يا أبا القاسم وما تصنع بعبد الله؟ فوالله إنّه لمجهود في عقله يحدث في ثوبه، وإنّه ليراودني على الأمر العظيم، ثم أنّه دخل وقال له: ما ترى؟ قال: أرى حقاً وباطلاً، وأرى عرشاً على الماء، فقال: اشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، فقال: بل تشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، فما جعلك الله بذلك أحق منّي. وكانت نزلت آيات من سورة الدخان، فقال النبي ﷺ: إنّي خبأت لك خباء فما هو؟ فقال: الدخ الدخ[٤] فقال النبي ﷺ: إخسأ فإنّك لن تعدو أجلك، ولن تبلغ أملك ولن تنال إلّا ما قدّر لك. ثم قال النبي ﷺ لأصحابه: أيّها الناس ما بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً إلّا وقد أنذر قومه الدجال، وإنّ الله عزّ وجلّ قد أخره إلى يومكم هذا فمهما تشابه عليكم من أمره فإنّ ربكم ليس بأعور، إنّه يخرج على حمار عرض ما بين أذنيه ميل، يخرج ومعه جنة ونار وجبل من خبز ونهر من ماء، أكثر أتباعه اليهود والنساء والأعراب، فيدخل آفاق الأرض كلها إلا مكة ولابتيها، والمدينة ولابتيها[٥][٦].

فلم يزل رسول الله ﷺ مشفقاً أنّ ابن صياد هو الدجال. وكان ابن صياد ينكر أن يكون هو الدجال.

---

(١) مصابيح البغوي: ٥١٤/٣ ح٤٢٥٧، والمصنف لابن أبي شيبة: ٦٥٢/٨ ح٢٧.

(٢) في المخطوط (طافية نابية).

(٣) مجمع الزوائد ـ للهيثمي: ٢/٨.

(٤) يعنى الدخان.

(٥) لابتا المدينة: حرتاه، واللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها.

(٦) كمال الدين: ٥٢٨.

قال أبو سعيد الخدري فيما رواه مسلم عنه قال: قال لي ابن صياد: مالي ولكم يا أصحاب محمد، ألم يقل نبي الله صلى الله عليه وآله إنّه يهودي وقد أسلمت، وقال: لا يولد له ولد، وقد ولد لي، وقال: إن الله حرم عليه مكة وقد حججت، وقال: لا يدخل المدينة وقد كنت بها. قال أبو سعيد: حتى كدت أن أعذره، ثم قال: أما والله إنّي لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن، فقلت: تبّاً لك سائر اليوم أيسرك أنّك ذلك الرجل، فقال: لو عرض عليّ ما كرهت[1].

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لابن صياد ما تربة الجنة؟ قال: در مكة بيضاء مسك يا أبا القاسم، قال: صدقت.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ماذا ترى؟ قال: يأتيني[2] صادق وكاذب، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: خلط عليك الأمر ـ ثم أسر رسول الله صلى الله عليه وآله في نفسه الدخان ـ وقال: إنّي قد خبأت لك خباء فما هو؟ فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر: يا رسول الله صلى الله عليه وآله ذرني أضرب عنقه! فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إن يكن هو فلن تسلط عليه، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله[3].

وقال ابن المنكدر: رأيت كأنّ جابر بن عبدالله يحلف بالله أنّ ابن صياد الدجال، فقلت: أتحلف بالله!؟ فقال: سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبي صلى الله عليه وآله.

وفي حديث تميم الداري الذي رواه مسلم يدل على أنّه ليس هو فإنّه قال: قالت فاطمة بنت قيس: نادى منادي النبي صلى الله عليه وآله الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع الناس، فلمّا قضى رسول الله صلى الله عليه وآله صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، وقال: إنّ تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن الدجال، حدثني أنّه ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، ولعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة حين مغرب الشمس، فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أقبلت كثيرة الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيّها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنّه إلى خبركم بالأشواق، قال: فلمّا سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. فقال لنا: قدرتم على خبري! فأخبروني ما أنتم؟ قلنا

---

(١) صحيح مسلم – مسلم النيسابوري ـ: ٨/١٩٠ – ١٩١.

(٢) في المخطوط (ما بين).

(٣) العمد: ٤٤٠ بتفاوت، وكمال الدين: ٥٣٨.

نحن أناس من العرب ركبنا سفينة ـ وحكوا القصة ـ فقال: أخبروني عن نخل نيسان هل يثمر؟ قلنا: نعم، قال: يوشك أن لا يثمر، أخبروني عن بحيرة طبرية، هل بها ماء؟ قلنا: فيها ماء كثير، قال: إنّ ماءها يوشك أن يذهب، أخبروني عن عين زغر[١]، هل فيها ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم، قال: فأخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قلنا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتلته العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع فيهم؟ فأخبرناه أنّه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال: لهم قد كان ذلك، قالوا: نعم، قال: أما أنّ ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإنّي مخبركم عني إنّي المسيح، وإنّي أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلّا أهبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة هما محرمتان عليّ، كل ما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا[٢] فيصدّني عنها، وأنّ على كل نقب ملائكة يحرسونها، قالت: وطعن رسول الله صلى الله عليه وآله بمخصريه في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة، يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم؟ قال الناس: نعم.

وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يأتي المسيح من قبل المشرق همّته المدينة حتى ينزل دبر أحد[٣] ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك»[٤].

وقال أبو بكرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال لها يومئذٍ سبعة أبواب على كل باب ملكان»[٥].

وعن أسماء بنت يزيد من زوائد مسند أحمد بن حنبل قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يمكث الدجال في الأرض أربعون سنة، السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كأضرام السعف في النار[٦].

وعنها من المسند أيضاً قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في بيتي فذكر الدجال فقال إنّ بين يديه ثلاث سنين، سنة تمسك السماء ثلث قطرها، والأرض ثلث نباتها، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها،

---

(١) قرية بمشارق الشام.

(٢) الصلت: المسلول والمنجرد من غمده.

(٣) بضم الدال الموحدة أي خلف أحد وهو بضمتين، جبل معروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ (قبل الشام) أي نحوه.

(٤) مسند أحمد: ٤٠٨/٢، صحيح مسلم: ١٢٠/٤.

(٥) ابن أبي شيبة: ١٨٠/٢، مسند أحمد: ٤٧/٥.

(٦) مسند أحمد: ٤٥٤/٦.

والأرض ثلثي نباتها، والثالثة تمسك السماء قطرها [كله][١]، والأرض نباتها كله، فلا يبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلّا هلكت. وإنّ من أشد فتنته أن يأتي الأعرابي فيقول: أرأيت إن أحييت لك إبلك ألست تعلم أنّي ربك؟ فيقول: بلى، فيتمثل له نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعها، وأعظمه أسنمة، قال: ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه، فيقول: أرأيت إن أحييت لك أباك وأخاك، ألست تعلم أنّي ربك؟ فيقول: بلى، فيمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه، قالت: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله لحاجة ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدّثهم، فأخذ بلجمتي الباب، وقال: مهيم أسماء؟ قلت: يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال، قال: إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه، وإلّا فإنّ ربي خليفتي على كل مؤمن. فقلت: يا رسول الله إنّا لنعجنّ عجيناً فما نختبزه حتى نجوع، فكيف بالمؤمنين يومئذٍ؟ قال: يجزئهم ما يجزئ أهل السماء من التسبيح والتقديس[٢].

وقال النواس بن سمعان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله عن الدجال أنّه شاب قطط[٣] عينه طافئة، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، أنّه خارج خلة من دجلة بين الشام والعراق [فعاث يميناً وعاث شمالاً يا عباد الله فاثبتوا][٤]، قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا ، اقدروا له قدرة، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين، [رمية الغرض ثم] يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين واضعاً كفّيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ قلائد، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلّا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه ـ يعني الدجال ـ حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله

---

(١) أضفناها من المصدر.

(٢) مسند أحمد: ٦/٤٥٥ - ٤٥٦، المعجم الكبير: ٢٤/١٥٨.

(٣) قطط: أي شديد جعودة الشعر، مباعد للجعودة المحبوبة.

(٤) بين المعقوفين اضفناها من المصدر.

منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى عليه السلام أنّي قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر[١]، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، ويرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله نشابهم مخضوبة دماً.

ويحصر بين ايله والطور عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة، ثم يهبط عيسى عليه السلام وأصحابه من الطور فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلّا ملأه زهمهم[٢]، ونتنهم فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين، ثم يرسل الله تعالى مطراً لا يكن منه بيت مدمر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، فيقال للأرض انبتي ثمرتك، وردّي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها[٣]، ويبارك في الرسل حتى أنّ اللقحة من الغنم لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الإبل لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة[٤].

وقال عبدالله بن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى عليه السلام كأنّه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً طيبة باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلّا قبضته، حتى لو أنّ أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه، قال: ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام

---

(١) جبل الخمر: يراد به جبل بيت المقدس، سمي بذلك لكثرة كرومه [معجم البلدان ١٠٢/٢].

(٢) زهمهم: أي دسمهم وريحهم المنتنة، وأراد أن الأرض تنتن من جيفهم. النهاية في غريب الحديث: ٣١٣/٢.

(٣) بقحفها: أي قشرها تشبيهاً بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ. وقيل: هو ما انفلق من جمجمته وانفصل. النهاية في غريب الحديث ١٧/٤.

(٤) صحيح مسلم: ١٦٧/١٤، سنن الترمذي ٣٤٨/٣.

السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيأمرهم الشيطان بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمع أحد إلّا اصغي ليتا ورفع ليتا[١]، قال: وأوّل من يسمعه رجل وهو يلوط[٢] حوض إبله[٣] فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله مطراً كأنّه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[٤].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً. قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيت، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلّا يبلى، إلّا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة[٥].

وقالت أم سلمة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «المهدي من عترتي من أولاد فاطمة»[٦].

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي منّي أجلى الجبهة أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، ويملك سبع سنين»[٧].

ولأبي داود عن حديث أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس [من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث] من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال[٨] الشام، وعصائب[٩] أهل العراق فيبايعونه [بين الركن والمقام] ثم

---

(١) ليتا: أي امال صفحة عنقه.

(٢) في المخطوط: (يليط)، وما اثبتناه من المصدر.

(٣) أي: يصلحه ويطينه.

(٤) صحيح مسلم: ٨/٢٠١ - ٢٠٢، السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو المقرئ: ٢٢٤، مسند الصحابة في الكتب التسعة: ٣١/٣٥٠.

(٥) صحيح مسلم: ٨/٢١٠.

(٦) الغيبة للشيخ الطوسي: ص١٨٦، صحيح أبي داود: ٤/١٠٧.

(٧) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف لابن طاووس: ١٧٧، وشرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني: ٢/٣٠٧، والفصول المهمة في معرفة الائمة لابن الصباغ: ٢/١١٠٨، والعمدة: ٢٢٥، بتفاوت يسير.

(٨) أبدال: هم الأولياء والعباد، الواحد بدل كحمل وأحمال وبدل كحمل، سموا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل بآخر النهاية: (١/١٠٧).

(٩) عصائب: جمع عصابة، وهم الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين، ولا واحد لها من لفظا. النهاية (٣ ث /٢٤٣).

ينشأ رجل من قريش أخواله كلب، فيبعث المهدي إليهم بعثاً فيظهرون عليهم، [وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال][١] ويعمل في الناس بسنة نبيهم ويلقي الإسلام بجرانه[٢] في الأرض [يأتي إليه ملوك الأرض فيبايعونه][٣] فيلبث سبع سنين، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون)[٤].

وروي عن ابن عباس أنّ المهدي ينزل بين الركن والمقام وهو من أولاد الحسن بن علي، يملك قسطنطينية مكتوب على رايته البيعة لله، ويغزو قسطنطينية ويأخذها.

قال الكسائي: وهو بلد يبلغ اثنى عشر فرسخاً في مثليه، وفرسخهم ميل ونصف، وفيها قصر الملوك دوره فرسخ، له ثلاثمائة باب من حديد وفيها كنيسة حيطانها من ذهب وفضة، ومصلى الملك فيها أربعة أذرع في مثلها مرصع بالدر والياقوت، وموضع قعود الملك ستة أشبار في مثلها من عود القماري، ويقرب هذه الكنيسة على نحو عشرة أذرع عمود من حديد طوله ثلاثمائة ذراع في عشرة أذرع، فوقه قبر من رخام أربعة أذرع في مثلها فيه أرسطاليس، وفوق القبر مثال من فرس من صفر راكب عليه صنم على صورة أرسطاليس، وعلى رأسه تاج، ويده اليمنى قائمة كأنّه يدعو الناس إلى مدينة قسطنطينية، قال: وعلى باب المدينة الغربي اثنا عشر باباً صغاراً، كل باب شبر فى شبر، كلمّا مرّت ساعة من النهار انفتح منها باب من غير أن يلمسه أحد، وكلمّا مرّت ساعة من الليل انغلق منها باب، قال: وعلى هذه المدينة أسوار عديدة مرتبة لها طلسم، إذا دخل الغريب إليها كلما قرب من سورها يرى كأنّه يدور ليخرج منها فرسخين وينقلب من حيث لا يعلم، فإذا دخلها المهدي جعل يكبر على كل سور فينهدم، فيدخل ويقتل ملك الروم الذي بها وأكثر أصحابه، ويأخذ المسلمون من غنائمها ما لا يحصى حتى أنّ الرجل ليأخذ من الجوهر ما يعجز عن حمله، فبينما هم كذلك إذ جائهم الرسول أنّ الدجال قد خرج واجتمع عليه الناس.

قال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: الملحمة العظمى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر.

وساق الكسائي حديثاً عن أبي أمامة الباهلي، زاد فيه أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الدجال يقول:

---

(١) ما بين المعقوفين أضفناه من المصدر.

(٢) الجران: باطن العنق، إذا برك البعير ومد عنقه على الأرض، قيل: القى جرانه بالأرض - لسان العرب - وهو كناية ان الإسلام استقام وقر في قراره.

(٣) بين المعقوفين رواه الحاكم.

(٤) صحيح أبي داود: ٤/١٠٧، وكنز العمال: ١٤/٢٦٧.

أنا نبي ولا نبي بعدي، ثم يقول: أنا ربكم ولن تروا ربكم حتى تموتوا، وأنّه يقول لمن يفتنه: إن بعثت أباك وأمك تشهد أنّي ربّك؟ فيقول: نعم، فيمثل له الشيطان على صورة أبيه وأُمه فيقولان: اتبعه يا بني فإنّه ربك، وأنّه يخرج من قرية يقال لها سناباد بين الأهواز وأصفهان على حمار عظيم، يستظل في أذن حماره خلق كثير، ومعه قوم من السحرة يخيلون للناس ما يفتنهم، وأنّ الذي يقتله الدجال، ويحييه ثلاث مرات هو الخضر عليه السلام، وأنّه يطأ جميع البلاد إلّا أربعة: مكة والمدينة وبيت المقدس وطرسوس، وأنّ المهدي يقاتله قتالاً شديداً حتى يقتل من أصحاب الدجال ثلاثون ألفاً، ويرسل الله عليهم ريحاً فيموت منهم أربعون ألفاً، ويقتل على باب المهدي ألف من جنس الدجال، ويقول: لهم ويحكم أتشكون في هذا الأعور الكذّاب، فيقولون: لا ولكنّا نعيش في طعامه، فيمسخون قردة وخنازير. ثم يشتد الأمر بالمهدي عليه السلام وينحصر ببيت المقدس ثم يأتيهم الصريخ بصائح يا معشر المسلمين قد جاءكم الغوث، فينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء الثالثة. كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن نزل فيكم عيسى بن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها».

ثم قال: فاقرؤا إن شئتم: ﴿وَإِن مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[1]، الآية، أي إلّا ليؤمنن بأنّ عيسى عبدالله ورسوله قبل أن يموت.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾[2] أي فلا تشكون في مجيء الساعة فإنّ نزول عيسى عليه السلام من أشراط الساعة يعلم به دنوها.

روي أنّه ينزل على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة بها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح، فيتأخر الإمام عليه السلام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وآله، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا من آمن به»[3].

وفي كتاب الملكوت أنّه ينزل ومعه سبعون ألفاً من الملائكة وهو معمم بعمامة خضراء، متقلد بسيف على فرس، ومعه حربة فيدخل المسجد والمهدي عليه السلام يريد صلاة الصبح بالناس، فيتأخر

---

(١) سورة النساء: ١٥٩.

(٢) سورة الزخرف: ٦١.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري: ٤٩٤/٣، تفسير البيضاوي: ١٦٧/٥، تفسير القرطبي: ١٠٦/١٦.

ليتقدم عيسى عليه السلام فيقول له عيسى عليه السلام: الصلاة بك أولى، فإذا انصرف من الصلاة قال عيسى: افتحوا الباب الذي وراه الدجال، فيفتحونه وإذا الدجال ومعه سبعون ألف يهودي، فإذا وقع بصره على عيسى بن مريم ذاب كما يذوب الرصاص على الجمر، وينهزم كل من معه، ويأمن المسلمون حتى أنّ الوليد يضع يده في بخش الحية فلا تؤذيه، وفمه على فم الأسد فلا يضره، ويكون الذئب في الغنم كالكلب، وتنام المرأة بين يدي الرجل لا تخاف على نفسها، وتظهر كنوز الأرض ولا يعبد غير الله، ولا يبقى في الأرض فقير، ويحكم عيسى صلوات الله عليه بعد وفاة المهدي عليه السلام بشريعة نبينا محمّد صلى الله عليه وآله، ويتزوج امرأه من غسان وتكون مدّته أربعين سنة. ثم يخرج يأجوج ومأجوج وهما ذرية أخوان من ولد يافث بن نوح عليه السلام، مسكنهم وراء بلاد الروم لا يموت منهم أحد حتى يولد له ألف ولد، ولمّا كثر فسادهم بنى ذو القرنين عليهم سدّاً وراء بلاد الروم، بين جبلين هناك يلي مؤخرهما البحر المحيط، وقيل في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك، ومقدار ارتفاع السد مائتان ذراع وعرضه نحو من خمسين ذراعاً، وحفر الأساس حتى بلغ الماء وجعله من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من زبر الحديد أي من قطعه الكبار، بينهما الحطب والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صار كالنار، فصب النحاس المذاب عليها فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا. وقال: هذا رحمة من ربّي فإذا وعد ربّي جعله دكاً، فإذا خرجوا تحصّن الناس منهم، ويكثر طغيانهم ويرمون السماء بسهامهم فتعود ملطخة بالدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض والسماء. فيبعث الله عليهم سيوفاً في أنفسهم فيقتلهم عن آخرهم، فيحمد الله عيسى عليه السلام ويعود المسلمون إلى أمنهم. ثم يجئ الخبر إلى عيسى عليه السلام أنّ الحبش قد خرجوا لهدم الكعبة، فيرسل إليهم جيشاً فينكسر ثم يرسل إليهم جيشاً آخر فينكسر، فإذا قاربوا بيت المقدس يقال لهم: أنّ عيسى عليه السلام قد مات، قيل ويدفن في بيت المقدس، وقيل ينقل إلى مدينة النبي صلى الله عليه وآله ويدفن في الحجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبراً رابعاً.

قال: وتهدم الحبشة الكعبة، وتقف بين البيت وجدة، وبينهما مسيرة ثلاث ليال صفوف من الناس، يحملون نقض البيت من يد إلى يد حتى يرمى في البحر.

قال: وعند ذلك تطلع الشمس من مغربها بعد أن تحبس هي والقمر ثلاث ليال تحت العرش، فيفطن لذلك أصحاب الأوراد من المسلمين فيرغبون إلى الله، ثم يرسل الله عزّ وجل جبرائيل عليه السلام يأمر الشمس والقمر بأن يرجعا إلى مضاربهما فيطلعان، ولا ضوء لهما فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1].

---

(١) سورة القيامة: ٩.

قال: وعند ذلك لا يقبل من أحد توبة ولا تنفعه حسنةً يعملها بعد ذلك إلّا ما كان قبل ذلك، وذلك قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾**[1] الآية.

قال كعب الأحبار: ثم أنّ الشمس والقمر يكسيان نوراً ويطلعان ويغربان، وتعمر الناس الدنيا وتجري الأنهار، وتنبت الأشجار وتبنى البنيان حتى تقوم الساعة، والثوب بين الرجلين لا يطويانه، والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يسيغها، كما قال عزّ وجلّ: **﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾**[2][3].

وقال عن خروج الدابة: إنّها تخرج ثلاث مرات أوّلها في أيام المهدي تفزع الناس، وثانيها في أيام عيسى عليه السلام تطهّر الأرض من المنافقين والكفر والضلال وتبقى فيهم أربعين سنة، وثالثها بعد طلوع الشمس من مغربها تميز بين الكافر والمسلم، [وذلك قوله عزّ وجلّ: **﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾**[4]، يعني بكلامها وخروجها في ذلك الزمان، وذلك إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن في علم الله منهم منيب ولا تائب.

قيل: أنّ الأرض التي تخرج منها الدابة مكة تخرج من صدع في الصفا][5].

قال: وهذه الدابة رأسها رأس ثور، وعيناها عينا خنزير، وأذناها أذنا فيل، وقرناها قرنا إيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، تخرج من بين الصفا والمروة، وترفع في الهواء حتى يراها الناس، ومعها عصى موسى وخاتم سليمان عليهما السلام[6].

وروى حذيفة بن اليماني، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة على الله، بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض بهم تحرك القنديل، وينشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا، أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش، لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب، تسم الناس مؤمناً وكافراً، فأمّا المؤمن فتتركه ووجهه كأنّه كوكب

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٨.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٥١/١ مثله.

(٤) سورة النمل: ٨٢.

(٥) بين المعقوفتين اثبتناه من نسخة مشهد «استان قدس».

(٦) تفسير الفخر الرازي: ٢١٧/٢٤، الجامع لاحكام القرآن: ٢٣٥/١٢، بتفاوت يسير.

درّي وتكتب بين عينيه مؤمناً، وأمّا الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء كافر»[١].

وقيل هي الجساسة. روي أنّ طولها ستون ذراعاً، ولها قوائم وزغب وريش وجناحان لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب[٢].

والذي ورد في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيّهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»[٣] يريد أوّل الآيات التي لا ينفع الإيمان بعدها، غير أنّه لا يعلم متى تكون الساعة إلّا الله عزّ وجل.

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه: جاء رجل إلى عبدالله بن عمر، وقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ تقول: أنّ الساعة تقوم إلى كذا وكذا، فقال: سبحان الله أو لا إله إلّا الله لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنّما قلت أنّكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يحرق البيت ويكون ويكون[٤].

وحديث جبرائيل عليه السلام حين جاء في صورة أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله، وسأله عن الساعة فقال صلى الله عليه وآله: ما المسؤل عنها بأعلم من السائل ولكن ساحدثكم بأشراطها، إذا رأيت المرأة تلد ربتها[٥] فذلك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذلك من أشراطها، وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان فذلك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلّا الله عزّ وجلّ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾**[٦][٧].

قال في عيون المعاني: رأى بعض الخلفاء صورة ملك أو نبي في المنام فسأله عن موته فأشار إليه بأصابعه الخمس، فقال: بعض المعبرين يدل على خمس سنين أو خمسة أشهر أو خمسة أيام.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي: ١١٦/٥.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري: ٣/شرح صفحة: ١٦٠، تفسير النسفي: ٢٢٣/٣.

(٣) صحيح مسلم: ٢٠٢/٨، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٩٧.

(٤) صحيح مسلم: ٢٠١/٨.

(٥) تلد الأمة ربها، أو ربتها. قال: الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيّد والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم. لسان العرب: ٣٩٩/١.

(٦) سورة لقمان: ٣٤.

(٧) صحيح مسلم: ٣١/١.

قال أبو يوسف القاضي: ـ من أصحاب أبي حنيفة ـ بل هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(١)، إنّ هذه العلوم الخمس لا يعلمها بالحقيقة إلّا الله عزّ وجل، والله سبحانه وتعالى مدح هذه الأمة في كتابه العزيز بأنهم الذين يؤمنون بالغيب. يريد به ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله عن الماضي من أخبار الأمم وبدءُ الخلق، والآتي مما ورد عنه بطريق الصحة، ومما ثبت عنه صلى الله عليه وآله أنّه أخبر عن قيام الساعة وما يتقدمها وخلق الملائكة والجنان وعذاب القبر وفتنته، وأنّه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، والمحشر والبعث والحساب والصراط والميزان والشفاعة وغرفات الجنان ودركات النيران والحور والولدان والكوثر. وغير ذلك مما يقع منا موقع العيان بل فوقه، فإنّ المخبر عنه من الصادقين مرأى بعين البصيرة التي لا يخالطها ريب ولا شبهة، بخلاف رؤية العين فقد ترى العين الشيء على خلاف ما هو عليه لضعف في المزاج وتخييل ساحر.

وقد وقع هذا المعنى لبعض علماء حلب في أوائل قصيدة كتب بها إلى نائب الشام ولم يكن رآه قبل ذلك وهو قوله:

قسما بلين معاطف الاغصان	وغناء الحمام على فروع البان
وتمايل الدوح المرنح بالصبا	سحرا ونفحة روضة الريان
وبجنة الفردوس والعيش الذي	يقضي بها والحور والولدان
ما مر حلو حديثكم في مسمعي	إلّا وأثمر حبكم بجنان
فانا المحب على السماع وقبل ما	تهوى العيون عشقت بالاذان
طافت كؤوس الراح من آدابكم	ممزوجة بالعدل والاحسان
وشربت عن ظمأ فصرت مهيما	سكران دون بقية الندمان
نشوان من طيب السماع وطال ما	فاق السماع فكان ذوق عياني
برهانه الايمان بالمسموع من	قول النبي ومحكم القرآن

[وهذا] أجل ما ورد في الآثار الصحيحة والحسنة، من طريق الخاص والعام، بما يكون بين يدي الساعة ونقل غير ذلك، فقد تكلمت أصحاب الملاحم على مجموعها، وكيفية وقوعها وترتيبها، وذكر أماكنها وأسماء أصحابها وأشكالهم ومدّتها، وأقرب ذلك إلى الصحة ما ذكره الكسائي في

(١) سورة لقمان: ٣٤.

كتاب الملكوت والله تعالى أعلم.

فصل
في أحوال القيامة والحساب
وهو آخر فصول الكتاب

قال الزمخشري: خل الونىٰ، ودع الهوينا، فالأمر ما تتوهم أهم، والخطب مما يستعظم أعظم، داعٍ للموت صيت، وحيّ لا محالة ميّت، وميّت منشور، وخلق محشور، وعمل محسوب، وميزان منصوب، وجبار قادر، وكتاب لا يغادر، وثواب وكل راجي، وعقاب وقل الناجي، العمر وإن طال فما تحته طائل، وكل نعيم لا محالة زائل، سفينة تسري وأنت لا تدري، فترصد للموت فلكل طالع أفول[1]، وتزوّد لدار الإقامة، فلكل غائب قفول[2]، اتخذ الدنيا الفانية سوقاً مسلوكاً لا بيتاً مملوكاً، فهي حانوت لا يطرق إلّا للتجارة، ودار لا تسكن إلّا بالإجارة، ما هذه الحياة الفانية إلّا أنفاس تتردد وستنقطع، وقامات تتمدد وستنقلع.

فهل أدرك الآمل أمله قبل أن يبلغ الكتاب أجله، وهل ملأ الحيّ أذياله إلّا ملأ الأجل مكياله، فاغتنم الخمس قبل الخمس، وادرك عصرك قبل غروب الشمس، تشبعك فرصة فلا تفوتنك فرصة، إن أدركتها فهي النيل كل النيل، وإن فاتتك فهي الويل كل الويل، هو الزمان لا يقصف في مسيره، والدهر لا يرؤف بأسيره، قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾**[3] **﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾**[4].

وروى ابن عباس في خبر المبعث، صلى بنا النبي ﷺ ذات يوم ثم استند إلى محرابه وأقبل بوجهه الجميل إلينا، ثم قال: أيّها الناس كيف تناموا وصاحب الصور قد التقم الصور وهو شاخص ببصره، وينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور! قلنا: فداك آبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، كيف صفة الصور؟ قال: قرن من نور فيه أرواح الخلائق من الجنّ والإنس والبهائم والملائكة وجميع الخلائق،

---

(١) أي: غيبوبة. المفردات: ٢٠، أفل.

(٢) أي: رجوع. المفردات: ٤٠٩، قفل.

(٣) سورة النساء: ٨٧.

(٤) سورة الأعراف: ٥٤.

وقد وكل الله به ملكاً عظيماً يقال له إسرافيل، فإذا كان يوم القيامة أمره الله بالنفخ في الصور، وهي نفخة الفزع لقوله تعالى: **﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ﴾**[١] وهم السابقون بالخيرات والشهداء، الذين قتلوا في سبيل الله، فإنّ الفزع لا يصل إليهم.

ثم ينفخ نفخة الصعق لقوله تعالى: **﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ﴾**[٢]، يعني جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والله الدائم الذي لا يموت. فيقول الله عزّ وجلّ: يا عزرائيل اقبض أرواح حملة العرش؛ فيقبضها فيبقى العرش متمسّكاً بقدرة الله. ثم يقول: اقبض روح إسرافيل وميكائيل فيقبضهما، فيقول الله عزّ وجلّ: يا جبرائيل قد جعلتك سفيراً بيني وبين أوليائي وأنبيائي ورسلي، وأمنت على وحيي فمت بإذني، وأنا على كل شيء قدير، قال: فيخر جبرائيل متكفّناً في أجنحته فحينئذٍ يقول الله تعالى: يا ملك الموت من بقي من خلقي؟ ـ وهو أعلم بذلك وهو علام الغيوب ـ، فيقول ملك الموت: [أنت أعلم أن قد مات أهل السموات وأهل الأرض ولم يبق إلّا عبدك الضعيف ملك الموت، فيقول عزّ وجلّ: أما سمعت قولي: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾**[٣] انطلق إلى ما بين الجنة والنار فمت بإذني، وأنا على كل شيء قدير، قال: فينطلق إلى ما بين الجنة والنار من وقته وساعته، فيصيح صيحة فيخرّ ميتاً متكفناً بأجنحته.

قال ابن عباس عن النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لو كانوا أهل السماوات وأهل الأرض لماتوا من شدّة صيحته. فيقول الله تعالى: ذق الموت يا ملك الموت كما أذقت أنبيائي ورسلي وعبادي المؤمنين، فيقول: وعزّتك وجلالك لو علمت أنّ الموت هكذا ما أخذت روح أحد من العالمين.

قال: ويبقى الجليل جل جلاله واحداً متفرداً فيتجلى بجلاله بلا حدّ ولا كيف، فإذا النجوم طمست، والشمس منكسفة، والرياح ساكنة، والعشار معطلة، والملائكة والجن والإنس صرعى، فيناديها الجليل جل جلاله: أيّها الدنيا الفانية أين الملوك وأبناء الملوك؟ أين الذين بنوا القصور وشيدوا الحصون؟ أين الذين جمعوا الأموال؟ أين الذين أكلوا رزقي وعبدوا غيري وغرّهم حلمي؟ ثم ينادي: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار العزيز الجبار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب. قال: فبقيت السماوات والأرض خاليه من سكانها ما شاء الله.

---

(١) سورة النمل: ٨٧.

(٢) سورة الزمر: ٦٨.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.

ثم يأمر الله تعالى السموات أن تمطر ماء كمني الرجل، فتنبت منه الأجسام كما تنبت البقل، قال: فأوّل ما يحيي جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العشر عليهم السلام، فيأمرهم الله تعالى أن يسيروا إلى رضوان خازن الجنان، ويأمروه بدفع البراق وتاج الكرامة وحلتين من حلل الجنة، ويأتون بها إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله. قال: فينطلقون إلى باب الجنة فإذا الباب من ياقوتة حمراء مصفحة بصفائح الذهب، فيقرعون بالحلقة فيسمعون لها طنيناً، فيقول رضوان: من بالباب؟ فيقولون نحن جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فيقول: ما حاجتكم؟ فيقولون: إنّ الله تعالى قد أمرنا أن نأتيك وتعطينا البراق وتاج الكرامة وحلتين من حلل الجنة، قال: فيقول رضوان: إنّ الله لم يأمرني بإخراج هؤلاء إلى يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، يوم المحاسبة والمسائلة، يوم عسير على الكافرين غير يسير، يوم مشهود، يوم ينفخ في الصور ويبعث من في القبور، يوم الفزع الأكبر، يوم الوعد والوعيد، يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله، يوم يفر المرء من أخيه وأُمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل أمر منهم يومئذٍ شأن يغنيه، يوم لا يؤذن لهم فيعتذرون، يوم لا مفر لهم من الله إلّا إليه، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا هم يستعتبون، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار، فيا أيّها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، وقد شهدت عليك جوارحك بالذي كنت تعمل، فويل لكم يا معشر الجن والإنس أليس قد أرسل الله إليكم الكتاب المبين؟ وأخبركم بهذه الصفات؟ وحذّركم من هذه الآفات؟ لقوله تعالى: **﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾**[1]، و**﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾**[2].

قال: ثم يدفعها إليهم فينطلقون إلى قبر محمّد صلى الله عليه وآله، فيقف عند رأسه جبرائيل، وعند رجليه ميكائيل، وعند وسطه إسرافيل. فيقول إسرافيل: يا جبرائيل كلّمه؟ فيقول جبرائيل: كلّمه أنت يا إسرافيل، أنت اليوم صاحب الصور والنافخ فيه، قال: فينادي إسرافيل ويقول: أيّها الروح الطيبة عودي إلى الجسد الطيب بقدرة من يحيي العظام وهي رميم، ثم يناديه: يا محمّد فيتزعزع القبر، ثم يناديه ثانية فينشق القبر، ثم يناديه ثالثة فيقوم محمّد صلى الله عليه وآله، وهو ينفض التراب عن رأسه، فينظر يميناً وشمالاً فلم ير إلّا جبرائيل وميكائيل وإسرافيل. فيقول: يا حبيبي يا جبرائيل بشرني! فيقول: يا محمّد إنّ ربك راض عليك غير غضبان. فيقول: بشرني! فيقول: يا محمّد إنّ أهل الجنة يتباشرون بقدومك عليهم، فيقول: ليس عن هذا أسألك، بشرني ما فعل الله بأمتي؟ فيقول: يا محمّد وعزة

(١) سورة القمرة: ١.

(٢) سورة الأنبياء: ١.

ربّي ما انشقت الأرض عن أحد قبلك، فإنّ الجنة محرّمة على جميع الأنبياء والمرسلين حتى تدخلها أنت وأمّتك، فعندها يقول: الآن طابت نفسي.

فيلبس حلة ويرتدي بالأُخرى ويركب البراق، ويسير جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، وإسرافيل أمامه حتى ينتهي إلى قائمة العرش، فيخرّ راكعاً وساجداً، ثم يأمر الله سبحانه إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فيأخذ الصور في فيه ويصعد على صخرة بيت المقدس وينادي، أيّها الأجساد النخرة والشعور المنتشرة، أجيبوا داعي الله وقدّموا لفصل القضاء من حواصل الطيور وبطون الأدوبة فلم يبق شعرة بالمشرق والأخرى بالمغرب إلّا اتصلت، والعظم بالعظم، والجلد بالجلد، والضفر بالضفر.

ثم ينفخ في الصور فتخرج الأرواح من الصور فلها دويّ كدوي النحل، فتعرف كل روح جسدها فتدخل فيه، فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد، ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وقد وكل الله بكلّ نفس ملك يسوقها، وملك يشهد عليها، وذلك قوله تعالى: **﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾**[1]، وملك ينادي على صخرة بيت المقدس هلمّوا إلى الحساب، وذلك قوله تعالى: **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ** ـ وهي أقرب الأرض إلى السماء ـ **يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾**[2]، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾**[3]، فوقوف الخلائق عليها وهي أرض من فضة لم يسفك عليها حرام، وذلك قوله تعالى: **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ[4]﴾**[5]، في عرصة القيامة وهم في سهو ولا نوم، وتوضع منابر الأنبياء وكراسي الصديقين وتكون الخلائق مائة وعشرون صفّاً، أُمة محمّد ﷺ ثمانون صفّاً، وباقي الأمم أربعون صفّاً، وتديف عند ذلك

---

(١) سورة ق: ٢١.

(٢) سورة ق: ٤١ و٤٢.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٤) قال الرضي رحمه الله في تلخيص البيان ص٢٧١: هذه استعارة؛ لأن المراد بالساهرة ههنا على ما قال المفسرون ـ والله أعلم ـ الأرض، قالوا إنما سميت ساهرة على مثال عيشة راضية، كأنه جاء على النسب، أي ذات السهر وهي الأرض المخوفة؛ أي يسهر في ليلها خوفاً من طوارق شرها. وقيل إنما سميت الأرض ساهرة لانها لا تنام عن إنما نباتها وزروعها، فعملها في ذلك ليلاً كعملها فيه نهاراً. وقال الراغب: الساهرة قيل: وجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة.

(٥) سورة النازعات: ١٣ و١٤.

الشمس من رؤوس الخلائق حتى تبقى كقاب قوسين أو أدنى، لا تضر مؤمن ولا مؤمنة. وأمّا الكافرون فتنضجهم فيتقوّمون كالضفدع في الماء.

فإذا طال بهم الوقوف واشتد الكرب وعظم الخطب، قالوا: من شفيعي إلى ربنا؟ فمن كان منا من أهل الجنة فيأمر به إليها، ومن كان من أهل الجنة لنأوي إليه، فيقولون: يا أبا البشر أنت الذي خلقك الله تعالى بيده؟ ونفخ فيك من روحه][1]؟ وأسجد لك ملائكته؟ وأسكنك جنّته؟ اشفع لنا إلى ربنا، فيقول لهم آدم: لا شفاعة لي اليوم، أنا الذي نهاني ربيّ عن الشجرة فأكلت منها، اذهبوا إلى إبراهيم، فينطلقون إليه. ويقولون: يا خليل الرحمن قد طال بنا الوقوف، واشتدّ بنا الحرّ، وعظم الخطب، وزاد العطش بنا، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول لهم إبراهيم: اليوم لا شفاعة لي، ولكن اذهبوا إلى موسى بن عمران. فينطلقون إليه ويقولون: يا نبي الله وكليمه، قد طال بنا الوقوف، وعظم بنا الكرب، فاشفع لنا إلى ربّنا، فيقول: لا شفاعة لي اليوم، ولكن انطلقوا إلى عيسى بن مريم. فينطلقون إليه، ويقولون: يا روح الله وكلمته، قد اشتد بنا الحرّ، وطال بنا الوقوف، فاشفع بنا إلى ربنا، فيقول: لا شفاعة لي اليوم، ولكن انطلقوا إلى صاحب الحوض والكوثر، والجبين الأزهر، الجالس على المنبر، سيّد الخلائق والبشر، أشرف أهل ربيعة ومضر، محمّد صلّى الله عليه وآله الغرر. فينطلقون إليه ويقولون: يا رسول الله اشتد بنا الحرّ، وطال بنا الوقوف، فاشفع لنا إلى ربنا، فمن كان منا يستحق الجنة فليأمر به إليها، ومن كان من أهل النار فليأمر به إليها، فيقول لهم: نعم، أنا صاحب الحوض والشفاعة، فيسير إلى ساق العرش فيخرّ ساجداً، فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا محمّد أرفع رأسك، ليس هذا يوم ركوع ولا سجود، إسأل تعطى، واشفع تشفع، فيقول: يا ربّ اشتد الحر، وطال الوقوف، وعظم الكرب فأمر بنا إلى الحساب، فمن كان منا يستحق الجنة فليأمر به إليها، ومن كان يستحق النار فليأمر به إليها.

فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك أسفر النيران، ويا رضوان زخرف الجنان، فقد أشتد غضبي على من أكل رزقي، وعبد غيري، وغرّه حلمي، فوعزتي وجلالي لانتصف للجماء من القرناء، ولأسألن العود لما خدش العود! وأنا ربّ المعبود والحاكم الذي لا يجور في حكمه.

ثم يأمر الله تعالى بجهنّم أن تقاد بتسعين ألف زمام، يقود بكل زمام سبعون ألف ملك، فإذا أشرفت على الخلائق نظروا إلى زفيرها ولهيبها وحريقها، جثوا على الركب كما قال تعالى:

---

(١) بين المعقوفين اضفناه من نسخة مشهد «قدس رضوي» لسقوطها من النسخة المعتمدة.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١]، وذلك على مسيرة خمسمائة عام.

وتزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبيّ مرسل إلّا جثا على ركبتيه وبلغت روحه إلى حنجرته، فكل يسأل النجاة لنفسه، فآدم يقول: إلهي وسيدي لا أسألك اليوم هابيل ولا قابيل، لا أسالك إلّا نفسي، ونوح ينادي: إلهي وسيدي لا أسالك اليوم سام ولا حام، لا أسألك إلّا نفسي، وإبراهيم ينادي: إلهي وسيدي، لا أسألك اليوم إسماعيل ولا إسحاق، لا أسالك إلّا نفسي، وموسى ينادي: إلهي وسيدي لا أسألك اليوم أخي هارون، ولا أبي عمران، لا أسالك إلّا نفسي، وعيسى ينادي: إلهي وسيدي لا أسألك اليوم أمّي مريم، ولا أبيها عمران، لا أسألك إلّا نفسي، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٢]، ومحمّد صلى الله عليه وآله وعلى من تقدّمه من الأنبياء يقول: إلهي وسيدي ومولاي لا أسألك اليوم ابنتي فاطمة، ولا بعلها علي، ولا ولدها الحسن والحسين، لا أسألك إلّا أمّتي أمّتي، وعدك وعدك، يامن لا يخلف الميعاد، فإذا النداء من قبل العليّ الأعلى: يا محمّد مر أمّتك تقف في موقف الحساب والصراط، على متن جهنم أدق من الشعرة، وأحدّ من السيف، مسيرة ثلاثمائة ألف عام، وعليه سبع جسور يسأل كل منهم عند كل جسر عن فريضة من الفرائض، فإن أتى بها نجا وإلّا تردّى في النار.

أوّل ما يسأل عن الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحسانه لعياله، فإن أتى بذلك نجا وإلّا تردّى في النار. وتجويز الناس على الصراط على قدر أعمالهم، فمنهم من يجوز كالريح العاصف، ومنهم من يجوز كالفرس الجواد، ومنهم من يجوز كالرجل الساعي، ومنهم من يجوز مرّة على وجهه ومرّة على يديه، والنار تلفح وجهه من كل مكان، فإذا جازوا الصراط تطايرت الكتب عن اليمين والشمال، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾[٣]، ويقال للشقي: ﴿ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٤].

قال ابن عباس: ويؤمر بأهل الجنة أن يسيرون إلى الجنة، ويبقى طائفة من هذه الأمّة من الذين

---

(١) سورة الشعراء: ٩١.

(٢) سورة عبس: ٣٤ ـ ٣٧.

(٣) سورة الإنشقاق: ٧ ـ ٩.

(٤) سورة الإسراء: ١٤.

أثقلتهم الذنوب والمعاصي فيؤمر بهم إلى النار، ويجعلون الشيوخ أمام الكهول، والكهول أمام الشباب، والنساء ورائهم، فإذا أشرفوا على جهنّم وروْا أهوالها، نظرت جهنم نظرة الغضب فيقول الزبانية: معاشر الأشقياء من أيّ أُمة أنتم؟ فإنّا لا نراكم زرق العيون، ولم تغل أيديكم إلى أعناقكم، ولم تسود وجوهكم، فينسيهم الله ذكر محمّد صلى الله عليه وآله، فيقولون: نحن قرّاء القرآن، وصوّام شهر رمضان، وحجّاج بيت الله الحرام. فيقول لهم مالك: ما كان لكم واعضاً زاجر؟ فيقولون[1]: سألناك بالله يا مالك أن تتركنا نبكي على أنفسنا، فيقول: لكم شأنكم فيبكون بالدّموع حتى نشفت، ثم يبكون بالدماء حتى تجمد، ثم يبكون بالصديد حتى تفرغ، فيقول لهم مالك: ما كان أحسن هذا البكاء في دار الدنيا من خشية الله تعالى، ثم تمسّهم النار فيقولون: يا مالك لا تعجل على من عصا، وتقف النار فينهرها مالك، فيقول: يا نار خذيهم فيلقون فيها، فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك لا تجعل من عبدني كمن جحد ربوبيتي وأنكرني، فكم شيخ ينادي في النار وا شيبتاه، ووا رقة عظماه، وكم شاب ينادي في النار وا شباباه، وكم امرأة تنادي في النار وا هتك ستراه، وكذلك ينادي كل واحد من القوم على نفسه، وهم في الطبقة العليا من النار ـ أعاذنا الله منها ـ فيمكثون فيها ما شاء الله تعالى كما قال: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾[2]، والحقب ثمانون سنة، فإذا أراد الله إنجاز وعده، أمر مالك خازن النار أن يفتح بين المشركين والموحدين أبواباً، فينظر هذا إلى جليسته، وهذا إلى جليسته في دار الدنيا، فيعيّر المشركون الموحدين ويقولون لهم: ما أغنى توحيدكم عنكم اليوم شيئاً وأنتم اليوم معنا في العذاب، فيقولون لهم: بل كانت علينا ذنوبٌ فأخذنا الله بها، وقد نرجوا رحمة الله وغفرانه أن تدركنا. فيأمر الله جبرائيل فيأتي إلى شفير جهنم، فيقول: يا مالك ارفع الطابق حتى أنظر إلى أُمة محمّد صلى الله عليه وآله فيرفعها فينظر إليهم وقد صاروا فحماً، فتخمد النار إجلالاً وإعظاماً لجبرائيل، فيقولون: من أنت يا هذا الذي منّ الله علينا بك؟ ليست النار تحرقنا لقدومك علينا! فيقول: أنا جبرائيل فيصيحون صيحة واحدة يا جبرائيل اقرأ سيّدنا محمّد عنّا السلام، واخبره بحالنا فإنّ النار قد أكلت أكبادنا، فيقول لهم: نبيّكم في الجنة، ولو علم أنّ أحداً من أمّته في النار ما تهنّأ بعيش، وإنّي عائد إليه وأخبره بحالكم، فينصرف عنهم فترجع النار كما كانت أوّل مرّة، فيقولون: يا ليت جبرائيل عائد إلينا حتى يخفف عنّا، فيقول الله تعالى: يا جبرائيل بلغ رسالة أُمة

---

(١) هذه الصفحة الأخيرة للنسخ الخطية المعتمدة من مكتبة السيد المرعشي، وبعدها اضفناها من نسخة قدس رضوي.

(٢) سورة النبأ: ٢٣.

محمّد، فينطلق إلى محمّد ﷺ فيجده على باب من أبواب الجنّة فيعانقه وهو يبكي ويقول: يا جبرائيل ما سبب هذا البكاء؟ وهل بقي بكاء أو حزن! فيقول: وكيف لا أبكي وطائفة من أُمتّك في النار يعذبون بين أطباق النيران، فيبكي محمّد ويقول: يا حبيبي جبرائيل قطعت ظهري لا صبر لي عن أمتي التي طال فيهم تعبي، ثم يمضي النبيّ ومعه جماعة من الأنبياء والشهداء حتى ينتهوا إلى مقام ميكائيل، فيقول ميكائيل: ماذا تريد يا محمّد؟ فيقول: إنّي ذاهبٌ إلى ربّي، فيقول: هذا مقام لا يجوزه أحدٌ إلّا بإذن الله تعالى، فإذا النداء من قبل الله تعالى يجوزه محمّد ومن معه فيمضون حتى ينتهوا إلى مقام إسرافيل، فيقول: أين تريد يا محمّد؟ فيقول: إلى ربّي جلّ جلاله، فيقول: يا محمّد هذا مقام لا يجوزه أحدٌ إلّا بإذن الله تعالى، ولا يجوزه أحدٌ إلّا ويحترق بنور العرش، فعندها يقول النبيّ: يا ربِّ هذا إسرافيل يحول بيني وبينك، فإذا النداء من قبل الله عزّ وجلّ يجوزه محمّد وحده، وذلك قوله تعالى: **﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾**[1]، فعند ذلك يجوز محمّد ﷺ ويخرّ ساجداً بين يدي الله عزّ وجلّ، فإذا النداء من قبل الله تعالى يا محمّد ارفع رأسك ليس هذا يوم ركوع ولا سجود، اسأل تعط واشفع تشفع، فيقول: إلهي وسيّدي ومولاي المذنبين من أمتي الذين طال فيهم تعبي ونصبي، وعدك وعدك يا من لا يخلف الميعاد، فيقول الله جلّ جلاله: يا محمّد سر إلى النار فاخرج منها من قال لا إله إلّا اللهُ محمّد رسول الله خالص مخلص، فيسير النبيّ ﷺ إلى مالك خازن النيران، فينظر إليه مالك فيقوم إجلالاً له، ويقول: أين تريد يا محمّد، ليست النار لك مقراً؟ ويقول: يا مالك ارفع السلال واكشف الغطاء، حتى أنظر ما فعلت النار بالعصاة من أمتي، فيرفع مالك الغطاء فينظر النبي إلى النار فتخمد ولم تحرق، فيقولون: ليست النار تحرقنا فيرفعون رؤسهم فينظرون إلى وجه النبيّ ﷺ كأنّه القمر ليلة البدر، فيقولون: ليس هذا جبرائيل، هذا والله أحسن وجهاً من جبرائيل، فيقولون: يا مليح الوجه من أنت الذي منّ الله علينا بك؟ فإنّ النار لا تحرقنا لقدومك علينا، فيقول لهم: أنا والله نبيّكم محمّد، فيقولون: يا محمّد حالت ذنوبنا بيننا وبينك، يا محمّد لم تتركنا بين طبقات النيران تأكل لحومنا وجلودنا وتحرق عظاماً وصارت لنا مأوه[2]. فيقول لهم: أنا أشفع لكم إلى ربّي فيخرّ ساجداً على شفير جهنم، وهو ينادي إلهي وسيّدي ومولاي أُمتي أُمتي، الذين طال فيهم تعبي ونصبي، فإذا النداء من قبل الله جلّ جلاله يا محمّد ارفع رأسك ليس هذا يوم ركوع ولا سجود، اخرج كل من

---

(١) سورة الإسراء: ٧٩.

(٢) أي: يكثر التأوه فيها.

كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان، فيخرج جميع الموحدين من أمته من النار، فلم يبق فيها إلّا من أشرك بالله وضلّ عن رسول الله، فيسير بهم إلى نهر الحيوان على باب من أبواب الجنان، فينغمسون في ذلك النهر فيخرجون منه ووجوههم كالأقمار ليلة البدر والله تعالى أعلم.

وهاهنا منتهى ما أردناه وآخر ما قصدناه وأشرنا إليه في أوّل الكتاب، الذي ألفته تبصرة وذكرى لأُولي الألباب، فمن وقف على ترتيبه ورسمه مع اختصاره وجمعه وصغر حجمه، عرف تمييزه على أبناء جنسه، وفهم فضيلته في نفسه إذاكان من أهل الإنصاف والإيمان، ومحبة الزور والبهتان.

والكتب التي جمعته منها وأعددنا بذكرها في أوّله فهي: كتاب مجمع البيان في تفسير القرآن، وتفسير البيضاوي، والكشاف، وخمس تفاسير أخر.

ومن الكافي، ومن لا يحضر، واكمال الدين، وعلل الشرائع، وأمالي ابن بابويه وخصاله، وكشف الغمة، وإرشاد المفيد، وأعلام الورى، والاحتجاج، وإرشاد العلّامة، والكشكول المنسوب إليه، والمهذب، والتنقيح، ومصارع الحسين، ووفاء الثارات، وكتاب ورّام، وديوان أمير المؤمنين، وصحيفة زين العابدين، ومفتاح الفلاح، ومصباح الكفعمي، ومناقب الخوارزمي، وسلوان المطاع، وكتاب عجائب المخلوقات، وكتاب الرجال، وكتاب الكمال في أسماء الرجال، وكتاب تحفة الإخوان في تقوية الإيمان، وكتاب نزهة الألباء في طبقات الأُدباء، وكتاب جواهر العقد الفريد وبقية الملك الصديد، وكتاب السر المسلوك في نصائح الملوك، وتاريخ روض المناظر في علم الأوائل والأواخر في تاريخ ابن الأثير، وتاريخ ابن خلكان، وتاريخ شرح طوق الحمامة، وتاريخ المسعودي، وتاريخ السيوطي، وتاريخ الطبري، وأطواق الذهب للزمخشري، وعدّة كتب ومجامع يبلغ المجموع خمسين كتاباً.

أخذت منها كلما أعجبني أو ما ناصب المحل، ونقلتها بعبارة قائلها، وإن كان بعضها لا يصلح لترجيح الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليهم على الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا نزال نطلع على خائنة منهم.

وأخرجت هذه النسخة من المسودة إلى البياض في سنة، وأنا قد بلغت من العمر حينئذٍ تسع وخمسين، في مشهد ثامن الأئمة المعصومين، وقلت في ذلك: جمعت هذا الكتاب من مثله خمسين في عرض عام وأنا في التسع والخمسين، في مشهد لابن موسى في سنة تسعين وألف مع أربعة، تعلو على التسعين محاسن الكتب وألفيها شبيه جمعتها في كتابي ذا، وأنا ابن الحر وما تركت حديثاً في كتاب السير إلّا الحديث الذي ذكره فسوف يضر خيار أخيار أهل الأرض دوناً في هذا الكتاب، وظنّي ما تهاونا وعلى المطيعين ذكر الموت هونا، الذي جل الدنيا كون الدنيا ركونا محمد

كلامي إذا طالعته من رأس من أوّل لآخر كراس من كراس مع كراس هناك يا صاحبي تعلم أمـور الناس، وانظر بعقلك إلى ما جرعوا من كأس، وارجع لنفسك وامنعها عن الزلات، وعد أنّك غداً في جملة الأموات، أواه عمر مضى في اللهف واللذات، يا حسرتي يا شقائي كل آت آت، ونرجوا من الله العفو والغفران عن الخطأ والنسيان، ومن يرى عيباً سدّ الخللا، جل من لا عيب فيه، وعلا ولله در القائل:

قـــــيل ان الاله ذو ولد   قـيل ان الرسـول قـد كـهنا

ما نـجى الله والرسـول مـعا   مـــــن لســـــان الورى

فكيف أنا وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما خلا جسد من حسد، غير أنّ الكريم يخفيه، واللئيم يبديه، والحمد لله وصلى الله على نبيّه ومصطفاه محمّد، وآله الكرام، ما لاح بدر وجاء ظلام.

تمّ الكتاب بعون الملك الوهاب وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين][1].

(١) بين المعقوفين أضفناه من نسخة «قدس رضوي»، لسقوطه من نسخة مكتبة السيّد المرعشي.

الفهرس

الركن الرابع: وهذا الركن يشتمل على فصول ٥
الأوّل: في ذكر أبي بكر بن أبي قحافة ٥
فصل عمر ١٢
فصل عثمان ١٨
فصل معاوية ٢٣
فصل يزيد وابنه ٢٨
فصل في مروان ٣٢
فصل عبدالملك بن مروان ٣٣
فصل الوليد بن عبدالملك ٤٤
فصل سليمان بن عبدالملك ٤٥
فصل عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم ٤٦
فصل يزيد بن عبدالملك ٤٧
فصل هشام بن عبدالملك ٤٨
فصل الوليد بن يزيد بن عبدالملك ٥١
فصل يزيد بن الوليد بن عبدالملك وأخيه ٥٥
فصل مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم ٥٦
فصل السفاح ٦٠
فصل أبي جعفر المنصور ٦٩
فصل المهدي ٩٦
فصل الهادي ٩٨
فصل الرشيد ١٠١
فصل الأمين ١٢٠
فصل المأمون ١٣٦
فصل المعتصم ١٤١
فصل الواثق بالله ١٤٣
فصل المتوكل ١٤٣
فصل المنتصر ١٤٧
فصل المستعين ١٤٨

فصل المعتز ١٥٠
فصل المهتدي ١٥١
فصل المعتمد ١٥٢
فصل المعتضد ١٥٤
فصل المكتفي بالله ١٥٥
فصل المقتدر بالله ١٥٥
فصل القاهر بالله ١٦٠
فصل الراضي بالله ١٦١
فصل المتقي بالله ١٦٢
فصل المستكفي بالله ١٦٣
فصل المطيع لله ١٦٤
فصل الطائع لله ١٦٨
فصل القادر بالله ١٧٠
فصل القائم بأمر الله ١٧٤
فصل المقتدي بأمر الله ١٧٩
فصل المستظهر بالله ١٨١
فصل المسترشد بالله ١٨٤
فصل الراشد بالله ١٨٨
فصل المقتفي لأمر الله ١٨٩
فصل المستنجد بالله ١٩٤
فصل المستضيء بالله ١٩٦
فصل الناصر لدين الله ١٩٩
فصل الظاهر بأمر الله ٢٠٧
فصل المستنصر بالله ٢٠٧
فصل المستعصم بالله ٢١٠
فصل في أحكام السلاطين ٢١٣
الركن الخامس: **في وفاة الصحابة والتابعين من العلماء والمجتهدين** ٢٣٩
فصل التابعين من العلماء والسلاطين ٢٥٧
الركن السادس: **في الحوادث في الدنيا والدين من هبوط آدم إلى هذا الحين** ٣١٧
فصل الخاتمة المشتملة على ما هو كالعيان مما يكون في آخر الزمان ٣٣٩
فصل في أحوال القيامة والحساب وهو آخر فصول الكتاب ٣٥٧
الفهرس ٣٦٧